دكتور الطاهر أحمد مكي

دراسة في مصادر الأدب



دار الفكر العربي
١٣٦٥
١٩٤٦

دراسة في مصادر الأدب

الدكتور الطاهر أحمد مكي

أستاذ الأدب في كلية دار العلوم
جامعة القاهرة

الطبعة الثامنة

١٤١٩هـ / ١٩٩٩م

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

الإدارة : ٩٤ شارع عباس العقاد ـ مدينة نصر ـ القاهرة

ت ٢٧٥٢٩٨٤، فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥

إهداء

إلى راهبة.....

إلى قلب كبير، وعقل ذكى، وسعنى

ذات يوم، حين ضاقت بى الدنيا!...

مقدمة الطبعة السادسة

يجىء كتاب « دراسة فى مصادر الأدب » مع هذه الطبعة جديدا بكل معنى الكلمة ، قليل الصلة بطبعته الأولى التى صدرت منذ ستة عشر عاما ، فقد استطعت فى هذه الطبعة ، على غير العادة ، أن أصم أذنى عن الإلحاح علىّ فى التعجيل بطبعته الجديدة ، بعد أن نفد تماما ، واشتد الطلب عليه ، إذ رأيت أننى بحاجة ماسة إلى أن أعيد النظر فيه .

وكان هذا ما حدث فعلا .

ألقيت نظرة على موضوعاته القديمة ، فنقّحت وصوّبت ، وتوقّفت قليلا عند كتاب « **طبقات فحول الشعراء** » لابن سلام الجمحى ، فأعدت تحرير الفقرة الخاصة بالنقاش الذى دار حول اسم الكتاب ، فى ضوء ما انتهى إليه الرأى أخيرا ، بعد عثور أستاذنا العلّامة **محمود محمد شاكر** على المخطوطة الضائعة التى اعتمد عليها بدءا فى التسمية ، ودعم رأيه باستنتاجات من دراسته فى المصادر المختلفة المعاصرة للكتاب ، أو جاءت بعده ونقلت عنه .

أمّا الإضافات الجديدة فتعدل فى سعتها حجم الكتاب فى أول طبعة له ، وتجعل منه فى أهميتها شيئا جديدا يأتى على ما سبقه من طبعات ، فقد بدأت دراسة المصادر ببحث أزعم أننى بذلت فيه جهدا كبيرا عن : « مصادر الشعر الأولى » ، درسا وتأريخا وتقويما ، ولم أقف بها عند المصادر المطبوعة والشائعة ، وإنما أتيت على المصادر النادرة التى قلّما يعرض لها الدارسون ، أو يعرفون عنها شيئا .

ومضيت بالأمر خطوة ، فتتبعت المصادر التى لما تزل مخطوطة ، وذات فائدة ، ويمكن الوصول إليها ، فعرفت بمحتواها ، وأشرت إلى أمكنتها ، رجاء أن يتقدم إليها من يحققها ، وينشرها ، وييسر سبل الفائدة منها .

كذلك وجدت **كتاب الفهرست لابن النديم** لم يأخذ مكانته الجديرة به من التعريف والإفادة ، رغم أنه فريد فى بابه ، ومتميز فى منهجه ، وأوّلٌ فيما يقدم من معلومات ، ويمثل نقطة هامة فى البحث الأدبى أو العلمى لفجر النهضة فى العالمين

العربى والإسلامى ، فخصصته بدراسة مستقلة ، أخذت مكانها من الكتاب .

* * *

قلت فى مقدمة الطبعة الأولى لهذا الكتاب : « لست أزعم لهذه المحاولة الكمال ، فهى كأى عمل رائد لها صعابها ومخاطرها ، ولكنى آمل أن أكون قد بدأت بها خطوة ، إذا ماقدِّر لها أن تصل إلى غايتها ، فسوف تضع بين يدى الباحث العربى استعراضا متناسقا لأمهات المصادر فى الأدب العربى ، على اختلاف أقطاره ، فتكون دليله وعونه وأداته ، فى رحلته إلى عالم المعرفة الفسيح » .

وأحمد الله على أن إقبال الباحثين والقارئين على الكتاب جعلنى أتقدم فى هذا الدرب خطوات ، تتمثل فيما أضيف إليه على الدوام ، وأن النجاح فيه أغرى غيرى بأن يتبعنى ، وإنى لسعيد برفقتهم ، فالطريق واسع ، وتراثنا غنى وفير ، يتسع لجهد كل العاملين ، ولكنى وجدتهم يقفون إجمالاً عند المصادر التى عرضت لها ، وكنت أتمنى أن يبدأوا من حيث انتهيت .

والله أسأل أن يكتب لى ولهم التوفيق .

الطاهر أحمد مكى

٣ شارع مصدق – الدقى

الجيزة – مصر

ت : ٣٦١٣٣٠٦

٣٤٧٩٣٩٢

مقدّمة

لا أظن أدبًا معاصرًا له من العمر ما للأدب العربي .

إن أقدم نص أدبي ، في أية لغة أوربية معاصرة - مثلاً - لا يتجاوز القرن الثاني عشر الميلادي بحال ، وما قبله فآداب بلغات أخرى ، اندثرت أو أصبحت تاريخًا يدرس . وحتى هذه الآداب الأوربية تطورت لتصبح على ما هي عليه الآن ، تطوّرت في الأصوات وفي الدلالة وفي التركيب ، فالإيطالي العادي ، والإسباني غير المثقف ، والفرنسي غير المتخصص ، والألماني الذي لا يهتم بالأدب ، سيجد من العسير عليه ، إذا عاد إلى أدب قومه في القرن الثالث عشر الميلادي ، أن يقرأه في سهولة ، وأن يفهمه في وضوح .

أما الأدب العربي فأقدم نص فيه يعود إلى مطلع النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي ، أي له من العمر ألف وخمسمائة عام كاملة ، ولا يجد القارئ العادي صعوبة في قراءته ، أو عسرًا في تمثل معناه ، فقواعده اللغوية هي التي نسير عليها ، وتركيب الجملة فيه هو نفس ما نحتذيه ، والغموض الذي يصاحب جانبًا منه ، أحيانًا ، مردّه سبب آخر غير اللغة نفسها ، إن إنسانًا غير خبير بالصحراء ، مهما كانت درجة ثقافته ، سيجد بعض العنت في تصور الحياة عليها حيوانًا وأشجارًا ومهابط وعيونًا وتقاليد ، لأنه مرتبط بدلالات أسماء لا مقابل لها في حياتنا المعاصرة ، وهو أمر يجرى على اللغة العربية الأدبية ، كما يجرى على اللهجات العامية ، ولا صلة له بالفصحى من قريب أو بعيد . ومن ثم يستطيع أيّ فرد من سكان الشواطئ ، في الإسكندرية أو دمياط أو بور سعيد ، أن يعدّ ويتصور من أسماء السمك وحيوان البحر وأنواعه عشرات ، ولا يستطيع ندُّه في الصعيد لم ير غير النيل ، وأسماكه محدودة ، وحيوانه نادر ، أن يتجاوز بعلمه أربعة أسماء أو خمسة في أقصى الحالات .

أما المدركات العقلية التي لا تتأثر بالبيئة ، أو تأثرها محدود ، فإنها تبدو لنا ، صفاء ووضوحًا ، على نحو ما كانت عليه في عصر قائلها ، ولا أظنّ عربيًّا على

قدْر من الثقافة ، ولو محدودًا ، يجد عنتًا فى فهم أبيات المثقِّب العبدى ، من شعراء القرن السادس الميلادى :

أفـاطمُ قبـل بَيْنِـك مَتّعينى ... ومَنْعُـكِ مـا سـألْتُك أن تَبينى
ولا تَعِـدى مـواعـدَ كـاذبـاتٍ ... تَمُـرُّ بهـا ريـاحِ الصيْفِ دُونى
فـإنّى لـو تُعـانـدنى شِمَـالى ... عِنَـادَك مـا وصلتُ بهـا يمينى
إذًا لَقَـطَعْتُهـا ولقلتُ بِينى ... كـذلـك أَجْتَـوِى من يَجْتـوينى
فـإمّـا أن تكـون أخى بحقٍّ ... فأعْرِفَ منـك غثّى من سمينى
وإلّا فـاطْـرِحـنى واتخـذْنى ... عَـدُوًّا أَتَّـقِيـك وتـتّـقِيـنى
فـما أدْرِى إذا يَمَّمْتُ أرضـا ... أريـدُ الخـيْرَ أيُّهـما يَـلِيـنِى
أألخَـيْر الـذى أنـا أبْتغيـه ... أمِ الشرُّ الـذى هـو يَبْتَغينى

وعبر ألف ونصف ألف من الأعوام ، لم يتوقف العقل العربى عن الإبداع . حتى فى أحلك ساعات الأمة العربية ، وكانت حصيلة ذلك تراثًا ثقافيا واسعًا ، يعكس حقيقة مجتمعه ، فى سموّه واحتضاره ، فى صعوده وتوقّفه ، وكان على دارس الأدب العربى ، أن يضع كل ذلك فى تصوره وتحت خدمته . وكان الإلمام بذلك التراث ، ومعرفة محتواه ، إحدى المشكلات الكبرى التى تواجه الدارسين ، ناشئة ومكتملين .

عرضت لى هذه الصعوبة وأنا فى مطلع حياتى الأدبية ، وكانت شاغلى خلال أعوام طويلة من دراستى فى إسبانيا ، ووجدت القوم هناك قد استعانوا على مواجهتها بحلول ثلاثة : دوائر المعارف المتعددة ، حجمًا ومادة ، والتزام المجامع الإسبانية بطبع التراث الإسبانى كله ، أيًّا كان لونه ، فى سلسلة أُطلق عليها « المؤلفون الإسبان Autores Espanoles » وتنشر فيها الكتب مرتبة تاريخيًّا ، يقوم على كل مؤلف عالم فى المادة التى يعالجها الكتاب ، يقدم له ، ويقوّم موضوعه ويضعه فى مكانه الحق . ثم تعريف شامل بالمصادر ، مصادر كل مادة على حدة ، يبيّن الدارس لها جانب النفع منها ، ويرتبها وفق أهميتها ، فلا يضل الباحث الناشئ فى المادة ، ويعرف من أين يبدأ طريقه .

ثم عدتُ إلى وطنى ، وفى ذهنى هذه المعانى كلها . ولم يكن خافيًا علىّ أن حظنا

من دوائر المعارف معدوم ، فترجمة « دائرة المعارف الإسلامية » تتمّ فى بطء شديد ، والحصول على نسخها فى لغاتها الأجنبية فوق طاقة الفرد العادى ، والمحاولات الفردية لكتابة « موسوعات عربية » قصرت جهدها على جوانب محدَّدة من ثقافتنا ، كالأطفال ، والعلوم المبسّطة ، وما يتصل بالمعارف ذات الصبغة العالمية ، والتى لا يكلف نشرها غير ترجمة ما فى دوائر معارف الآخرين دون التزام للنص ، أو تقيد به ، أو معاناة نقله كما أراد صاحبه منه . والمحاولة الوحيدة لإخراج « الموسوعة العربية الميسرة » أفسدها نظام « الشلل » لقد مُهّد لها بتبيان كبار العلماء الذين شاركوا فيها ، لكن أحدًا من هؤلاء لم يكتب شيئًا ، أو كتب شيئًا قليلا للغاية ، كى يبرر القائمون عليها وضع اسمه فى قائمة المحررين ، أما البقية فقام بها أناس يكتبون فى كل شىء ، فجاءت مادتها دون ما كنا نرجوه لها .

وبقى نشر التراث فى مجمله خاضعًا لرغبة الأفراد وإمكاناتهم ، وأهواء الورّاقين ومطامعهم ، والمحاولات المنظمة ، التى تقوم بها بعض دور النشر تعمل فى بطء شديد ، والأمر قبل ذلك ومن بعد ، يحتاج إلى تنسيق بين شعوب العالم العربى ، فلا ينشر الكتاب الواحد محقّقًا فى أكثر من دولة ، بينما كتب أخرى مخطوطة فى أضابير المكتبات ، فى حاجة إلى من يلقى عليها شيئًا من الضوء .

وبقيتْ دراسة المصادر ، دراستها وليس إعداد قوائمها ، تنتظر من يرتاد ذلك الطريق المجهول ، ومبلغ علمى أن أحدًا لم يقدم على هذا العمل ، إذا استثنينا محاولة متواضعة ، قام بها من أعوام طويلة ، الأستاذ محمد عبد الغنى حسن ، كنت قد أفدت منها أيام الطلب ، لكنه لم يمض بها إلى غايتها متابعة أو تحسينًا .

ثم اختارنى مجلس جامعة القاهرة مدرّسًا بقسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم ، فوجدت الفرصة سانحة لتحقيق أمل راودنى ، بأن أجنّب طلابى الصعاب التى اعترضتنى حين كنت فى مثل سنهم ، وشجعنى على ذلك منهاج ممتاز يسير عليه ذلك المعهد العريق ، فى العناية بالنصوص درسًا وتحقيقًا ، والبدء بها عند البحث ، واستهدائها الدليل عند الاختلاف ، وكان مما يدرسه طلابنا « المكتبة العربية » يدرسون فى كل عام كتابًا أو كتبًا منها ، فاقترحت على أساتذتى وزملائى فى القسم ، أن تُدرس المكتبة العربية فى عام واحد ، محاضرات متكاملة فيما بينها ،

فاستجابوا للاقتراح مشكورين ، فكان ما يمكن أن أسميه مادة « مصادر الأدب » ووقع عليَّ عبء تدريسها .

كان النهج الذى آثرته أن تجمع الدراسة بين جانبيها العملى والنظرى ، فكان الطلاب يمضون إلى المكتبة ، يقرءون المصادر موضع الدراسة ، ثم يدوّنون ملاحظاتهم عليها ، فإذا التقينا تبادلنا هذه الملاحظات ، ونسقّنا فيما بينها ، نرد كل ظاهرة إلى أسبابها ، ونفسر كل اتجاه من حياة مؤلفه ، ونصحح ما قد يكون فى الكتاب من أخطاء مردّها معارف المؤلف ، أو إهمال الناشر ، ثم نحدد مكان الكتاب فى قائمة المصادر ، ومواد الأدب التى يكون فيها مصدرًا مباشرًا أصيلا ، أو مرجعًا معاونًا من الدرجة الثانية .

وقد رأيت أن نشر هذه الدراسة فى كتاب يجعل الفائدة منها أكثر شمولا ، ويعين الطلاب على ترتيب معلوماتهم ، وهى – مهما كانت – جهد شباب مبتدئ ، ويضع بين يدى الدارسين والباحثين من طلاب الدراسات العليا ، والعجلين ليس لديهم ما ينفقونه بحثًا عن الكتب واستجلاء غوامضها ، صورة مصغرة لمادة هذه الكتب واتجاهات أصحابها .

لم يكن القصد أن ندرس حياة العلماء المؤلفين ، ذلك شىء لا يتأتى لكاتب واحد ، فى كتاب واحد ، فإن كل واحد منهم قمة فى بابه ، وإنّما هَدَفْنَا إلى التعريف بمادة الكتاب ، وما يعين على توضيح الدوافع التى وراء الآراء والاتجاهات والمذاهب التى يتضمنها ، وتقصيتُ ، ما أمكن ، ما لدينا من مخطوطات كل كتاب ، ونشراته ، ما كان منها تجاريًّا رديئا ، أو علميًّا محققًا ، لتجنيب الدارسين سقطات الاعتماد على نسخ ناقصة ، أو مشوهة ، أو مليئة بالتصحيف والتحريف . ومن هنا كان اهتمامى بتتبع طبعات كل كتاب ، والتعريف بما كان منها جيدًا يجب أن يتجه إليه الباحث فى أول خطوة له ، لأجنبه مزالق الاعتماد على طبعات مضللة ، الاعتماد عليها مجازفة علمية غير محمودة العواقب .

وإذْ كان أغلب ما لدينا من التراث كتبًا مخطوطة ، خُطَّتْ بأقلام مختلفة ، وفى أمكنة وعصور متباينة ، فقد رأيت أن أقدم لهذه الدراسة ، بأبحاث تتصل ببداية التدوين ، والخط العربى ، نشأته وتطوره وصوره ، وبطرق النسخ ووسائلها .

والقائمين عليه ، وطرق التثبت من صحة النص ، ووسيلتنا المعاصرة للمقابلة بين هذه النسخ إذا اختلفت .

لست أزعم لهذه المحاولة الكمال ، فهي كأى عمل رائد لها صعابها ومخاطرها ، ولكنى آمل أن أكون قد بدأت بها خطوة ، إذا ما قدّر لها أن تصل إلى غايتها ، فسوف تضع بين يدى الباحث العربى استعراضًا متناسقًا لأمهات المصادر فى الأدب العربى ، على اختلاف أقطاره ، فتكون دليله وعونه وأداته ، فى رحلته إلى عالم المعرفة الواسع .

إن تراثنا العقلى ما زال مطمورًا ، وما نشر منه ليس بأفضله دوامًا ، وغياب هذه النفائس شجع بعض النفوس الضعيفة ، على أن تتخذ من سب الأدب العربى والقائمين عليه وسيلة لمشاغبات تظهر بها ، والهدم أسهل من البناء ، والسلبية طريقها معبد ، والخلق الفنى محفوف دائمًا بالمكاره والصعاب ، ومن يضىء شمعة خير من آلاف يلعنون الظلام ولا يصنعون شيئًا .

أعلم أن المحاولة شاقة ، وأن الطريق طويل ، ولكن الأمل فى أن يثمر هذا الغرس ، أعان على اقتحام صعبه ، وخوض لُجَجه ، والعلم أمانة ، والتواضع فى محرابه فضيلة ، وما قرأت شيئًا جديدًا ، إلا أحْسستُ أننى أجهل الكثير ، وأنّ دون ما أتمناه لنفسى يومًا بعيدًا ، ومن ثم فسوف أكون سعيدًا ، بأى ملاحظة تعين على تقويم هذا العمل ، وإصلاح ما قد يكون داخله من نقص أو خطأ ، أو تسهم فى البلوغ به حدّ الكمال .

وبعد :

فالله أسأل ، أن يجعله خالصًا لوجهه ، وأن يعيننا على خدمة لغة قرآنه ، وأن يهيئ لنا من أمرنا رشدًا .

يناير ١٩٦٨م

مِنَ الرواية إلى التدوين

لم تعد معرفة عرب الجاهلية للكتابة موطن شك ، إن كثرة منهم فى الحواضر ، وقلة فى البادية ، كانت تقرأ وتكتب . ولم يعد مناطَ اختلافٍ أن بعضًا من آثارهم الأدبية قد دُوّن ، لكنها آحاد لا تبرّر التعميم ؛ لأن الشعر أكثر ما يكون فى البادية ، والبادية أكثر ما تكون راحلة ، وما يكتب عليه فى تلك الحقبة من التاريخ - حجارة أو عظمًا أو خشبًا أو أديمًا أو عسيبًا أو قماشًا ، وكان أندرها وأغلاها ثمنًا - لا يتهيأ نقله فى سهولة ، فقصروا تدوينهم على ما اقتضته الضرورات الاجتماعية والاقتصادية ، من الصكوك والعهود والأحلاف والمواثيق ، والرسائل المقتضبة ، والكتب الدينية ، والقليل من الشعر ، أمّا كثرته الغالبة فكان مجال حفظها الذاكرة والرواية .

وقد اضطلع الشعراء أنفسهم بدور هام فى الرواية ، فكانت لهم المدرسة التى يتعلمون فيها صوغ الشعر ونظمه ، والتمرّس بأساليب الكلام وفنون القول ، ومن أراد أن يصبح شاعرًا لزم واحدًا من فحولهم ، يحفظه عنه ، ويروى له ، ويترسم خطاه ، ولدينا معلومات لا بأس بها عن اتصال هذه الروايات . كان زُهير بن أبى سُلمى راوية أَوْس بن حَجَر ، وكان كعب بن زهير والحطَيْئة راويتى زهير ، وكان هُدْبَة بن خَشْرم العذرى راوية الحطيئة ، وجميل بُثَينة راوية هدبة ، وكُثير عزّة رواية جميل ، وتكاد الخصائص الفنية لشعر كل منهم تتقارب مع خصائص سابقه ولا حقه ، ومن تأمُّلِ هذا الإسناد تدرك أن الراوية قد يكون ابن الشاعر ، أو أحد أقربائه ، وقد يكون غريبًا عن القبيلة كلها ، فالحطيئة عَبْسىّ من مضَر ، وهدبةُ عذرىّ من حِمْير . ويصبح دور الراوى أكثر أهمية بعد وفاة الشاعر ، لأنه يتعدى مهمة نشر قصائده إلى جمعها ، وإظهار الظروف والمناسبات التى أوحت بها ، وتفسير الإشارات التاريخية التى تتضمنها ، ويصبح بحكم الواقع أمينًا على تراث حياة صانعه ، ومناط اهتمام القبيلة التى ينسب فيها .

وكان شعراء كل قبيلة وأفرادها يروون شعر أسلافهم ، وظهور شاعر كبير فى

القبيلة مدعاة للفخر ، والاحتفاظ بآثاره شيء تفرضه العصبية ، وضياعها أمر يمس شرف القبيلة ، وأصدقاء الشاعر يستظهرون بعضا من قصائده . وثمة فارق بين حفظ القبيلة وحفظ الراوية ، القبيلة تحفظ من قصيد شاعرها ما يعلى شأنها ، ويسجل أمجادها ، فإذا تعرّض لحرب هُزِمت فيها تناست ذلك الشعر ، أو ما يمسها منه على الأقل ، وروايتها له لا تجرى على نسق واحد ، وإنما ترتبط بأعمار أفراد القبيلة وأمزجتهم . يحفظ منه الشباب ما كان غزلا يمسّ العواطف ، ويردّد الرجال ما كان حماسة تلهب المشاعر ، ويتمثل الشيوخ ما كان حكمة ترضى العقل ، أما الراوية المحترف فيحفظ ذلك كله : الغزل والحماسة والحكمة ، الرثاء والهجاء والفخر ، ما بلغ فيه الشاعر القمة أو قصر عَن الإجادة .

ويصمت الحديث عن تدوين الشعر وتخفّ حدة روايته بعد البعثة المحمدية ، فقد كان من العسير ، والإسلام فى نشأته يقيم نظامًا ، ويؤسس دولة ، ويضع نماذج جديدة للسلوك العربى ، أن تجد فكرة تدوين ، أو حتى رواية ، شعر ملئ بالمفاخر القبلية ، وبما كان الإسلام ضده ، ترحيبًا أو قبولا من أحد ، إلى جانب ما شُغِل به الناس من غزو وتشريع ، وما ملأ وجدانهم من أفكار ومُثُل . أورد ابن سلام فى طبقاته قول عمر بن الخطاب : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه[١] » ثم عقّب عليه بقوله « فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو الفرس والروم ، ولهتْ عن الشعر وروايته ، فلما كثر الإسلام ، وجاءت الفتوح ، واطمأنّت العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر ، فلم يؤولوا إلى ديوان مدوّن ولا كتاب مكتوب ، ألْفَوْا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ؛ فحفظوا أقل ذلك ، وذهب عليهم من كثير[٢] . وقد كان عند

---

(١) خلط الدكتور محمد مندور فى كتابه « النقد المنهجى عند العرب » ص ٩ ، القاهرة ١٩٤٨ ، بين هذه الفقرة وتعقيب ابن سلام عليها ، وجعلهما قولا واحدا لواحد ، ونسبها خطأ إلى أبى عمرو بن العلاء .

(٢) اقتصر الدكتور ناصر الدين الأسد فى كتابه القيم « مصادر الشعر الجاهلى » على هذا القدر من رواية ابن سلام ، لسبب لا أعرفه ، ومضى يعقب عليه فى قسوة : « كلام ابن سلام هذا ثلاثة أشطر : آخرها حق ، ووسطها باطل ، وأولها يحتاج إلى فضل بيان يوضحه ، أما الحق الذى لا مرية فيه فقوله : « فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير » .

وأما الباطل الذى لم نعد نشك فى بطلانه وفساده فهو التعميم الواسع فى قوله : « فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ، ولا كتاب مكتوب » وفى حماسة أخذ يورد أمثلة من كتاب ابن سلام تنقص قوله هذا =

النعمان بن المنذر منه ديوان فيه أشعار الفحول ، وما مدح هو وأهل بيته به ، فصار ذلك إلى بنى مروان ، أو صار منه » .

ويأتى **ابن خلدون** فيعطى الأمر مزيدًا من الإيضاح والتفصيل والتحديد : « انصرف العرب عن الشعر أول الإسلام بما شغلهم من أمور الدين والنبوة والوحى ، وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونَظْمه ، فأُخرِسوا عن ذلك ، وسكتوا عن الخوض فى النظم والنثر زمانًا ، ثم استقرّ ذلك ، وأُنسِ الرشد من الملّة ، ولم ينزل الوحى فى تحريم الشعر وحَظْره ، وسمعه النبى صلى الله عليه وسلم وأثاب عليه ، فرجعوا حينئذ إلى ديدنهم منه » .

إلّا أنه لم يكد النظام الإسلامى يستقر وتتوطد دعائمه ، بقدر لا يخشى معه رواية قصيدة أو تبجّح قبيلة ، حتى عاد الناس يروون ويكثرون من روايته ، ويتحدثون عن تدوينه كخاطر يرد فى الأذهان أو يمكن أن يتحقّق ، ولدينا إشارة عن تدوين تَمّ تعود إلى النصف الثانى من القرن الأول للهجرة ، فقد كتب **أعشى همدان** ، عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث ، قصيدة عام ٦٥ هـ - ٦٧١ م عن أحداث تلك السنة ، وكان الأعشى جنديا فى الجيش الذى وجهه الحجاج بن يوسف الثقفى لفتح بلاد ما وراء النهر ، بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلى ، ومن توافق الصدف أن أقْدمَ « مصور جغرافى » فى العربية يعود إلى هذا الجيش ، فعندما استبطأ الحجاج حصار قائده لبخارى ، أرسل إليه يطلب منه « مصورًا جغرافيًّا » للمنطقة ، وعندما تلقى هذا « المصوَّر » درس الوضع الحربى فى ضوئه ،

= ولو مضى الأستاذ الدكتور بالرواية إلى نهايتها كما انتهينا بها ، لما كان فى حاجة إلى اتهام أو دفاع ، لأن الرجل كما نرى ، فى بقية الرواية ، يعرف أن من الشعر العربى ما كان مدونًا ومنذ العصر الجاهلى ، لكنه يتحدث عما هو غالب وشائع وعادة .

وفى بادئ الأمر تصورت أن الدكتور ناصر الدين رجع إلى نسخة من طبعات ابن سلام غير التى أرجع إليها ، وأن الفقرة الأخيرة ساقطة منها ، ثم تبينت أنه يستخدم نفس النسخة ، وهى بشرح العالم الجليل الأستاذ محمود محمد شاكر ، طبعة دار المعارف بالقاهرة ، والنص فيها كامل ، فلم يبق إلا أنه اجتزأ النص لسبب غير واضح ، أو سها عن بقيته ، وهو ما أميل إليه . انظر :

الدكتور ناصر الدين الأسد ، مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية ، ص ١٩٤ و ١٩٥ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٦ .

ابن سلام الجمحى ، طبقات فحول الشعراء ، ص ٢٢ و ٢٣ ، شرح الأستاذ محمود محمد شاكر ، دار المعارف القاهرة ١٩٥٢

وأرسل إلى القائد بتعليماته . وفيما بين عامى ٨٠ و ٨٤ هـ وجد فى كرمان[١] ديوان شعر لأبى جلدة اليشكرى . وفى نفس هذه الفترة اتخذ عبد الحكيم بن عمرو بن عبد الله الجمَحى بيتًا جعل فيه شطرنجات ونردات وقِرْقات[٢] ودفاتر فيها من كل علم ، وجعل فى الجدار أوتادًا ، فمن جاء علّق ثيابه على وتد منها ، ثم جرّ دفترًا فقرأه ، أو بعض ما يلعب به فلعب به مع بعضهم . وكان فى « كُتّاب » معاصره الضحاك بن مزاحم ثلاثة آلاف صبى يتعلمون القراءة والكتابة ، وكان يطوف بهم على حماره .

فإذا وصلنا إلى نهاية القرن الأول الهجرى ، بداية الثامن الميلادى ، أصبح بين أيدينا من الدلائل ما يجعل تدوين الشعر أمرًا مقرّرًا . فالخطاط خالد بن أبى الهياج كان يكتب للخليفة الوليد بن عبد الملك (ت ٩٦ هـ - ٧١٥ م) « المصاحف والشعر والأخبار » . وسلامة القس كانت تملك بعد وفاة عمر بن أبى ربيعة (ت ١٠١ هـ - ٧١٩ م) مجموعة من أشعاره التى يُغنّى بها . والخليفة الوليد بن يزيد (ت ١٢٧ هـ - ٧٤٤ م) أمر بجمع « ديوان العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها » . لكن هذا التدوين كان ، فيما يبدو ، عملا عفويًا وفرديًا ، يخضع لأذواق الأشخاص ومتطلبات السياسة . ويخيل إلىّ أن طريقة الكتابة فى البدء . كانت وراء قلة التدوين ، وانتشار الرواية ، لأنها - رغم الإصلاحات التى أدخلت على النقط والإعجام زمن الوليد بن عبد الملك - لم تكن كافية لرسم النصوص الصعبة المحشوة بالكلمات النادرة ، وأسماء الأمكنة الغريبة ، فبقى الاعتماد على الذاكرة أمرًا ضروريًا لقراءة القصيدة المكتوبة قراءة دقيقة وصحيحة ، إلى أن ثبتت فيما بعد قواعد الرسم والإعجام ، على نحو ما سندرسه بعد قليل .

ولا نكاد نتجاوز القرن الأول الهجرى ، ونمضى فى الثانى شيئًا ، حتى نلتقى بطبقة جديدة من الرواة العلماء ، من العرب أو الموالى ، يعيشون فى الحضر ، وعلى دراية واسعة بحياة البدو ، يجيدون لغة الأعراب ، ويعرفون أساطيرهم وأخبارهم

---

(١) كرمان : مقاطعة فى إيران .

(٢) النرد: ما يعرف اليوم بالطاولة . قرقات : جمع قرقة ، وهى لعبة للصبيان .

وأنسابهم ، ويتمتعون بذواكر قوية ، وعلى اتصال دائم بسكان البادية ، يرحلون إليهم فى منازلهم ، أو يلقونهم فى الحواضر ، يمتهنون جمع الشعر وحفظه وروايته ، ودرسه وتفسيره وإذاعته ، ويجمعون إلى مشافهة الأعراب ما قرأوه مدوّنا ، أو تلقوه عن شيوخهم علمًا . والجيل الأول منهم ، كابن السائب الكلبى[١] وعوانة ابن الحكم[٢] ، وحماد الراوية[٣] ، لم يدوّن من روايته شيئًا ، فقد تكفَّل هشام بن السائب براوية مأثور أبيه ، وكان عوانة كفيفًا يملى ولا يكتب ، ويقول ابن النديم فى كتابه « الفهرست » : « لم يرد لحماد كتاب ، وإنما روى عنه الناس وصنفت الكتب بعده » . بينما آثر الجيل الذى تلقى عنهم الرواية ، أو عاصرهم فى تلقيها وكان أحدث منهم عهدًا ، أن يدوّن ما سمع ، أو يترك لتلاميذه مهمة التدوين . ولم يكن علماء الطبقة الأول يُسندون رواياتهم ، وكان مَن بعدهم يرتفع بها إليهم ، وينتهى عندهم .

كان هؤلاء الرواة يتفاوتون فيما بينهم صدقًا وأمانة ودقة ، تبعًا لتكوينهم الطبقى والعنصرى والثقافى ، وصمودهم أمام ضواغط البيئة حولهم ، سياسية واجتماعية وعلمية ، أو استجابتهم لها . حتى إذا استكملت الحياة الثقافية مقوماتها فى البصرة والكوفة ، تميزت كل منهما بطابع أثر عنها وعُرفت به ، وربما كان أهم الفروق الأساسية بين المدرستين أن مدرسة البصرة استهدفت وضع قواعد عامة للغة تلتزمها وتسير عليها فى دقة وحزم ، فأهدرت الشواذ ، وخطّأت بعض العرب ، وإذا اصطدمت قواعدهم بما هو ثابت من صحيح الرواية قالوا : « يحفظ ولا يقاس عليه » . بينما احترمت مدرسة الكوفة كل ما جاء عن العرب ، تجيز للناس استعماله ، ولو كان لا يلتزم القواعد العامة ، وهم بهذا أقرب إلى فهم طبيعة اللغة ومنطقها - إنْ كان للّغات منطق ! - وكانت الخصائص العامة لكل مدرسة

---

(١) محمد بن السائب بن بشر الكلبى ، أبو النضر ، من أصل عربى ، قضى حياته بين البصرة والكوفة فى دراسة التفسير والأنساب والتاريخ ، توفى سنة ١٤٦ هـ - ٧٦٣ م .

(٢) عوانة بن الحكم ، من بنى كلب ، كان عالمًا بالشعر والأنساب والأخبار ، توفى عام ١٤٧ هـ = ٧٦٤ م . ذكر ابن النديم فى الفهرست أنه ألف « سيرة معاوية وبنى أمية » وقد ضاعا ، وأغلب العلماء على أنهما كتابان منفصلان ، وأراهما كتابًا واحدًا .

(٣) سنعرف به بعد قليل ، انظر ص ٢٢ .

لا تظهر فى اللغة وحدها ، وإنما تتجاوزها إلى ما وراء ذلك من الآثار والأخبار .
وأدّى التنافس بين المدرستين إلى تعصب كل فريق لمدرسته ، واتهام المدرسة الأخرى وتضعيفها ، وتبادلَ العلماء تهمَ الجهل والوضع والتحريف ، أمر يجعل مهمة الباحث أكثر مشقة وهو يوازن بين الآراء والروايات ، ينخلها ويصفيها من الدوافع الشخصية والحزازات .

كان رأسَ هذه الطبقة **أبو عمرو بن العلاء** ، عربى من تميم ، مؤسس **مدرسة البصرة** فى النحو وشيخها ، وأحد القرّاء السبعة ، ومن أعلم الناس بالقرآن ولغاته وتفسيره وغريبه ، وكان إمامًا فى الشعر والنحو واللغة وأيام العرب ، ثقة مأمونًا حتى عند الكوفيين ، ولد بمكة سنة ٦٩ هـ – ٦٨٩ م ، ونشأ فى البصرة ، وتوفى فى الكوفة قافلا من رحلة إلى دمشق عام ١٥٥ هـ – ٧٧٠ م ، وكان أبوه مشهورًا معروفًا وقائمًا على « طراز » الحجاج[1] وجدّه عمّار من أصحاب على بن أبى طالب ، رضى الله عنه . وقد مدح الفرزدقُ الشاعرُ أبا عمرو بن العلاء وأثنى عليه فى أبياته :

مـا زلتُ أفتحُ أبـوابًـا وأغلِقهـا ... حتى أتيتُ أبا عَمْرو بنَ عمَّار
حتى أتيتُ فتى مَحضًـا ضَريبتـه ... مُرَّ المريـرة حُرًّا وابنَ أحْـرار
يُنْميه من مازنٍ فى فرع نَبْعتها ... أصلٌ كريمٌ وفرعٌ غيرُ خوّار[2]

(١) قيما على نسيج ثياب الحجاج .

(٢) اختلف القدامى فى معنى « أفتح أبوابًا وأغلقها » . بعض شراح شواهد سيبويه ، والبيت الأول منها ، قالوا : أراد « أنى كشفت عن أحوال الناس وفتشتهم فلم أر فيهم مثل أبى عمرو » .
وقال **ابن السيد البطليوسى** ، فى شرح أدب الكاتب : « الفتح والإغلاق هنا مثلان لما استغلق عليه – على الفرزدق – من الأمور وما انفتح » .
وروى **أبو بكر محمد التاريخى** فى كتابه « طبقات النحاة » بسند إلى الأصمعى أنه قال : حدثنى أبو عمرو بن العلاء قال : دخل علىّ الفرزدق فغلقت أبوابًا ثم أبوابًا ، ثم فتحت أبوابًا ثم أبوابًا ، فأنشا الفرزدق : « مازلت أفتح .. البيت » . وأورد رواية أخرى ، بسند آخر ، إلى الأصمعى نفسه : « دخل الفرزدق على أبى عمرو بن العلاء ، وصعد إلى غرف فقال « مازلت .. » .
وقال **أبو عبيدة البكرى** فى شرح أمالى القالى: «إن أبا عمرو بن العلاء كـان هاربًا من الحاج مستترا، فـجاء الفـرزدق يزوره فى تلك الحالة، فكان كلمـا يفتح له باب يغلق بعـد دخوله، إلى أن وصل إليه فأنشد الأبيات.
والحق مع شراح الشواهد وابن السيد . فما أظن الفرزدق ذهب ليعد أبواب بيت أبى عمرو وغرفه ، وهى على التأكيد لم تبلغ حدا من الكثرة يثير عجب الفرزدق وخياله ورواية أبى عبيدة البكرى ينقضها معنى =

دوَّن أبو عمرو قدرًا كبيرًا من الشعر العربى ، وبخاصة الجاهلى منه ، إلى جانب الأخبار المتعلقة به ، وطبقًا لرواية أبى عبيدة ، فإن ما كتبه « ملأ بيتًا له إلى قريب من السقف ، ثم تقرّأ - أى تنسّك - فأحرقها » ، ولم يعد يهتم بعد إحراقها إلّا بالقرآن ودراساته . ولا يعنى ذلك ، فيما أرى ، أنه أعرض عن الشعر تمامًا ، فدراسة القرآن ، فى تلك الفترة من الزمن ، كانت تقوم فى جانب منها على تفسير غريب القرآن ومجازه بالشعر ، لكن القصة تدل ، دون شك ، على أن بعض المتنسكين كان يستشعر الحرج فى دراسة وتدوين آثار أدبية تمجّد من الأخلاق ، أو تبيح من المحظورات ، مالا يرضى عنه الإسلام . إلّا أن ضياع كتبه لم يحرمنا كلية من علمه الواسع ، فقد كان له طلاب كثيرون تثقفوا من علمه ، ونهلوا من فيضه ، وحفظوا كثيرًا مما روى وما جمع ، ونقلوه إلينا شفاها ، أو مدوّنًا بيد طلابهم فيما بعد .

ثم خلفه فى مدرسة البصرة أنجب تلاميذه **خلف بن حيّان** ، ويكنى أبا مُحرز البصرى ، ويعرف **بخلف الأحمر** ، (وُلد ١١٥ هـ = ٧٣٣ م وتـوفى ١٨٠ هـ = ٧٩٦ م) ، من أبناء الصغْد من فرغانة ، سباهم قتيبة بن مسلم الباهلى أثناء افتتاح بلاد ما وراء النهر ، وجئ بهم إلى البصرة ، وكان خلف مولى **أبى بُردَة بن أبى موسى الأشعرى** ، فأعتقه وأعتق أبويه . وأمضى طفولته ، وكانت شقيّة ، فى أوساط البصرة العلمية ، أخذ اللغة عن أبى عمرو بن العلاء ، وأخذ النحو عن عيسى بن عمر النحوى (ت ١٤٩ هـ = ٧٦٦ م) ، وجمع علمًا كثيرًا ، فكان عالمًا بالغريب والنحو والأنساب والأخبار ، شاعرًا كثير الشعر جيده ، ولم يكن بين نظرائه من هم أكثر شعرًا منه ، وله خطرات نقدية صائبة . « سئل : من أشعرُ الناس ؟ فقال : ما ينتهى هذا إلى واحد يُجتمع عليه ، كما لا يجتمع على أشجع الناس وأخطب الناس وأجمل الناس . فقيل له : أيهم أعجب إليك يا أبا مُحرز ؟ قال : الأعشى » . فهو لا يرتضى ما كان شائعًا فى عصره من نقد يقوم على الخاطرة والذوق والهوى دون احتياط أو استقراء أو تفصيل فى التعليل ، وعنه تصدر أحكام التفضيل المطلق للبيت أو القصيدة أو الشاعر ،

= البيتين الثانى والثالث ، وأن الحجاج حين كان فى قمة تجبره ، كان أبو عمرو طفلا صغيرًا ، أو صبيا ناشئا على أكثر تقدير .

ولكنه لا يتردد فى أن يصرّح بمن يلتقى مع هواه من الشعراء ، حق يراه لغيره ، كما ارتضاه لنفسه ، وبتقريره يستحيل أن يلتقى الناس على رأى إذا ما سئلوا : من هو أعظم الشعراء ؟ .

كان **خلف** أول من أحدث السماع فى البصرة ، وقرأ عليه أهل الكوفة أشعارهم ، وكانوا يقصدونه لما مات حماد الراوية ، لأنه أكثر الأخذ عنه ، وبلغ مبلغًا لم يقاربه حماد ، وأجمع الناس فى الكوفة والبصرة على الإقرار بمعرفته الدقيقة والواسعة بالشعر الجاهلى ، وقدرته المصيبة على تمييز الصحيح من المنحول ، يقول ابن سلام : « اجتمع أصحابنا أنه كان أفرسَ الناس ببيت شعر ، وأصدقهم لسانًا ، كنّا لا نبالى إذا أخذنا عنه خبرًا ، أو أنشدنا شعرًا ، ألا نسمعه من صاحبه » . ويذكر ابن النديم فى « الفهرست » أن له « كتاب العرب وما قيل فيها من الشعر » ، وقد ضاع الكتاب نفسه ، ولكن الجاحظ احتفظ بفقرات منه فى كتابه « الحيوان » . وكان خلف شاعرًا ، ويروى ياقوت فى كتابه « إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب » : « أن له ديوان شعر حمله عنه أبو نواس » ، ويكثر قول الشعر فى وصف الحيات ، وأراجيزه فى ذلك كثيرة ، وما وصلنا من شعره يعكس مقدرة فائقة على النظم ، ولا يدل على موهبة شعرية حقيقية ، والأبيات التى رواها له ابن قتيبة فى « الشعر والشعراء » ، لون من الفكاهة المستملحة فى ذمّ جماعة من الحجاج البخلاء :

سقَى حُجّاجَنا نَوءُ الثريَّا ... على ما كان من بُخْلٍ ومطْلِ
هُمْ جمعوا النعال وأحْرزُوها ... وشدُّوا دونها بابًا بقُفْلِ
فإنْ أهديْتَ فاكهةً وجدْيًا ... وعشر دَجائجٍ بعَثوا بنعْلِ
ومِسْوَاكين قَدْرُهما ذِراعٌ ... وعَشْرٍ من ردِىّ المُقْلِ خشْلْ(١)
أناسٌ تائهون لهم رُواءٌ ... تغيم سَماؤهم من غيْرِ وبلِ(٢)
إذا انْتَسبُوا فَفَرْعٌ من قُريشٍ ... ولكنّ الفِعالَ فِعالُ عُكْلِ(٣)

---

(١) المقل : حمل الدوم ، والدوم : شجرة معروفة تشبه النخل . الخشل :الردىء من كل شىء، وقيل هو رطب المقل وصفاره الذى لايؤكل .

(٢) الرواء : المنظر الحسن - الوبل : المطر الشديد .

(٣) عكل : « قبيلة فيهم غباوة وقلة فهم . ولذلك يقال لكل من فيه غفلة ويستحمق : عكلى » .

وقد مر خلف بالأزمة النفسية التى مر بها أستاذه أبو عمرو بن العلاء . من قبل ، فنسك وتقرّأ فى أواخر حياته ، وكان يختم القرآن فى كل يوم وليلة ، « وبذل له بعض الملوك مالاً عظيما خطيرًا على أن يتكلم فى بيت شعر شكوا فيه فأبى ذلك ، وقال : قد مضى لى فى هذا ما لا أحتاج إلى أن أزيد فيه » .

اتُّهِمَ خلف ، كما اتهم غيره ، بالوضع والنحل ، فقيل إنه كان يعمل على ألسنة الناس فيشبه كل شعر يقوله بشعر الذى يضعه عليه ، وأنه وضع على شعراء عبد القيس شعرًا موضوعًا كثيرًا ، وعلى غيرهم ، عبثًا بهم ، وأنه نحل أبادواد الإيادى أربعين قصيدة ، وكان يأخذ من حماد الراوية الصحيح من أشعار العرب ويعطيه المنحول ، « فيقبل ذلك منى ويدخله فى أشعارها ، وكان فيه حمق » ، وأنه نظم لامية العرب المشهورة ، التى أولها :

أقيموا بَنِى أمّى صدورَ مَطِيكُم　　فإنى إلى قوم سواكم لأمْيلُ

ثم نسبها إلى الشنفرى ، كما صنع القصيدة التى مطلعها :

إن بالشّعْبِ إلى جَنْبِ سَلْع　　لقتيلاً دَمُهُ ما يُطَلُّ

ونحلها ابن أخت تأبط شرًا ، « فلما تقرّأ ونسك خرج إلى أهل الكوفة ، فعرّفهم الأشعار التى قد أدخلها فى أشعار الناس ، فقالوا له : أنت كنت عندنا فى ذلك الوقت أوثق منك الساعة ، فبقى ذلك فى دواوينهم إلى اليوم » .

هذه الفقرة الأخيرة تكشف فى جلاء قيمة الروايات التى ترمى خلفًا بالوضع ، وتنزع القناع عن الأسباب التى وراءها ، فليس خلف هدفًا فى ذاته ، إنما الهدف المدرسة الكوفية وعلماؤها ، فما داموا قد تلقوا عنه ، وسمعوا منه ، فلابدّ أن يكون وضّاعًا ، ويصبح ما بين يدى الكوفيين من روايات موضع شك ومطعونًا فى صحته . والرواية تفضح نفسها بنفسها ، فمن العجيب أن يمضى عالم إلى قوم أخذوا عنه ، فيدلهم ، حقًا أو افتراضًا ، على مازل منه عفوًا أو قصدًا ، فيرفضوا تصحيحه ، ويعرضوا عن اعترافه ، ويبقوا على زيفهم ، ويصير ذلك فى دواوينهم إلى اليوم » !

أكثر تلاميذ أبى عمرو بن العلاء ثقة وشهرة هو **الأصمعىّ** ، عبد الملك بن قُرَيْب ، من أصل عربى ينتسب فى باهلة ، الضاربة فى الجنوب الشرقى من البصرة ، ولد ١٢٢ هـ = ٧٣٩ م ، وتوفى عن تسعين عامًا فى ٢١٥ هـ = ٨٣١ م ، ونقل عن فصحاء الأعراب الذين كانوا يفدون إلى البصرة ، وأكثر

الخروج إلى البادية ، وشافه الأعراب ونقل عنهم ، وربما استغرقت رحلته إليها سنوات ، وأمضى جانبًا من حياته فى الحجاز وبغداد ، فأكسبه ذلك علمًا واسعًا بالجاهلية ؛ لغاتها وأخبارها وأشعارها ، فاكتسب مكانة ممتازة فى الأوساط الأدبية كأستاذ وعالم ، وكان موضع إجلال الخليفة هارون الرشيد . وكافأه مرة بعشرة آلاف درهم لأنه أجاد فى وصف فرس له ، مستدلا على كل صفة ببيت من شعر جرير بن عطية الخطفى الشاعر المشهور(١) . وتميز عن سابقيه بتقواه العظيمة ، شديد الاحتراز فى تفسير القرآن والحديث ، فإذا سئل عن شىء منهما يقول : العرب تقول معنى هذا كذا ، ولا أعلم المراد منه فى الكتاب والسنة ، وخلال فتنة خلق القرآن ، اعتزل الناس وقبع فى بيته ، وحرص المأمون على أن يصير إليه ، فاحتج بضعفه وكبر سنه ، فكان المأمون يجمع المشكل من المسائل ويسيرها إليه ليجيب عنها . ورئى بعد ذلك راكبًا حمارًا دميما ، فقيل له : « أبعد براذين الخلفاء تركب هذا ؟ فقال : هذا وأملك دينى أحب إلى من ذاك مع فقده » .

كتب **الأصمعى** كثيرًا ، فى مجالات مختلفة ، وتبلغ مؤلفاته اثنين وأربعين مصنفًا ، بينها كتاب خلق الإنسان ، وكتاب الأجناس ، وكتاب الخيل ، وكتاب النوادر ، وكتاب معانى الشعر ، وكتاب الأراجيز ، وأغلبها غير مطبوع ، ورويت عنه دواوين كثيرة ، منها ديوان امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة ، وعلقمة الفحل ، وله مجموعة مختارة من الشعر القديم تحمل اسمه « الأصمعيات » ، وسوف نعرض لها فيما بعد .

فى الجانب الآخر كان **حمّاد رأس مدرسة الكوفة** ، واسمه حمّاد بن سابور ، وشهرته حمّاد الراوية ، وإليه وحده تتجه كلمة « الراوية » إذا أرسلتْ . من أصول فارسية ، وقع أبوه سابور أسيرًا فى الحرب ، وينتمى إلى أسرة محاربة من الديلم . وقد ولد حماد فى الكوفة فى عام ٩٥ هـ = ٧١٣ م ، وتوفى فيها مغمورًا عام ١٥٦ هـ = ٧٧٤ م ، وعبر التاريخين أمضى حياة عاصفة مضطربة ، فكان فى بدء حياته لصًّا يتشطّر ، فنقب بيتًا على رجل فأخذ ماله ، وكان فيه جزء من شعر الأنصار ، فلما قرأه استحلاه وحفظه ، ثم ترك التشطّر ، وأقبل على الأدب والشعر

(١) تفصيلات الوصف فى : ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، الجزء الأول ، ص ١٦٦ وما بعدها ، الطبعة الثانية ، بتحقيق أحمد أمين وآخرين ، القاهرة ١٣٦٧ = ١٩٤٨ م

والأخبار ولغات العرب . وكان مع حمَّاد عَجرد الشاعر ، وحمّاد بن الزّبرقان النحوى يكوّنون فى الكوفة ثالوثا مزعجًا ، يعيش حياة لاهية ، منطلقة غير مسئولة ، يتنادمون ويتعاشرون وكأنهم نَفْس واحدة ، ويُرْمَوْن جميعًا بالزندقة ، وتثير حياتهم نقمة الطبقة المحافظة ، وكثيرًا ما كان يلقى بهم فى السجن فلا يبرحونه إلا بعد شفاعة من كبير يمدحونه ، وكانوا مع يحيى بن زياد الحارثى ، ومطيع بن إياس يتهاجون ويتغزّلون ، ويقولون شعرًا لا يخلو من رقّة وبساطة .

كان حماد يتمتع بذاكرة قوية حافظة ، تعجبه الأسطورة ، ويهوى النادرة ، يستطيع أن يسترجع مئات القصائد المطولة من الشعر الجاهلى ، وأن يميّز بينها وينسبها إلى قائليها ، و « المعلقات » التى بين أيدينا من روايته ، وكان إلى جانب ذلك شاعرًا ممتازًا ، وروى له الأصمعى شيئاً من شعره ، وأحيانًا عامدًا أو ناسيًا يخلط شعره بشعر غيره ، ومن المؤكد أن طبيعة العبث فيه كانت تتجاوز حياته الخاصة إلى نشاطه العلمى ، فأصبحت نزاهته موضع شكّ وجدال عنيف .

كان المفضل الضبى (ت ١٧٠ هـ = ٧٨٦ م) ، وهو كوفى مثله ، يقول عنه فى مرارة : لقد سُلّط على الشعر من حمَّاد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبدًا ، فقيل له : وكيف ذلك ؟ أيخطئ فى روايته أم يلحن ؟

قال : « ليته كان كذلك ، فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب ، لا .. ولكنه رجل عالم بلغات العرب وشعرها ، ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه مذهب رجل ويدخله فى شعره ، ويحمل عنه ذلك فى الآفاق ، فتختلط أشعار القدماء ، ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد ، وأين ذلك ؟ » .

ويقول ابن سلام « فى طبقات فحول الشعراء » : « كان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها : **حمَّاد الراوية** ، وكان غير موثوق به ، كان ينحل شعرَ الرجل غيرَه وينحله غيرَ شعره ، ويزيد فى الأشعار » . **ويضيف ابن سلام** : « وسمعت يونس (ابن حبيب) يقول : العجب لمن يأخذ عن حمَّاد ، كان يكذب ويلحن ويكسِرُ » .

ولكن الحملة على حمَّاد ، رغم كل شيء ، يجب أن تؤخذ فى حذر شديد ، ونحن « نميل إلى أن نعدَّ أكثر ما اتهم به حمَّاد موضوعًا ، دعت إلى وضعه عوامل عدة

منها : هذه العصبية التى كانت متأججة بين البصرة والكوفة ؛ ومنها تلك المنافسات والخصومات الشخصية كالتى كانت بين المفضل وحماد ، ومنها العصبية السياسية ، فقد كان حمَّاد أموى الهوى والنزعة ، وكانت دولة بنى أمية قد ولت وأقبلت دولة جديدة تناصبها العداء ، وتريد أن تمحو محاسنها وآثارها ، وتحطّ من قيمة من اشتهر فيها أو نال لديها حظوة ، ومنها : أن حمّادًا كان - باعتراف الرواة - كثير الرواية واسع الحفظ ، فكان يروى ما لا يعرفه غيره ، ويحفظ ما لا يحفظون ، فاتهموه بالتزيد والوضع . وقد ساعد على كيل هذا الاتهام له وتضعيفه وتجريحه أنه كان ماجنًا مستهترًا بالشراب مفضوح الحال »[1] .

الرجل الثانى فى مدرسة الكوفة ، ويلى حماداً الراوية فى العلم ، ويسبقه فى الثقة ، **هو المفضل الضبّى** ، أبو عبد الرحمن المفضل بن محمد بن يعلى ، من أصل عربى ، ولد فى فارس حيث كان أبوه من موظفى الديوان ، وشارك فى ثورة العلوى إبراهيم بن عبد الله الملقّب بالنفس الزكية ضد الخليفة المنصور ، وأجاره فى بيته زمنًا ، وقد سُجِن ثم أُخْلى سبيله فيما بعد ، وأصبح أستاذًا للمهدى ابن الخليفة ، كان عالما بأخبار الجاهلية وأنسابها ، راوية للشعر وأيام العرب ،قال عنه ابن سلام : « أعلم من ورد علينا من غير أهل البصرة المفضل بن محمد الضبى الكوفى » وتتلمذ عليه جلة من كبار رواة عصره وعلمائه ، فكان من تلاميذه : أبو عمر إسحاق بن مرار الشيبانى ، وابن العربى ، والفرّاء ، وخلف الأحمر ، وأبو زيد الأنصارى البصرى وغيرهم . وترك لنا كتابين : الأول « المفضليات » مجموعة رائعة من الشعر الجاهلى ، وسنتحدث عنه فيما بعد ، والثانى « كتاب الأمثال » والراجح أنهما من روايته ، وأن الذى تولى عملية الجمع والتدوين هم تلاميذه من بعده . وقد توفى المفضل فى الكوفة فى بدء خلافة هارون الرشيد . حوالى عام ١٧٠ هـ = ٧٨٦ م .

كان هؤلاء هم الطبقة الأولى من العلماء الرواة ، وقفوا جهدهم على رواية التراث العربى ، حين لم تكن الكتابة أداة حفظه الأولى ، يجمعون ما تبعثر من خيره ، وينخلون ما اختلط من أمره ، وإليهم تسند روايته ، وهم يذيعونه بين

---

(١) الدكتور ناصر الدين الأسد ، مصادر الشعر الجاهلى ، ص ٤٥٠

تلاميذهم فى حِلَقِ الدرس ، ويجادلون حوله فى مجالس السمر . فصنعوا الطبقة الثانية ، تسمع منهم ، وتعى عنهم ، وتحفظ مأثورهم وتقيّده أحيانًا ، فإذا اقتربنا من نهاية القرن الثانى الهجرى وتجاوزناه إلى الثالث ، القرن التاسع الميلادى ، ظهرت لدينا طبقة ثالثة ، على رأسها **ابن الكلبى** (أبو المنذر هشام بن محمد ت ٢٠٦ هـ = ٨٢١ م) ، **والهيثم بن عدىّ** (أبو عبد الرحمن ت ٢٠٧ هـ = ٨٢٢ م) **وأبو عمر الشيبانى** (إسحاق بن مرار ٢١٣ هـ = ٨٢٨ م) ، **وابن الأعرابى** (أبو عبد الله محمد بن زياد ت ٢٢٥ هـ = ٨٣٩ م) ، **وابن حبيب** (أبو جعفر محمد ت ٢٤٥ هـ = ٨٥٩ م) ، **وابن السّكّيت** (أبو يوسف يعقوب ت ٢٤٥ هـ = ٨٥٩ م) ، **والطوسى** (أبو الحسن على بن عبد الله ٢٥٠ هـ = ٨٦٤ م) ، **والسكرى** (أبو سعيد الحسن بن الحسين ت ٢٧٥ هـ = ٨٨٨ م) ، **وابن الأنبارى** (أبو بكر محمد بن القاسم ت ٣٢٨ هـ = ٩٢٩ م) ، **وثعلب** (أبو العباس أحمد بن يحيى ت ٢٩١ هـ = ٩٠٤ م) .. وهى طبقة جعلت همها الأوّل ترتيب وإكمال وتدوين ما انتهى إليهم من علماء الطبقتين الأولى والثانية ، ومعهم بدأ التخصّص فى الدرس يعرف طريقه ، وبهم بدأ التدوين يصبح محور الثقافة وأداتها .

الخط العربى

ونحن نواجه قضية علمية لا بأس من إسقاط الروايات التى عجز أصحابها عن مواجهة المشكلة ، ولم يصبروا على محنة البحث ، فلاذوا بالأسطورة يجدون فى رحابها التفسير والتعليل والرضا والراحة .

فالحروف العربية ، عند هؤلاء ، أُنزلت على آدم عليه السلام ، كتبها فى طين وطبخه ، بين خطوط وكتب كثيرة ، قبل موته بثلثمائة سنة ، فلما أظلّ الغرقُ الأرضَ أصاب كل قوم كتابهم . وقيل إن أول من وضعها أخنوخ ، وهو إدريس عليه السلام ، وقيل : « أول من كتب بالعربية إسماعيل » ، وإن نفيسا ونصرا وتيما ودومة أبناءه وضعوا كتابًا واحدًا ، وجعلوه سطراً واحداً ، موصول الحروف كلها غير متفرق ، ثم فرَّقه نبْت وهَمَيْسع وقيذار ، وفرّقوا الحروف وجعلوا الأشباه والنظائر .

أما الشيخ **شمس الدين بن الأكفاني** فكان ، فى كتابه « إرشاد القاصد » أكثر التصاقا بالأرض ، وتحرّيا للواقع ، وإيمانًا بالإنسان ، فهو الذى صنع الخط ، « وبه ظهرت خاصة النوع الإنسانى من القوّة إلى الفعل ، وامتاز به عن سائر الحيوان ، وضبْط الأموال ، وترتيب الأحوال ، وحفظ العلوم فى الأدوار ، واستمرارها على الأطوار ، وانتقال الأخبار من زمان إلى زمان ، وحمل السرّ من مكان إلى مكان » .

وكان **ابن خلدون** (ت ٨٠٨ هـ = ١٤٠٦ م) أول عالم ، عربى أو غير عربى ، ربط بين الحضارة وابتداع الخط ، بين إجادته وتقدمها ، ثم تتبع مداه داخل الجزيرة العربية : « إنما يكون – الخط – بالتعليم ، وعلى قدر الاجتماع والعمران والتناغى فى الكمالات والطلب تكون جودة الخط فى المدينة ، إذ هو من جملة الصنائع ، وقد قدَّمنا أن هذا شأنها ، وأنها تابعة للعمران ، ولهذا نجد أكثر البدو أميين لا يكتبون ولا يقرأون ، ومَن قرأ منهم أو كتب فيكون خطه قاصرًا ، وقراءته غير نافذة ، ونجد تعليم الخط فى الأمصار الخارج عمرانها عن الحد أبلغ وأحسن وأسهل طريقًا ، لاستحكام الصنعة فيها ، كما يحكى لنا عن مصر لهذا

العهد ، وأن بها معلمين منتصبين لتعليم الخط ، يلقون على المتعلم قوانين وأحكامًا فى وضع كل حرف ، ويزيدون إلى ذلك المباشرة بتعليم وضعه ، فتعتضد لديه رتبة العلم والحسن فى التعليم ، وتأتى ملكته على أتم الوجوه ، وإنما أتى هذا من كمال الصنائع ووفورها ، بكثرة العمران ، وانفساح الأعمال » .

« وقد كان الخط العربى بالغًا مبالغه ، من الإحكام والإتقان والجودة فى دولة التبابعة ، لما بلغت من الحضارة والترف ، وهو المسمى بالخط الحميرى ، وانتقل منها إلى الحيرة لما كان بها من دولة المنذر ، نسباء التبابعة فى العصبية ، والمجددين لملك العرب بأرض العراق ، ولم يكن الخط عندهم من الإجادة كما كان عند التبابعة لقصور ما بين الدولتين ، وكانت الحضارة وتوابعها من الصنائع وغيرها قاصرة عن ذلك ، ومن الحيرة لقنته أهل الطائف وقريش فيما ذكر » . وصمت ابن خلدون ، احترامًا لشرف الكلمة ، عندما غُمَّتْ عليه نشأته ، فلم يشر إلى الخطوات الأولى التى سبقت إتقانه وجودته عند أولئك وهؤلاء .

ولابن عباس رواية ، من بين روايات كثيرة تنسب إليه ، مؤداها : « أن أوّل مَن وضع الحروف العربية ثلاثة رجال من بوْلان ، وبولان قبيلة من طيّئ ، نزلوا مدينة الأنبار[١] ، وهم: مُرامر بن مُرّة ، وأسلم بن سِدْرة ، وعامر بن جدْرَة ، اجتمعوا فوضعوا حروفًا مقطعة وموصولة ، ثم قاسوها على هجاء السريانية ، فأمّا مرامر فوضع الصور ، وأما أسلم ففصل ووصل ، وأما عامر فوضع الإعجام ، ثم نقل هذا العلم إلى مكة ، وتعلمه من تعلمه ، وكثر فى الناس وتداولوه » . وهى رواية الصناعة فيها واضحة ، والسجع الذى فى « مُرّة وسدْرة وجدْرَة » يوحى بأنها شخصيات لا وجود لها إلا فى مخيلة صانعها ، ويصعب على العقل أن يتصور ثلاثة من الغرباء ، التقوا عفوًا أو قصدًا ، يمكن أن يبتدعوا ، ببساطة وفى زمن قصير ، أبجدية كاملة وراقية ، لكنّ الرواية تضم إشارتين لهما أهمية بالغة ، أولاهما أن الخط العربى ، فى بعض مراحله ، أفاد من الرسم السريانى ؛ وأخراهما أن الأنبار كانت من بين مواطن تعليم الخط العربى وإذاعته فى بقّية أنحاء الجزيرة العربية .

وتأتى روايات أخرى تفصّل ما أجمله ابن عباس فى هذه الرواية ، فقد تعلم بشر

(١) مدينة قديمة فى العراق ، على الشاطئ الأيسر للفرات فى الشمال الشرقى من العراق فتحها خالد ابن الوليد عام ٦٣٤ م .

ابن عبد الملك الكندى الخط فى الأنبار ، ثم خرج إلى مكة فى بعض شأنه . وهناك أصهر إلى بنى أمّية ، فتزوّج الصهباء بنت حرب بن أمية ، وعلّم أباها وأخاها سفيان بن حرب الخط ، وتعلّمه معاوية من عمه سفيان ، وتعلمه معه عمر بن الخطاب ، ثم شاع الخط فى سائر قريش .

وثمة روايات أخرى تزيد الأمر تحديدًا ، فتجعل انتقال الخط من الأنبار إلى الحيرة ، ومن الحيرة إلى داخل الجزيرة ، ودور الحيرة فى الأدب العربى والحياة العقلية العربية ، واضح ومعروف ، أجمله ابن رُسْته فى كتابه « الأعلاق النفيسة » : « إن أهل الحيرة علّموا قريشًا الزندقة فى الجاهلية ، والكتابة فى صدر الإسلام » .

من الواضح إذن أن الخط العربى جاء إلى الجزيرة العربية من خارجها ، من أطارفها ذات الحضارة المتقدمة ، والمتفاعلة مع ما جاورها من حضارات أكثر تقدّمًا ، ولم يتفق المؤرخون العرب على المكان الذى كان المصدر الأول ، ولا على أول ناقل له وهو أمر طبيعى ، فالأقرب إلى المنطق ، فى بيئة كانت ، رغم صحاريها ، محور التقاء عدد من الحضارات ، ومحطًّا للمسافرين من الشمال إلى الجنوب ، ومن الشرق إلى الغرب ، وتحترف التجارة أو الحراسة أو الوساطة بين كل هؤلاء ، أن تأخذ عنهم جميعًا ، وأن تقّلدهم فيما يسبقونها ، وأن يتم ذلك على أيد كثيرة ، تمثلْته على آماد طويلة ، فكان لهم أخيرًا رسمهم العربى المستقل .

تلك وجهة نظر العرب القدامى ؛ أما البحث الحديث فسلك بالأمر وجهة أخرى . حاول أن يتتبع نشأة الأبجديات فيما حول الجزيرة العربية نفسها ، وأن يستنطق ما عثر عليه من نقوش فى أطارفها ، ورغم النتائج العلمية التى توصل إليها ، فإن الكلمة الفاصلة لا تزال فى انتظار المزيد من الحقائق ، لأن كنوز قلب الجزيرة العربية المطمورة من الشواهد والمخلفات والآثار ، إذا ما أميط اللثام عنها ، يمكن أن تسدّ الفجوات القائمة فى النظريات الحديثة ، وأن تحوّل كثيرًا من الظنون والشبهات إلى يقين .

كانت شبه جزيرة سيناء الملاصقة لموطن الأنباط[1] مهد أقدم نقوش أبجدية عُثِرَ

---

(١) فى أوائل القرن السادس قبل الميلاد جاء الأنباط ، كقبائل بدوية ، من الموضع الذى يعرف باسم

عليها حتى الآن . وهذه النقوش كُشفتْ حديثًا عند سرابيط الخادم ، ونقلت إلى متحف القاهرة . وقامت عدة محاولات لفك طلاسمها ، وهى من صنع العمال من أهل سيناء فى مناجم الفيروز ، ويرجع تاريخها إلى سنة ١٨٥٠ قبل الميلاد ، أى أنها أقدم بنحو ستة قرون من نقش أحيرام ملك جُبَيل[١] ، والتى وجدها العالم الأثرى بيير مونتيه P. Montet ، واعتبرت التالية لأقدم النقوش الفينيقية المعروفة .

وبعد تطور الأبجدية السينائية نقلت حروفها إلى شمال الشام ، ثم حُوِّلتْ هناك إلى الحروف المسمارية الفعلية ، كما تدل على ذلك لوحات رأس الشمرة ، التى ترجع إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، ومن الواضح أن هذا الخط الذى كشف حديثًا هو خط أبجدى سامى ، ورغم أنه كُتب بالقلم على لوحات من الغرين فإن حروفه ليست مستعارة من الحروف السومرية الأكادية السابقة ، ففيه حُوِّلتْ الأبجدية السينائية إلى غرار الرموز (الوتدية) المسمارية .

ويرى العلماء المحدثون أن الكنعانيين – وكانوا أول من استعمل طريقة للكتابة تستعمل فيها الحروف خالصة – نقلوا طريقتها فى الأصل عن الحروف الهيروغليفية المصرية ، ولكن الهوّة بين طريقتى الكتابة كانت دائمًا شاسعة ، فجاءت الكتابة السينائية الآن لتصل بين الكتابتين ، ولتكون الحلقة المفقودة بينهما . ونضرب لذلك مثلا فنقول إن السامى من أهل سيناء أخذ من الهيروغليفية الرمز الذى شكله رأس ثور (بصرف النظر عما يعنى رأس الثور فى اللغة المصرية) وأطلق على رأس الثور هذا فى لغته اسم « ألف » ، ثم استعمل هذا الرمز ليدلّ وفق قواعد الأكرفونية على الصوت ، وبالطريقة نفسها أطلق على الرمز الذى يدل على البيت وسمَّاه « بث » واستعمله للدلالة على الصوت (ب) و هكذا[٢] .

= ما وراء الأردن ، وجعلوا عاصمتهم البتراء وهى فى العبرية سلع ، وفى العربية الرقيم ، واسمها الحديث وادى موسى .

وكان الأنباط يتكلمون اللغة العربية ويستخدمون الحروف الآرامية ، وبلغت البتراء أقصى درجات الغنى والرخاء فى القرن الأول الميلادى ، وكان الأنباط يكوّنون حلقة هامة فى السلسلة التجارية التى كانت عاملا فى ازدهار بلاد العرب الجنوبية ، وبعد القرن الأول الميلادى فقدت مزايا المركز الممتاز ، وأخذت دولة الأنباط تتدهور ، ثم انطوت راية الإمبراطورية الرومانية واختفى تاريخ البتراء بعدها لعدة قرون .

(١) جبيل مدينة من أشهر مدن الفينيقيين ، ويطلق عليها فى المصادر اللاتينية اسم بيبلوس .

(٢) فيليب خورى حتى : تاريخ العرب ،ترجمة محمد مبروك نافع ، ص ٨٤ ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٤٩

والأصل السينائى للأبجدية يشرح لنا كيف كان فى الإمكان نقلها من ناحية إلى جنوب بلاد العرب ، حيث مرت بتطور مستقل ، واستعملها المعينيون فى تاريخ ربما كان يرجع إلى سنة ١٢٠٠ ق . م . ومن ناحية أخرى كيف نُقِلتْ إلى الشمال حيث الساحل الفينيقى ، ولقد نُقِلتْ الأبجدية مع التجارة فى الفيروز الذى كان يبيعه العرب إلى الفينيقيين ، كما أنها بالمثل تمامًا نقلت مع التجارة من الفينيقيين إلى اليونان ، وأصبحت أم الأبجديات جميعًا[١] .

وأقدم رسم عربى وصل إلينا كان مشتقا من خط المسند[٢] اليمنى ، وهذا مشتق بدوره من الخط الكنعانى ، ووصل إلينا فى نقوش تحمل ثلاثة أنواع متقاربة منه ، عُثِر عليها فى منطقة واسعة فى شمال شبه الجزيرة العربية ، تمتد من دمشق حتى منطقة العُلا ، هى النقوش اللحيانية والثمودية والصفوية . والخط اللحيانى لا يكاد يختلف عن خط المسند الذى اشتقَّ منه ، ويسير مستعرضًا من اليمين إلى الشمال . والخط الثمودى مشتق من خط المسند أيضًا ، واتجاهاته غير ثابتة ، وغالبًا يتجه من أعلى إلى أسفل . والخط الصفوى يشبه الخط اللحيانى غير أنه مختلف الاتجاهات ، فتارة يقرأ من اليمين إلى الشمال وأخرى من الشمال إلى اليمين . وحروف الهجاء فيها كلها ترسم متفرقة ، وأغفلت الحركات القصيرة ، وأصوات المدّ الطويلة إغفالا تاما ، وكانت مجردة من الإعجام . وبعض حروفها يستخدم للرمز إلى أكثر من صوت واحد .

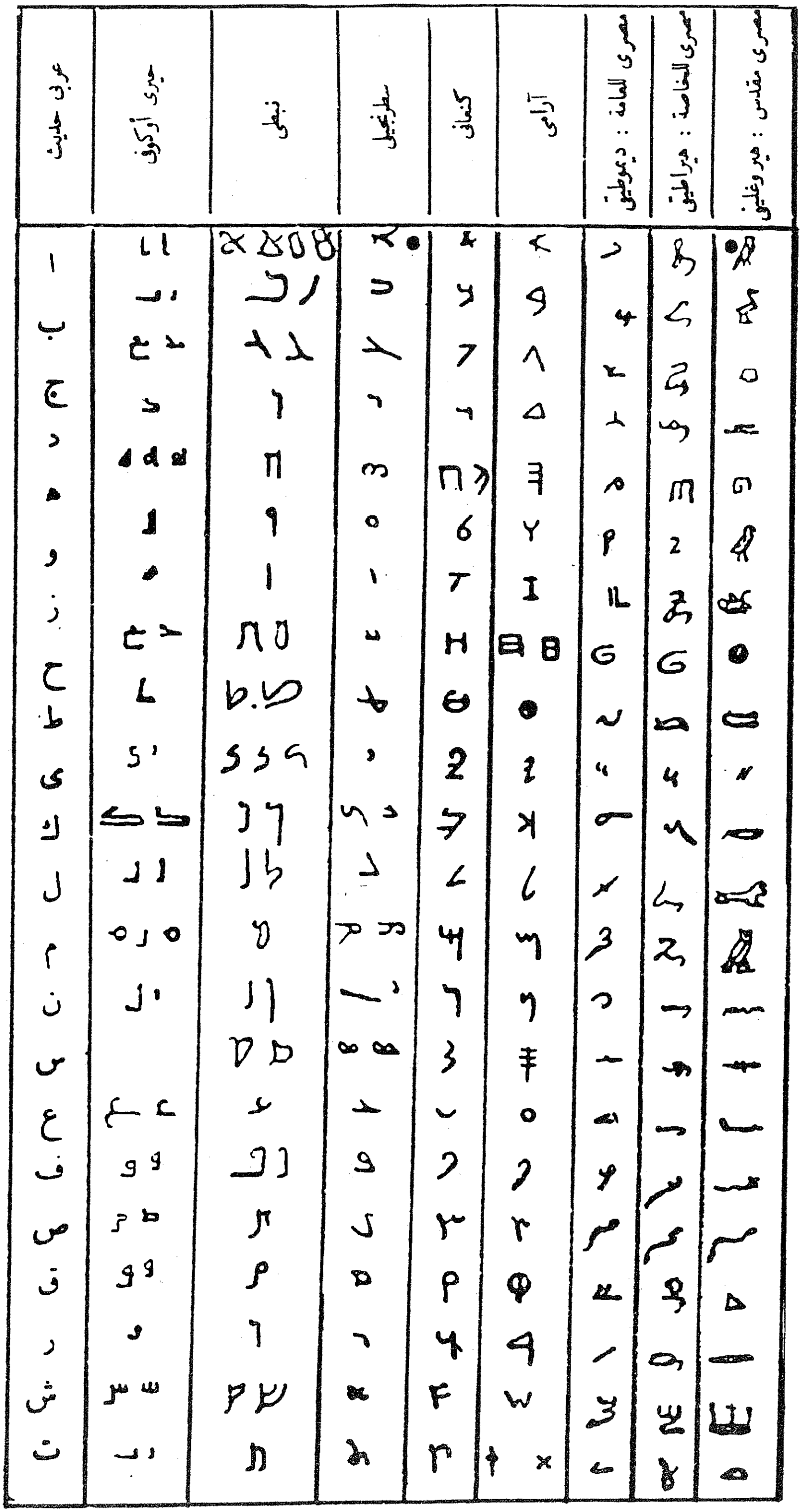
لدينا عدد من النقوش يمثّل تطور الخط العربى الذى نكتب به الآن فى مراحله المختلفة ، منذ كان تقليدًا للخط النبطى ، أو هو الخط النبطى محورًا ، إلى أن استقام فنًّا قائمًا بذاته ، له أصوله وقواعده وأساتذته وألوانه على النحو الذى يُعرف به اليوم . وخارج عن موضوعنا أن نعرض لكل هذه النقوش ، فلذلك موضعه من الدراسات السامية ، وإنما يعنينا أن نشير إلى بعض منها ، بما فيها الخط النبطى ، لتعين على تصوُّر مراحل تدرُّج الخط العربى .

فقد عثر فى أم الجمال ، جنوب حوران ، من أعمال شرقى الأردن ، على نقش

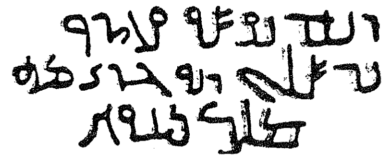
---

(١) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٢) سمى المسند لأن معظم حروفه تستند إلى أعمدة ، وكان علماء المسلمين هم الذين انتبهوا إلى هذه الظاهرة ، وأطلقوا عليه هذا الاسم .


مصري مقدس : هيروغليفي
مصري الخاصة : هيراطيقي
مصري العامة : ديموطيقي
آرامي
كنعاني
سطرنجيلي
نبطي
حيري أوكوف
عربي حديث
ا ب ج د ه و ز ح ط ى ك ل م ن س ع ف ص ق ر ش ت

من ثلاثة سطور ، آرامى اللغة ، نبطى الخط ، وصورته :



وكلماته فى حروف عربية حديثة هى :

١ - دنه نفسو فهرو .

٢ - بَرْ شُلَىَ ربو جذيمت .

٣ - ملك تنوح .

وترجمته إلى اللغة العربية :

١ - هذا قبر[١] فهر .

٢ - ابن شُلى مربى جذيمة .

٣ - ملك تنوخ .

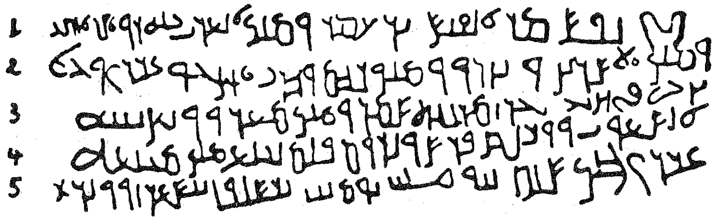
وقد وُجِد النقش بلا تاريخ ، ويرجح المستشرق الألمانى **إنوليتمان** Enno Littman والكونت **دى فوجويه** De Vogué أنه يرجع إلى عام ٢٧٠ م ، ويميل ليتمان إلى أن كاتب النقش عربى يعرف الآرامية ، لأنه وضع أسماء الأعلام العربية فى قالب آرامى بزيادة حرف الواو فى كلمات : نفس وفهر ومربى . ويرى أن حرف الواو الزائد وضع لينوب عن التنوين فى حالة الرفع ، ولعل كاتب هذا النقش أراد بإثبات الواو أن يدل القارئ على النطق الصحيح للكلمة . ويضم النص حروفاً غير مرتبط بعضها ببعض ، مثل حرف السين من كلمة « نفسو » فى السطر الأول ، والياء من كلمة « جذيمت » فى آخر السطر الثانى ، أما كلمتا « سلى » و « ملك » فرسمها قريب جدًّا من رسمها العربى الإسلامى .

ويليه نقش **النمارة** وقد عثر عليه **ديسو** Dussaud **وماكلر** Macler عام ١٩٠١ م ، على بعد كيلو متر واحد من النمارة القائمه على أنقاض مخفر رومانى

---

(١) كلمه نفس تعنى قبرًا فى اللغه العربيه البائده

قديم شرقى جبل الدروز ، على مقربة من دمشق ، وأطلق عليه اسمها ، كُتِبَ تخليدًا لذكرى الملك امرئ القيس بن عمرو المتوفى عام ٣٢٨ ، وكان ملكا على الحيرة ، وامتدّ نفوذه حتى شمل بادية الشام ، ويحمل تاريخ سنة ٢٢٣ من سقوط سلع ، وهى توافق تاريخ وفاة الملك ، وصورة النقش :



وكلماته فى حروف عربية :

١ – تى نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو أسر التج

٢ – وملك الأسدين ونزرا وملوكهم وهرب مذحجوا عكدى وجا

٣ – بزجى فى حبج نجرن مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه

٤ – الشعوب ووكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه

٥ – عكدى هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بلسعد ذو ولده .

وترجمته إلى العربية :

١ – هذا قبر امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذى حاز التاج

٢ – وملك الأسدين ونزارا وملوكهم وهرّب مذحج بقوته وجاء

٣ – إلى نزجى فى حبج نجران مدينة شمر ، وملك معدا وأنزل بنيه

٤ – الشعوب . ووكله الفرس والروم فلم يبلغ ملك مبلغه

٥ – فى القوة . هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ كسلول[١] ، ليسعد الذين ولدهم .

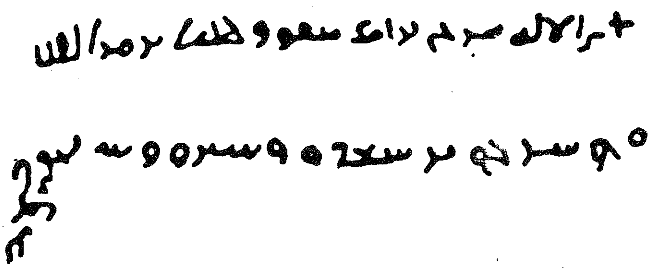
والنقش ، كما ترى من صورته ، مدوّن بالرسم النبطى المتصل الحروف ، ويشتد وجه الشبه بينه وبين الرسم العربى فى أولى مراحله ، ويشتمل على جمل كثيرة تتفق كل الاتفاق مع اللغة العربية الباقية ، مثل : « فلم يبلغ ملك

---

(١) كسلول : كانون الأول .

مبلغه » و « نزل بنيه الشعوب » و « ملك العرب كلها » وهلك سنة » ، ويمكن القول أن هذه الجمل أقدم ما وصلنا مدونًا من الأسلوب العربى الذى جاء فيه الأدب الجاهلى . وكان الرأى فيه أنه كُتِب باللغة الآرامية ، ويضم بعضًا من الكلمات العربية ، ولكنّ كثرة هذه الكلمات ، واتفاقها مع العربية الباقية ، جعل المستشرق إنو ليتمان يرى العكس ، ويقرِّر أنه نقش عربى مكتوب بالقلم النبطى ، ويشتمل على بعض الألفاظ الآرامية ، وأكثر كلماته تبدو واضحة ، يستطيع أن يتبينها أى قارئ مثقف معاصر مع شيء من التأمّل ، ففى السطر الأول : نفس مر القيس بن عمر ملك العرب . وفى الثانى : وملك الأسدين ونزرا وملوكهم .. وفى الثالث : ... مدينة شمو وملك معد[1] . وفى الرابع : الشعوب ... فلم يبلغ ملك مبلغه . وفى الخامس : عكدى ، هلك سنة ... يوم ...

ثم عُثِر على نقشين هامين أحدث تاريخًا من نقش النمارة ، ويمثلان فى تاريخ الخط العربى تطوراً أكثر تقدماً ، فرسمهما مستقل عن الرسم النبطى ، أو قطع مرحلة هامة فى طريق الاستقلال عنه . وفيهما تقترب صورة الحرف من الصورة التى نستخدمها الآن ، ولا يجد المرء صعوبة كبيرة فى قراءة كلماته ، وقد اكتشف الأول منهما الأثرى ساخو Sachau عام ١٨٧٩ ، وأطلق عليه نقش زبد اسم مدينة خربة بين قنسرين ونهر الفرات ، فى الجنوب الشرقى من مدينة حلب ، ووُجد على أحد أبواب المعابد المقامة للقديس سرج ، ويرجع تاريخه إلى عام ٥١٢ م ، وهو مدوّن فى ثلاثة لغات : العربية القديمة ، والسريانية ، واليونانية ، وصورة ما بقى من الكتابة العربية هى :

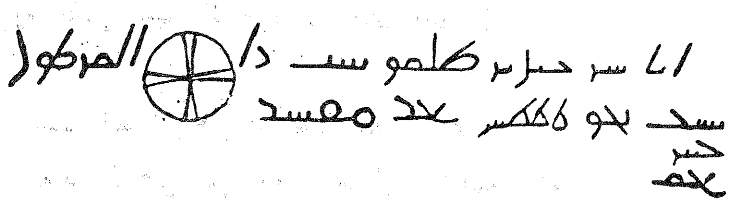


(١) التبس الأمر على الدكتور ناصر الدين الأسد فى تفسيره كلمات النقش ، فجعل سطوره أربعة وهى خمسة ، وأسقط السطر الثالث تمامًا ، وفسر كلمات السطر الرابع على أنه الثالث ، والخامس على أنه الرابع . انظر « مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية » ، ص ٢٨ و ٢٩ .

ورسمها بالحروف العربية المعاصرة هو :
١ - م الإله سرجو بر أمت منفو وهنىء بر مر القيس .
٢ - وسرجو بر سعدو وسترو و (شر) يحو بتميمى .

ويشتمل النص على أسماء أعلام عربية يظن أنها أسماء الذين اشتركوا فى بناء الكنيسة ، ويرى المستشرق الفرنسى بلاشير Blachere أن النصّ العربى ربما أضيف إلى النقش فى زمن متأخر لأنه ليس ترجمة للنص السريانى اليونانى ، وسائر كلمات النقش ، كما يبدو من الصورة ، عربية الخط ، على اختلاف العلماء فى قراءتها .

والنقش الثانى أحدث من نقش زبد بأكثر من نصف قرن تقريبًا ، وعثر عليه العالم فتزتين Wetztein فى حوران اللجا الواقعة جنوب دمشق ، شمال غربى جبل الدروز ، عام ١٨٦٤ ، ومكتوب باللغتين اليونانية والعربية ، ووصل إلينا قسمه العربى سليما كامل الكلمات ، وهو نصب تذكارى أقيم حسب عبارة النص اليونانى للقديس يوحنا المعمدان ، ويحمل تاريخ عام ٤٦٣ حسب تقويم بصرى ، أو ما يعادل ٥٦٨ للميلاد ، وصورته :



وكلماته فى الرسم العربى الحديث :
١ - أنا شرحيل بن ظلمو (= ظالم) بنيت ذا المرطول (= الكنيسة)
٢ - سنت ٤٦٣ بعد مفسد
٣ - بعم (= بعام)[1] .

(١) كان ليتمان أول من فك رموز « مفسد خيبر بعام » ، وكانت قبله مبهمة ، ويرى أنها تشير إلى غزوة أحد أمراء بنى غسان لخيبر ، ويستدل بفقرة جاءت فى كتاب « المعارف » لابن قتيبة : « ثم ملك بعده الحارث ابن أبى شمر .. وكان غزا خيبر فسبى من أهلها ، ثم أعتقهم بعد ما قدم الشام » .

وهذا النقش هو أول نص جاهلى عربى كامل فى كل كلماته ، وبه أصبح بين أيدينا نموذج لطريقة كتابية تكوّنت نهائيا . ولا تختلف عن بقية النقوش التى سنعثر عليها فيما بعد الهجرة إلا فى أشياء قليلة مردّها إلى المواد المستعملة ، أو مهارة النقاش .

أمّا أقدم كتابة إسلامية وصلت إلينا ، فنُصب على قبر رجل يدعى عبد الرحمن ابن خير ، وعُثِرَ عليه فى الفسطاط ، ويعود تاريخه إلى ٣١ للهجرة (= ٦٥٢ م) . ويوجد فى متحف الآثار الإسلامية بالقاهرة ، وهو النقش الوحيد الذى بين أيدينا من هذه الفترة المبكرة من تاريخ الكتابة العربية . وذكر الدكتور ناصر الدين الأسد أن « الدكتور محمد حميد الله عثر على عدّة نقوش على قمة الطرف الجنوبى لجبل سلع فى المدينة المنورة ، خارج سورها الشمالى ، ويرجح - أى الدكتور حميد الله - أن هذه النقوش ترجع فى تاريخها إلى غزوة الخندق فى السنة الخامسة للهجرة » . لكن الدكتور ناصر الأسد اكتفى بهذه الإشارة ، دون أن يورد نص هذه النقوش أو صورتها ، وأحالنا على المصدر الذى اعتمد عليه ، وهو مجلة الثقافة الإسلامية Islamic Culture وهى ليست بين يدىّ ، ولا فى مكنتى الآن أن أرجع إليها[١] .

وصورة نقش عبد الرحمن بن خير فيما يلى :

ونصه :

١ - بسم الله الرحمن الرحيم هذا القبر

٢ - لعبد الرحمن بن خير الحجازى اللهم اغفر له[٢]

٣ - وأدخله فى رحمة منك وآتنا معه

٤ - استغفر له إذا قرأ هذا الكتاب

٥ - وقل آمين وكتب هذا

---

(١) مصادر الشعر الجاهلى ، ص ٣٢ .

(٢) يلاحظ أن الكلمات مجردة من الإعجام ، والرمز ، وأصوات المد الطويلة ، ولذلك قرئت على أوجه كثيرة . فقرأ فيت G. Wiet الكلمة الرابعة « خير » ، وقرأها ولفنسون « جبر » ، ويرى ليتمان أنها يمكن أن تقرأ « جابر » أو « جبار » أو « حبير » وقرأ فيت الكلمة الخامسة « الحجرى » ، وآثر ولفنسون « الحجازى » .

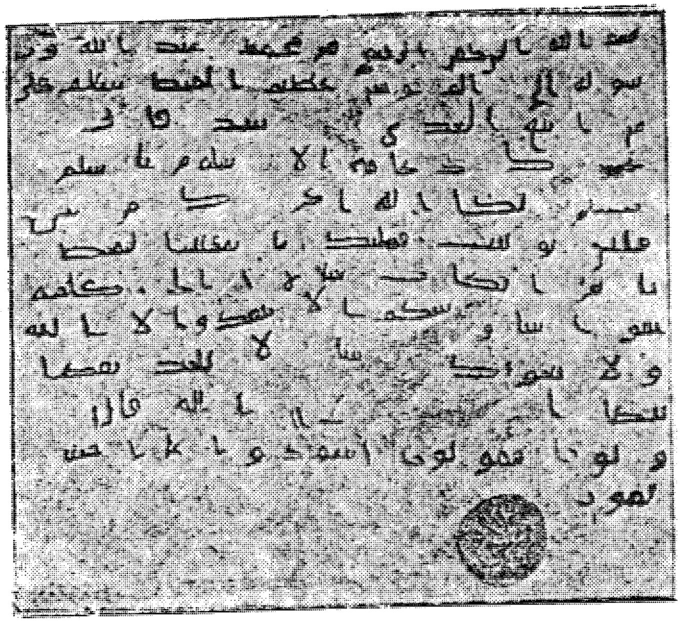
٦ - لكتب (الكتاب) فى جمدى (جمادى) الآ
٧ - خر من سنت إحدى و
٨ - ثلثين (ثلاثين)



ويلاحظ أن التأثير الإسلامى واضح فى النقش ، وبعض كلماته مقتبس من القرآن . ولدينا نقشان آخران يرجعان إلى هذا القرن ، أولهما عُثِر عليه فى قبة الصخرة ببيت المقدس ، ويرجع الى عام ٧٢ هـ = ٦٩١ م ، والثانى نقوش قصر برقة ، وتحمل تاريخ ٨١ هـ = ٧٠٠ م .

لكن كتابة النقوش لها طريقتها . والكتابة العادية لمتطلبات الحياة اليومية ، أو تسجيل الوثائق الأدبية ، لها طريقة أكثر بساطة ، وأشد أناقة ، وأقدم ما لدينا منها ثلاث رسائل بعث بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المقوقس عظيم القبط فى مصر ، وإلى المنذر بن ساوَى ، وإلى النجاشى فى الحبشة ، وقد عثر على مايظن أنه الأصول الحقيقية لهذه الرسائل ، ومهما يكن الرأى فى أصالتها ، فجانب الرسم منها يصوّر ، دون ريب ، طريقة كتابة الرسائل فى القرن الأول الهجرى

أرسل النبى - صلى الله عليه وسلم - كتابه إلى المقوقس ، عظيم القبط فى مصر ، مع حاطب بن أبي بلتعة ، سنة ست من الهجرة ، وزعم بعض المستشرقين أنهم وجدوا النسخة الأصلية للكتاب فى الصعيد [1] ، وصورتها :



ونصها :

١ - بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ور

٢ - سوله إلى المقوقس عظيم القبط سلام على

٣ - من اتبع الهدى أما بعد فإنى

٤ - أدعوك بدعاية الإسلام أسْلِمْ

٥ - تَسْلَم يؤتك الله أجرك مرّتين

٦ - فإن توليت فعليك إثم كل القبط

٧ - يا أهل الكتاب تعالوْا إلى كلمة

٨ - سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله

٩ - ولانشرك به شيئاً ولايتخذ بعضنا

---

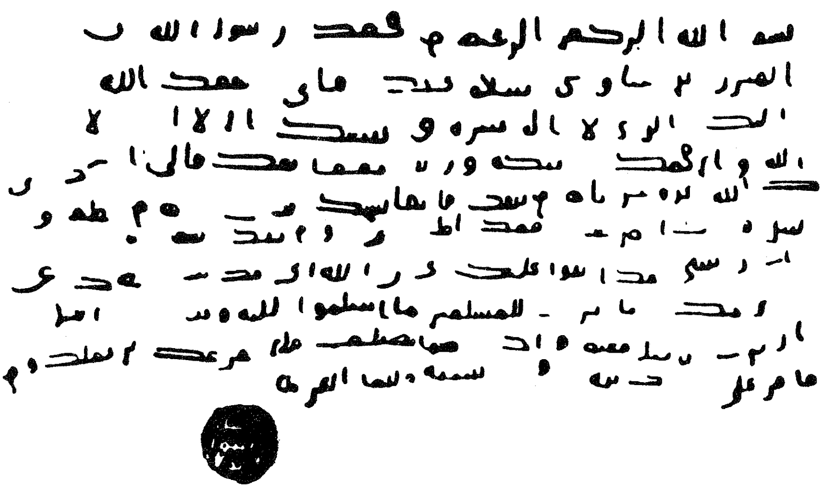
(١) راجع مجلة الهلال ، سنة ١٣ ، ص ١٠٣ و ١٦٠

١٠ - بعضاً أرباباً من دون الله فإنْ

١١ - تولَّوْا فقولوا اشهدوا بأنا مسـ

١٢ - لمون

وأرسل الثانية إلى المنذر بن ساوَى العَبدى صاحب البحرين ، حملها إليه العلاء بن الحضرمى ، وكُتِبتْ إليه ردا على رسالة منه إلى الرسول عند ما دعاه إلى الإسلام وصورتها :



ونصها :

١ - بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى

٢ - المنذر بن ساوى سلام عليك فإنى أحمد الله

٣ - إليك الذى لا إله غيره ، وأشهد أن لا إله إلا

٤ - الله وأن محمداً نبيه ورسوله أما بعد فإنى أذكرك

٥ - الله عزّ وجل فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه وأنه من يطع

٦ - رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى ومن ينصح لهم فقد نصح لى

٧ - وإن رسلى قد أثنوا عليك خيراً وإنى قد شفعتك فى

٨ - قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه وعفوت عن أهل

٩ - الذنوب فاقبل منهم وإنك مهما تُصْلح فلن نعزلك عن عملك ومن

١٠ - أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية

ولم يتيسر لى رؤية أصل الرسالة الموجهة إلى نجاشى الحبشة ، أو صورة لها ، ولو أن نصها موجود فى معظم المصادر التاريخية ، ويلاحظ أن التشابه كبير ودقيق بين رسم هاتين الرسالتين ، وبين الرسم الذى كُتِبَ فيه النقش الذى عُثِرَ عليه فى الفسطاط .

وثمة مجموعة من أوراق البردى ، يرجع أقدمها إلى عام ٤٠ للهجرة ، ٦٦٠ للميلاد ، عُثر عليها فى مكان قريب من أهرام سقارة ، وفى الفيوم وأخميم والأشمونين والبهنسا وميت رهينة وأدفو ، ووُجِدَ بعضها متلاصقاً متماسكًا متحجرًا ، مطموساً بالتراب ، ووصل بعضها الآخر ممزّقاً كله أو بعضه لرطوبة الأرض ، أو بفعل النيران ، ووُجِدت محفوظة فى جِرار من فخار أو سلال ، أو ملفوقة فى أدراج صغيرة ، مربوطة وعليها طابع المؤلف وخاتمة وتسرب معظمها إلى مكتبات ومتاحف فيينا وبرلين وباريس ولندن . وقسم منها مكتوب باللغة اليونانية ، والقسم الآخر مكتوب باللغة العربية ، وقام بنشر هذا القسم الأخير أدولف جروهمان Adolf Grohmann ، أستاذ اللغات السامية وتاريخ الحضارة الشرقية فى الجامعة الألمانية فى براج ، وأهمية هذه الوثائق من الناحية الأدبية محدودة للغاية أو معدومة ، لأن جلها عقود ووثائق تتصل بحياة الناس اليومية من بيع وشراء ، لكنها ذات أهمية بالغة فى التأريخ لتطور الخط العربى ، وبخاصة فى مراحله الإسلامية المبكرة ، قبل أن تصبح الثقافة أمرًا شائعًا والخط فنًّا يهوى ويُدرس ويُعلّم .

تدل هذه الوثائق على وجود كتابة منذ الفتح الإسلامى ، ذات أشكال مستديرة تختلف تماماً عن الكتابة الكوفية الموجودة على المبانى والنقود ونسخ القرآن القديمة . وإزاء هذا الواقع دعا المستشرق سلفستر دى ساسى de Sacy إلى إعادة النظر من جديد فى الرأى القائل بأن الخط الكوفى سابق للكتابة العادية السريعة ، والتى عُرِفتْ بالنّسخى ، لأن استخدام هذا يظهر فى أوراق البردى ، فى الوقت الذى كُتِبَ فيه بالكوفى على المسلات والمبانى . والحق أن هذا القول يصدق على كتابات القرن الأول الهجرى ، السابع الميلادى ، أما كتابات القرن السادس الميلادى ، القرن الذى سبق مولد الإسلام ، فمن الصعب تأكيد هذه الحقيقة أو إنكارها ، لأننا لا نملك من هذا العصر سوى نقوش فحسب ، وليس بين أيدينا

نموذج واحد للكتابة العادية التى تؤدى أغراضاً عاجلة ، وتُخَطّ على ماكان يكتب عليه فى تلك الحقبة من الزمن[١] . وتفسير هذا التباين باختلاف المواد المستعملة للكتابة عليها لا قيمة له ، لأن الكتابة العادية سرعان ما حلتْ ، فيما بعد ، محل الكتابة الكوفية حتى على الحجر[٢] .

ويعتقد برجيه Berger أن التباين بين الخط الكوفى والخط النسخى يعود إلى أسباب جغرافية ، فالكوفى كان يكتب فى بلاد العرب وسواحل سورية ، أما النسخى فكان مستعملاً فى مصر ، التى ظلت بعيدة عن التأثيرات السريانية فاحتفظت بحرية تصرّفها ، وإنها لتبدو كأنها الوارث الوحيد للأنباط[٣] . وقد حاول بلاشير أن يجرّد هذه النظرية من قيمتها ، وأن يرد التباين إلى الاستعمال نفسه ، فالكتابة العادية السريعة (النسخى) هى المستخدمة فى الأغراض العاجلة والمراسلات والعقود الرسمية أو الخاصة ، والكوفية مخصصة للنقوش وحفظ النصوص الدينية ، واستدل على ذلك باستخدام الخط الكوفى فى نقش الفسطاط[٤] . والواقع أن الخط الذى كُتب به نقش الفسطاط ليس كوفيا بل هو إلى الخط النسخى أقرب ، وإن يكن فى صورة ساذجة غير متقنة[٥] .

وبالجملة فإن الخط العربى ، كما يرى برجيه « تولد تدريجيا ، بعد أن مرَّ بمراحل عديدة من التطور الوئيد ، من كتابة السكان الذين كانوا يحتلون شمال شبه الجزيرة فى القرون الأولى للميلاد » . ويخضع هذا التطور لنفس القانون الذى خضعت له كل الكتابات التى اشتُقت من الكتابة الآرامية ، لقد كان تغيرًا تدريجيا « أجد به ودفعه فى تيار الاستعمال طريقة الوصل بين الحروف التى نرى تطبيقاتها الأولية فى نقوش تدمر وحوران »[٦] لقد تولد الشكل الكوفى من السطرنجلى ، واشتق هذا من السريانى ، وكان مستخدما عند النصارى اليعقوبيين فى العراق ، بينما اشتقَّ ، النسخى (أو الحجازى) من الخط النبطى ، وكان يستخدم فى المنطقة

---

(١) Blachęre Ręgis : Histoire de la Littęrature Arabe des Origines ą la fin du Xme siécle de J. - C., vol. I, 60 sgg., Paris 1952.

(٢) Fevrier, J. : Histoire de L.Erciture. Vol. I, 263, Patis, 1949

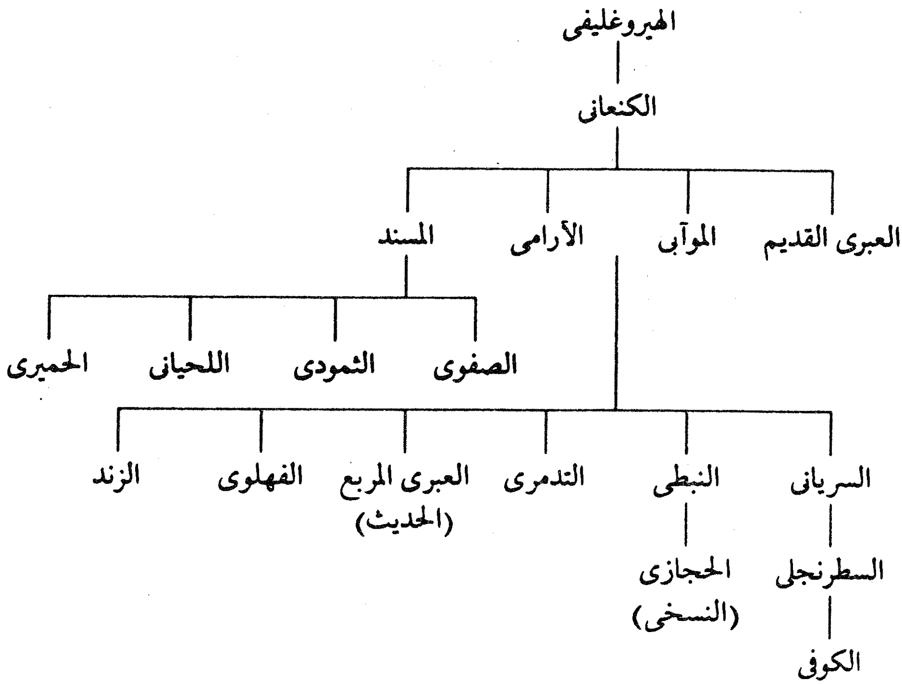
(٣) Berger, Ph. : Histoire de l'Ecriture, Vol. 29L, 293, Paris, 1891.

(٤) Blachęre : Histoire de la Litterature Arabe, Vol. L, 63.

(٥) انظر ص ٣٩

(٦) M. de Vogué : Syrie Centrale, P. 12, Paris, 1868.

بين حوران والحجر (حديثاً مدائن صالح) ؛ وفى أواخر القرن السادس كان مستخدماً فى دومة الجندل (الجوف الحالى شرقى نجد) وفى الحجاز ، وبحكم المركز التجارى الهام الذى احتلته مكة فى الجزيرة العربية فى هذا القرن وقبله ، فمن المحتمل أن هذا الخط كان أكثر انتشاراً مما نظن . ويمكن أن نوجز تطور الخط العربى فى الرسم التالى :



ويلاحظ فى هذه النقوش ، وكتابات صدر الإسلام ، أنها خالية من النقط والإعجام خلوًّا كاملاً ، وهى ظاهرة تشترك فيها كل الأبجديات السامية القديمة ، باستثناء الأبجدية الحبشية . ويُراد بالإعجام تمييز الحروف المتشابهة ، بالنقط ، أو الشكل ، ووضع علامات تدلّ على حركات الحروف ، قصيرة أو طويلة ، وفى عصور تالية لصدر الإسلام ، نجد من يستخدم النقط بمعنى الإعجام أحياناً .

وأول محاولة للنقط كان دافعها وهدفها ، كبقية العلوم الأخرى ، الحفاظ على دقة ضبط ألفاظ القرآن الكريم ، وكان الناس يقرأون فى مصاحف عثمان رحمه الله وهى غير منقوطة ولا معجمة فيخطئون القراءة ، فكلمة « سلو » قرأها حفص ابن سليمان بن المغيرة (تبلو) وقرأها عبد الله بن مسعود (تتلو) وكلمة (ساً) قرأها حفص (تثبيتاً) وقرأها مجاهد بن جبر (تبييناً) . والآية « جعل السفيه (السقاية) فى رحل أخيه » قرأها رجل (جعل السفينة فى رحل أخيه) وأمثلة أخرى كثيرة ، وقف عليها حمزة الأصفهانى مؤلفاً كاملا هو (التنبيه على حدوث التصحيف)[١] ويروى المؤرخون أن أبا الأسود الدؤلى المتوفى عام ٦٩ هـ = ٦٨٨ م جزع للأمر ، ودخل على زياد بن أبيه وهو والى العراقين ، فقال له « أصلح الله الأمير ! إنى أرى العرب قد خالطت هذه الأعاجم ففسدت ألسنتهم . أفتأذن لى أن أضع لهم مايقيمون به كلامهم » فأبى عليه زياد ذلك ، ثم عاد فأمره بما نهاه عنه لأنه سمع اللحن بأذنه من رجل دخل عليه يقول « أصلح الله الأمير . تُوفى أبانا وترك بنون ... » فوضع أبو الأسود باب التعجب ثم باب الفاعل والمفعول به ، والمضاف ، وحروف الجر والرفع والنصب والجزم . وأخذ كلما سمع لحنة وضع القاعدة التى تصلحها[٢] ثم وضع أول قواعد النقط : نقطة أعلى الحرف للفتحة ، وبين يديه للضمة ، وتحته للكسرة وللتنوين نقطتان ، ولم يضع علامة للسكون ، واعتبر إهماله علامة عليه .

ويبدو أن صنيع أبى الأسود الدؤلى لم يكن كافياً ، فلم يوقف موجة اللحن والخطأ الفاشية ، فكثر التصحيف وانتشر فى العراق ، بعد أن غبر الناس يقرأون فى مصاحف عثمان نيفاً وأربعين سنة ، إلى أيام عبد الملك بن مروان ، وأدرك الحجاج ذلك واعياً خطره : « وفزع إلى كُتابه ، وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات ، فيقال إن نصر بن عاصم قامَ بذلك ، فوضع النقط أفراداً

(١) مخطوط بمكتبة البرلمان بطهران - إيران ، تحت رقم ٢٨٢ .

(٢) لا تزال أولية النحو العربى مجهولة لما تدرس ، ولا أتصور أن الأمر تم بالبساطة التى تذكرها المصادر الأولى ، وكلها تقرر أن أبا الأسود الدؤلى وضعه من ذات نفسه وإنشائه أو بإشارة من الإمام على رضى الله عنه وأية دراسة جادة فيما أرى ، لابد أن تدرس النحو العربى مقارناً بنحو بقية اللغات السامية الأخرى ، وسوف تلقى هذه من الضوء ما يساعد على تكوين رأى علمى فيما يتصل بنشأة النحو العربى ومراحل تطوره .

وأزواجاً ، وخالف بين أماكنها بتوقيع بعضها فوق الحروف وبعضها تحت الحروف ، فغبر الناس بذلك زماناً لا يكتبون إلا منقوطاً ، فكان التصحيف مع استعمال النقط أيضاً يقع ، فأحدثوا الإعجام ، فكانوا يتبعون النقط بالإعجام » . أورد هذا النص **أبو أحمد العسكرى** فى كتابه « شرح مايقع فيه التصحيف والتحريف » ، وليس فيه ما يناقض الرواية الأولى ، فليس ثمة ما يمنع أن يكون **أبو الأسود الدؤلى** هو الذى بدأ الفكرة ، ثم جاء **نصر بن عاصم** فأتم ناقصها ، وأكمل قواعدها ، وزاد على سابقه الإعجام ، ويدعم هذا الرأى عندى أن أبا الأسود جعل نقطه بمداد مخالف لما كُتِبَ به القرآن تحرزا ، ووضع نصر بن عاصم ، ومن بعده يحيى بن يعمر، نقط الإِعجام بنفس المداد الذى كان يكتب به الكلام، حتى لا يختلط بنقط أستاذهما أبى الأسود . وقد انتشرت تلك الطريقة وأضاف إليها الناس علامة التنوين فكانت نقطتين الواحدة فوق الأخرى ، وزاد أهل المدينة علامة التشديد فجعلوها قوسين يجعلان فوق المُشدَد المفتوح ، وتحت المكسور ، وعن يسار المضموم ، ووضعوا نقطة الفتحة داخل القوس ، والكسرة تحت حدبته ، والضمة على شماله ، ثم استغنوا عن النقطة وقلبوا القوس مع الضمّة والكسرة وأبقوه على أصله مع الفتحة . وزاد أهل البصرة السكون فجعلوه جرّة أفقية فوق الحرف منفصلة عنه هكذا [–].

ظل الناس يكتبون على طريقة **أبى الأسود** ، **ونصر بن عاصم** ، طوال الدولة الأموية وصدر دولة بنى العباس ، وفى الأندلس حتى أواسط القرن العاشر الميلادى فلما شاعت الثقافة ، واستكثر الناس من نقط الحروف وإعجامها لتسهيل التعليم اشتبهت نقط الإعجام بنقط الشكل ، فاخترع **الخليل بن احمد** المتوفى ١٧٠ هـ = ٧٨٦ م الشكل الذى نستعمله الآن ، فجعل الضمّة واواً صغيرة تخط فوق الحرف ، والفتحة ألفاً مستعرضة تكتب أعلاه ، والكسرة ياء راجعة ترسم تحته ، والشدة رأس شين مختزلة من « لفظ تشديد » ، والسكون رأس خاء مختزلة من لفظ « تخفيف » وهمزة القطع رأس عين مختزلة من لفظ « قطع » وهمزة الوصل رأس صاد مختزلة من لفظ « وصل »[١] .

---

(١) جانب الدكتور على عبد الواحد وافى الصواب ، حين زعم فى كتابه فقه اللغه ، ص ١٧٥ .

هل كان النقط والإعجام موجودين فيما قبل القرن الأول الهجرى ، أو بمعنى أدق قبل أن يبتدع أبو الأسود الدؤلى أولهما ، ونصر بن عاصم ثانيهما ؟ سؤال ليس من السهل الإجابة عليه نفياً أو إثباتاً فى بساطة ، لأن النقوش التى لدينا ، جاهلية أو من آثار النصف الأول للقرن الأول الهجرى ، غير منقوطة ولا معجمة ، ولا تحمل أية علامات لأصوات المدّ قصيرة أو طويلة ، ولو أن النقوش العربية التى دُونت بالخط النبطى ، وأشرنا إليها من قبل ، تحمل بعض كلماتها أصوات المدّ الطويلة ، وبخاصة الواو والياء ، مثل كلمة « الشعوب » فى نقش النمار[١] و « شُرَحيل » « والمرطول » فى نقش « حرّان »[٢] وأما الألف فأول ما نلقاها مكتوبة فى الرسائل النبوية إلى المقوقس والمنذر بن ساوى[٣] ، ولانجد لأصوات المد القصيرة أية إشارة من أى لون فى أى نقش جاهلى ، ولم تصلنا كتابة جاهلية على رق أو بردىّ .

أما بعد الإسلام ، وقبل أبى الأسود الدؤلى ، فيذكر الدكتور ناصر الأسد ، نقلاً عن الدكتور أدولف جروهمان ، أن ثمة بردية يرجع تاريخها إلى عام ٢٢ للهجرة ، على عهد عمر بن الخطاب ، وهى مكتوبة باللغتين العربية واليونانية ، وأن بعض حروفها منقوط معجم ، وهى حروف : الخاء والذال والزاى والشين والنون . ويذكر نقلاً عن ج . س . مايلز Miles G. C. أن نقشاً وجد بقرب الطائف يرجع تاريخه إلى سنة ٥٨ هجرية ، على عهد معاوية بن بى سفيان ، وأن أكثر حروفه التى تحتاج إلى نقط منقوطة معجمة[٤] .

= الطبعة الثالثة . القاهرة ١٣٦٩ هـ = ١٩٥٠ م أن مؤرخى العرب ينسبون اختراع هذه الطريقة إلى أبى الأسود الدؤلى ، والحق أن النقط كان من صنعه . أما طريقة الرسم هذه فمن عمل الخليل بن أحمد ، ولم يقل أحد منهم أن أبا الأسود هو الذى ابتدعها .

(١) راجع ص ٣٣ .

(٢) راجع ص ٣٥ .

(٣) راجع ص ٣٨ و ٣٩ .

(٤) مصدر الشعر الجاهلى ، ص ٤٠ والمصدران اللذان نقل عنهما هما :

(1) Adolf crohmann. from The World of Islamic Papyri. pl. II

وصورة البرديه ووصفها ونصها مع ترجمتها فى ص ١١٣ - ١١٤ . ثم انظر ص ٨٢ من نفس الكتاب .

(2) G. C . Miles. Early Islamic Inscriptions Near Taif in The Hijaz. JNES 7 (1948)

وصورة النقش هناك رقم 18 .

لم يتيسر لى الاطلاع على البردية التى أوردها جروهمان ، ولا أكاد أطمئن إليها ، لأن الرسائل النبوية كتبت قبلها بما لا يزيد على خمسة عشر عاماً ، وأنفق فيها الكتاب كل جهدهم فنا وتجويداً ، لأنها موجهة من رسول إلى ملوك وأمراء ، ويُراد لها ، لكى تؤدى رسالتها كاملة ، أن تكون واضحة الخط ، كاملة الرسم ، سهلة القراءة ، لا تحمل إعجاماً ، وأن مصحف عثمان ، وقد كُتب بعد هذه الوثيقة بثمانية أعوام ، كان خالياً منه ، وما كان أحوجه إليه ، فمن أجل الحفاظ على نصه فكر العلماء فى النقط والإعجام . ووجود نقش وحيد بعض حروفه معجمة ، ويرجع إلى فترة لدينا منها نقوش أخرى غير معجمة ، لا يكفى لتأصيل قاعدة وتقرير حقيقة ، فربمًا أضيف إليه الإعجام فيما بعد ، عندما أصبح أمراً شائعاً فى كتابة النصوص والوثائق .

لم يتعوّد الناس النقط ، أو الضبط بمعنى أدق ، إلا بعد فترة طويلة ، حين شاعت العامية ، وكثر اللحن . أما الإعجام فلدينا وثيقة ترجع إلى سنة إحدى وتسعين هجرية ، ولم يعجم الكاتب منها على طولها النسبى غير كلمتين ، الكلمة الاولى من السطر الثانى عشر « يشتكيك » ، والكلمة الأولى من السطر الأخير « سنة » ظنا منه أن ترك إعجامهما يترك القارئ فى لبس ، وصورة الرسالة فى ظهر الصفحة المقابلة ، نصها :

. . . . . .
أما بعد فإن هشام بن عمر
كتب إلىَّ يذكر
جالية له بأرضك
وقد تقدمتُ إلى
العمال وكتبتُ إليهم
ألا يؤوا جاليا فإذا
جاءك كتابى هذا

فادفع إليه ماكان
له بأرضك من جاليته
ولا أعرفن مارددت
رسله أو كتب إلى
يشتكيك والسلام
على من اتبع الهدى ، وكتب
يزيد فى جمادى الآخرة
سنة إحدى وتسعين

ولكنى أشارك الدكتور ناصر الأسد رأيه ، فى أن عدم الإعجام ، – والنقط لم يكن موجوداً قطعاً – فيما بين أيدينا من نقوش جاهلية ، لا يعنى بالضرورة أن

الإعجام لم يكن معروفاً ولا مستعملاً ، فربما كان ذلك « ناجماً عن اطمئنان الكاتب إلى أن كلماته هذه المنقوشة فى نجاة من التصحيف والخلط فى القراءة ، لأنها أسماء أعلام ، وسنوات ، وكلمات بينها من اليسير معرفتها ، وربما كان مما يسوغ له إهمال النقط فوق ذلك صعوبة فنية ومشقة عملية فى النقش » .

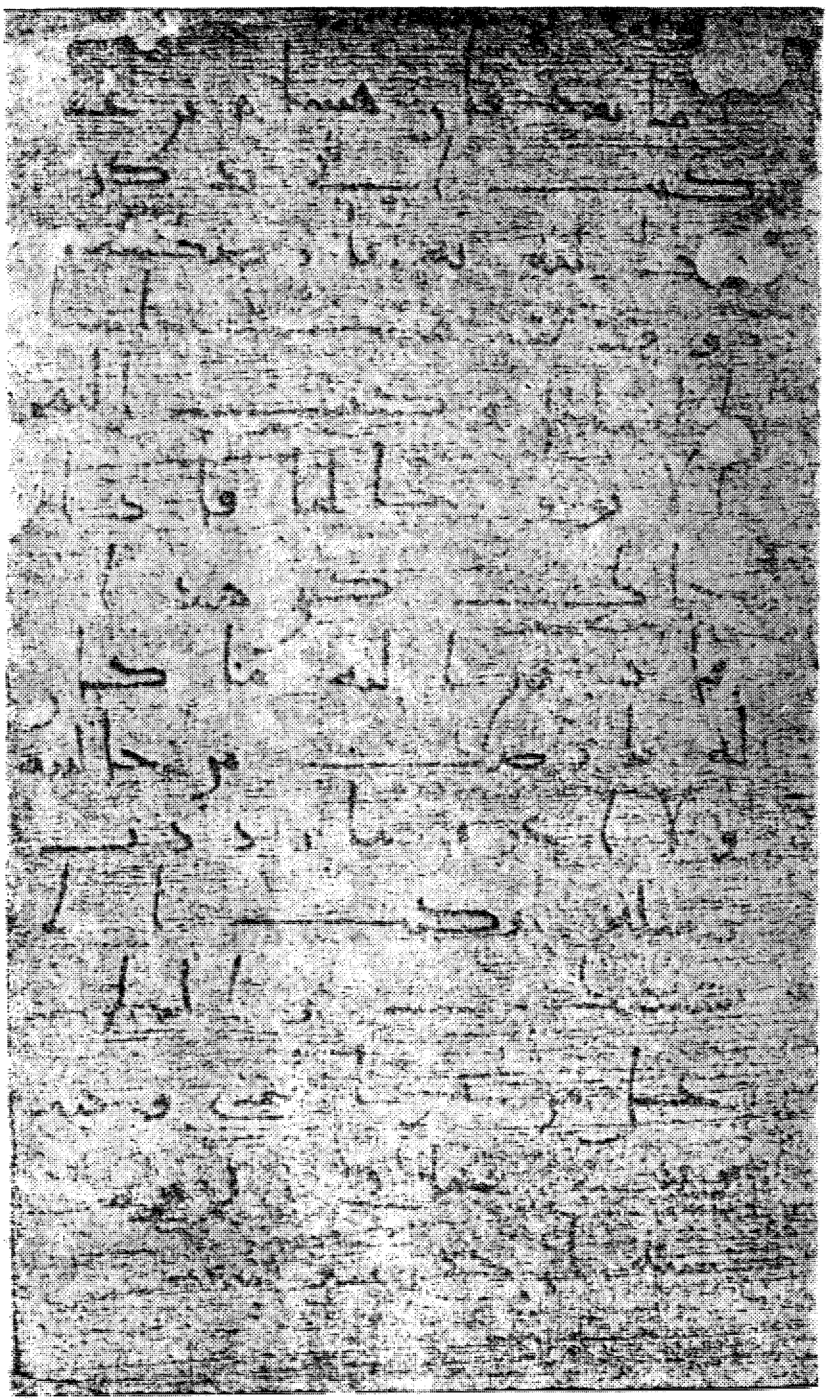
وفى عرض الدكتور ناصر الأسد للمشكلة خلط بين لفظى « النقط » « والإعجام » ، فأورد كلمتى « منقوط معجم » و « ومنقوطة معجمة »[1] ، مما يوقع الدارس فى حيرة ، لأن النقط يُعنى به رسم أصوات المدّ والسكون ، لضبط نطق الكلمات ، على حين أن الإعجام يعنى به النقط الذى يفرّق بين الأحرف المتشابهة ، والقول بجريانه فيهما على الترادف لا يزيل الشبهة ، لأنه جاء بهما معاً ، ولو استخدم أحدهما دون الآخر لكان له فى الترادف مندوحة .

ومنذ العصر العباسى أخذ الخط الكوفى يتنوع حتى أربى على خمسين نوعاً ، من أشهرها : المحرَّر ، والمشجَّر ، والمربَّع ، والمدوَّر ، والمتدخل . وبقى الخط الكوفى مستعملاً فى المبانى والسكة إلى القرن العاشر الهجرى ، السادس عشر الميلادى ، ثم نسى جملة ، حتى عاد إليه الفنانون فى عصرنا الحديث ، يحيون دارسه فيما يكتبون على جدران المبانى زخرفة ، أو يخطون من عناوين الكتب تجميلاً .

أما خط الرسائل فكان لوناً مستنبطاً من الخط الكوفى والحجازى ، ابتدعه قطبة بن المحرر فى أواخر الدولة الأموية ، فاخترع خط « الجليل » الذى يكتب به على المبانى ونحوها ، وتوجد له نماذج متعددة على جدران مساجد القاهرة ومدارسها وأربطتها وسبُلها وخرائب قصورها : ثم « الطومار » وهو أصغر من « الجليل » ، وكانت تكتب به أسماء السلاطين وعلاماتهم على المنشورات والعهود وفى العصر العباسى ولّد إبراهيم الشجرى قلم الثلثين (أى ثلثى الطومار) ، واخترع من الثلثين آخر سماه « الثلث » . وولّد يوسف أخوه من « الجليل » القلم الرياسى ، وسُمى كذلك لأنه أعجب ذا الرياستين الفضل بن سهل وزير المأمون ، فأمر أن تُحَرَّر به الرسائل السلطانية ولاتكتب بغيره ثم عرف فيما بعد بقلم التوقيع .

---

(١) مصادر الشعر الجاهلى . ص ٤٠



واخترع الأحول المحرّر قلم « النصف » و « خفيف الثلث » وقلَماً ليس فى حروفه شيء ينفصل عن غيره وسمّاه « المسلسل » ، وكانت تكتب به عامة الرسائلَ ، وغبار « الحلبة » وكان يكتب به فى بطائق الحمام الزاجل ، والرقاع وغيرها .

ثم جاء الوزير أبو على محمد بن مقلة[1] وأخوه أبو عبد الله الحسن ، المتوفى ٣٣٨ هـ = ٩٤٩ م ، فتم على أيديهما هندسة خط النسخ والجليل وفروعه ، على الأشكال التى نعرفها الآن ، فضبطا الحروف ، وقدّرا مقاييسها وأبعادها ، وأحكما ضبطها ، واخترعا له القواعد ، وعنهما انتشر الخط العربى كامل الصورة فى مشارق الأرض ومغاربها .

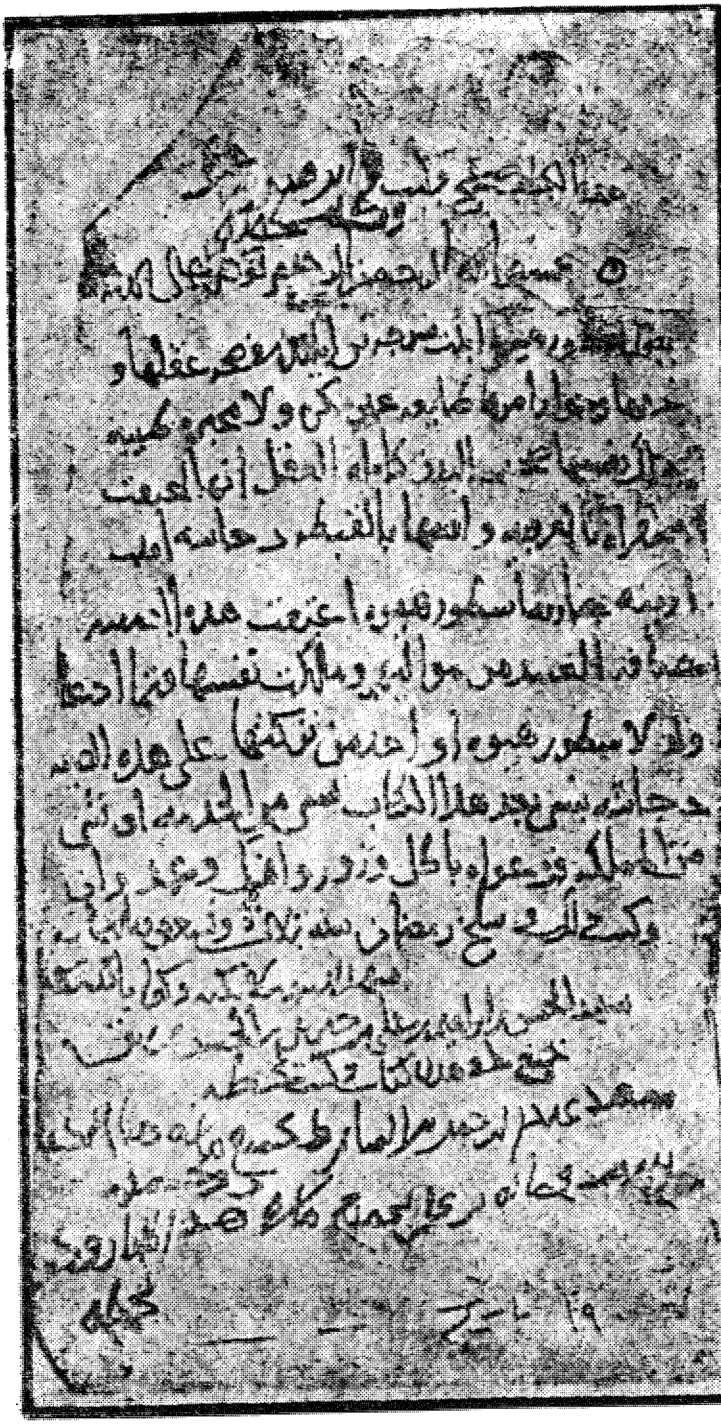
ثم اختُرع الشكل الفارسى ، وكان استعماله عاما فى أواسط آسيا وفارس ، وأبدع الخطاطون الأتراك فيما لدينا من أشكال للخط العربى ، وحوّلوا بعض أنواعه وخاصة الرقاع (الرقعة) إلى ما نعرفه الآن . وارتقوا بالمسلسل إلى الغاية وولّدوا منه خط العلامة السلطانية (الهمايونى) وكان أشهر خطاطيهم الحافظ عثمان بن على ، وهو نابغة الخطاطين جميعاً ، واختير معلم خط للسلطان أحمد خان الثانى (خليفة من ١٦٩١ م إلى ١٦٩٥ م) ، وللسلطان مصطفى خان الثانى (خليفة من ١٦٩٥ م إلى ١٧٠٣ م) ، وكان يجلس كل يوم أحد لتعليم الفقراء الخط مجانا ، ويوم الأربعاء لتعليم الأغنياء بأجر . وأشهر المصاحف وأكثرها تداولاً

---

(١) كان ابن مقلة شيخ الخطاطين دون منازع ، تولى فى بدء حياته بعض أعمال فارس ، ثم أصبح وزير الخليفة المقتدر بالله سنة ٣١٦ هـ = ٩٢٧ م ، ثم كاد له أعداؤه عنده فقبض عليه سنة ٣١٨ هـ ، وصادر أمواله ونفاه إلى فارس ، وأصبح وزيرا للراضى فَوّشَى به أعداؤه فقبض عليه وعزل وبقى معتزلا الوزارة .

وحاول ابن مقلة أن يكيد لابن رائق أمير الأمراء ببغداد عند هذا الخليفة المستضعف ؛ فوشى به الخليفة إلى ابن رائق ، فقبض عليه وقطع يده اليمنى . ثم ندم الراضى على ذلك ، وأمر الأطباء بملازمته إلى أن برأ ، فكان يشد القلم على ساعده ، ويكتب به وكاد له ابن رائق عندما أحس بأن الخليفة يفكر فى أن يوليه الوزارة ، فكانت النتيجة أن قطع لسانه ، وأقام فى الحبس مدة طويلة ، قاسى فيها عناء شديدًا ، ولم يزل به حتى توفى عام ٣٢٨ هـ = ٩٣٩ م ومن شعره :

م سئمت الحياة لكن توثقت ... بأيمانهم فبانت يمينى
بعت دينى لهم بدنياى حتى ... حرمونى دنياهمو بعد دينى
ولقد حطت ما استطعت بجهدى ... حفظ أرواحهم فما حفظونى
ليس بعد اليمين لذة عيش ... يا حياتى .. بانت يمينى فبينى

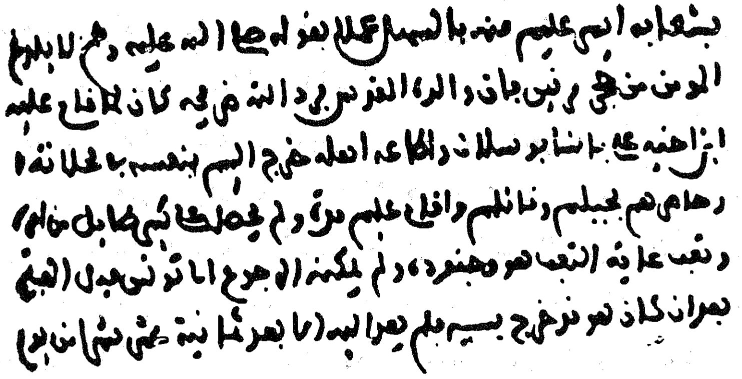


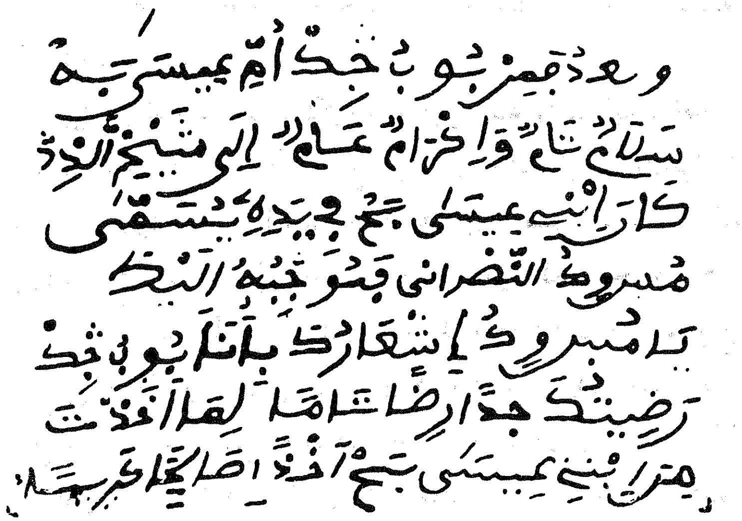
صورة وثيقة مكتوبة على ورق البردى ترجع إلى عام ٣٩٣ هـ

مكتوب بخطه ، وقد نسخ منها خمسة وعشرين ، ومقداراً كبيراً من الرقاع والألواح وأجزاء القرآن ودلائل الخيرات .

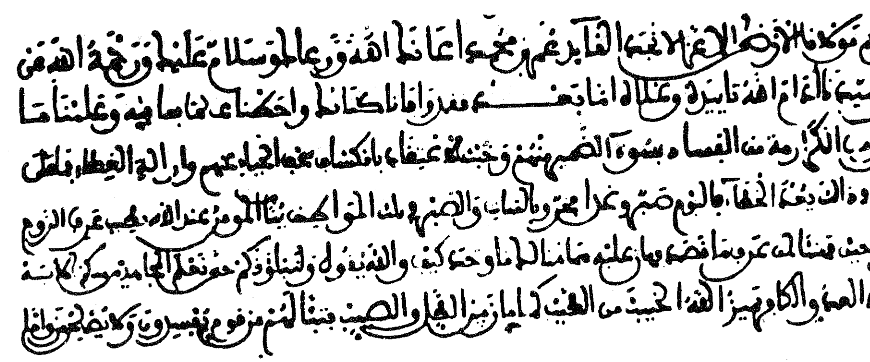
وقد أوقف أبو العباس شهاب الدين أحمد بن على المعروف بالقَلْقَشَنْدِى ، نسبة إلى القرية التى ولد فيها ، والمتوفى عام ٨٢١ هـ = ١٤١٨ م جانباً كبيراً من الجزء الثالث من موسوعته « صبح الأعشى » على الخط العربى ، تتبَّع فيه نشأته وأشكاله وفنونه ، وقواعده وصوره وهندسة حروفه ، ومايكتب به ، ومايكتب عليه ، وقوانين الكتابة وآدابها وطرقها . ونظم زين الدين شعبان بن محمد ابن داود الآثاريّ ، محتسب مصر ، ألفيَّة فى صناعة الخط سمّاها « العناية الربانية فى الطريقة الشعبانية » .

أما الأندلسيون والمغاربة فلم يسلكوا نهج ابن مقلة وأصحابه ، فظلوا يكتبون على طريقة الخط الحجازى إلى الآن ، مع شيء من التعديل ، وأبدعوا داخل هذا الإطار فنوناً منه ، وربما مال « الجليل » عندهم إلى بعض قواعد « الثلث » فى أواخر عصورهم ، كما يشاهد على جدران الحمراء بغرناطة ، ويختلف أهل المشرق عن أهل المغرب فى ترتيب الحروف ، فهى عند المشارقة : ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن هـ و لا ى . وهى عند المغاربة : ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز ط ظ ك ل م ن ص ض ع غ ف ق س ش هـ و لا ى . كما يختلف أهل المغرب عن أهل المشرق فى إعجام الفاء والقاف ، فهم ينقطون « الفاء » بنقطة من أسفلها ، والقاف بنقطة واحدة من أعلاها . وفى استخدام الشكل اللاتينى المعاصر للأرقام ، وهو استخدام سابق لموجة الاستعمار الأوربى المعاصر فى العالم الإسلامى ، وليس نتيجة له . ويرى علماء المغرب ، وهم على حق ، أن صور الأرقام التى يستخدمونها عربية أصيلة ، وليست منقولة عن الرسم اللاتينى ، لأن أوربا لم تكن تعرف هذه الأرقام ، وإنما تعلمتها عن العرب ، عرفها جيربرت Gerbert (٩٣٠ - ١٠٠٣ م) فى الأندلس حيث تلقى دراساته العالية ، وأشاعها بنفوذه حين أصبح بابا الكاثوليك تحت اسم **سلفستر الثانى** Silvestre II عام ٩٩٩ م . ويتحدث عنه المؤلفون الغربيون القدامى كمخلّص للعالم المسيحى (الأوربى) من ضنك الأرقام الرومانية ، وحامل معجزة الصفر والنظام العشرى إليها من العرب ، وهو الذى طالع أوربا بأول كتاب من نوعه فى





(خط قيرواني : سنغالي)



(خط أندلسي)

علم الحساب بالأرقام العربية ، وقد وجد فيها الأوربيون متعة لا تعوض لعظم فائدتها وبساطة تركيبها . وقد تطورت هذه الأرقام فى المشرق بينما احتفظ بها المغرب ، أو طوّرها قليلاً ، وهم يستخدمون هذه الأرقام الآن فيما يكتبون أو يطبعون ، وسواء أكان الرسم الأصلى هو المستعمل عندهم ، أو مايجرى عليه العمل عندنا فى المشرق ، فمن الخير توحيده بين جناحى العالم العربى . وفى عالم متشابك ، يزداد كل يوم قرباً ، فإن الرسم المغربى للأرقام ، وهو نفس الرسم اللاتينى ، يبدو أكثر فائدة وأهم نفعاً .

يُستخدم الرسم العربى فى وقتنا الحاضر عند جميع الشعوب الناطقة باللغة العربية ، ماعدا أهل مالطة فلهجتهم ترسم بحروف لاتينية ، وكانت تكتب بحروف عربية فى شكلها الكوفى حتى سنة ١١٧٣ م ، وقد اتخذته أمم أخرى لا تتكلم العربية لتدوين لغاتها ، كالفرس وسكان مدغشقر وزنجبار ، واللغة الأوردية ، واللغة البربرية فى شمال أفريقية . وكانت تدوّن به اللغة التركية ، قبل أن يثور كمال أتاتورك على ماضى وطنه وتاريخه ، فألغى الرسم العربى عام ١٩٢٥ ، واتخذ عوضاً عنه الرسم اللاتينى . ومع نهاية دولة المسلمين فى الأندلس ، وإكراه المسلمين قسراً على التخلى عن عقيدتهم ولغتهم وتقاليدهم أخذ المسلمون المتنصرون يكتبون لغتهم الإسبانية بحروف عربية ، وخلفوا لنا بعضاً من تراثهم الثقافى بها ، وكان يطلق عليهم الموريسكوس Moriscos وعلى لغتهم العجمية Aljamiado . كما أن بعض المؤلفات العربية دونت برسم غير عربى ، فدون عدد قليل منها فى الأندلس بالرسم العبرى ، وعدد آخر فى المشرق بالرسم السريانى . وتبذل جمهورية الصومال الإسلامية جهوداً كبيرة لكتابة اللغة السواحلية التى يتكلمها سكان الصومال ، وسواحل أفريقيا الشرقية ، وهى لغة مكتوبة حتى الآن ، بحروف عربية ، وهى محاولة إذ قدر لها النجاح تفتح الطريق أمام الحرف العربى إلى بقية دول القارة الأفريقية .

عصر المخطوطات

لانكاد نصل الى العصر الأموى وتتكسر الحواجز مابين مصر والجزيرة العربية ، وتصبح الفسطاط واحدة من أهم عواصم الإمبراطورية الإسلامية بعد عاصمة الخلافة ، حتى يتدفق ورق البردى على مراكز الثقافة فى البصرة والكوفة ثم بغداد من بعد ، ويصبح فى وسع المؤلفين والناسخين الحصول عليه فى شىء من اليسر ، بعد أن كانت الكتابة وقفاً على الرق ، وألوان أخرى من العظام ، والعسب والأحجار غير عملية ، فاتسعت حركة التدوين فى الحديث والتفسير ، والتاريخ ، أو المغازى والسير بلغة العصر الوسيط ، واللغة والشعر ، لكن أياً من هذه العلوم لم يكن فى البدء خالصاً فى مادته . وكانت مصر المصدر الأول للبردىّ ، تصنع منه القراطيس أو الطوامير ، ويكون طول الواحد ثلاثين ذراعاً وأكثر ، فى عرض شبر ، وظلّت مصر لمدة طويلة من الزمن تورّد الورق البردى ، ثم الورق الأبيض بعد اختراعه ، إلى العالم الإغريقى ، وكان يسمى القراطيس أخذاً من الكلمة اليونانية Chartes أو من اللاتينية فى صيغة الجمع Chartas :

لكن ورق البردى مهما كانت سبل تيسيره لا يتأتى لكل الناس الحصول عليه ، ولقد جاء الحل سريعاً مع زحف القائد العظيم قتيبة بن مسلم إلى الشرق . فعندما فتح العرب سمرقند عام ٧١٢ م وجدوا بها مصنعاً للورق ، إنتاجه أجمل وأرخص مما كانوا يكتبون عليه فى بلادهم ، فأبقوا عليه ، وأقاموا معه مصنعاً آخر بمساعدة أهل سمرقند عام ٧٥١ م ، وأرسلت الدولة عدداً من الأسرى الصينيين لرفع كفايته الإنتاجية ، وكان الصينيون فى القديم أول من ابتدع الورق ومهر فى صناعته ، وربما كانت الكلمة « كاغد » التى أطلقها المسلمون على الورق الذى تنتجه هذه المصانع من أصل صينى ، دخلت اللغة العربية مباشرة ، أو عن طريق اللغة الفارسية .

وعلى غرار مصنع سمرقند أنشئ أول مصنع للورق فى بغداد عام ٧٩٤ م ، وحل الورق محل الرقّ فى مكاتب الدولة ، وأخذت مصانع الورق تنتشر فى بقية

أنحاء الإمبراطورية الإسلامية ، فكان لمصر مصنعها الخاص بها ، أقيم قريباً من عام ٩٠٠ م ، ولمراكش مصنعها حوالى ١١٠٠ م ، وللأندلس مصنعها ، وأسس فى شاطبة Jatiba قريباً من هذا التاريخ ، وكان أول مصنع للورق يؤسس فى أرض أوربية ، وما تزال شاطبة من المراكز الهامة لصناعته فى شبه جزيرة إيبريا حتى وقتنا الحاضر . وكانت هذه المصانع تنتج كافة أصناف الورق المتنوعة من أبيض وملون . ويمكن القول ، مع كثير من الترجيح ، أن صناعة ورق البردى للكتابة قد توقفت فى مصر حوالى منتصف القرن العاشر الميلادى ، الرابع الهجرى ، وآخر وثيقة مكتوبة على ورقة بردية يعود تاريخها إلى عام ٣٢٣ هـ = ٩٣٥ م ، وأقدم مخطوط عربى كُتبِ على الورق ووصل إلينا فى الحديث ، اسمه « غريب الحديث » لأبى عبيد القاسم بن سلام المتوفى عام ٨٣٧ م ، ويحمل تاريخ ذى القعدة ٢٥٢ هـ = ديسمبر ٨٦٦ م . ومخطوطة هذا الكتاب محفوظة فى جامعة ليدن بهولاندا ، ومنه نسخة أخرى أحدث تاريخاً ، ترجع إلى عام ٣١١ هـ = ٩٢٣ م ، محفوظة فى مكتبة الجامع الأزهر .

ومع بداية عصر النهضة الأوربية ، اقتبست دول الغرب صناعة الورق من العرب ، عن طريق الأندلس انتقل إلى فرنسا ، وعن طريق صقلية الإسلامية انتقل إلى إيطاليا ، وعنهما انتشر فى بقية أنحاء أوربا ، ومن الأخطاء التاريخية الشائعة القول بأن معرفة أوربا للورق تعود إلى الحروب الصليبية .

مع قيام الدولة العباسية بلغت الإمبراطورية الإسلامية قدراً عالياً من الرقى العقلى والثراء المادى ، وبدأ ذلك كله يؤتى ثماره ؛ دقة فى العلم ، وإقبالا عليه ، وحبا للثقافة وتقديراً لها ، وولوعاً بالكتب واقتنائها . وخلال خمسمائة عام ، أو على التحديد مابين ٧٠٠ م و ١٢٠٠ م ، سيطر الإسلام على العالم ، سيادة وعلماً وتوهَّج حضارة . لقد ورث تراث الإغريق العلمى والفلسفى فحفظه وتمثله وأثراه ، وأضاف إليه الكثير من ذات نفسه ، ونقله إلى أوربا فوسع الأفق العلمى والثقافى لعصورها الوسيطة المظلمة ، وتسرب بعمق إلى التفكير والحياة الأوربية .

كان قيام صناعة الورق وانتشارها مظهرًا واضحًا ودقيقا لحياة المسلمين الثقافية ، لأن رواج الثقافة مرتبط بانتشار التعليم ، واختفاء الأمية ، فمنذ عهد مبكر من قيام الإسلام ، أصبحت المدرسة ، ممثلة فى المسجد أصلًا أو فى بناء ملحق

به ، مناط اهتمام الدولة والأفراد ، يذهب إليها الأطفال منذ العام السادس مجاناً أو مقابل رسم رمزى هو فى متناول الجميع ، وكانت مدة الدراسة خمس سنوات ، ومن شرائط المعلم أن يكون متزوجاً ، وعلى قدر وافر من الثقافة ، وفى سن ناضجة .

وفى القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى ، أحسَّ الناس أن التعليم الابتدائى لم يعد كافياً ، وأن بناء شخصية التلميذ وتكوينه العلمى يتطلب مزيداً من الإعداد ، فتأسس ما يمكن أن نسميه بالمدرسة الثانوية ، وبذلك أصبحت المدرسة الأولية للتربية ومجاناً ، وتدرس القراءة والكتابة والقرآن ومبادئ الحساب وشيئاً من الشعر ، وتجمع بين البنين والبنات . ويتجلى اهتمام الرأى العام بتلاميذ هذه المدارس ، فى التكريم الذى كان يقدم لتلاميذها ، فكان يُطاف بالنجباء منهم فى الشوارع على ظهور الإبل ، ويرميهم الناس باللوز ، وكانت هذه الطريقة متّبعة فى بغداد ، على حين أخذت فى الأمصار الإسلامية الأخرى طرقاً مغايرة ، للتعبير عن اغتباط الناس بهؤلاء الصبيان النابهين . أما التلاميذ فى المدارس الثانوية فكانوا يدرسون النحو واللغة والأدب والمنطق والرياضيات ومواد أخرى ، وتزاوج المدارس بين التدريس النظرى والتطبيق العملى إذا سمحت طبيعة المادة بذلك .

وإلى جانب التعليم العام كانت الطبقات العالية فى المجتمع تحضر لأبنائها معلمين خصوصيين ، يفقهونهم فى الدين والأدب . وفى الكثير من أجزاء الإمبراطورية الإسلامية بلغ التعليم الابتدائى قدراً عالياً من الانتشار ، ويقرر المستشرق الهولندى رينهاوت دوزى Dozy بأن « كل واحد تقريباً فى الأندلس كان يعرف القراءة والكتابة » . بينما كانت أوربا المسيحية لا تعرف إلا أوليات المعارف ، وكان عرفانها لا يعدو طبقة قليلة معظمها من رجال الدين .

ثم أصبح التعليم الثانوى وكأنه غير كاف لتلبية حاجات الناس العقلية ، فأنشأ **الخليفة المأمون** عام ٨٣٠ م أول معهد للتعليم العالى فى الإسلام ، سماه **بيت الحكمة** ، ومع أنه أقيم أصلا للعناية بالترجمة والإشراف عليها تخطيطاً وتنفيذاً ، إلا أنه كان موضعاً للتدريس ومناقشة القضايا العالية ، ويضم مكتبة عامة ، ومرصداً متصلاً به . ومالبث « بيت الحكمة » أن عجز عن مواجهة السيل المتدفق من الراغبين فى الثقافة ، فضلاً عن تنوعها وتعقد قضاياها والتخصص فى دراستها ،

فأسس الوزير السلجوقى نظام الملك « المدرسة النظامية » فى بغداد عام ١٠٦٥ م ، وسرعان ما أصبحت مثالاً احتذى فى مدن أخرى كثيرة ، وكانت الحكومة تتولى الإنفاق عليها . ويدرس فيها القرآن والحديث والفقه طبقاً للمذهب الشافعى ، وعلم اللغة والأدب والجغرافية والتاريخ والمعمار والفلك والرياضيات والكيمياء والموسيقى والجبر . وكان طلبة المدرسة يتمتعون بالمسكن والمأكل مجاناً ، والكثير منهم يتلقّى فضلاً عن ذلك مكافآت شهرية وظل الإمام الغزالى يشغل أحد كراسى الأستاذية فيها مدة أربع سنوات من ١٠٩١ إلى ١٠٩٥ م . وعاشت المدرسة النظامية بعد سقوط بغداد على يد هولاكو عام ١٢٥٨ م ، كما عاشت بعد غزوات التتر الأخيرة ، ثم اندمجت فى معهد عال آخر هو المستنصرية .

تنسب المستنصرية إلى الخليفة المستنصر ، وقد أسسها فى بغداد عام ١١٣٤ م وكانت ذات صبغة إسلامية دولية ، إن صح التعبير ، فهى تدرّس المذاهب الفقهية الأربعة ، واعترفت بها الدولة رسميا للفتوى طبقاً لتعاليم هذه المذاهب ، وكان على مدخلها ساعة ، من المؤكد أنها ساعة مائية ، ومزوّدة بمساكن للطلاب وحمامات ومطابخ ، وملحق بها مستشفى ومكتبة ، ولايزال بناؤها قائماً حتى يومنا هذا ، ويكاد يكون الأثر المعمارى الوحيد القائم من أيام العباسيين . وكان هذا المعهد ، فى تنوع ثقافته ، وتعدد أقسامه ، وصبغته الإسلامية الدولية ، الشيء الذى قلده الغرب عند إنشاء جامعة باريس فى القرن الثالث عشر الميلادى ، فكانت تمثل أربع دول مسيحية ، ثم أصبحت المثل الذى احتذته كل الجامعات الأوربية فى العصر الوسيط ، وما تقوم به منظمة الأونسكو .U.N.E.S.C.O الآن على الصعيد الثقافى الدولى ، وبوسائل أكثر عصرية وشمولاً ، شبيه بما كانت تقوم به المدرسة المستنصرية بين المسلمين فى العصر الوسيط[١] .

وأنشأ الحاكم الفاطمى دار الحكمة فى القاهرة عام ١٠٠٥ م وألحق بها مكتبة

---

(١) Risler, Jacques c. : La Civlisation Arabe, p. 78, Paris 1962

ولمزيد من المعلومات عن دور الجمعات العربية فى الجامعات العربية ، يمكن العودة إلى كتاب التربية الإسلاميه فى الأندلس ، لخوليان ريبيرا ، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكى ، طبعة دار المعارف ، القاهرة ١٩٨١ .

سُمّيت دار العلم وكانت مخصصة لدراسة فلسفة المذهب الشيعى والتعريف به ، إلى جانب العلوم الأخرى ، وظلت قائمة حتى مجىء الأيوبيين ، كما أن الخليفة العزيز حوّل الجامع الأزهر إلى جامعة علمية ، تضم من أنواع التعليم أقسامه الثلاثة : الابتدائى والثانوى والعالى .

كان الإملاء يعتبر أعلى مراحل التعليم ، وبخاصة فى القرن الثالث الهجرى ، وفى القرن الرابع ترك اللغويون طريقة المتكلمين والمحدثين فى الإملاء ، واقتصروا على تدريس كتاب يقرأ منه الطلبة ، وآخر من أملى من اللغويين ، فيما يقال ، هو أبو القاسم الزجاجى ، المتوفى سنة ٣٣٩ هـ = ٩٥٠ م ، وكان الأستاذ يعود أحياناً إلى ماأملاه فيراجعه ، وقد يزيد عليه ، وكان للطالب أن يسأل المدرس ، وكان عدد الطلاب يعرف بإحصاء محابرهم التى يضعونها أمامهم ، وهى أهم عتاد الطالب ، وفى محاضرات كبار الأساتذة كان يتراوح عدد الطلاب بين ثلثمائة وسبعمائة طالب ، وللطالب أن يسأل أستاذه ، وبعض الأساتذة كان يضيق بطلابه حين تنبئ أسئلتهم عن جهل أو سُخف . حُكى أن طالباً سأل أبا عبيدة اللغوى سؤالاً يدل على سوء الفهم ، ثم تلاه ثان وثالث فسألا على نفس المستوى ، فأخذ أبو عبيدة نعليه ، واشتد ساعيا فى مسجد البصرة ، يصيح بأعلى صوته : من أين حُشرتْ البهائم على اليوم !

لكن ذلك لم يمنع الطلاب أن يقولوا آراءهم فى أساتذتهم ، فى إطار من الصراحة والاحترام ، وقد أورد صلاح الدين الصفدى فى كتابه « نُكْت الهَميان فى نكت العميان » رأى ياقوت فى أستاذه المبارك بن المبارك ، المتوفى عام ١٢١٥ م ، وكان أستاذ النحو فى مدرسة النظامية ، فقال عنه إنه « قليل الحظ مع التلامذة ، يتخرّجون عليه ولا ينسبون إليه ، ولم يكن فيه عيب ، إلا أنه كان فيه كيس ولين ، فإذا جلس للدرس قطع أكثر أوقاته بالأخبار والحكايات وإنشاد الأشعار ، حتى يسأم الطالب منه ، وينصرف عنه وهو ضَجِر ، وينقم ذلك عليه . رغم أنه كان يجيد عددا من اللغات الأجنبية من بينها التركية والفارسية والرومية والحبشية والزنجية ، وكان إذا قرأ عليه عجمىّ واستغلق عليه المعنى العربى فهّمه إياه بالعجمية » .

ومنذ مطلع القرن الثالث الهجرى ، التاسع الميلادى ، شهد العالم الإسلامى

حركة ترجمة نشيطة ، وكان يشترط فى المترجم أن يكون على مستوى رفيع فى إجادة اللغتين ، وأن يكون ملما تماما بالموضوع الذى عالجه المؤلف ، وألا يكون أسلوبه فى الكتابة أحطّ مرتبة من أسلوب المؤلف ، وأن يكون قادراً على استخدام الألفاظ والتعابير القريبة إلى الأصل المترجم عنه ، مع المحافظة على سلامة التعبير ، وصحة القواعد ، وجودة الأسلوب فى اللغة المترجم إليها . وربما أعيدت ترجمة كتاب مرة أخرى ، على نحو أكثر دقة من ترجمته التى بين يدى الناس . وفى البدء كان المترجمون يستخدمون الترجمة الحرفية ، بنقل الجملة من لغة إلى لغة ثانية كلمة كلمة ، وكانت حصيلة هذه الطريقة عدداً من الكتب الرديئة الترجمة وغير المفهومة ، فلما انتهى الأمر إلى شيخ المترجمين حنين بن إسحاق قضى على هذه الفكرة ، وأعطى الحياة الثقافية طريقة أصح منهجا ، تنهض على أساس من نقل المعنى الصحيح نقلاً دقيقاً مضبوطاً .

ولا يجارى النهم الذى عُرف به المسلمون فى الإقبال على العلم ، واحتواء تجارب الآخرين ، غير إقدامهم على اقتناء الكتب ، وكانت المساجد تؤدى إلى جانب مهمة المدرسة مهمة المكتبة العامة ، وتميزت مكتبات المساجد بغناها ، بفضل ما يُهدى إليها من كتب ، وكان الخطيب البغدادى المؤرخ المشهور (١٠٠٢ - ١٠٧١ م) من بين من وقفوا كتبهم على المسلمين . وكما استقلت المعاهد العالية عن المساجد دون أن تضعف الدراسة فى هذه ، حدث الشىء نفسه فيما يتصل بالمكتبات ، فبدأ الأغنياء يقيمون مكتبات عامة ، تضم كتباً فى المنطق والفلسفة والأدب واللغة والشريعة ، يتردد عليها أولئكم العاجزون عن شراء الكتب أو الذين لا يتيسر لهم الحصول عليها .

وأول مكتبة عامة أقيمت فى الإسلام كانت بالقرب من بيت الحكمة فى بغداد ، ثم أخذت كبريات المدن فى الإمبراطورية تحذو حذوها ، فلم تلبث مدينة الموصل أن أنشأت مكتبتها العامة قريباً من عام ٩٥٠ م ، حيث يستطيع الطلاب أن يستعيروا مابها من مؤلفات ، كتباً كاملة أو فى شكل ملازم .

وأنشأ الخليفة العزيز بن المعز لدين الله الفاطمى ، المتوفى ٣٨٦ هـ = ٩٩٦ م ، مكتبة عامة ألحقها بقصره ، وتضم من الكتب ١,٦٠٠,٠٠٠ مجلد ، ورواية أبى شامة فى كتابه « الروضتين » ترتفع بالعدد إلى مليونين ، وكانت

تحتوى على مصنفات فى الفقه واللغة والحديث والتفسير والفلك والكيمياء ، عدا المصاحف . وكان بعض الكتب مكتوباً بخط ابن مقلة ، وعلى بن هلال المعروف بابن البواب ، وغيرهما من مشاهير الخطاطين . وعندما جاء ذكر كتاب العين للخليل بن أحمد أمام الخليفة العزيز أمر أمين المكتبة أن يجىء بما فى المكتبة من نسخه ، فجاء منه بنيّف وثلاثين نسخة ، منها واحدة بخط الخليل بن أحمد نفسه . وحمل إليه ورّاق نسخة من تاريخ الطبرى فاشتراها بمائة دينار ، رغم أن المكتبة كانت تضم منه مايربو على عشرين نسخة ، منها واحدة بخط المؤلف نفسه[1] . وفيها مايزيد على مائة من كتاب « الجمهرة » لابن دريد . وكان الخليفة إذا زار المكتبة ترجّل إجلالا للعلم .

ولم يكن الغرب الإسلامى أقلَّ عناية بالكتب ، فأنشأ عبد الرحمن الداخل مكتبة فى قرطبة ، أخذت تزداد وتتسع فى عهد خلفائه من بعده ، وبلغت شهرة عالمية فى عهد عبد الرحمن الناصر ، فلما أراد الإمبراطور البيزنطى أن يهادى خليفة قرطبة بشىء يدخل البهجة على نفسه ، أهدى إليه كتاباً جديدا هو Dioscorides وكان مكتوبا فى اللغة اليونانية ، فطلب إليه الناصر أن يوافيه بمن يقوم بترجمته إلى العربية ، فأرسلت إليه القسطنطينية الراهب نيكولاس ، Nicolas، فلما توفى الناصر ، ثم الأمير محمد من بعده ، ضم الحكم مكتبتيهما إلى مكتبته فصارت أكبر مكتبة فى الأندلس ، وبلغ عدد مجلداتها فى خبر لا يرقى إليه الشك : ٤٠٠,٠٠٠ مجلد ، وكُتبتْ فهارسها فى ٤٤ كرّاسة ، فى كل واحدة ٥٠ ورقة ، منها عشرون مخصصة للدواوين الشعرية فحسب ، وكان الحكم ، وهو من الخلفاء العلماء القارئين ، يستخدم شخصيا الكثير من هذه الكتب ، وكثيرا مايدوّن ملاحظاته وتعليقاته على هوامش المخطوطات ، فأصبحت ذات أهمية عظيمة فى نظر العلماء المتأخرين .

وإلى جانب المكتبات العامة كانت هناك المكتبات الخاصة تسهم فى نشر الثقافة ، وتعميق المعرفة . وأقدم مكتبة خاصة نعرفها كانت عند خالد بن يزيد

---

(١) تقول إحدى الروايات : إن عدد نسخ كتاب الطبرى فى مكتبة العزيز بلغ ١,٢٢٠ نسخة . والمبالغه فى الرقم واضحة . والأقرب أنه سهو من النساخ .

ابن معاوية بن أبي سفيان المتوفى سنة ٨٥ هـ ، حكيم آل مروان وعالم قريش . وأقام على بن يحيى المنجم ، حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى خزانة كتب عظيمة فى ضيعته ، وسماها « خزانة الحكمة » ، وكان يقصدها الناس من كل بلد ، فيقيمون فيها ويتعلمون منها ، « والكتب مبذولة لهم ، والصيانة مشتملة عليهم » والنفقة فى ذلك من مال صاحبها . وعندما صودرت أموال حبشى ابن معز الدولة لأنه أراد عصيان أخيه أمير بغداد ، عام ٣٥٧ هـ = ٩٦٧ م ، كان من جملة ماأخذ منه خمسة عشر ألف مجلد ، سوى الأجزاء وماليس بمجلد . وعندما استدعى السلطانُ نوحُ بن منصور السامانى الصاحب بن عباد (ت ٣٨٤ هـ = ٩٩٤ م) ليوليه الوزارة ، اعتذر بأنه لا يستطيع حمل أمواله ، وأن عنده من كتب العلم خاصة مايحمل على أربعمائة جمل أو أكثر . وكان فهرس كتبه يقع فى عشرة مجلدات ، « وهى أكثر من كل مافى مكتبات أوربا العامة والخاصة مجتمعة فى العصر الوسيط »[1] . وترك الواقدى المؤرخ ، صاحب كتاب « المغازى » ، عند وفاته ٦٠٠ صندوق من كتبه ، يحتاج الواحد منها لحمله إلى عشرة أشخاص .

وأسس أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلى ، الفقيه الشافعى المتوفى عام ٣٢٣ هـ = ٩٣٥ م ، داراً للعلم فى بلده ، وجعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم ، لايمنع من دخولها أى طالب علم ، وإذا جاء غريب يطلب الأدب وكان معسراً أعطاه وَرَقاً ووَرِقا ، وكان يجلس فيها إلى الطلاب يملي عليهم من شعره ، وشعر غيره ، أو يقص عليهم حكايات مستطرفة ، أو طرفاً من الفقه ومايتعلق به ، وأنشأ القاضى ابن حبان ، المتوفى ٣٥٤ هـ = ٩٦٥ م داراً للعلم ، وخزانة كتب ، ومساكن للطلاب الغرباء فى مدينة نيسابور ، وأجرى عليهم الارزاق ، وكانت لوائح المكتبة تمنع إعارة الكتب خارجها . واتخذ الشريف الرضى ، المتوفى عام ٤٠٦ هـ = ١٠١٥ م نقيب العلويين والشاعر المشهور داراً سمّاها « دار العلم » ، فتحها للطلاب ، وعيّن لهم فيها جميع ما يحتاجون إليه .

وأشهر مكتبة خاصة كان يملكها فرد فى قرطبة كانت مكتبة القاضى أبو المطرف

---

(١) لكيلا ينزعج السادة المتاوربون ، فإن التعبير ليس لى ، وإنما هو للمستشرق الفرنسى جاك رسلير ، فى كتابه « الحضارة العربية » ص ٩٢ ، وقد أشرنا إلى الكتاب من قبل ، هامش ص ٥٧

ابن فطيس (ت ٤٠٢ هـ = ١٠١١ م) ، وقد أنشأ لها مبنى خاصا ، صُنع بفنٍّ يُتيح رؤية الكتب مستريحة فى أماكنها ، عبر أبهاء أنيقة ، وعلى الجدران ، ورؤية السقف والسجاد والشلت ، وكلها خضراء اللون ، وكان اللون المحبب إلى نبلاء قرطبة ، وجمع فيها من الكتب فى مختلف أنواع العلوم والفنون مالم يجمعه أحد من أهل عصره فى وطنه ، وكان يعمل فيها باستمرار ستة من الورّاقين ينسخون له دائماً مايريد ، ولكى يجيدوا عملهم ، وحتى لا يتسرعوا فيه ، كانوا يقبضون رواتبهم مشاهرة على امتداد العام كله ، وكان يشرف عليها ويديرها ويعدّ فهارسها ، وينسخ الكتب النادرة ذات الأهمية الخاصة ، **أبو عبد الله بن معالى الحضرمى** ، وفى نفس الوقت كان يعمل إماماً لمسجد الأسرة . وعندما يعرف أبو المطرف أن أحداً حصل على كتاب جديد لا يهدأ له بال حتى يشتريه ، يدفع فيه الثمن أضعافاً مضاعفة ، فإذا لم يستطع الحصول عليه وسّط من يعينه على ذلك ، فإذا فشل فى محاولته طلب أن يُهدى إليه ، أو يسمح له بنسخه . وكان لا يعير كتاباً من أصوله البتة ، وإذا ألحف عليه أحد فى السؤال أعطاه للناسخ فنسخه وقابله ثم دفعه إلى المستعير . وعندما قررت أسرته فيما بعد بيع كتبه ، استمر البيع فى مسجده عاما كاملاً وكانت حصيلة مابيع منها أربعين ألف دينار .

وعرفت الأندلس نوعاً آخر من هواة الكتب ، أولئكم الذين يطلبونها وجاهة ، ويضعونها فى منازلهم تزيُّنا ، روى المقرى فى « نفح الطيب » على لسان أندلسى : « أقمت بقرطبة ، ولازمت سوق كتبها مدة ، أترقب فيه وقوع كتاب كان لى بطلبه اعتناء ، وهو بخط فصيح وتجليد مليح ، ففرحت به أشد الفرح ، فجعلت أزيد فى ثمنه فيرجع إلى المنادى بالزيادة على ، إلى أن بلغ فوق حدّه ، فقلت له : ياهذا أرنى من يزيد فى هذا الكتاب حتى بلّغه إلى مالا يساوى ، قال : فأرانى شخصاً عليه لباس رياسة ، فدنوت منه وقلت له : أعزّ الله سيدنا الفقيه ، إن كان لك غرض فى هذا الكتاب تركته لك ، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حدّه . قال ، فقال لى : لست بفقيه ، ولا أدرى مافيه ، ولكنى أقمت خزانة كتب واحتفلت فيها ، لأتجمل بها بين أعيان البلد ، وبقى فيها موضع يسع هذا الكتاب فلما رأيته حَسَنَ الخط ، جيد التجليد ، استحسنته ولم أبال بما أزيد فيه ، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير » .

وكانت هناك قواعد لإعارة الكتب يلتزمها الطلّاب ، أوردها ابن جماعة فى كتابه « تذكرة السامع » ، وعنه ننقل نصها : « ينبغى لطالب العلم أن يعتنى بتحصيل الكتب المحتاج إليها فى العلوم النافعة ماأمكنه ، شراء أو إجارة أو عارية ، لأنها آلة التحصيل . ولا يجعل تحصيلها وجمعها وكثرتها حظه من العلم ، ونصيبه من الفهم . وإن أمكنه تحصيلها شراء فلا يشتغل بنسخها ، لأن الاشتغال بالدرس أهم من النسخ ، ولا يرضى بالاستعارة مع إمكان تحصيله ملكاً أو إجارة .

وإذا استعار كتاباً فلا يبطئ به من غير حاجة وأن يشكر للمستعير ذلك ويجزيه خيراً ، وإذا طلبه المالك فيحرم عليه حبسه ويصير غاصباً له ، وقد جاء فى ذمّ الإبطاء برد الكتب المستعارة عن السلف أشياء كثيرة نظماً ونثراً .

ولا يجوز أن يصلح كتاب غيره ، دون إذن صاحبه ، إلا فى القرآن ، فإن كان مغلوطاً أو ملحوناً وجب إصلاحه . فإن لم يكن خطه مناسباً أمر من يكتب ذلك بخط حسن . ولا يعلق عليه : ولا يكتب شيئاً فى بياض فواتحه أو خواتمه ، إلاّ إذا رضى صاحبه ، ولا يعيره غيره ، ولا يودعه لغير ضرورة ، ولا ينسخ منه بغير إذن صاحبه ، فإن كان الكتاب وقفاً على من ينتفع به غير معين فلا بأس بالنسخ منه مع الاحتياط . وإذا نسخ من الكتاب أو طالعه فلا يضعه على الأرض مفروشاً منشوراً ، بل يجعله بين كتابين أو شيئين أو كرسى الكتب المعروف ، كيلا يسرع تقطيع حبله . ولا يطوى حاشية الورقة وزاويتها كما يفعل كثير من الجهلة ، ولا يعلّم بعود أو شيء جاف ، بل بورقة أو نحوها . وإذا استعار كتاباً فينبغى أن يتفقده عند إرادة أخذه من ورقة محتاج إليها ونحوها . وإذا اشترى كتاباً نظر أوّله وآخره ووسطه وترتيب أبوابه وكراريسه واعتبر صحته » .

سيكون مرهقاً أن نتتبع تاريخ المكتبات الخاصة ، وحسبنا القول إنها كانت إحدى ملامح المجتمع البارزة ، وعندما يبلغ الناس هذا القدر من الثقافة ، ويصبح اقتناء الكتب عندهم أمراً ضروريا ، تفرضه طبيعة الحياة والتقدم ، فى مجتمع طافح بكبار الأغنياء وأصحاب الثروات الضخمة ، يبدأ التفنّن فى الكتابة وزخرفة الكتب وتجميلها . وكان المانوية أول من عُنى بزخرفة الكتب بالذهب والفضة ، ثم تبعهم أصحاب الحلاج ، الذى قتل عام ٣٠٩ هـ = ٩٢١ م ، فكانت كتبهم تخط على

ورق صينى ، وبعضها يكتب بماء الذهب ، ويبطن بالديباج والحرير ، ويجلّد بالأدم الجيد . وفى القرن الخامس الهجرى أهدِىَ للوزير **نظام الملك** مصحف بخطّ أحد الكتاب المجوّدين ، وقد خطّ كاتبه اختلاف القراء بين سطوره بالمداد الأحمر ، وتفسير غريبه بالأخضر ، وإعرابه بالأزرق ، وكتب بالذهب علامات على الآيات التى تصلح للاقتباس فى العهود والمكاتبات ، وآيات الوعد والوعيد ، ومايكتب فى التعازى والتهانى .

وقد أورد المستشرق السويسرى آدم متز Adam Mez فى كتابه عصر النهضة فى الإسلام Die Renaissance des Islams[1] بعض ما كان فى خزائن الكتب فى الغرب ، فى تلك الفترة ، على سبيل المقارنة فقال : « كان فى مكتبة الكاتدرائية بمدينة كنستانز فى القرن التاسع الميلادى ثلاث مئة وستة وخمسون كتاباً ، وفى مكتبة دير البندكتيين عام ١٠٣٢ م مايزيد على المائة بقليل ، وفى خزانة كتب الكاتدرائية فى مدينة بامبرج سنة ١١٣٠ م ستة وتسعون كتاباً فقط » .

أدت هواية الكتب إلى قيام عدد من الصناعات والحرف المتعلقة بها ، من النساخ والخطاطين والمجلدين والمزخرفين . وكان هؤلاء النساخون يتفاوتون علماً ومقاماً ، وبينهم من بلغ رتبة الوزارة كابن مقلة ، وكان أبو على القالى ، العالم اللغوى الذائع الصيت ، ينسخ الكتب النادرة والهامة فى مكتبة الحكم ، ويراجع نسخ بقية الخطاطين ، وكان بينهم عدد من الخطّاطات حفظ لنا التاريخ منهن اسمى : **لبنى وفاطمة** .

وكان ارتفاع أثمان التجليد يجعل عشاق الكتب ، والقائمين على المكتبات ، يجمعون عدداً من الكتب فى مجلّد واحد ، وأحياناً عدداً من أجزاء لكتب مختلفة ، أو فضْلات من هذه الكتب ، ومن هنا فإن فهارس المخطوطات غير المستأنية التى تصدرها المكتبات الكبرى على امتداد العالم المعاصر ، تعريفاً بالمخطوطات العربية ، لا تصورّ الواقع تصويرًا دقيقاً ، فقد يكتفى فى التعريف بذكر عنوان الكتاب الأول أو بالعناوين البارزة خلال المجلد ، وغالباً ماتغفل عن الأجزاء

---

(١) قام بترجمة هذا الكتاب القيم إلى اللغة العربية الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة . ونشره بعنوان : « الحضارةالإسلاميه فى القرن الرابع الهجرى » وظهرت الطبعه الأولى منه فى جزأين عام ١٣٥٩ هـ = ١٩٤٠ م . وأعيد طبعه بعد ذلك مرات

الصغيرة الحجم ، أو المهملة العنوان .

وظهرت حوانيت الكتب لتلعب دوراً تجاريا هاما ، وتؤدى رسالة تربوية لا تقل أهمية ، ويذكر اليعقوبى المؤرخ أن بغداد على أيامه ، عام ٨٩١ م ، كان فيها ما يزيد على مائة حانوت لبيع الكتب ، مجتمعة فى شارع واحد ، وكان الكثير من هذه الحوانيت ، كنظائرها فى القاهرة فى الثلاثنيات من هذا القرن ، أماكن منخفضة متصلة بالمساجد ، وكان بعضها من الكبر بحيث يصبح المكان المفضّل للعلماء وهواة الكتب . وكان باعة الكتب أنفسهم من الخطاطين والناسخين والمشتغلين بالأدب غالباً . ولم تكن حوانيتهم مخازن للكتب أو النسخ فحسب ، وإنما مراكز للمناقشات الأدبية والعلمية أيضاً ، وكانوا يحتلون فى المجتمع مكاناً بارزاً ، وياقوت بن عبد الله الحموى (١١٧٩ - ١٢٢٩ م) ، صاحب كتابى « معجم البلدان » و « معجم الأدباء » ، بدأ حياته الأولى ينسخ الكتب ويبيع المخطوطات . وكان ابن النديم المتوفى عام ٩٩٥ م ، أميناً لإحدى المكتبات ، أو بائع كتب . ومن ألقابه « الورّاق » ، ونحن ندين له بكتابه العظيم « الفهرست » ، ويذكر لنا فيه أن عراقيا من هواة الكتب كانت تضم خزائنه مجموعة قيّمة من المخطوطات ، من بينها ماهو مكتوب على الرق ، والبردى المصرى ، والورق الصينى ، واللفائف الجلدية ، وكل مخطوط منها يحّمل اسم ناسخه ، وقد أجاز صحتها خمسة أو ستة أجيال من العلماء .

وكان يحيى بن محمد الأرزنى عالما فى العربية ، نحوياً مليح الخط ، سريع الكتابة ، يخرج فى وقت العصر إلى سوق الكتب ببغداد ، فلا يقوم من مجلسه حتى يكتب « الفصيح » لثعلب ، ويبيعه بنصف دينار ، ويشترى نبيذاً ولحماً وفاكهة ، ولا يبيت حتى ينفق مامعه منه .

ولم تكن الطبقة الدنيا محرومة من الكتب والثقافة إذ كان أبناؤها ، والبنات بصفة خاصة ، يعملون فى نسخ المخطوطات مقابل رواتب عالية . وكان العالم إذا لم يجد ما يعيش منه اشتغل بنسخ الكتب ، فكان أبو العباس الأصم ، المتوفى عام ٣٤٦ هـ - ٩٥٧ م ، من أكبر علماء خراسان ومحدثيهم ، إذا ذهب إلى المسجد لإلقاء درسه امتلأت عليه الطريق بالناس ، فيقومون له ، ويحملونه إلى المسجد على عواتقهم ، ولم يكن يأخذ على تدريسه أجراً ، وإنما كان يعيش من نسخ

الكتب . وكان العلماء الذين يحرصون على سلامة العلم ينسخون كتبهم بأنفسهم إن استطاعوا . فكان ابن المطران المتوفى عام ١١٩١ م ، محبا للقراءة ، وناسخا ممتازاً ، يكره شراء الكتب ، ويؤثر نسخها بنفسه .

ولم يكن أى ناسخ ينسخ أىَّ كتاب ، لأن الناسخ لابد أن يكون ملما بالموضوع الذى ينسخه ، وكان النسّاخ بحكم التجربة يعرفون أن هناك مخطوطات أقرب إلى النص الأصيل من غيرها .

وكان المؤلف يعهد بالكتاب إلى أحد أصدقائه أو تلاميذه ، أو نسّاخين محترفين أو ورّاقين لينسخوا له نسخة خاصة ، أو عدداً من النسخ للبيع ، وفى أحايين قليلة وخاصة ، كان يعهد به إلى أكثر من واحد ، كما حدث عند نسخ تاريخ دمشق لابن عساكر ، وكان فى ثمانين مجلداً . فقد اختير لهذا العمل عشرة من النساخين انتهى كل منهم من نسخ ما سُلِّم إليه فى سنتين ، وهى مدة غير طويلة .

وبعض الوراقين كان يؤجّر الكتب لمن يرغبون فى قراءتها أو استنساخها مقابل دفع شىء من المال . وقد أورد لنا ابن الداية ، أبو جعفر أحمد بن يوسف المتوفى ٢٩٢ هـ = ٩٠٥ م فى كتابه « المكافأة » قصة إسحاق بن نُصَير العبادى ، وكان من كتاب الخراج فى مصر ، وأمضى طفولته فى بغداد فقيراً معدماً نهماً إلى العلم ، يذهب كل عشية راجلاً إلى دكان وراق ، فيستعير منه الكتاب بعد الكتاب ، فإذا اقتضاه كراء ما نسخ منه ، ألحّ عليه أن يمهله إلى أن يجد عملاً يدر عليه بعض المال .

ولم تكن للتأليف حقوق مقرّرة ، والعلم خالص للمجتمع ، ويمكن لأى إنسان أن ينسخ أىّ كتاب لنفسه ، أو ليبيعه لغيره ، وفى مقابل ذلك كانت الدولة تبسط حمايتها على المفكرين ، فتجرى عليهم أرزاقها ، ومن العلماء من كان يرفض الراتب المقرّر له ، اعتزازاً منهم باستقلالهم ، ويستعيضون عنها بالعمل الذى يدرّ عليهم رزقاً يقوم بحياتهم . والكثيرون من الأغنياء ، وأعطينا لهم بعض المثل من قبل ، كانوا يمضون حياتهم وينفقون أموالهم فى اقتناء المخطوطات وتوسيع مكتباتهم ، وكانت المؤلفات تنتشر على نحو أوسع مما هى عليه فى عالمنا الحديث ، رغم المطابع ، ويسر الورق ، وسهولة المواصلات .

وعرف المسلمون نوعاً من الطباعة لم تصلنا تفصيلات وافية عنه ، وتحتفظ

مكتبة باريس الوطنية بنص طبعة المانوية فى تركستان قبل اختراع جوتنبرج Gutenberg للمطبعة بستمائة عام[1] ، وأنتج المنغوليون فى إيران ، فى القرن الثالث عشر الميلادى ، نوعاً من الورق صالحاً للطباعة بواسطة بعض الشخوص المتحركة من البرنز[2] .

وكانت الدولة تضع فى المقام الأول من عنايتها نشر الآداب والعلوم والفنون ورعاية الكتاب والأدباء والمفكرين ، وكان هؤلاء يتمتعون ، بصفة عامة ، بحرية فكر غير محدودة ، ولقد درس **الشهرستانى** فى كتابه « الملل والنحل » العقائد التى كانت سائدة فى عصره فى حياد دقيق ، لا يمكن أن تجد له مثيلاً عند عالم مسيحى من علماء عصره .

ويقص **ياقوت** ، أن شيخه **مبارك بن المبارك** ، أستاذ النحو فى مدرسة النظامية ، لام أمين إحدى خزائن الكتب ، لأنه أتلف نسخة من كتاب **المعرى** فى نقد القرآن .

لكن حظ الثقافة الإسلامية كان تعسا ، فضاع الجانب الأكبر من هذه المخطوطات أثناء الاضطرابات السياسية ، وخلال عصر الاحتضار . ضاعت مكتبة العزيز المصرية خلال الفتنة التى حدثت عام ١٠٦٨ م ، حين عم القحط وانتشر الوباء ، وحصد الطاعون الناس حصداً ، ووقع الخلاف بين الجنود السودانيين والأتراك ، وعندما تأخرت رواتب الأتراك ، وكانوا القادة ، أغاروا على المكتبة ، ويقول **المقريزى** : « إن الكتب الجليلة المقدار ، المعدومة النظير فى سائر الأمصار ، صحة وحسن خط وتجليداً وغرابة ، قد اتخذ عبيدهم وإماؤهم من جلودها نعالاً وأحذية ، ثم أحرقوا أوراقها زعما منهم أنها تحوى كلام المشارقة الذى يخالف مذهبهم » وعندما دخل **صلاح الدين** القاهرة منتصراً ، بعد هذه المأساة بقرن من الزمان ، وجد بقايا المكتبة فى القصر الملكى تضم مائة ألف مجلد أو يزيد ، فوزع

---

(١) جوتنبرج ألمانى الأصل والنشأة ، ولد بين عامى ١٣٩٤ و ١٣٩٧ م وتوفى ١٤٦٨ . ومن الأخطاء شـ ـعه القول بأنه اخترع الطباعة . فالحق أنها كانت قبله . ولكنه أدخل عليها بمعاونة شخصين آخرين هما فوست Fust وسوفير Schoefer الكثير من التحسينات ، فدفع بها إلى الأمام خطوات سهلت مهمة الذين طوروها فيما بعد . لتصبح على ما هى عليه الآن ، دقة وإنجازًا وسرعة وفنا .

(2) Risler. La Civilztion Arab. 109.

بعضها على رجاله ، وبيع البعض الآخر على يد خبير بالكتب يُدْعى ابن صورة ، واستغرقت عملية البيع بضع سنين ، ومابقى منها إلى عهد المماليك باعه الطلبة أثناء المجاعة التى اجتاحت الديار المصرية ، نتيجة القحط والأوبئة بين عامى ١٣٤٨ م و ١٣٤٩ م ، كل مجلد برغيف .

وعندما اقتحم هولاكو مدينة بغداد عام ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م ، أباح عاصمة بنى العباس أربعين يوماً ، وكان الدمار الذى أصاب الثقافة العربية والإسلامية مريعاً ، فألقيت مئات الألوف من المخطوطات فى نهر دجلة . ولم يكن نصيب الكتب العربية من الدمار خلال زحف تيمورلنك بأقل منه على يد هولاكو .

وفى الغرب الإسلامى تعرض التراث الإسلامى لنفس المحنة ، أو أشد قسوة ، فحين سقطت غرناطة عام ١٤٩٢ وانتهت دولة المسلمين فى الأندلس ، أمر الكاردينال فرانسيسكو خمينيث دى ثيسنيروس Francisco Jimenez de Cisneros (ت ١٥١٧ م) ، عراف الملكة إيزابيل فاتحة غرناطة ، وصاحب النفوذ السياسى الهائل يستمده من الدين ، بإحراق الكتب العربية فى ساحة باب الرملة فى غرناطة ، ولاسيما ما كان متصلاً بالأدب أو الفكر أو الدين ، وبخاصة المصاحف المخطوطة ، وبأن تباد كل الكتب العربية نهائيا من كل إسبانيا ، ويفوق عدد المخطوطات التى أحرقت فى غرناطة وحدها كل تصور . وأكثر الباحثين حذراً ، وعطفاً على الكاردينال ، يقدّرونها بثمانين ألفاً[1] .

وكان آخر هذه الكوارث المأساة المريعة التى تعرضت لها مكتبة جامعة الجزائر ، حين أضرم المتعصبون الفرنسيون النار فيها عام ١٩٦٢ ، خلال حرب الاستقلال البطولية التى خاضها شعب الجزائر ، فأتت على جل مافيها .

وضاعت أعداد هائلة من المخطوطات خلال الثورات الداخلية ، والاضطرابات والفتن ، وكانت طابع أواخر العصور الوسطى ، وكنتيجة حتمية للاحتضار الثقافى فترت عناية الناس بالمخطوطات والكتب ، ومع المدّ الاستعمارى الأوربى تعرّض مابقى منها لنهب المستعمرين ، عن طريق السرقة أو الغش أو الخداع والحيلة ،

---

(١) انظر : الفن العربى فى إسبانيا وصقلية ، للمستشرق الألمانى فون شاك ، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكى. ص١٢٦ الطبعة الثانية، دار المعارف القاهرة ١٩٨٥

ونقلت آلاف المخطوطات إلى دور الكتب الأوربية ، والولايات المتحدة الأمريكية ، وجامعاتها ، وأصبح اقتناء المخطوطات العربية عملاً مرغوباً ، وميزة تحرص عليها هذه الجامعات ، ومجالاً للتسابق تتنافس فيه .

ثم اختُرِعَتْ الطباعة ، فيسّرت القراءة ، وأرخصت الكتاب ، وقلّلت الأخطاء ، ومن أسف جاء اختراعها وسلطان الإسلام ينحسر عن الأندلس ، وسُحُب الجهل تطبق على الأمة الإسلامية ، فلم يدرك العالم العربى أهميتها ، وقعد عن الإفادة منها ، فتأخّر إنشاؤها قرابة قرن ونصف قرن من الزمان ، واحتاج إدخالها فى تركيا ، وكانت مركز الخلافة الاسلامية ، إلى فتوى شرعية ، فسمح بها العلماء بعد جهد كبير ، على أن تقتصر على طبع الكتب غير الدينية ثم سمحوا بطبع هذه عندما تبيّن لهم فائدتها .

ظهرت أول مطبعة عربية فى مدينة « فاتو » بإيطاليا ، أمر بإنشائها البابا يوليوس الثانى وبدأت العمل عام ١٥١٤ فى عهد البابا ليون العاشر وأول كتاب عربى طبع عليها فى تلك السنة كتاب « الأورلوجيون » المعروف بكتاب السواعية ، وهو كتاب دينى يحتوى على صلاة الساعات الليلية والنهارية فى الكنائس المسيحية البيزنطية ، ويقع فى ١٨٨ صفحة[1] ، ثم سفر الزبور فى عام ١٥١٦ م . وقام رجل يدعى بجانينو دى بريشيا Baganino de Brescia بطبع القرآن للمرة الأولى فى مدينة البندقية عام ١٥٣٠ م ، ولكن البابا أصدر أمره بإحراق جميع النسخ خشية تأثيرها فى عقائد رعاياه من المسيحيين[2] .

وقد نشأ عن فشل الحروب الصليبية فى تحطيم الدولة الإسلامية قيام فلسفة جديدة تدعو إلى غزو العالم الإسلامى عن طريق الفكر ، بدراسة لغة المسلمين وعقائدهم ، وتعليم المبشرين اللغة العربية ، وكان على رأس الدعاة إلى هذه الفكرة الفيلسوف الإسبانى الراهب رايموندو لل Raymundo LuII (أو لوليو LuIio)[3] ، فأدى ذلك إلى العناية بتدريس اللغة العربية فى الجامعات الأوربية ،

---

(١) تملك دار الكتب المصرية نسخة من هذا الكتاب الفريد .

(٢) Montero Vills, Jose de: Mahoma, Su vida, el Coran, tom II, p. 345, Madrid 1926

(٣) انظر . كتاب دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة ، للدكتور الطاهر أحمد مكى ، فهناك دراسة وافيه عن رايموندولل . الطبعة الثانية ، دار المعارف ، بالقاهرة ١٩٨٣م.

فى باريس ووارسو وفيينا وأكسفورد . وإنشاء المطابع العربية ، فأنشئت فى روما ، مقر الفاتيكان ، مطبعة عربية كان من بين مطبوعاتها كتاب القانون لابن سينا ، وحذت بقية عواصم أوربا الكبرى حذو روما .

وأقدم مطبعة عربية أنشئت فى دير قزحيا بلبنان عام ١٠١٩ هـ = ١٦١٠ م ، وكانت سريانية عربية ، وأنشأ البطريرك أثناسيوس الرابع مطبعة فى حلب عام ١١١٠ هـ = ١٦٩٨ م . والروم الملكانيون مطبعة ماريو حنا الصايغ فى الشوير عام ١١٤٥ هـ = ١٧٣٢ م . والروم الأرثوذكس مطبعة القديس جاورجيوس فى بيروت عام ١١٦٧ هـ = ١٧٥٣ م . وهذه المطابع كانت مطبوعاتها قليلة ، وأكثرها دينية ، ولم يكن لها أثر يذكر فى نشر الثقافة العربية . وأول نهضة جدية للطباعة بدأت بإنشاء المطبعة الأمريكية فى بيروت عام ١٢٥٠ هـ = ١٨٣٤ م ، ثم المطبعة الكاثوليكية من بعد فى عام ١٢٦٥ هـ = ١٨٤٨ م ، وتعد هذه الأخيرة أكبر المطابع فى سوريا وأتقنها ، فهى مزودة بأحدث آلات الطباعة ، وتتميز كتبها بالإخراج الدقيق ، والطباعة المتقنة ، ويقوم على تحقيقها عادة كبار الأدباء وعدد من المستشرقين .

أما مطبعة الآستانة فأقدم كتاب نشر فيها يرجع تاريخه إلى عام ١١٤٤ هـ = ١٧٢٨ م ، وتلتها مطابع أخرى ، وكانت المطابع التركية أسبق إلى نشر الكتب الأدبية والعلمية من سواها ، فطبع هناك القاموس المحيط فى سنة ١٨١٤ م ، وطبعت كافية ابن الحاجب سنة ١٨١٩ م ، وبلغ ماطبع فيها من الكتب الأدبية واللغوية حتى ١٨٣٠ م أربعين كتاباً . واشتهرت مطبعة الجوائب بالعناية بنشر عدد من أمهات الكتب والمراجع .

لكن مطبعة بولاق التى أنشأها محمد على فى مصر عام ١٢٣٧ هـ = ١٨٢١ م ، كانت أهم هذه المطابع جميعاً ، وأبعدها أثراً فى بعث الثقافة العربية ، وماتزال تحتفظ لنفسها بهذه المكانة حتى اليوم ، فهى أكبر مطبعة عربية فى العالم العربى دون استثناء ، ولو أنها فى ربع القرن الأخير تراجعت عن رسالتها الأدبية ، وأخذت تعنى بالكتب المدرسية ، وحاجات الدولة من اللوائح والمطبوعات والقوانين . وقامت إلى جوارها عشرات المطابع الحديثة والمتخصصة لنشر التراث العربى والإسلامى ونتاج العلماء والأدباء المحدثين .

طرق التدوين
وشرائط النسْخ

ربما كان **الخطيب البغدادى** المتوفى عام ٤٦٣ هـ = ١٠٧١ م ، أوّل من عالج القضايا المتعلقة بنسخ المخطوطات فى كتابه : « تقييد العلم » . ثم جاء **ابن جماعة** المتوفى عام ١٢٧٣ م ، فألّف كتابه : « تذكرة السامع والمتكلم ، فى أدب العالم والمتعلم » عالج فيه أسلوب الرواية ، وطرائق التدوين ، وشرائط النسخ . ومن بعده جاء عالمان متعاصران هما : **العلموى** ، عبد الباسط بن موسى بن محمد ، المتوفى سنة ٩٨١ هـ = ١٥٧٣ م ، **والبدر الغزىّ** ، المتوفى سنة ٩٨٥ - ١٥٧٧ م ، فألّف أولهما : « المعيد فى أدب المفيد والمستفيد » ، وألّف ثانيهما : « الدرُّ النضيد » . فإذا وصلنا إلى القرن السابع عشر وجدنا **الحسين بن القاسم المنصور** ، المتوفى عام ١٦٤٠ م ، ينقل عنهم ، ويسير على نهجهم فى كتابه : « كتاب فى آداب العلماء والمتعلمين » . وأول ما يلحظه الدارس لهذه الكتب أنها تُعنى بالتفاصيل العلمية أكثر مما تعنى بالقواعد العامة ، وأن مؤلفيها ، وكانوا مدفوعين بأهداف دينية ، يضعون فى المقام الأوّل من عنايتهم ما يفيد علوم الفقه والحديث والتفسير ، ولو أن الملاحظات التى أبدوها ، والمعلومات التى توفروا على دراستها وتسجيلها تخدم العلوم جميعًا . ويهمنا منها ، على نحو خاص ، القواعد التى كان يعمل النسّاخ فى ظلها .

« إذا نسخ الناسخ شيئا من كتب العلم الشرعية فينبغى أن يكون على طهارة ، مستقبل القبلة ، طاهر البدن والثياب والحبر والورق . ويبتدئ كل كتاب بكتابة : « بسم الله الرحمن الرحيم » ، وإن كان مصنف الكتاب تركها كتابة فليكتبها هو . ثم ليكتب : قال الشيخ ، أو قال المصنف ، ثم يشرع فى كتابة ماصنّفه المصنّف . وإذا فرغ من كتابة الكتاب أو الجزء فليختم الكتابة بالحمد لله والصلاة على رسول الله ﷺ . وليختم بقوله : آخر الجزء الأول أو الثانى مثلا ، ويتلوه كذا وكذا إن لم يكن أكمل الكتاب ، فإن أكمله فليقل تمّ الكتاب الفلانى ، ففى ذلك فوائد كثيرة

وكلما كتب اسم الله تعالى أتبعه بالتعظيم مثل : تعالى ، أو سبحانه ، أو عز وجل ، أو تقدّس ، أو تبارك ، ويتلفظ بذلك . وكلما كتب اسم النبى ﷺ ، كتب بعده الصلاة عليه والسلام . وجرت عادة السلف والخلف بكتابة صلى الله عليه وسلم ، ولعل ذلك الأمر فى الكتاب العزيز فى قوله: ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب. ٥٦]، ولا يختصر الصلاة فى الكتابة، ولا يسأم من تكريرها كما يفعله بعض المحرومين من كتابة: صلعم، أو صلع، أو صلم، أو صم، أو صلسم، فكل ذلك غير لائق بحقه ومكروه . وإذا مرّ بذكر أحد من الصحابة كتب رضى الله عنه ، أو رضوان الله عليه . أو مرّ بذكر أحد من الأئمة ، لاسيما الأعلام وهداة الإسلام ، كتب : رحمه الله ، أو رحمة الله عليه ، أو تغمده الله برحمته . ولا يكتب الصلاة والسلام لغير الأنبياء والملائكة إلا تبعا ، لاختصاص ذلك عرفًا وشرعًا بالأنبياء والملائكة عليهم السلام . ومتى سقط من ذلك شىء فلايتقيد به ، بل يثبته مع النطق به . واختار أحمد بن حنبل إسقاط الصلاة والسلام والترضى والترحم رواية مع نطقه بذلك » .

« ولا يهتم المشتغل بالنسخ بالمبالغة فى حسن الخط ، وإنما يهتم بصحة النص وتصحيحه ، وإذا كان يملك نسختين من كتاب وإحداهما أصح نصا والأخرى أجمل منظرا ، ثم اضطر إلى بيع نسخة منهما ، فالأولى به ان يحتفظ بالنسخة الصحيحة ويبيع الجميلة . ويجتنب التعليق جدًّا ، وهو خلط الحروف التى ينبغى تفرقتها ، والمشق ، وهو سرعة الكتابة مع بعثرة الحروف . وكان عمر رضى الله عنه يقول : شرّ الكتابة المشق ، وشر القراءة الهذرمة[1] ، وأجود الخط أبينه ، ولايكتب بحروف دقيقة لاتبين له ولا لغيره ؛ إذا مرَّ حين من الدهر فكلّت العين وضعف البصر . وينبغى ألا يكون القلم صلبا جدًّا فيمنع سرعة الجرى ، ولارخوا فيسرع إليه الحفى . ولتكن السكين حادة جدا لبراية الأقلام وكشط الورق ، ولاتستعمل فى غير ذلك ، وليكن مايقط عليه القلم صلبًا . ويراعى من آداب الكتابة ما ورد عن بعض السلف ، فعن معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسليم ، يامعاوية ألق الدواة ، وحرّف القلم ، وانصب الباء ، وفرق السين ، ولا تعوّر الميم ، وحسّن الله ومدّ الرحمن ، وجوّد الرحيم ، وضع قلمك

---

(١) الهذرمة : السرعة فى القراءة والكلام

على أذنك اليسرى ، فإنه أذكر لك » .

« وكرهوا فى الكتابة فصل مضاف اسم الله تعالى منه ، كعبد الله ، أو عبد الرحمن ، أو رسول الله ، فلا يكتب عبد أو رسول آخر السطر ، والله أو الرحمن، أول السطر الآخر لقبح صورة الكتابة».

« وعلى الناسخ ان يقابل كتابه بأصل صحيح موثوق به ، فالمقابلة ضرورية للكتاب الذى يرام النفع به ، وإذا صُحّح الكتاب بالمقابلة على أصل صحيح ، أو على شيخ ، فينبغى أن يَعجم المعجم ، ويَشكل الشكل ، ويضبط الملتبس ، ويتفقد مواضع التصحيف . أما ما يفهم بلا نقط ولا شكل فلا يعتنى به لعدم الفائدة ، فإن أهل العلم يكرهون الإعجام والإعراب إلا فى الملتبس والمشتبه . وقيل : ينبغى الإعجام والشكل للمكتوب كله ، المشكل وغيره ، لأجل المبتدئ فى ذلك الفن ، لأن المبتدئ لايميز مايُشكل مما لا يُشكل ، ولا صواب الإعراب من خطئه وقد يكون الشىء واضحًا عند قوم مشكلا عند آخرين .

ويجب ضبط الملتبس من الأسماء إذ لايدخلها قياس ، وليس قبلها أو بعدها شىء يدلّ عليها ، وإذا احتاج الناسخ إلى ضبط المشكل فى الكتاب وبيانه فى الحاشية قبالته فعل ، لأن الجمع بينهما أبلغ فى الإبانة . وإذا كتب كلمة مشكلة من القلم لسواد كثير فيه ونحوه أوضحها فى الحاشية ، وكتب فوقها « بيان » أو « ن » . وله أن يكتبها فى الحاشية بصورتها ، وله أن يكتبها مقطعة الأحرف بالضبط ليأمن اللبس والاشتباه . وله أن يضبطها بالحروف كقوله : بالحاء المهملة ، والدال المهملة ، والتاء المثناة ، والثاء المثلثة . ونحوه كما جرت عادة السلف فى ذلك . ومما يلتحق بضبط المعجم أن يكتب فى باطن الكاف المعلقة كافًا صغيرة أو همزة، وفى باطن اللام صورة نطقها على هذا النحو: «لام»، ولا يكتب صورتها: «ل».

وينبغى أن يكتب الناسخ على ماصححه وضبطه فى الكتاب وهو فى محل شك عند مطالعته ، أو تطرّق إليه احتمال . كلمة « صح » صغيرة ، ويكتب فوق ماوقع فى التصنيف أو فى النسخ وهو خطأ « كذا » صغيرة ، أى هكذا رأيته . ويكتب فى الحاشية صوابه كذا إن كان يتحققه ، أو « لعلّه كذا » إن غلب على ظنه ، وعلى ماأشكل عليه ولم يظهر له وجهه رأس صاد مهملة مختصرة من كلمة « صح » على

هذا النحو « صـ » فإن صحّ بعد ذلك وتحققه يصلها « بحاء » فتبقى « صح » وإلا كتب الصواب فى الحاشية . قيل : وأشاروا بكتابة « الصاد » أولا إلى أن الصحة لم تكمل ، وإلى تنبيه الناظر فيه على أنّه متثبت فى نقله غير غافل ، فلا يظنّ أنه غلط فيصلحه .

وإذا وقع فى الكتاب زيادة ، أو كُتبَ فيه شىء على غير وجهه ، تخير فيه بين ثلاثة أمور :

الأول : الكشط ، وهو سلخ الورق بسكين ونحوها ، ويُعبَّر عنه بالبَشْر وبالحكّ ، وسيأتى أن غيره أولى منه ، لكن هو أولى فى إزالة نقطة أو شكلة .

والثانى : المحو ، وهو الإزالة بغير سلخ إن أمكن ، وهو أولى من الكشط .

والثالث : الضرب عليه ، وهو أجود من الكشط والمحو ، لاسيما فى كتب الحديث .

وينبغى أن يفصل بين كل كلامين أو حديثين بدائرة ، أو قلم غليظ ، ولايصل الكتابة كلها على طريقة واحدة ، لما فيه ظن عسر استخراج المقصود ، ورجّحوا الدائرة على غيرها ، وعليها عمل غالب المحدثين . وصورتها هكذا : O .

ومع رواج الثقافة ، وحاجة الناس إلى الكتاب ، والعجلة فى النسخ ، تعارف نساخ المخطوطات على عدد من الاختصارات ، تظهر واضحة فى كثير من المخطوطات ، وبعضها قديم يرجع إلى محاولات ضبط الكتابة الأولى ، ويستخدمه عامة الناس اليوم ، دون أن يفكروا فى الأصل الذى جاء منه ، فالصاد تكتب أعلى الألف (آ) مقتبسة من كلمة « وصل » ودلالة عليها ، وحرف الشين (ـّ) مأخوذ من شدّ وعلامة على التشديد . والكثير من هذه الاختصارات اختفى بفعل الطباعة ، والفصل بين الجمل يخضع الآن لقواعد معينة ، ويرسم فى أشكال خاصة ، جاءت نتيجة تأثير الثقافة الأوربية المعاصرة ، واقتباسًا منها ، كالفصلة ، والفصلة المنقوطة ، وعلامة الاستفهام ، وعلامة التعجب ، والنقطتين ، وغيرها .

وقد احتفظ المصحف باختصاراته ، التزامًا لرسمه العثمانى ، ومبالغة فى ضبطه ، وتيسيرا لقراءته . كما بقى بعضها فى كتب الحديث ، ومصادر الأدب الأولى . ويمكن أن نجمل الهامَّ من اختصارات المصحف فيما يلى :

مـ: علامة الوقف اللازم عند الكلمة التى كُتبت فوقها، نحو: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ
مـ
لذين يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ الأنعام: ٣٦].

لا: علامة الوقف الممنوع عند الكلمة التى كتبت فوقها، نحو: ﴿الَّذِينَ
لا لا
تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ [النحل: ٣٢].

ج: علامة الوقف الجائز جوازًا مستوى الطرفين عند الكلمة التى كتبت فوقها،
حو:

ج
﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ [الكهف: ١٣].

صلى: علامة الوقف الجائز مع كون الوصل أولى عند الكلمة التى كتبت فوقها،
حو:

صلى
﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ
يْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

قلى: علامة الوقف الجائز مع كون الوقف أولى عند الكلمة التى كتبت فوقها،
حو:

قلى
﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ﴾ [الكهف: ٢٢].

.: .: علامة تعانق الوقف بحيث إذا وقف على أحد الموضعين لا يصح الوقف
.: .:
على الآخر، نحو: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

وللقرآن اصطلاحات أخرى كثيرة خاصة بضبطه، وتوجد عادة مبسوطة ومشروحة
ى نهاية كل مصحف، ويجمل بكل قارئ للقرآن الكريم أن يتملاها أولا، قبل أن يبدأ
ى القراءة، ليكون على بينة بما ترمز إليه هذه الإشارات.

أما الاختصارات الأكثر دورانًا فى كتب الحديث والتاريخ والأدب والفلك
أهمها:

« نا »
« ثنا » } حدَّثنا
« دثنا »

« ثنى »
« دثنى » } حدثنى

« المط » : المطلوب

« أنا » أخبرنا
«أرنا » } ولم يختصروا كلمات « أخبرنى »« إلخ » : إلى آخره
« أبنا » و« أنبأنا و « أنبأنى »

« مح » : محال
« اهـ » : انتهى
« وح » : وحينئذ
« فح » : فحينئذ
« بط » : باطل
« المصـ » : المصنف

وأشهر اختصارات رجال الحديث والفقه :

« خ » : البخارى	« م » : مسلم
« ت » : الترمذى	« د » : أبو داود
« ن » : النسائى	«جه»أو«ق»: ابن ماجه القزوينى
« حب » : ابن حبان	« ط » : الدار قطنى
« م » : الإمام مالك	« ح » : الإمام أبو حنيفة
« ش » : الإمام الشافعى	« أ » : الإمام احمد بن حنبل

وقد تضمن كتاب « الشفاء » لابن سينا عددا من الاختصارات الفلسفية يمكن أن تُتخَذ نموذجًا لما يتبعه النساخ ، أو المؤلفون ، فى المصادر الفلسفية الأخرى :

« مح » : محال	« مع » : معلول
« لامحة » : لامحالة	« لايخ » : لايخلو
« كك » : كذلك	« المقص »: المقصود
« ظ » : ظاهر	« يق » : يقول
« ح » : حينئذ	

وإذا كانت بعض الاختصارات من عمل النساخ ، وبعضها نجهل هل هو من عملهم ، أم أن المؤلف نفسه مال إليها واستخدمها ، فمن المؤلفين ، وبخاصة فى المعاجم والكتب التى لها نفس الصفة،من يتخذ الاختصار وسيلة للتخفيف من

تضخم الكتاب ، لأن الكلمة المختصرة ، قد تتكرر فى الصفحة الواحدة ولمعنى واحد ، أكثر من مرة ، وقد أوضح الفيروزابادى صاحب القاموس فى مقدمة كتابه الاختصارات التى استخدمها وما ترمز إليه فعنده :

« ع » : موضع	« د » : بلد
« ة » : قرية	« ج » : جمع
« م » : معروف	

وقد جرت العادة ، مالم يكن الاختصار معروفًا متداولا ، أن يشير المؤلف فى مقدمة الكتاب إلى مايستخدمه منه ، فيبين الكلمة واختصارها ، حتى يمكن للقارئ أن يرجع إليها إذا غُم عليه الأمر .

كان احترام رواية المخطوطة والوقوف عندها أمرًا مقررًا ، وإحداث تغيير فيها استنادًا إلى أنه الأصح والأوفق عمل غير علمى ، فلا أحد يعرف ممن جاء الخطأ ، ولا ما هو الصواب ، والحدس بما أراده المؤلف شىء عسير ، وحتى اكتشاف المؤلف لأخطائه عمل غير سهل ، وكان الجاحظ يرى أنه أسهل للمؤلف أن يسود عشر صفحات بالنثر الرفيع ، الملىء بالأفكار القيمة ، من أن يكتشف فى مصنَّفه أخطاء ارتكبها ، أو أمورا سها عنها . وأورد أبو حيان التوحيدى فى كتابه « المقابسات » حوارًا دار بين أبى بكر الخوارزمى وابراهيم الصابئ . سأل الخوارزمى : « لِمَ إذا قيل لمصنف أو كاتب أو خطيب أو شاعر فى كلمة من كلام ، قد اختل شىء منه ، وبيت قد انحل نظمه . ولفظ قلق مكانه : هات بدل هذا اللفظ لفظًا ، ومكان هذه الكلمة كلمة ، وموضع هذا المعنى معنى ، تهافتت قوته ، وصعب عليه تكلفه ، وبَعِلَ بمزاولة ذلك رأيه ؟ . ولو رام إنشاء قصيدة مفردة ، أو تحبير رسالة مقترحة ، كان عسرها عليه أقل ، وكان نهوضه بها أعجل » .

فرد ابراهيم الصابئ : « رَفْع ما وَهى يحتاج إلى تدبير قد فات أوله من جهة صاحبه الأول ومن كان أولى به ، وكان كالأبله ، وذلك شبيه بعلم الغيب ، وقل من ينفذ فى حجب الغيب مع العوائق التى دونه ، وليس كذلك إذا افترع هو كلامًا ، وابتدأ فعلا ، واقتضب حالا .

« كل مبتدئ شيئًا فقوة البدء فيه تفضى إلى غاية ذلك الشىء ، وكل متعقب أمرًا قد بدأ به غيره فإنه بتعقيبه يفضى حد ما بدأ به فى تعقيبه ، ويصير ذلك مبدأ

له ، ثم تنقطع المشاركة بين المبتدئ والمتعقب » .

وللعالم حق النقل من غيره ، وبخاصة فيما أصبح قواعد مقررة ليست ملكا لأحد ، أو روايات لاتحتاج إلى توثيق ، أما الروايات التى يكون إسنادها إلى صاحبها عاملا جوهريًّا فى قيمتها العلمية ، فكانت تُنْقل مُسندة ، وبخاصة عندما يصبح من العسير التحقق من صدقها أو كذبها ، فيترك الأمر لراويها . وفى العصور المتأخرة كان من العسير التحقق من أشياء كثيرة بَعُد بها الزمن ، فشاعت على أقلام المؤلفين كلمة « والله أعلم » وهو تعبير أكثر مايكون دورانًا حين يجد العالم نفسه بإزاء خبر يتوقف فى قبوله ، ولا يتأتى له تكذيبه . وكان العلماء يتحرون الدقة ماأمكن فى نقل النصوص أو تدوين الروايات ، ولكنهم يملكون التصرف فى النص فيوجزونه أو يضيفون إليه . وقد نقل ياقوت الحموى فى كتابه « إرشاد الأريب » ترجمة بديع الزمان الهمذانى من « يتيمة الدهر » للثعالبى ، ولكنّه أسقط الاشعار الواردة فيها .

قد يختلف النص من نسخة إلى أخرى ، وكما يكون مصدر هذا الاختلاف خطأ الناسخ ، قد يكون مصدره تصحيح المؤلف ، وعدد لابأس به من المؤلفين لم ينقطع عن مؤلفاتهم وإصلاحها ، وإضافة مايعن لهم من جديد إليها ، وقد بدأ **المفضل الضبى** « مفضّلياته » بعدد من القصائد استجادها **الامام ابراهيم بن عبد الله** ، المسمى بالنفس الزكيّة ، والمتوفى عام ١٤٥ هـ = ٧٦٣ م . ذكر أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه « مقاتل الطالبيين » قول المفضل الضبى : « كان إبراهيم بن عبدالله بن الحسن متواريًا عندى ، فكنت أخرج وأتروّح ، فقال : إنك إذا خرجت ضاق صدرى ، فأخرجْ إلىّ شيئًا من كتبك أتفرج به ، فأخرجت إليه كتبًا من الشعر ، فاختار منها السبعين قصيدة التى صدرت بها اختيار الشعراء ، ثم أتممتُ عليها باقى الكتاب » . فلمّا عهد الخليفة **أبو جعفر المنصور** إلى **المفضل** بتثقيف ابنه **المهدى** بالشعر ، اختار له ثمانين قصيدة ، فإذا وصلنا إلى القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى ، وجدنا عدد القصائد فى النسخ المخطوطة برواية ابن الأعرابى ، حفيد المفضل ، تصل إلى مائة وثمانية وعشرين قصيدة ، وهى التى بين أيدينا الآن .

وقد أورد **الجاحظ** فى كتابه « البيان والتبيين » أبياتا **لمالك بن أسماء الفزارى** ،

وقدّم لها بأنها فى استملاح اللحن من بعض نسائه :

أمُغطّى مِنى على بصرى للْـ ـحبِّ أم أنتِ أكملُ الناسِ حُسْنا
وحديثٌ ألَذُّهُ هو مما ينعتُ الناعتون يُوزَنُ وزنا
منطقٌ صائبٌ ، وتلحنُ أحيانًا ، وأحلى الحديثِ ماكان لحنا

فهم الجاحظ هنا « اللحن » بأنه الخطأ فى الكلام ثم تبين له أنه جانب الصواب ، وأن الشاعر يريد « باللحن » التعريض والتورية ، فأشار عليه علىّ ابن يحيى المنجم أن يغيرالنص أو يحذفه جملة فلم يقبل محتجا : « كيف لى بما سار فى الآفاق » .. ورغم ذلك كان « البيان والتبيين » معروفا عند الناس فى نسختين مختلفتين، حديثة العهد منهما أصح نصا، وأجود ضبطا، وأوسع انتشارا. وقد يكون مردّ الاختلاف فى النص موت المؤلف قبل إنهاء الكتاب .

وكان من عادة المؤلفين ترك بياض أو فراغ فى مصنفاتهم لإضافة ماقد يعنّ لهم فيها بعد ، أو انتظارًا لنصوص يترقبونها ، وعندما علم ابن النديم صاحب « الفهرست » أن للإمام الناصر للحق مصنفات أكثر مما تعرف إليه أو رآه ترك لها فراغًا وطلب إلى القراء أن يضيفوا عناوين هذه الكتب فى المكان المتروك لها ، إذا رأوها أو أعلمهم بها ثقة .

أما مشكلة الاختلاف فى قراءة أبيات الشعر ، والجاهلى منه بخاصة ، فأشد تعقيدًا لأننا لانعرف ، على التأكيد ، هل مصدر الاختلاف سهو الرواة ، أو أخطاء النساخ عند كتابة الدواوين والمجموعات الشعرية ، أو من إصلاح علماء اللغة لتوهمهم أنه يجرى على غير قواعدها ، أو من عمل النقاد لظنهم أن ماصنعوه أجمل وأبلغ أو لأن ماحذفوه يصطدم من الذوق المتعارف أو ينافى التقاليد المرعية . وقد نجد ديوان شاعر يضم من القصائد فى مخطوطة أكثر مما تضمّه مخطوطة أخرى ، وتنسب إليه كتب الأدب والتاريخ أبياتًا ، أو حتى قصائد ، يأتى ديوانه خاليا منها .

كان احترام الكلمة شيئًا مقرّرًا بين العلماء ، ولم تكن حريتها تعنى أن يندفع العلماء والأدباء إلى تبادل التهم ، أو الترامى بالنقائص ، وكانت الحياة الثقافية بريئة من أوزار الذين لايعرفون طريقا للشهرة ، أو شد انتباه الناس إليهم ، غير التهجم على ماهو مقدر ومحترم عند غيرهم ، ولم يكن ذلك يعنى بأية حال الجمود عند فكرة معينة ، ولكنه يعنى أن تكون لغة النقد علمية ، لامجال فيها للتخفف من

المسئولية ، أو لنسيان أقدار الآخرين . وتعاطفًا مع هذا المنهج كان العلماء ، أحيانًا ، يسوِّدون حواشى المخطوطات بآرائهم وتعليقاتهم دون أن يمسوا نص النسخة الخطية بإصلاح أو تعديل ، فإن كان الخطأ ماديًا متصلا باللغة ، وحدث أثناء النقل ، أو من السهو البين ، أصلحه القارئ ، أو الناسخ ، وأشار إليه ، ومن الآداب العامة أن ينسب العلماء المتأخرون الأخطاء التى يجدونها فى كتب المتقدمين إلى السهو فى النسخ ، أو الخطأ من الناسخين .

لكن هناك أخطاء فى النسخ مصدرها طبيعة الخط العربى ، وبخاصة فى عصوره الأولى ، قبل أن يصبح على ماهو عليه وضوحًا وجمالا ودقة . وهى أخطاء لم تنج منها حتى تلك التى قام على نسخها علماء عارفون ، أو نساخون أمناء ، وقد عُنى اللغويون بجمع عدد منها ، لكن بعض ماجمعوه هو من توليدهم ، صاغوه للمتعة أو للتحذير من الوقوع فى أخطاء مشابهة ، أو لترجيح جانب الحفظ والرواية على جانب الكتابة والتدوين ؛ ويزداد التصحيف فى أسماء الأمكنة والأشخاص وفى الموسوعات الجغرافية وكتب الطبقات على نحو أخص ، وقد واجه ياقوت مصاعب جمة فى كتابه « معجم البلدان » ، وشكا من « أن الخط العربى له سيئات كثيرة ، لتشابه الحروف التى ينبغى أن يميز بينها بالإعجام ولعدم وجود الحركات التى تدلّ على الإعراب . وخلو الخط العربى من الإعجام والحركات يحول دون فهم المتن فهما صحيحا ، وفضلا عن ذلك فإن عامة الناس لايعنون بالمعارضة ، ولايبالون بمقابلة متن مخطوطة بأخرى ، ولا يهتمون بوجود هذا الكتاب أو ذاك ، ولا بالموضوع ذاته سواء كان موضوعًا معلومًا أم لم يكن » .

وقد تعرّضت الأسماء المترجمة من هندية وفارسية ويونانية وغيرها إلى ألوان من التحريف ، خلال أجيال متعاقبة من النساخ ، مما يجعل ردها إلى أصلها عسيرًا وواجهت اللغة العربية هذه المشكلة على نحو عنيف منذ حركة الترجمة النشيطة التى بلغت أوجها فى القرن التاسع الميلادى ، على يد الخليفة المأمون . وحاول أحمد ابن الطيب السرخسى أحد تلاميذ الفيلسوف العربى الكندى أن يحل المشكلة ، فوضع أبجدية من أربعين صوتًا ، تفى بنقل الكلمات الفارسية والسريانية والرومية والإغريقية القديمة ، فكان يقرأ بها ماشاء من الألفاظ الأعجمية . وواجه ابن خلدون نفس المشكلة فيما يتصل بالكلمات البربرية ، فكان يكتب حرف

الكاف البربرى ، وهو صوت لغوى يقع بين حرف الكاف العربى والجيم القاهرية ، أو القاف الصعيدية ، كافًا عربية تحتها نقطة ، أو فوقها نقطتين .

وتضم المخطوطات أحيانا إلى جانب المتن **تعليقات مفيدة** توجد على الحاشية وملاحظات هامة تتضمنها مقدمة الكتاب أو خاتمته ، وقد نجد شيئا منها على الغلاف الداخلى أو الخارجى للمخطوطة ، وهذه الملاحظات تعين على تقويم آراء المؤلف ، وتحديد زمن المخطوطة إن لم تكن تحمل تاريخًا ، كما يساعد فى تحديد هذا التاريخ اختيار النسّاخ لواحدة من العبارات التقليدية التى تلى عادة اسم المؤلف أو الأديب أو العالم ، كقولهم : « رحمه الله » ، أو « غفر الله له » ، أو « أطال الله عمره وأمده بالقوة » ، لأنها تتضمن ما إذا كان الناسخ قد خط الكتاب فى زمن المؤلف أو بعد وفاته .

كان **التدوين** يتم عادة عن رواية شفوية ، أو يملى فى حلقة درس ، فلم يكن أحد يُعنى بأن يضمن مقدمة الكتاب بيانًا وافيًا بمحتوياته ، اكتفاء بالإشارة إلى الغاية منه ، أو يُلحق به فهرسًا يوضح محتواه ، وفيما أعلم كان **ابن بسام** الأندلسى ، من أدباء القرن الثانى عشر الميلادى ، أول مَن ضمَّن مقدمة كتابه « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » فهرسا مفصلا بأسماء الشعراء الذين ترجم لهم فى مختلف أقسام الكتاب . ثم أدرك العلماء من بعده فائدة الفهارس ، فوضع **نجم الدين بن فهد** المتوفى عام ١٤٨٠ م فهارس لكتاب **القاضى عياض** « ترتيب المدارك » ولكتاب **ابن أبي أصيبعة** « عيون الأنباء » ، ولكتاب **ابن رجب** « طبقات الحنابلة » ولكتاب **الذهبى** « طبقات الحفاظ » ولتكملته التى أضيفت إليه .

وفرضت **طبيعة المخطوطات** شكلا معينا للاقتباس ، فلم يكن فى وسع الباحث أن يشير إلى النص ، لندرة الكتاب ، أو لاختلاف الصفحات من نسخة إلى أخرى ، وإنما كان عليه أن ينقله كاملا أو مختصرًا ، إلا إذا كانت الإشارة إلى الصفحة ميسرة ، كأن تكون الأولى أو الأخيرة ، فإذا كانت المادة التى تتصل بالبحث واسعة ، أحال القارئ على الكتاب كاملا ، وقد يحدد له الفصل إن كان مقسما . ولأن علامات التنصيص لم تكن معروفة ، كان للسابقين طريقتهم فى الإشارة إلى بدء النص وإلى نهايته ، فيبدأ النص عادة باستعمال كلمة « قال » أو

« هذا نص » ، أو « كلام » ، أو « قول » . واستخدموا فى التنبيه إلى نهاية النص عبارات : « انتهى » أو « إلى هنا عبارة » أو « ماحكاه » أو « م أورده » ، فإذا أوجز النص أو تصرف فيه أنهاه بقوله : « انتهى ملخصًا » .

ورغم الدقة التى التزمها نسّاخ المخطوطات ، والقواعد التى ساروا عليها ، والتقوى الخاشعة التى عملوا فى ظلها ، كانوا بشرًا ، والبشر خطاءون ، وإخلاص الناسخ لايعنى أن النص الذى بين أيدينا صحيح ، أو أنه يعبر عن آراء صاحبه فى صدق ، ومن ثم - استجابة لدواعى النهضة - خضع جانب من حركة نشر المخطوطات ، مع بداية هذا القرن فى العالم العربى ، ومع سابقه فى دنيا المستشرقين ، إلى مانسميه بالتحقيق العلمى .

وأيًّا ما كان الأمر ، فإن **دارس المخطوطات** ، لينشرها مطبوعة ، أو ليفيد منها باحثًا فى حاجة إلى أن يواجهها متسلحًا بالثقافة الواسعة ، وعلى نحو خاص بمعرفة تطور الخط العربى وألوانه عبر العصور المختلفة ؛ فإذا كان بعض المخطوطات قد كتب فى لغة واضحة للغاية ، فإن بعضها الآخر وصلنا فى رسم يعسر تبين ملامحه إلا على خبير مقتدر . وإذا جاءنا بعضها سليما معافى ، فبعضها الآخر عدت عليه الأرضة أو الرطوبة ، فتآكلت هوامشه ، وتمزّق جانب منه ، ويتطلب رأب صدعه ، وإقامة نصّه ، معاناة وصبرا .

ويقتضى الأمر كذلك ، **أن يكون دارس المخطوطة عالمًا بفقه اللغة** ، مدركا تطوّر دلالات الألفاظ ، فنحن لانستطيع فهم نص قديم فهمًا جيدًا ومستقيما ، إلا إذا فسرناه على أساس معانى الألفاظ والقواعد النحوية التى كانت سائدة فى العصر الذى كُتب فيه . وبعض الأخطاء فى فهم الشعر العربى ، الجاهلى والأموى منه بخاصة ، تأتى من جهل دارسه بدلالات ألفاظه ، أو تعميمها حيث يقتضى المقام التخصيص . والذين يتكلمون العربية لغة قومية يقاربون المائة المليون(*) ، ويشغلون من العالم مساحة وسيعة ممتدة ، تتفاوت بيئة وتحضرًا ، وتخضع لتأثيرات ثقافية وجغرافية متباينة ، فسكان إقليم مايؤثرون لمعنى لفظًا يؤثر آخرون غيره ، أو يستعملون اللفظ لدلالة مغايرة . فدلالة الوزير والفقيه فى الأندلس غيرها فى المشرق ، والحصن فى جزيرة العرب وسورية وفلسطين هو القلعة فى الأندلس وشمال أفريقية ، و « الحاجب » فى كتب الفقه غيره فى كتب التاريخ ، و « مجمع

(*)

البحرين » فى الجغرافيا غيرها عند الصوفية ، والألفاظ كالأفراد ، تحيا وتلمع وتموت ، ويتولد عنها غيرها . ويعين على إدراك دلالات النص الإلمام الواسع بالظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للعصر الذى ألف فيه .

يأتى تحقيق نص المخطوطة فى الأهمية الأولى ، والمخطوطة التى كتبها مؤلفها بخطه لايتطلب تحقيقها ، إذا وصلتنا سالمة ، غير إجلاء غوامضها ، من كلمات خارج معجمنا المعاصر ، أو إشارات جغرافية زالت معالمها . لكن الأمر يختلف إذا وجد المرء نفسه أمام مخطوطة نقلت عن أصل مفقود . وربما لاتكون أخذت عنه مباشرة ، بل أخذ بعضها عن بعض ، فقد يعجز الناسخ عن فهم بعض كلماتها ، وقد يفهمها فهما خاطئا ، وقد لايعارض بين الأصل الذى يأخذ عنه وبين غيره من الأصول . والمؤلف الحديث يخطئ فى تصحيح تجارب كتبه ، وتخفى عليه أخطاء عديدة لا يتبينها إلّا بعد الطبع ، يخطئ ببصره عندما يقرأ بعقله لابعينه ، أما الناسخ فيخط أفكار غيره ، فهو أقرب إلى أن يخطئ بعقله وبصره معًا .

وكلما كَثُرتْ الأيدى التى تداولت المخطوطة ناسخة ، كَثُرت الأخطاء واحتمالاتها .. وقد يأتى الخطأ عن تحريف مقصود ، فيدس الناسخ على صاحب المخطوطة ، ينسب إليه أشياء هو برىء منها تحقيقًا لغرض مذهبى ، أو منفعة شخصية ، أو إرضاء لنزعة دينية ، وقد يزيف نصا بأكمله ، أو يغير بعض فقراته . ويأتى التغيير أحيانًا من جهل الناسخ بأصول النسخ ، حين يظن أن من واجبه إصلاح الأصل وتوضيح ماغمض فيه . ويمكن الكشف عن الأخطاء غير المقصودة بسهولة ، لأنها لاتتجاوز الخلط بين المعانى أو الكلمات أو الحروف ، أو سقوط بعضها ، أما التحريف والتزييف المقصود ، فى حالة النسخة الوحيدة ، فمن العسير الاهتداء إليه ، إلّا إذا وجدنا النص موضع الشك مقتبسًا فى كتاب آخر ، نقله صاحبه من الأصل المفقود .

أما إذا وُجدتْ نسختان أو أكثر من أصل مفقود فإن التحقيق يكون أكثر يسرًا ، لأن هذه النسخ تكون متفاوتة عادة ، لكل نسخة أخطاؤها . وقلما تتفق كلها فى نفس الأخطاء ، إذا كانت نسخا مستقلة أخذت عن الأصل المفقود مباشرة ، وفى هذه الحالة فإن الطريق الوحيد للتثبت من صحة النص **المعارضة الدقيقة** بين النسخ المختلفة ، وهكذا يتاح للمحقق أن يعيد الأصل إلى حاله على

وجه التقريب ، وأن يكشف ، فى الوقت نفسه ، عن تحريفات النساخ وزياداتهم أو إهمالهم ، وأخطائهم غير المقصودة فى النسخ . وكانت المعارضة - أو المقابلة - شرطًا جوهريًا خلال عصر المخطوطات لإجازة مايتصل بالعلوم الإسلامية ، وكان لها منهجها الذى تسير عليه ، وهى طريقة نمت وترعرعت أولا لدى المترجمين من السريانية ، وقد ترك لنا حنين بن إسحاق ، المتوفى عام ٢٦٤ هـ = ٨٧٣ م وصفًا لعمله فى المعارضة ، وهو يتكلم عن ترجمة سريانية لكتاب جالينوس عنوانه : « فى الفرق إلى المتعلمين » يقول : « ثم إنى ترجمته وأنا حدث من أبناء عشرين سنة ، أو أكثر قليلا ، لمتطبب من أهل جنديسابور يقال له شير يشوع بن قطرب ، من نسخة يونانية كثيرة الأسقاط ، ثم سألنى بعد ذلك وأنا من أبناء أربعين سنة أو نحوها ، حبيش تلميذى إصلاحه ، بعد أن كانت قد اجتمعت له عندى عدة نسخ يونانية ، فقابلت تلك بعضها ببعض حتى صحت منها نسخة واحدة ، ثم قابلت بتلك النسخة السريانى وصححته ، وكذلك من عادتى أن أفعل فى جميع ماأترجمه » .

وكان العالم الذى يجمع الشعر ويحققه يحتاج إلى أكثر من نسخة واحدة ، من الديوان الواحد ، أو المجموعة الواحدة ، ليعارض بينها ، وهو أمر كان ميسرًا فى الأعم الأغلب ، فقد تميزت المكتبات ، وفى مصر على نحو أخص ، بأنها تضم من الكتاب الواحد أكثر من مخطوطة[1] ، وامتلاك العالم نسختين من كتاب كان موضع فخر له ، وقد يرجع المحقق إلى كتب تعالج نفس موضوعه أو تتصل به ، يستهديها ماأشكل عليه فهمه .

لكن يجب الحذر من استخدام أول نسخة من هذه النسخ أساسا للمعارضة ، بل يجب مقارنة النسخ مبدئيا فى عدة مواطن مختلفة ، لمعرفة أيها أكثر دقة ، فتتخذ أصلا ثم تراجع عليها بقية النسخ الأخرى ، ويحذّر سينيوبوس Seignobos من بعض العادات العقلية المألوفة ، كالميل إلى استخدام أقدم النسخ كأصل ، ولو كانت أردأ من النسخ الأقرب عهدا ، وكالميل إلى اتخاذ الأغلبية حكما إذا اختلفت النسخ فيما بينها ، فقد تكون الأقلية هى التى تعطى النص الصحيح وضرب لذلك

---

(١) انظر ص ٥٧ وما بعدها

مثلا : « لنفرض أن هناك عشرين نسخة تشترك بينها ثمانى عشرة نسخة فى نقطة واحدة هى أ ، واشتركت النسختان الأخريان فى نقطة مخالفة هى ب ، ففى هذه الحالة يميل البحث المتسرع إلى تأكيد صحة أ دون ب ، لكن من المحتمل أن تكون كثرة المجموعة الأولى صورية ، بأن تكون إحدى النسخ أصلا والباقى فروعًا . ولذا يتساءل الباحث المدقق : هل « أ » أكثر احتمالا للصدق من « ب » ، أم الأمر بالعكس ؟ » . ويمكن تفسير اتفاق أغلبية النسخ فى نقطة ما بأنه دليل على أن هذه النسخ مأخوذ بعضها عن بعض ، أو أخذت جميعها عن أصل واحد أقدم منها ، وعندئذ فمن العبث أن يثقل المحقق على نفسه بنسخ مكررة ، وأولى به أن يكتفى بواحدة منها ليقارن بينها وبين نسخة أخرى مستقلة .

والخطأ المشترك فى فقرات متباعدة فى عدة نسخ دليل على أنها غير مستقلة ، أخذت عن أصل واحد ، فمحال أن يتفق أفراد مستقلون لم يتلاقوا على الوقوع فى نفس الأخطاء ، والمقابلة بين عدد ضخم من النسخ المستقلة عبث ضائع ، وفائدته لاتعدل الوقت الضائع فى تصنيف هذه النسخ ، والذين يتباهون بكثرة مايعتمدون عليه منها ، ويغرقون أنفسهم فى الفروق التافهة بينها ، أقل الناس قدرة على الإفادة العلمية من النصوص التى يحققونها .

وقبل الشروع فى استخدام أية مخطوطة يجب التأكد من مؤلفها ومصدرها وشخصية ناسخها إن أمكن ، وفى أى تاريخ كتبت ، فقد يضطر المؤلف ، تحت ظروف معينة ، أن ينشر كتابه بتوقيع مستعار ، ليضمن له الرواج ، أو ليتقى هجوم الخصوم . كان الجاحظ – مثلا– يؤلف أحيانا كتبًا ينسبها إلى أدباء كبار كابن المقفع ، والخليل بن أحمد ، ويحيى بن خالد ، وغيرهم ، فيبادر خصومه إلى تعظيم قدر هذه المؤلفات وينسخون عنها ، فتكتسب رواجًا وشهرة . وقد يُدَس فى النص ، عند النسخ ، أفكار ليست منه ، والمقارنة المنهجية بين مختلف العناصر فى النصوص التى نحللها ، وبين العناصر المقابلة لها فى نصوص مشابهة ، غير مشكوك فى مصدرها ، يتيح لنا أن نكشف النقاب عما هو مزور منها .

ومتى تمَّ تحقيق النصوص ، وتأكدت صحتها ، وثبتت نسبتها إلى أصحابها تكون مهمة المحقق قد انتهت ، لتبدأ مهمة الدارس ، فى تحليل الوثيقة ، تمهيدًا لفهمها ، وللوقوف على معانيها ، وردّ عناصرها الفكرية إلى أصولها ، وتحديد قيمتها ؛ طبقا

لقواعد « التحليل الداخلى للنصوص » وهى قواعد خارج نطاق دراستنا التعرض لها ، لأنها بمناهج البحث ألصق منها بتحقيق المخطوطات .

* * *

لم يقدّر للمطبعة الأمريكية فى بيروت أن تعيش طويلا ، وبقيت المطبعة الكاثوليكية محافظة على مستواها دقة وإخراجًا ، وإن ظلّت تعمل داخل نطاق محدود ، أما القاهرة فاضطلعت بالعبء الأكبر ، ولقد عمت الطباعة العالم العربى كله ، لكن ما تصدره القاهرة وحدها يربو على مايطبع فى بقية عواصمه مجتمعة ، وإذا كانت مطبعة « بولاق » قد تراجعت عن المقدمة كمصدر لأمهات الكتب العلمية والأدبية ، فقد حلت مكانها دار الكتب المصرية ، ولجنة التأليف والترجمة والنشر ، ودار المعارف ، ومئات أخرى من المطابع ، وعشرات من دور النشر ، وبلغ الكتاب العربى مستوى عاليًا من الإخراج والضبط والدقة ، وتجلت نهضته فى مظهرين رئيسيين : طبع التراث المخطوط ، وتيسير النشر للكاتب المعاصر .

تأثر نشر التراث بعاملين جوهريين ، أحدهما تجارى بحت ، يتمثل فى سطو الوراقين على المخطوطات ، ونشرها كيفما اتفق ، لأن طبعها لايحكمه قانون ، ولاتحده ضوابط ، وجريًا وراء المزيد من الأرباح ، اندفع هؤلاء ينشرون كل شىء ، مشوَّهًا وناقصًا ومليئًا بالأخطاء ، ونفقت السوق بالكثير من هذه الكتب ، وأغلبها من كتب الشريعة ، وأمهات مصادر الأدب . والثانى علمى خالص ، وهو تحقيق المخطوطات ، ونشرها على أسس منهجية .

بدأ نشر المخطوطات محققة على يد المستشرقين فى أوربا ، وتضافر على إثراء المحاولة وتعميقها يسر الطباعة فى وقت لم يكن العالم العربى قد سمع بالمطبعة بعد . فنشر المستشرق الهولندى توماس إربنيوس Th. Erpenius (١٥٨٤ - ١٦٢٤ م) كتاب « مجمع الأمثال » للميدانى ، ونشر مواطنه يعقوب جوليوس J. Golius (ت ١٦٦٧ م) « لامية العجم » للطغرائى و « عجائب المقدور » لابن عربشاه ، ونشر دى خويه M. J. Coeje (١٨٣٦ - ١٩٠٩) طبعة نقدية لتاريخ الطبرى ، أخرجها بمساعدة عدد آخر من العلماء فى خمسة عشر جزءًا ، وحقق فان فلوتن G. Van Vloten (١٨٦٦ - ١٩٠٣) كتاب « البخلاء» للجاحظ ، ونشر بيفان Bevan (١٨٥٩ - ١٩٣٤) « نقائض جرير والفرزدق » . ونشر

الإنجليزى أدورد بكوك Pocock (ت ١٦٩١ م) « مختصر الدول » لابن العبرى ، وحقق لايل Charles Lyall (١٨٤٥ - ١٩٢٠) شرح المفضليات لابن الأنبارى ، ونشر الفرنسى سلفستر دى ساسى A. I. Silvestre de Sacy (١٧٥٨ - ١٨٣٨) « كليلة ودمنة » و « ألفية ابن مالك » ورحلة عبد اللطيف البغدادى ، ونشر مواطنه كوسان دى برسفال A. P. Caussin de Perceval (١٧٩٥ - ١٨٧١ م) « المعلقات السبع » و « مقامات الحريرى » ونشر كترمير Ouatremere (١٧٨٢ - ١٨٥٢ م) «مقدمة ابن خلدون»، وكتاب «الروضتين» لأبى شامة . ونشر الألمانى فلوجل G. L. Flugel (١٨٠٣ - ١٨٧٠ م) « كشف الظنون » لحاجي خليفة ، و « الفهرست » لابن النديم ، و« مؤنس الوحيد » للثعالبى ، وحقق رودولف جاير Rudolf Geyer (١٨٦١ - ١٩٢٩) ديوان الأعشى .

وهؤلاء ليسوا كل المستشرقين الذين وقفوا حياتهم على التراث العربى والإسلامى ، ولم يكن هذا كل ماحقّقوه ونشروه ، وإنما اخترنا قلة منهم نماذجٍ ، وبعضًا من أعمالهم مثلا[1] ، ولم يتوقف نشرهم للتراث ، بل اتسعت دائرته ، وكثر المقبلون عليه . ويمكن القول بصفة عامة ، إن تحقيق ماقبل القرن التاسع عشر ، كان متواضعًا ساذجًا وأن ماتم خلاله وبعده كان جيدًا ، فقد توافرت للقائمين عليه وسائل المعارضة بين النسخ المختلفة للكتاب الواحد ، والثقافة الواسعة ، والتمكن من العربية ، فقوّموا النص ، وصححوا أخطاءه ، ووضحوا إشاراته ، وضبطوا أعلامه ، وألحقوا بكل كتاب فهارس كاملة ومنوّعة .

وفى مطلع هذا القرن كانت اليقظة المصرية فى عنفوانها ، تناضل على كل الجبهات ، وتتقدم فى كل الميادين ، وكان من نصيب الثقافة ، إلى جانب العناية بالتعليم ، إحياء التراث وتحقيق ذخائره ، ونشرها على أسس علمية ، محتذية مناهج المستشرقين وطرائقهم ، وأول خطوة فى هذا الطريق يرجع فضلها إلى أحمد زكى باشا ، فقد قام بتحقيق كتابى « أنساب الخيل » و « الأصنام » لابن

---

(١) نشر المستشرق الألمانى المعاصر يوهن فك Johann Fuck دراسة قيمة عن الاستشراق فى أوربا ، فى كتاب عنوانه : « الدراسات العربية فى أوربا » ليبزج ١٩٥٥ .

« Die arabischen Studien in Europa, Leipzing 1955.

الكلبى ، وطبعا فى المطبعة الأميرية (الاسم الذى تحمله مطبعة بولاق حينذاك رسميا) عام ١٩١٤ ، باسم « لجنة إحياء الآداب العربية » ، التى عرفت فيما بعد باسم « القسم الأدبى » وكلاهما كان جزءًا من دار الكتب المصرية ، وكان عمله فاتحة تقدم لم تعهده مصر فى مجال التحقيق الأدبى ، من تقديم النص وضبطه والتعليق عليه وشرح غامضه ، وإلحاق الفهارس التحليلية به ، واستخدام علامات الترقيم الحديثة فى الفصل بين جمله . ونشرت دارُ الكتب « صبحَ الأعشى » للقلقشندى محققًا فى ١٤ مجلدًا عام ١٩٢٠ ، ثم نهاية الأرب عام ١٩٢٣ . ثم تبنت طبع كتاب « الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى » ، استجابة لاقتراح السيد على راتب الذى تكفّل بنفقات طبعه ، وصدر الجزء الأول منه عام ١٩٢٧ ولقى منها عناية كاملة ، فهى تعهد بكل جزء منه إلى واحد من العلماء الثقات ، يعارض مخطوطاته ، ويضبط نصه ، ويشكل كلماته ، ويصنع فهارسه[١] . ولا تزال دار الكتب تواصل عملها وإنْ ثقلت خطاها ، وونى جهدها ، وتوشك أن تتوقف رسالتها فى هذا المجال .

اقتحم كثيرون من المصريين هذا المجال ، فنقبوا عن نفائس المخطوطات ونشروها ، وأعانهم على رسالتهم إقبال الناس عليها ، واهتمام دور النشر بها ، إلا أن رواج كتب التراث وما يدره على بعض محققيه من غنم مادى ، أدى إلى تعجل بعضهم فى النشر ، التماسا لربح أوفر ، ومنهم من يقنع بما حققه المستشرقون ، يدفع به إلى المطبعة مع تصحيحات خفيفة ، لهفوات قليلة ، يبررون بها أمام ضمائرهم ألا يشيروا إلى فضل السابقين . وآخرون جذبهم بريق النشر والمادة ، فتطفلوا عليه وليسوا من أهله ، ماعرفوا لهم تخصصا ولاتسلحوا له بعدة ، وما زاد عملهم على أن يكون مخطوطات نشرت على ورق أبيض ، وكتبت بحروف المطبعة ، وأضيفت إليها أخطاؤها وبقيت قلة مؤمنة صابرة ، تؤدى رسالتها فى صمت خاشع ، وتتقى الله فيه عبادة ، فيجىء عملها علما كاملا مضيئًا ، يشرف صاحبه ، ويشرف الأمة التى ينسب اليها .

وأسهم العالم العربى فى هذا المجال ، فنشر المجمع العلمى فى دمشق ، وأنشئ عام ١٩١٩م، عددًا من دواوين الشعراء والمختارات والنصوص ، مثل ديوان الوليد

---

(١) انظر دراستنا للأغانى فى الفصل الخاص به

ابن يزيد، ورسالة الملائكة لأبي العلاء المعري، والقسم الخاص بشعراء الشام من كتاب « الخريدة » وساعد المجمع العلمي العراقي في نشر عدد من المخطوطات، منها: « كتاب الديارات » للشابشتي، و« رسوم دار الخلافة » لأبي الحسين الصابي، وكان للمطبعة الكاثوليكية للآباء المرسلين اليسوعيين في بيروت جهد طيب في هذا المجال، أشرنا إليه من قبل. وأسهمت الكويت بإمكاناتها المادية الهائلة في هذا المجال، فأخذت « دائرة المطبوعات والنشر » بها في إصدار عدد من المخطوطات، منذ عام ١٩٥٩ م، تحت عنوان: « التراث العربي »، صدر منها: « كتاب المصون » لأبي أحمد العسكري، و« مجالس العلماء » للزجاجي، و« ديوان لبيد » وغيرها. وتقوم الآن بنشر تاج العروس للزبيدي » في خمسين جزءا محققا بعناية عدد من العلماء المختصين. وأسهمت البلاد الاسلامية التي لاتتكلم العربية كالهند وباكستان، وتركيا وإيران، في نشر جانب من ذخائر هذا التراث.

لايثير الكتاب المطبوع للمؤلف المعاصر من المشاكل مايثيره طبع المخطوطات أو دراستها، لأن الكتاب المعاصر يطبع تحت بصر صاحبه وبإشرافه، وأخطاؤه - عادة - مطبعية يمكن تداركها. إلا أن سهولة الطباعة، وتشابك القضايا المعاصرة، وخيانة بعض الناس لشرف الكلمة، وهروب بعض المؤلفين من تحمل المسئولية، وإيثارهم لذاذة الرفاهية على قسوة النضال، وتقدم وسائل التزوير والتزييف، وفقدان حرية الفكر، في مواجهة ضواغط الحياة، سياسية واقتصادية واجتماعية، يجعل الوصول إلى أفكار المؤلف الحقيقية مهمة شاقة وعسيرة، لأن المؤلفين حينئذ يصمتون، أو يلجأون إلى الرمز، يستخدمون الألفاظ ذات الدلالات المزدوجة، أو يسطرون مالا يعتقدون. وبعض المؤلفين ينشرون كتبهم معماة لاتحمل أسماءهم أو تحمل أسماء مستعارة. فقد كتب مصطفى صادق الرافعي (ت ١٩٣٧ م) سلسلة من المقالات في مجلة « العصور » ضد عباس محمود العقاد (ت ١٩٦٤) بلا توقيع، ثم جمعها ونشرها في كتاب أسماه: « على السفود » دون أن يحمل اسمه أيضا. وصدرت الطبعة الأولى لرواية « زينب » عام ١٩١٣ من تأليف الدكتور محمد حسين هيكل، تحمل اسم « مصري فلاح ». وإذا كان من رجال الفكر المعاصر من عاش لفكره، وناضل دونه، ولقي الله عليه، فهناك

من أكلوا على كل الموائد ، وتنقلوا بين كل المذاهب ، وغيروا أفكارهم بالسهولة التى يتنفسون بها ، ومن ثم تحتاج المؤلفات الحديثة إلى تحليل داخلى دقيق لنصوصها ، يردها إلى أصولها ، ويبرز البواعث النفسية ، والأسباب الخارجية ، الكامنة وراء أفكارها .

مصادر الشعر الأولى

لم يصل الدارسون المحدثون إلى رأى قاطع ، أو رؤية واضحة ، فيما يتصل بمصادر الادب الأولى ، ويبدو من الأخبار الملتقطة من هنا وهناك أن جمع الشعر الجاهلى وأكَبَّ الحركة العلمية فى العصر الأموى ، متمثلة فى تقدم علوم اللغة والنحو ، والتى أخذت شكلها النهائى مع قيام الدولة العباسية ، بعد أن تولى المنصور الخلافة عام ١٣٦ هـ = ٧٥٤ م وإلى علمائها فى البصرة والكوفة يعود الفضل فى جمع النصوص الشعرية والأخبار التاريخية المتعلقة بها ، على نحو منهجى ، وهو جمعٌ أخذ أشكالا مختلفة ، فقد يكون شعر قبيلة بأكملها ، أو شاعر بعينه ، أو لطبقة معينة من الشعراء ، حسب مكانتهم الفنية ، أو الاجتماعية ، أو فى شكل مختارات ترضى أذواق الذين تتوجه إليهم ، وتعكس بالتالى ذوق المختار وميله الأدبى .

ويمكن القول إن دواوين الشعر التى يحمل الواحد منها اسم شاعر بعينه جاءت تالية ، وحتى ربما كانت ثانوية ، بالنسبة لدواوين القبائل نفسها ، وقد يكون بعضها مقتطعا من هذه ، أو من الأخبار التى تدور حول حياة الأبطال وقتالهم ، ولو أن هذا لاينفي أن بعض دواوين الشعر ترجع صناعتها إلى زمن بعيد جدا ، كما هو الحال فى المعلَّقات مثلا ، وهى أقدم دواوين الأفراد ، وربما كانت الدافع وراء اختيار القصائد الكبار ، لآحاد الشعراء المشهورين ، وجَمْعها فى مجموعات متميزة .

○ دواوين القبائل :

ليس مبالغة أن نقول إن المحاولات الأولى لجمع الشعر المنتمى إلى قبيلة واحدة بأكملها تعود إلى العصر الجاهلى وصدر الإسلام ، ولدينا إشارات تدعم هذا الاحتمال، فالشاعر الجاهلى بشْر بن أبى خازم الأسدى الذى عاش فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى ، وعاصر النابغة الذبيانى ، ضمن بيتًا له حكمةً ، شطر بيت ، وجدها فيما يقول فى كتاب بنى تميم :

وجدنا في كتاب بني تميم [أحقُّ الخيل بالركض المعارُ]

وثمة رواية تشير إلى أن عمر بن الخطاب أوصى الأنصار أن يكتبوا شعرهم فى هجاء قريش وأن يحتفظوا به ، فدونوا ذلك عندهم ، وظلت هذه المجموعة متداولة فترة من الزمن . ولعل قسما من هذا الشعر وصل إلينا ، فقد أفاد منه عبد الله بن محمد بن عمارة بن القدّاح ، المتوفى فى نهاية القرن الثانى الهجرى ، فى مؤلفه « كتاب نسب الأنصار » .

ولم يصلنا شيء مما دون فى العصر الجاهلى أو صدر الإسلام ، ولكن الأخبار التى وصلتنا عن هذه المؤلفات ، واقتباس المتأخرين منها ، يعيننا على تصور عام لمحتواها ، ويمكن القول معه إن الشعر كان يجىء فى نطاق الحوادث المتصلة به ، وأن العناوين التى كانت تطلق عليها مما يشبه عناوين دواوين الشعراء ، فلا تذكر فيها كلمة ديوان ، وإنما « شعر » ، أو « أشعار » ، أو « كتاب » أو « خبر » ، أو « أخبار » ، أو « أشعار وأخبار » ، وأقدم ماجمع منها كان غفلا من اسم جامعه .

وقد شاعت صناعة دواوين القبائل فى العصر الأموى ، ويروى أن أبا عمرو الشيبانى ، المتوفى ٢٠٦ هـ = ٨٢١ م جمع أشعار أكثر من ثمانين قبيلة ، اعتمد عليها الرواة فيما بعد ، وطريقته أن يجمع المتاح من شعر القبيلة ، وماتفرّق من نتاج أسلافها ، واعتمد فى هذا على شيخه المفضل الضبى ويظن أن قسما كبيرا من قصائده « المفضليات » كانت اختيارات من دواوين القبائل المتاحة لديه .

وكانت كتب الأخبار والأنساب تتضمن أيضا شيئا من شعر القبائل ، ويصف على ابن عمر الدار قطني « كتاب النسب العتيق فى أخبار بنى ضَبَّة » بأن صاحبه « جمع فيه أخبار بنى ضبَّة وأخبار شعرائهم » . وهناك « كتاب فى أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها » لعبيد بن شرية الجرهمى ، ومحتواه واضح من عنوانه . وكتاب الزبير بن بكار « جمهرة نسب قريش » ، وتضمن معلومات فى الأنساب ، وشيئا من قصص القبائل ، ومجموعة متنوعة من شعر قريش .

نعرف عناوين دواوين القبائل مباشرة من كتب الفهارس ، أو نلتقى بها متناثرة فى كتب المختارات الأدبية ، وكتب الطبقات التى اعتمدت على دواوين القبائل ، وقد أورد ابن النديم ، المتوفى ٣٨٥هـ = ٩٩٦ م ، فى كتابه « الفهرست » أسماء ثمانية وعشرين ديوانا كلها منسوبة إلى صانعها ، خمسة وعشرون منها صنعها

أبو سعيد السكرى[١] ، وواحد نسبه إلى ابن الكلبى . وذكر الآمدى المتوفى ٣٧٠ هـ = ٩٨١ م ، ستين ديوانا من دواوين القبائل ، واقتبس منها ، وأحيانا كان يبدى عنها ملاحظات مفيدة ، توضح طبيعتها ومحتواها ، وكان كثيرا مايوازن بينها وبين ماعند السكرى ، ولكنه لم ينسبها إلى جامع أو صانع باستثناء ديوان واحد ، وأفاد منها فى كتابه « منتخل القبائل » ولم يصلنا ، وذكر الأغانى أن الأصمعى جمع أشعار بنى جعدة ، وأشعار الأنصار . وجانب من هذه الكتب يمكن أن يعود إلى الفترة الأولى ، قبل أن يقوم اللغويون بصنعة الدواوين .

وجمعوا أيضا أشعار اليهود والقبائل اليهودية عدة مرات ، فقد ذكر الآمدى فى مؤلفه « المؤتلف والمختلف » « كتاب بنى قُريظة » وألف ثعلب كتاب « أشعار اليهود » ، وجمع السكرى أيضا أشعار اليهود ، وأكمل هذه المجموعة محمد بن جعفر الطيالسى .

وهذه الدواوين لم تصلنا كاملة ، وإنما نجد إشارات إليها هنا أو هناك ، فى الكتب الأدبية المختلفة كالأغانى ، والمؤتلف والمختلف ، وتاريخ بغداد ، والموازنة بين الطائيين ، وخزانة الأدب للبغدادى وغيرها ، ولم يقم أحد بعد بجمع القطع الباقية منها ، والتأليف بين أجزائها ، لتعطى على الأقل صورة ولو بدائية وتقريبية لما كانت عليه .

الديوان الوحيد الذى وصلنا كاملا من بين كل الدواوين التى سبقت هو :

○ ديوان الهُذَلِيِّين :

وهو الديوان الوحيد الذى وصلنا من بين دواوين القبائل ، ويتضمن كله شعرا لقبيلة هذيل . وهى قبيلة هامة فى الحجاز ، وكانت ديارهم حول مكة ، ولهم فيها على حد تعبير ابن حزم الأندلسى « عدد وعِدة ومنعة » ، ولم يبق منها اليوم سوى عناصر تحضرت تسكن مدينة الطائف ، شُهرت بالشعر ، وكان الإمام الشافعى معجبا بشعرهم ، وراوية له ، ويحفظ عشرة آلاف بيت منه بإعرابها وغريبها ومعانيها ، وذكر حسّان بن ثابت أن عدد شعرائها فى عصره تجاوز الثلاثين ، ويقول

---

(١) انظر دراستنا له فى هذا الكتاب.

ابن حزم ، وهو من علماء القرن الخامس الهجرى ، كان فيهم : « نيّف وسبعون شاعرا مشاهير » ، وذكر أسماء بعضهم . ونعرف من الأشعار التى وصلتنا أكثر من مئة شاعر ، سبعة فقط لكل واحد منهم أكثر من مئة بيت ، أما سائرهم فلم تصل لهم إلا مقطوعات صغيرة .

وقد استدرك **ابن جنى** ، المتوفى ٣٩٢ هـ = ١٠٠٢م ، **على السكرى** مافاته ، وألف كتابه « التمام فى تفسير أشعار هذيل ، مما أغفله أبو سعيد السكرى » ، وهو كتاب وصلنا ، وقام على تحقيقه **أحمد ناجى القيسى** وآخرون ، ونشر فى بغداد عام ١٩٦٢ .

وتضم مخطوطة « منتهى الطلب من أشعار العرب » **لمحمد بن المبارك** ، وسنعرض لها تفصيلا فيما بعد ، أشعارا مختارة من ديوان الهذليين ، فى الجزء الخامس منها ، الصفحات ١٧٦أ – ٢٢٤ . لخمسة وعشرين شاعرا ، ولاتطابق صنعة السكرى إلا فى قسم منها .

أمّا شرح **المرزوقى** لأشعار الهذليين ، وكذلك شرح **أبى بكر محمد بن يوسف القارى** ، المتوفى ٩٤٥ هـ = ١٥٣٥ م ، وأشار إليهما البغدادى كثيرا فى خزانة الأدب ، فلا نعرف عنهما شيئا غير هذه الإشارات .

بدأ جمع ديوان الهذليين بطريقة غير منظمة فيما يبدو ، واعتمد على جمع متأخر ، وأعاد سبكه النحوى **الرمانى** المتوفى عام ١٨٤ هـ = ٩٩٤ م ، ونعرف أن **عبد القادر البغدادى** صاحب خزانة الأدب ، المتوفى عام ١٠٩٣ هـ = ١٦٨٢ م كان يملك نسخة من ديوان الهذليين كُتبت عام ٢٠٠ هـ = ٨١٦ م وأن **أبا سعيد السكرى** نقّح نسخة الديوان بعد عام ٢٧٥ هـ = ٨٨٨م ، وأن مصادر نسخته تتمثل فى عالم مجهول اسمه عبد الله بن إبراهيم الجمحى ، وأن قسما كبيرا منها مصدره الأصمعى وأبو عمرو الشيبانى وابن الأعرابى ، ويرد أبو عبيدة قليلا .

طبع ديوان الهذليين لأول مرة فى أوربا فى القرن الماضى فى ثلاث مجموعات :

● المجموعة الأولى قام بها **كوز جارتن** فى لندن عام ١٨٥٤ م ، وعليها شرح السكرى ، وكتب عليها : « **كتاب منتهى أشعار الهذليين ، صنعة أبى سعيد الحسن ابن الحسين السكرى » وتشتمل على شعر تسعة وعشرين شاعرا من شعراء هذيل .**

● المجموعة الثانية ، كُتب عليها « أشعار الهذليين مابقى منها فى اللندونية (الليدنية) غير مطبوع » ، وطُبعت فى برلين عام ١٨٨٤ ، وترجم المستشرق الألمانى فلهَوْزِن شعرها إلى اللغة الألمانية ، ونشر الترجمة عام ١٨٨٧ م ، وتضم هذه المجموعة شعر سبعة وعشرين شاعرا من هذيل ، إلى جانب ذكر بعض الوقائع وأيام العرب ، وماقيل فيها من الشعر . وهذه المجموعة الثانية مكملة للمجموعة الأولى التى عليها شرح السكرى وهى مخطوطة فى ليدن بهولندا .

● المجموعة الثالثة ، طبع منها جزءان ، كتب على الأول منها : « مجموع دواوين من أشعار الهذليين » ، وهو يشتمل على ديوان أبى ذؤيب ، اعتنى بنشره ، واستخرجه لأول مرة يوسف هل الألمانى ، هانوفر خزانة الكتب الشرقية ، لهاينس لافاير سنة ١٩٢٦ . وكُتب على الثانى : « مجموعة أشعار الهذليين ، الجزء الثانى ، أشعار ساعدة بن جؤية ، وأبى خراش الهذلى ، والمتنخِّل ، وأسامة بن الحارث ، اعتنى بنشرها يوسف هل الألمانى طبع بمدينة ليبزج سنة ١٩٣٣ » . وشرح هذا الجزء يتفق مع شروح النسخة الشنقيطية الموجودة فى دار الكتب المصرية ونصها ، ولكنها يختلفان فى ترتيب الشعراء ، وفى ترتيب شعر أبى ذؤيب الهذلى ، وهذه المجموعة مترجمة كلها إلى الألمانية .

ونشرت دار الكتب المصرية ديوان الهذليين محققا ، اعتمادا على مخطوطة الشنقيطى ، وجاء فى ثلاثة أجزاء الأول صدر عام ١٣٦٤هـ = ١٩٤٥ ، ويضم القسم الأول ، ويحتوى على شعر أبى ذؤيب ، وشعر ساعدة بن جؤية . وصدر الجزء الثانى ، وبه القسم الثانى فى ١٣٦٧ هـ = ١٩٤٨ م ويضم أشعارا لكل من : المتنخل ، وعبد مناف بن ربع ، وصخر الغىّ ، وحبيب الأعلم ، وأبى كبير ، وأبى خراش ، وأمية بن أبى عائذ ، وأسامة بن الحارث ، وساعدة بن جؤيّة ، وأبى المثلّم ، وأبى العيال ، وبدر بن عامر . وصدر الجزء الثالث ، وبه القسم الثالث والأخير ، فى ١٣٦٩ هـ = ١٩٥٠ م ، ويضم أشعارا لكل من : مالك بن خالد الخُناعّى ، وحذيفة بن أنس ، وأبى قِلابة ، والمعطل ، والبُريق ، ومعقل بن خويلد ، وقيس بن عيزارة ، ومالك بن الحارث ، وأبى جندب ، وأبى بثينة ، ورجل من هذيل ، وعمرو بن الداخل ، وساعدة بن العجلان ، ورجل من بنى ظفر ، وكليب الظفرى ، والعجلان ، وعمرو ذو الكلب ، وجنوب أخته . ثم أعادت وزارة

الثقافة طبعه مصورا فى مجلد واحد عام ١٣٨٥ هـ = ١٩٦٥ م .

كما قام عبد الستار أحمد فراج بإعادة نشر « كتاب شرح أشعار الهذليين صنعة السكرى » ، فى ثلاثة أجزاء ، وراجع التحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر ، وصدر فى القاهرة عن دار العروبة عام ١٩٦٣ .

○ دواوين الشعراء :

منذ عهد بعيد كان شعر الشاعر الواحد يجمع بين دفتى كتاب ، وجُلّ هذه الدواوين فُقِد ولم يصلنا ، ولم يكن يوصف هذا المجموع بأنه ديوان ، وإنما كان يطلق عليه لفظ « شعر » ، أو « خَبر » ، وقد أشرنا فيما سبق أن تدوين الشعر كان مألوفا فى الجاهلية وصدر الإسلام على السواء ، ولكن الدواوين التى وصلتنا لا تقدم لنا الشكل الأصلى لهذه الدواوين ، لأن علماء اللغة فى القرنين الثانى والثالث الهجريين أعادوا ترتيبها حسب أذواقهم وغاياتهم ، ولكنهم لم يقعدوا أبدا عن السعى الدائب والملح وراء المصادر ، ولم يتوقفوا عن النقل والرواية والتنظيم والتبويب ، وكان السكرى كما رأينا أكثر العلماء صنعا للدواوين ، وتميز بمنهج دقيق حمده له الأقدمون ، فهو يقارن بين الروايات المختلفة ، لديوان الشاعر الواحد ، ويختار أصحها لديه ، حتى وصفه ياقوت الحموى بأنه : « إذا جمع جمعا » فهو الغاية فى الاستيعاب والكثرة » .

وبينما وقف السكرى جهده على صنع دواوين القدامى ، اتجه آخرون ، أوضحهم الصولى المتوفى ٣٣٥ هـ = ٩٤٦ م ، إلى صنع دواوين للشعراء المحدثين ، وتعدى الصولى ذلك فألف فى أخبارهم ، ويمكن معرفة جهده فى ذلك كاملا بالرجوع إلى قائمة كتب الفهرست لابن النديم ، وتقدم بها منهجيا فرتبها أبجديا حسب قوافيها ، وجاء حمزة الأصفهانى المتوفى نحو عام ٣٦٠ هـ = ٩٧٠ م فمضى بالأمر خطوة أخرى فرتبها بحسب أغراضها ، وهو اتجاه يخدم دارس الشعر ويعينه ، ومنهج تخلى عنه حين صنع ديوان أبى نواس ، فرتبه حسب القوافى ، وربما فعل هذا لإرضاء الرواة والأدباء .

ولانكاد نمضى مع القرن الرابع الهجرى حتى نجد من الشعراء من بدأ يصنع ديوانه بنفسه ، فجمع السريّ الرفّاء المتوفى عام ٣٦٠ = ٩٧٠ م ، ديوان شعره

قبل موته ، فى نحو من ثلاث مئة ورقة ، ثم زاد فيه بعد ذلك . ورتب أبو فراس الحمدانى ، المتوفى ٣٥٧ هـ = ٩٦٧ م ، ديوان شعره قبل وفاته بقليل ، بعد أن نقده ، ومحا بعض قصائده ، وكان قبلها يدفع بأشعاره إلى راويته العالم اللغوى ابن خالويه ، المتوفى ٣٧٠ هـ = ٩٨٠ م ويخصه بآثاره ، ويحظر عليه أن يذيع عنه مايرويه له .

فإذا بلغنا القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى ، وجدنا عدة اتجاهات تتقسَّم صناعة الدواوين ، فهناك من واصل الاهتمام بآثار الأقدمين بعامة ، والجاهليين من بينهم بخاصة ، ومن اهتم بأشعار المحدثين وآثارهم ، كما فعل أبو سعيد بن دوست ، المتوفى ٤٣١ هـ= ١٠٤٠ م ، وصنع أبو بكر الصولى ، المتوفى ٣٣٥ هـ = ٩٤٦ م ، دواوين أربعة عشر شاعرا كلهم ينتمون إلى العصر العباسى . ومن وقف بجهده عند معاصريه ، فصنع الحميدى الأندلسى المتوفى عام ٤٨٨ هـ = ١٠٩٥ م ديوان ابن حزم المتوفى ٤٥٦ هـ = ١٠٦٣ م ، ورتبه على حروف المعجم ، ولما يصلنا ، وجمع أبوطالب محمد بن إبراهيم السرقسطى ، وعاش حتى سنة ٤٩٠ هـ = ١٠٩٧ م ، ديوان ابن درّاج القسطلى ، المتوفى ٤٢١ هـ = ١٠٣٠ م ، ورتبه وزاد فيه كثيرا على مابأيدى الناس .

واتسعت دائرة الشعراء الذين يصنعون دواوينهم بأنفسهم ، ويختارون لها عناوين خاصة ، ويجعلونها فى أكثر من جزء ، فضم أبو العلاء المعرّى أشعار شبابه فى ديوانه « سقط الزند » ، وأشعار مابعد الشباب فى ديوان آخر أسماه « لزوم مالايلزم » ، وأحسب أنه أول من اختار أسماء لدواوينه ، وهى ظاهرة سوف تتسع مع الزمن ، فنجد ابن أفلح ، المتوفى ٥٣٧ هـ = ١١٤٢ م ، يجمع شعره ، ويرتبه هجائيًا حسب القوافى، ويعنى به، ويهذبه، ويكتب له مقدمة يذكر فيها عدد أبيات كل قافية ، وجمع أبو المظفّر الأبيوردى ، المتوفى ٥٠٧ هـ = ١١١٣ م ، ديوانه بنفسه ، وقسّمه موضوعيا ، آخذا الجانب الجغرافى فى الاعتبار ، فسمّى الجزء الأول : النجديات ، والثانى : العراقيات ، والثالث : الوجديات ، وضم الرابع المقطعات . وهناك من الشعراء من آثر أن يضم قصائده فى نسختين ، إحداهما معربة ، والأخرى عارية من الإعراب ، كما فعل أحمد بن مطرف العسقلانى المتوفى ٤١٣ هـ = ١٠٢٢ م .

ومع الزمن أصبح الأصل أن يهتم الشاعر نفسه بشعره ، وأن يجمعه فى ديوان ، ولهذا قل اهتمام العلماء بصناعة الدواوين ، وارتدوا إلى القديمة منها يشرحونها ويدرسونها ويعلقون عليها .

وإذا ألقينا الآن نظرة إلى مابين أيدينا من الشعر القديم نجد جملة دواوين مما جمعه علماء العراق ، والسكرى من بينهم بخاصة ، وتشمل دواوين امرئ القيس ، والنابغة ، وزهير ، وطرفة ، وعنترة ، وعلقمة ، وعروة بن الورد ، والشنفرى ، وأوس بن حجر ، والمتلمس ، وعمرو بن قميئة ، وآخرين من المقلين . وتختلف هذه الدواوين فى اتساعها ، فكثير منها لايزيد على عشرين صفحة ، وأطولها كدواوين النابغة وزهير وامرئ القيس لايتجاوز الثلاثين ، ولو أن الناشرين فى العصر الحديث اعتادوا أن يضيفوا إليها مايعثرون عليه لأصحابها أثناء مطالعاتهم ، من شعر متناثر فى كتب الأدب والتاريخ ، فتضخم بعضها عما كان عليه فى الأصل .

كذلك وصلنا طوفانٌ من مخطوطات العصور التالية ، حين شاعت الكتابة والقراءة ، وصنع العرب الورق ، وأخذ الشعراء والأدباء والعلماء أنفسهم بتدوين كل شىء . والدواوين الجاهلية نُشر جلها محققا فى مصر أو أوربا ، وبقى القليل منها مخطوطا ، ولكنها لاتزال فى جملتها تحتاج إلى جهود أخرى ، تصحح أخطاءها ، وتوضح غوامضها ، وتيسر الفائدة منها ، ومانشر من دواوين العصور التالية قليل بالنسبة إلى وفرة إبداعها وامتداد زمنها واقتصار النشر على الأعلام البارزين من شعرائها ، مع أن نشرها يحتاج إلى جهد أقل ، يتمثل فى العثور على النسخ المختلفة للديوان الواحد إن وجدت ، ومعارضتها للوصول إلى النسخة الأكثر قربا من إرادة المؤلف ، أو الاعتماد على المصادر الأخرى حين تكون النسخة وحيدة .

عادة توجد القصائد والمقطعات مرتبة هجائيا فى هذه الدواوين ، بحسب القافية ، وهو أمر يسهّل على القارئ الوصول بسهولة إلى مايرغب فيه من شواهد شعرية ، ولكن الشعر غالبا مايروى دون أن تُذكر الظروف التى أوحت به ، أو قيل فيها ، ومن هنا يصعب فى كثير من الأحيان تحديد المقصود من الإشارات الواردة فى القصائد ، وبخاصة فى الشعر الجاهلى ، وبعض الأموى ، حيث يستمد الشعراء مادة صورهم من البيئة حولهم ، وهى غريبة على ساكن الحضر ، فاستدعى ذلك وضع الشروح لها ، وهى غالبا مزيج من تفسيرات لغوية ،

وتخريجات نحوية وصرفية، لا تساعد كثيرا على فهم النص فهمًا كاملا دون الاستعانة بمراجع أخرى إضافية ، من كتب التاريخ وغيرها .

○ كُتُب المختارات :

عرفت الحياة الأدبية فيا لقرن الثانى الهجرى وماتلاه، إلى جانب صناعة دواوين الشعراء منفردين أو شعراء قبيلة مجتمعين ، اتجاهات أخرى لاتنتمى إلى أىٍّ من الاتجاهين السابقين ، وإنما تقوم على أساس الانتقاء لغايات تربوية أو تعليمية أو تذوقية من الدواوين المستقلة أو المجتمعة ، تختار القصائد الطوال ، أو المقطعات الجميلة ، أو الأبيات السائرة ، ويمكن أن نسميها : المختارات .

وكلما ارتقى المجتمع ، وشاعت الثقافة ، وتحضّر الناس ، وشغلوا بأمور الحياة ، ازدادت كتب المختارات وتنوّعت ، لأنها وسيلة التسلية الراقية والوحيدة ، لمن لايحترفون الأدب ، ولايمتهنون العلم ، ويحاولون أن يأخذوا منها بنصيب ، وليس صوابا أن نهملها ، وليس فى مكنتنا أن نأتى عليها كلها وسنكتفى بأن نورد بعضها فى ضوء الاعتبارات التالية :

- أن تكون قد وصلتنا يقينا ، فهى متاحة إذن لمن يرغب فى العودة إليها ، سواء أكانت منشورة تجاريا ، أم محققة ، أم لاتزال مخطوطة ونعرف مكانها .
- أن تكون ذات أهمية تتمثل فى تنوع مادتها الشعرية ، وفى جدتها ، وألّا تقتصر فى النقل على ماهو مشاع وبين أيدينا فعلا ، وتتضمنه مختارات أشهر ، وأن يسهل الوصول إليها إذا كانت مخطوطة ، لمن يبغى الإفادة منها أو يرغب فى تحقيقها .
- وصرفنا النظر تماما عن المختارات التى لم تصلنا ، ولانعرف عنها غير إشارات لأسمائها فى المصادر المختلفة ، أو وصلنا منها وريقات محدودة ، لاتعطى عن الكتاب إلّا صورة جانبية ، وأقدم المختارات من القصائد الطوال الكاملة هى :

○ المعلَّقات :

جمعها حمّاد الراوية ، المتوفى ١٥٥ هـ = ٧٧١ م ، وحثّ الناس على قراءتها فتذوّقوها ، وعرفوا قيمتها ، وشاعت بينهم ، ونالت حظا واسعا من الشرح

والحفظ ، واتخذ منها الشعراء مثلا يحاكونه ، وهي قصائد مطولة لعدد من كبار شعراء الجاهلية ، لم يتفق الرواة على عددهم ، وكانت تسميتها بالمعلقات موضع خلاف أيضا ، ولأن التسمية غامضة ، وتدعو إلى اللبس ، نشأت حولها قصة تحاول أن تقدم لها سببا .

والأرجح أن حمّادا الراوية لم يكن الجامع لها بدءًا ، وإنما كان أول من اختارها من مجموعات شعرية أكبر ، لتكون بمثابة نموذج شعري يُحتذى ، أما الجمع نفسه فيعود إلى زمن أقدم من حماد نفسه ، ولدينا أكثر من إشارة إلى هذا الأمر . ففي مخطوطة « المنثور والمنظوم » يروي **أحمد بن طاهر طيفور** ، المتوفى ٢٨٠ هـ = ٨٩٣ م ، أن **معاوية بن أبي سفيان** كلّف رواة الشعر باختيار قصائد تصلح لتعليم ابنه وروايته ، فقاموا باختيار اثنتي عشرة قصيدة لامرئ القيس ، وطرفة ، وزهير ، والحارث بن حِلِّزة ، ولبيد ، وعمرو بن كلثوم ، وعبيد بن الأبرص ، وسويد بن أبي كاهل ، والنابغة الذبياني ، وعنترة . وربما كان منهم الأعشى أيضا وحسّان بن ثابت .

ويذكر أيضا أن **عبد الملك بن مروان** اختار قصيدة واحدة لكل شاعر من الشعراء السبعة : عمرو بن كلثوم ، والحارث بن حلزة ، وسويد بن أبي كاهل ، وأبي ذؤيب الهذلي ، وعبيد بن الأبرص ، وعنترة وأوس بن مغراء .

ونجد صدى هذه الروايات عند **عبد القادر البغدادي** ، فهو يذكر ، ربما نقلا عن **جلال الدين السيوطي**،أن **معاوية بن أبي سفيان** قال : « قصيدة عمرو بن كلثوم ، وقصيدة الحارث بن حلزة ، من مفاخر العرب ، كانتا معلقتين بالكعبة دهرا » . ويروي أيضا أن **عبد الملك بن مروان** طرح شعر أربعة من السبعة الذين اختارهم بدءا ، وأثبت مكانهم شعر أربعة آخرين .

لم تأخذ المعلقات شكلا نهائيا على امتداد زمن طويل ، ولم يستطع اختيار حماد لها ، ووقوفه وراءها ، أن يعطيها الطابع النهائي ، وإنما مرّت بمراحل متعددة ، لتصل إلينا في صورتها الأخيرة ، وإذا تتبعنا سمات هذا التطور نجد أن هناك شعراء ثلاثة توجد قصائدهم في كل المجموعات ، وهم : امرؤ القيس ، وزهير بن أبي سلمى ، ولبيد بن ربيعة ، ولعل هؤلاء يؤلفون النواة الأولى ، التي أضيف إليها فيما بعد ، مع الزمن قصائد أخرى ، لدوافع أدبية أو لأسباب سياسية .

فالأصمعى ، المتوفى ٢١٦ هـ = ٨٣١ م ، عرف فى زمنه مجموعة مؤلفة من ست قصائد ، شرحها وسمى شرحه لها « القصائد الست » ، ووصلتنا برواية الأعلم الشنتمرى الأندلسى ، المتوفى ٤٧٦ هـ = ١٠٨٣ م ، وفيها أسقط الأصمعى لبيد بن ربيعة ، وأضاف إليها أربعة آخرين هم : علقمة ابن عبدة ، وطرفة بن العبد ، والنابغة الذبيانى ، وعنترة بن شداد ، وهذا المجموع نشره آلورد فى لندن عام ١٨٧٠ م ثم حققه وعلّق عليه ونشره مصطفى السقا فى القاهرة ، وصدر عن مطبعة الحلبى بمصر ، الطبعة الثانية عام ١٩٤٨ .

وعرف أبو عبيده معاصره مجموعة مؤلفة من سبعة ، تُسقط اثنين من مجموعة الأصمعى هما : علقمة بن عبدة ، وعنترة بن شداد ، وتضيف إليها ثلاثة هم : لبيد ابن ربيعة ، والأعشى ، وعمرو بن كلثوم .

وهذه الأسماء السبعة التى عرفها أبو عبيدة هى التى تنسب إلى حماد الراوية ، وقد نقد المفضلُ الضبىُّ حمادًا الراوية فى اقتصاره على سبع ، ولحظ عليه أنه ترك قصيدتى عنترة ، والحارث بن حلزة ، وأضاف بدلا منهما قصيدتى الأعشى والنابغة .

وجاء بعدهم أبو زيد القرشى ، وعاش فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، وأضاف إلى السبعة السابقة قصيدة عنترة بن شداد فأصبحوا ثمانية .

وفى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ، ولأسباب سياسية ألحقت بالمجموعة قصيدة الحارث بن حلزة التى تمجد قبيلة بكر ، لتكون فى مواجهة قصيدة عمرو بن كلثوم التى تمجد قبيلة تغلب ، وكانت المنافسة بين القبيلتين على أشدها فى الجاهلية ، وبقيت آثارها حية حتى بعد الإسلام . وهكذا نجد أبا جعفر النحاس المتوفى عام ٣٣٨ هـ = ٩٥٠ م يضيف قصيدة الحارث إلى مجموعة أبى زيد القرشى ، فيصبح العدد تسعة ، وقد شرح هذه القصائد ، وسمى شرحه لها « شرح القصائد التسع المشهورات » ، وهو شرح وصلنا ، وحققه أحمد خطاب ، ونشرته وزارة الإعلام العراقية فى بغداد عام ١٩٧٣ فى مجلدين . على حين أن معاصره أبا بكر الأنبارى ، المتوفى ٣٢٨هـ = ٩٢٩ م ، آثر أن يبقى على العدد سبعة ، فحذف من مجموعة أبى زيد القرشى كُلًّا من الأعشى والنابغة ، وأضاف بدلا منهما الحارث بن حلزة ، ثم شرح هذه القصائد ، وسمى شرحه لها « شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات » ، وهو كتاب وصلنا ، وقام على تحقيقه،

عبد السلام هارون . ونشرته دار المعارف بالقاهرة عام ١٣٨٢ هـ = ١٩٦٣ م .

فإذا بلغنا نهاية القرن الخامس الهجرى نجد أن أبا زكريا التبريزى ، المتوفى عام ٥٠٢ هـ = ١١٠٩ م ، أضاف إلى العدد السابق عبيدَ بن الأبرص ، فأصبح عدد الشعراء ، أو المعلقات إن شئت ، عشرًا ، وقد قام بشرحها فى كتاب أسماه «شرح القصائد العشر»، ووصلنا وطبع فى مصر أكثر من مرة(*)، ووقف الأمر عند هذا العدد حتى يومنا هذا.

وقد اختلفوا قليلا حول القصائد نفسها عند شاعرين هما : الأعشى والنابغة ، فمعلقة الأعشى عند الكثرة هى القصيدة التى مطلعها :

وَدِّعْ هريرة إنّ الركبَ مُرتحلُ   وهل تُطيق وداعًا أيها الرَّجُلُ

وانفرد أبو زيد القرشى بأن جعلها القصيدة التى مطلعها :

مابكاءُ الكبير بالأطلال   وسؤالِى ومـاتـردُّ سؤالى

ومعلقة النابغة عند أغلب المجموعات ، هى القصيدة التى مطلعها :

يادارَ ميّة بالعلياءِ فالسندِ   أقْوَتْ وطال عليها سالفُ الأبَدِ

وجعلها أبو زيد القرشي القصيدة التى مطلعها :

عُوجوا فحيُّوا لنُعْمٍ دِمْنَة الدارِ   ماذا تُحيُّونَ من نُؤْىٍ وأحجارِ

رأينا فيما سبق أن هذه القصائد المختارة أخذت أكثر من اسم ، حسب العصور أو الشرّاح ، فهى « المعلقات » أو « القصائد السبع » ، أو « السبع الطوال » ، أو « القصائد التسع المشهورات » ، أو « السبع الطوال الجاهليات » ، أو « القصائد العشر » ، ومن بين كل هذه المسميات فإن اسم « المعلقات » هو الذى أثار كثيرا من الجدل والخلاف ، وصيغت حوله قصة لاتزال حتى يومنا موضع الشك بين العلماء والباحثين .

كان ابن السائب الكلبى المتوفى عام ٢٠٤ هـ = ٨١٩ م ، أول من أشار إلى القصة ، فذكر : أن أول شعر عُلق فى الجاهلية شعر امرئ القيس ، عُلق على ركن من أركان الكعبة أيام الموسم حتى نُظر إليه ثم أُحدر ، ، فعلقت الشعراء كذلك بعده ، وكان ذلك فخر العرب فى الجاهلية وعدوا من عُلِّق شعره سبعة .

وبعد ذلك بقرن من الزمان نلتقى بالقصة عند شاعر ومؤرخ أندلسى ، هو ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد ، المتوفى عام ٣٢٨ هـ = ٩٣٩ م ، ولم

(*) حققه د/ فخر الدين قباوة ونشرته دار الآفاق الجديدة - بيروت - لبنان ط٤- ١٤هـ - ١٩٨٠م.

يكتف بإيراده كما هو عند **ابن الكلبى**، وإنما وشاه بالتوابل، على طريقه الأندلسيين، فذكر عن الشعر : « حتى لقد بلغ من كلف العرب به ، وتفضيلها له ، أن عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم ، فكتبتها بماء الذهب فى القباطى المدرجة ، وعلقتها بين أستار الكعبة ، فمنه يقال مذهبة امرئ القيس ، ومذهبة زهير ، والمذهبات السبع ، وقد يقال لها المعلقات » .

وبعد قرن ونصف من الزمان نلتقى بالخبر نفسه ، فى صياغة جديدة ، عند **ابن رشيق** القيروانى ، المتوفى ٤٦٣ هـ = ١٠٧١ م ، فيذكر فى كتابه « العمدة فى صناعة الشعر ونقده » : « وكانت المعلقات تسمى المذهبات ، وذلك لأنها اختيرت من سائر الشعر فكتبت فى القباطى بماء الذهب وعلقت على الكعبة ، فلذلك يقال مذهبة فلان إذا كانت أجود شعره ، ذكر ذلك غير واحد من العلماء » .

ومن ابن رشيق إلى **ابن خلدون** ، المتوفى ٨٠٨ هـ = ١٤٠٥ م ، وهو تونسى أيضا ، ثم نلتقى بها عند **السيوطى** ، المتوفى ٩١٠ هـ = ١٥٠٥ م ، وهو مصرى ، ومن بعده **البغدادى** ، المتوفى ١٠٩٣ هـ = ١٦٨٢ م ، وكان مقيما بالقاهرة ، فى كتابه « خزانة الأدب » مع مزيد من التفصيل والتعليل .

وأول ما يلفت النظر فى هذا الإسناد أن **ابن الكلبى** أوّل من أشار إلى القصة، وهو الوحيد بين مؤرخى العرب المشارقة الذى أشار إليها، وليس بموضع ثقة عند معاصريه ، ولا ممن جاء بعدهم ، فى الكثير مما يرويه ، ولم يشاركه أحد فيما يروى عنه ، لا فى عصره ولا قبله ، ولا من بعده ، لا من شراح القصائد الذين ألمحنا إلى بعضهم فيما مضى ، كالأصمعى وابن الأنبارى والتبريزى وغيرهم ، ولا من كبار الأدباء والعلماء والمؤرخين للأدب كالجاحظ والمبرد وابن سلام وابن قتيبة ، ولا ممن أرّخوا لمكة فى جاهليتها وإسلامها ، فهم إما صمتوا صمتا مطلقا ، أونفوا القصة صراحة ، فيذكر النحاس فى خاتمة شرحه ، بعد أن أتى على الأسماء المختلفة : « وأما قول من قال : إنها عُلِّقت فى الكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة » .

وأرجِّحُ أن الاسم كان يتردد منذ القرن الثانى الهجرى ، ولعله كان مقبولا ، وأن رواية ابن الكلبى كانت معروفة ومرفوضة ، أما قصة الكتابة بماء الذهب على القباطى فتفاويه أندلسية ، اخترعوها لتفسير تسمية غامضة لا يعرفونها ، بدل أن

يقولوا « الله أعلم ! » ، وكان الأندلسيون بحكم موقع بلادهم ، فى بعدها عن المشرق ، وطبيعتها ، وتعدد مناخها ، وتنوع جوائحها ، من سيول وأمطار ، ورعود وفيضان ، يميلون إلى الغرائب والعجائب ، ويؤخذون بها ، ويبالغون فى روايتهم لها ، حتى لو تجاوزت الممكن ، وتجافت الواقع .

وفى عصرنا الحديث كان المستشرقون أول من تعرض للمعلقات نشرا ، أو شرحا ، أو ترجمة ، وقد رفضوا حكاية التعليق ، وقبلوا التسمية ، وحاولوا أن يجدوا لها تعليلا علميا ، وليس ضروريا ، فيما يرون ، أن ترتبط التسمية بالنشأة ، فقد تجىء بعد زمن من الاختيار يقصر أو يطول .

فالمستشرق الألمانى **آلورد** يرى : أن كلمة المعلقات تشير إلى المكانة العليا التى احتلتها المجموعة بين الشعر الجاهلى ، فى نظر علماء العراق ، أو أنها تعنى تعلُّق البيت بما يليه ، وهذا التفسير الأخير واهن ، لأنه ينطبق على قصائد أخرى كثيرة ، كانت معاصرة للمعلقات ، فلِماذا خُصّت بالتسمية من دونها .

ويعتقد **فون كريمر** أنها مشتقّة من علَّق ، أى كتب ، لأن هذه القصائد ظلت تنتقل عن طريق الرواية الشفوية ، ثم انتهى بها الأمر إلى التدوين ، وهو تعليل يرد عليه أن استعمال الفعل « علّق » بمعنى « دوّن » متأخر ، وكان مقصورا فى العصور الوسطى على أوساط النسّاخ .

وربما كان تفسير الألمانى **نولدكه** ، المتوفى عام ١٩٣١ م ، أقرب إلى المعقول ، فهو يرى أن العرب يستعملون كلمة « عِلْق » ، بمعنى « عِقْد » ، أى « سِمْط » ، عنوانا لكتبهم ، وهو ما جرى للمعلقات ، ويلحظ أنها سميت بالسموط أيضا . وقريب منه تفسير المستشرق الإنجليزى **ليال** ، فهو يرى أن المعلّقات مأخوذة من « العلق » ، وهو ما يضن به من الأشياء والحلى والثياب . ويدعم كلا الرأيين أن **ابن رستة** ، وهو جغرافىّ عربى من القرن الثالث الهجرى سمىَّ كتابه فى الجغرافيا : « الأعلاق النفيسة » ، ومعنى المعلّقات إذن عقود من أحجار كريمة تعلَّق .

ومهما يكن الأمر ، فقد فرضت التسمية نفسها ، وبها عُرفت مجموعة من القصائد العربية ، يختلف الناس فى عددها على نحو ما رأينا ، وشاعت على نحو

جعل منها واقعاً ، لا صلة له على أية حال بالتسمية الأولى ، أو ماكان وراءها من دوافع وأسباب .

حظيت المعلقات بأكبر قسط من الشروح والتعليقات والترجمة ، جملة أو مفردة ، وحتى يومنا ، وضاع عدد من الشروح فلا حاجة بنا إلى ذكره هنا ، ولا يعدو بعضها الآخر أن يكون تلخيصا لما سبق أو تعليقا عليه ، وسنكتفى فقط بالشروح الرئيسية، إلى جانب تلك التى أشرنا إليها من قبل:

● شرح **أبى سعيد الضرير الجرجانى** ، والراجح أنه **أحمد بن خالد** المتوفى عام ٢٨٢ هـ = ٨٩٥ م ، ولايزال مخطوطاً ، وتوجد مصوّرته بدار الكتب المصرية ، عن الأصل الموجود فى مكتبة باريس ، وهو فى ١٧٨ ورقة ، وتم نسخه بين عامى ٦١٠ هـ و ٦١٦ هـ .

● شرح الحسين بن أحمد **الزوزنى** ، المتوفى ٤٨٦ هـ = ١٠٩٣ م ، وهو أكثر الشروح رواجا ، رغم أن جل اهتمامه موجه إلى النحو والإعراب وتفسير المفردات ، وطبع على الحجر لأول مرة فى اسطنبول عام ١٢٧٧ هـ ، وفى العام نفسه طبع فى القاهرة ، ثم توالت طبعاته بعدها فيها ، أو فى الإسكندرية ، وطبع فى طهران عام ١٢٨٢ هـ ، وفى دلهى بالهند عام ١٨٩٥ م ، ثم حققه على حمد الله فى دمشق عام ١٩٦٣ م .

● « كتاب إمتاع البصر ، والقلب والسمع ، فى شرح المعلّقات السبع » ، تأليف **محمد بن على بن فضل الطبرى** ، وألفه بين عامى ١١٥٥ و ١١٥٧ هـ = ١٧٤٢ و ١٧٤٤ م ، وهو فى ٢٦٨ ورقة بخط المؤلف نفسه ، ويوجد فى مجموعة جاريت Garrett التى تملكها جامعة برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية .

وقد تُرجمت المعلقات جملة ، أو بعضها ، أو آحاد منها ، إلى العديد من اللغات الأجنبية ، من بينها : اللاتينية والألمانية والإنجليزية والفرنسية والإسبانية والإيطالية والروسية والسويدية ، والتركية ، والفارسية ، والهندوستانية ، وفى بعضها تُرجمت أكثر من مرة .

○ المفضَّليات :

تجيء تاريخيا بعد المعلقات ، وكان اسمها فى البدء « كتاب الاختيارات » ، ثم اشتهرت فيما بعد باسم « المفضليات » ، نسبة إلى جامعها ، أو من أضفى عليها الطابع النهائى إذا شئنا الدقة ، وهو **المفضل الضبى** ، المتوفى عام ١٦٤ هـ = ٧٨٠ م .

تعود النواة الأولى لمجموعة « المفضليات » ، كما يذكر المفضل الضبى نفسه ، إلى الإمام **إبراهيم بن عبد الله بن الحسن** ، الملقب بالنفس الزكية ، والمتوفى عام ١٤٥ هـ = ٧٦٢ م ، وكان ثائرا على الخلافة العباسية ، فقد ذكر أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه « مقاتل الطالبيين » ، قول المفضل الضبى : « كان إبراهيم بن عبد الله بن الحسن متواريا عندى ، فكنت أخرج وأتركه ، فقال : إنك إذا خرجت ضاق صدرى ، فأخرج لى شيئا من كتبك أتفرّج به ، فأخرجت إليه كتبا من الشعر ، فاختار منها السبعين قصيدة التى صدّرت بها « اختيار الشعراء » ، ثم أتممت عليها باقى الكتاب » .

ورغم أن **المفضّل الضبِّى** انضم إلى العلويين ، وقاتل مع إبراهيم النفس الزكية ضد العباسيين ، إلاّ أن الخليفة **المنصور** عفا عنه بعد أن انتصر على العلويين ، واختاره مؤدبا لابنه **محمد المهدى** ، وهو الذى سوف يتولى الخلافة بعد أبيه عام ١٥٨ هـ = ٧٧٤ م . ويروى أبو على القالى فى كتابه الأمالى ، أن أبا جعفر المنصور مرّ بالمهدى وهو ينشد أستاذه المفضل قصيدة الشاعر الجاهلى المسيَّب بن عَلَس ، والتى شُهرت باسم « المنصفة » ، ومطلعها :

أرحلتَ من سلمى بغير متاع   قبل العطاس ورعتها بوداع

فلم يزل واقفا من حيث لا يَشعر به ، حتى استوفى سماعها ، ثم صار إلى مجلس له وأمر بإحضارهما . فحدّث المفضل بوقوفه واستماعه لقصيدة المسيّب واستحسانه إياها ، وقال له : لو عمدت إلى أشعار المقلين ، واخترت لفتاك لكل شاعر أجود ما قال ، لكان ذلك صوابا . ففعل المفضل كذلك .

أغلب الظن أن **المفضل** لم يكن يهدف إلى تأليف مجموعة نهائية لا سبيل إلى التبديل فيها ، وإنما كان بصدد مختارات يغلب عليها الطابع التعليمى والتثقيفى ،

استجادها لنفسه ، أو لتلميذه ، وظلت تنتقل عن طريق الرواية الشفوية زمنا ، أوضحها رواية ابن الأعرابي ، حفيد المفضل ، ويبلغ فيها عدد القصائد ١٢٨ ، وقام ابن الأنبارى بشرحها بعد أن ترك قصيدتين .

وثمة رواية ترى بأن المفضل اختار ٨٠ قصيدة فقط ، وأن الأصمعى أضاف إليها غيرها ، وقد بحث المستشرق الإنجليزى ليال القضية ، حين نشر المفضليات محققة ، مع ترجمة إنجليزية ، فى جزأين وثالث يضم الفهارس ، عام ١٩١٨ - ١٩٢٤ م ، ورأى استحالة إيجاد حل حاسم للقضية ، لكنه عد هذه الرواية غير جديرة بالتصديق ، على حين ارتضاها محققا الطبعة القاهرية ، الأستاذان : أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، فذهبا إلى أن ثمانين قصيدة فقط من اختيار المفضل ، أمّا البقية فمن إضافة الأصمعى .

تتكون « المفضليات » من مقطوعات شعرية ، وأحيانا قصائد كاملة ، ويمكن تحديد زمن أصحاب القصائد الذين ينسبون إلى قبائل بدوية فى أواسط الجزيرة العربية وشرقيها بين أعوام ٥٥٠ و ٦٥٠ م إجمالاً . وقد أضيفت إليها أربعة قصائد أخرى وُجدت فى بعض المخطوطات ، وهى موزعة على ٦٧ شاعرا ، منهم ٤٧ شاعرا جاهليا ، بينهم المرقّشان الأكبر والأصغر ، وهما من أقدم الشعراء المعروفين ، ونصرانيان هما : جابر بن حنيّ التغلبى وعبد المسيح بن عَسَلة ، ويهودى واحد ، وأربعة عشر شاعرا مخضرما ، من الذين وُلدوا فى الجاهلية وأدركوا الإسلام ، وستة من الإسلاميين . وتكاد تغطى هذه المجموعة كل جوانب الحياة فى العصر الجاهلى : علاقات القبائل بعضها مع بعض ، ومع ملوك الحيرة والغساسنة ، وفيها ألفاظ لم ترد فى المعاجم اللغوية ، وأكثر شواهد العربية فى النحو والصرف والبلاغة والغريب مستمد مما بها من شعر .

ويمكن القول إجمالاً إنها مجموعة نادرة ، تفوق ما أورده ابن سلام ، أو ابن قتيبة ، أو أبو زيد القرشى من شعر ، وتمثل على نحو لا بأس به اتجاهات الشعر العربى منذ الجاهلية حتى منتصف القرن الأول الهجرى .

لدينا من شروح المفضليات التى وصلتنا ، وقام بها جلة من العلماء مايلى :

● شرح أبو القاسم بن محمد الأنبارى ، المتوفى عام ٣٠٥ هـ = ٩١٨ م ، ورواه عنه ولده أبو بكر ، ومن العلماء من ينسب الشرح إلى الابن نفسه ، وقد

نشرها المستشرق الإنجليزى **ليال** كاملة ، فى طبعة نقدية مثالية ، مع ترجمة إنجليزية وفهارس ، فى ثلاثة أجزاء ، وقامت بها مطبعة الآباء اليسوعيين فى بيروت عام ١٩١٨ - ١٩٢٤ ، على نفقة جامعة أكسفورد ، ثم أعاد الأستاذان : أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون نشرها فى طبعة علمية محققة ، ومشروحة ، ومضبوطة ، مع تعريف موجز بشعرائها ، وبالظروف التى أنشدوا فيها قصائدهم ، وصدرت الطبعة الأولى منها عن دار المعارف بالقاهرة فى جزأين عام ١٢٦١ هـ = ١٩٤٢ ، ويمكن القول إنها أدق طبعات المفضليات وأكملها حتى الآن .

● شرح **المرزوقى** أبى على أحمد بن محمد ، المتوفى ٤٢١ هـ = ١٠٣٠ م ، ولا يزال مخطوطا ، وتوجد نسخة من مخطوطته فى مكتبة برلين فى ٥٦٠ ورقة ، تحت رقم ٧٤٤٦ ، ومنه مصورة بمعهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية .

● شرح **التبريزى** ، أبو زكريا يحيى بن على بن الخطيب ، المتوفى ٥٠٢ هـ = ١١٠٩ م ، وكانت منه نسخة بخط المؤلف فى مكتبة تونس الوطنية ، ولكنها تُعد الآن ضائعة ، ولحسن الحظ فإن دار الكتب المصرية بالقاهرة تملك مصورة لها ، وقد حقق الشرح فخر الدين قباوة ، ونال به درجة الدكتوراه فى الآداب من جامعة القاهرة ونشره فى مجلدين فى دمشق عام ١٩٦٨ - ١٩٧١ م (*).

أمّا أقدم طبعة للمفضليات فقام بها المستشرق الألمانى **توربكه** حين نشر الجزء الأول منها فقط فى ليبزج عام ١٨٨٥ ، ثم طُبعت كاملة ، بشرح ابن الأنبارى فى اسطنبول عام ١٣٠٨ = ١٨٩٠ م ، ثم طبعها فى مصر ، فى جزأين ، مع تعليق موجز ، **أبو بكر بن عمر داغستانى** عام ١٣٢٤ هـ = ١٩٠٦ م ، كما طبعها **حسن السندوبى** فى القاهرة عام ١٩٢٦ م .

○ الأصمعيات :

نسبة إلى الأصمعى ، وتأتى فى المرتبة الثالثة بعد حماد الراوية والمفضل الضبى ، وتتألف من ٩٢ قصيدة ومقطوعة ، لواحد وسبعين شاعرا ، منهم ٤٤ شاعرا جاهليا ، و ١٤ مخضرما ، و ٦ إسلاميين ، و ٧ مجهولين ، لا نعرف أسماءهم فى مصادر أخرى ، وعددأبياتها ١٤٣٩ بيتا ، والقصائد فيها أكثر عددا من المقطّعات . وفيها يتجلى مزاج الأصمعى نحويا ولغويا ، إذ يغلب عنده هذا الجانب على الناحية

(*) وصدرت طبعته الثانية، فى أربعة مجلدات، عن دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان- ١٤٠٧-١٩٨٧م.

الأدبية ، ومن ثم فهى تعكس عقلية عالم لغوى يدرس الشعر الجاهلى ، وتعتبر إلى حد ما تكملة للمفضليات ، واحتذى الأصمعى بالمفضل فى إيثار الشعراء المقلين ، ويقال أيضا إنه اختارها لهارون الرشيد ، وهناك قصائد توجد فى كلتا المجموعتين ، وأحيانا كان المثقفون فى زمن أبى عبيدة يوازنون بينهما حين يختلفان رأيا فى قصيدة وردت فى مجموعيهما .

جاء الأصمعى بهذه المختارات مجرّدة من الأخبار والشروح والتعليقات ، إلاّ فى حالات نادرة ، فنجده - مثلا - فى الأصمعية الأولى للشاعر سُحيْم بن وثيل الرياحى ، والتى مطلعها :

أنا ابنُ جلَا وطلَّاعُ الثنايـا   متى أضعُ العمامـةَ تعرفـونى

يخبرنا بالسبب الذى دفع بسحيم إلى إنشاد قصيدته هذه ، ويفسر بعض كلماتها الصعبة ، ويشرح بعض أبياتها .

ويبدو أن الأصمعى خضع فى اختياره لذوقه فحسب ، وفى أحسن الحالات لذوق طبقة معينة من الأدباء على أيامه ، لأنه لا يسير فى انتخابه الشعر على منهج معيّن ، فلا يقف به على شعراء عصر بعينه ، ولم يقسم شعراءه إلى طبقات ، ولا قصائده إلى أغراض أو أبواب ، وإنما جاءت اختياراته خليطا من القصائد والمقطعات ، وقد يورد لشاعر قصيدة كاملة ، أو يكتفى منه بمقطوعة من بيتين أو ثلاثة ، أو يجمع له بينهما ، أو يورد له أكثر من قصيدة ومن مقطوعة ، وجل شعراء الأصمعيات ينتسبون فى مضر ، مما يفسح المجال للظن بأن الأصمعى كان متعصباً لبنى جلدته ، إذ أن نسبه ينتهى به إلى قيس بن عيلان بن مضر .

والأصمعيات كالمفضليات ، وإن يكن على نحو أقل ، تُلقى ضوءا كاشفا على حياة العرب فى الجاهلية ، بيئاتهم ، وأيامهم ، والعلاقات بين مختلف قبائلهم ، وتقدم نماذج لكل أغراض شعرهم ، من الوقوف بالأطلال ، والغزل ، والرثاء ، والمديح ، والوصف ، والهجاء .

ولم تجد الأصمعيات على الرغم من مكانة الأصمعى قبولا حسنا أو انتشارا واسعاً ، كالمفضليات ، وأدى ذلك إلى تفسيرات مختلفة لدى الباحثين ، فابن النديم فى كتابه الفهرست يرد ذلك إلى قلة اشتمالها على غريب اللغة ، ولأن الأصمعى عمد فيها إلى اختصار الرواية ، واكتفى فى كثير من القصائد بمختارات منها ولم

يروها كاملة . والأقرب أن ذلك يرجع إلى أن شعراءها لم يكونوا أصحاب أسماء لامعة ، ولم تكن حوادث حياتهم معروفة مشهورة ، ولم يكن الشعر نفسه عميق المحتوى .

الشرح الوحيد الذى نعرفه للأصمعيات قام به ابن الأنبارى ، والوحيد الذى أشار إليه بروكلمان فى كتابه تاريخ الأدب العربى ، جـ١ص ٧٥ ، وذكر أن مخطوطته توجد فى مكتبة أيا صوفيا فى اسطنبول ، تحت رقم ٤٠٩٩ ، ولكنه لم يقدم أية معلومات أخرى عنها .

وقد نشر آلورد كتاب « الأصمعيات » مع قصائد أخرى فى برلين عام ١٩٠٢ ، وذلك للمرة الأولى ، وفيها بعد قام الأستاذان أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون بتحقيقها وشرحها على نحو علمى جيد ، فعرّفا بكل شاعر تعريفا موجزا ، وأتيا على جو القصيدة ، والغرض الذى قيلت فيه ، أو الحادث الذى أُنشدت بسببه ، وألحقا بالكتاب مجموعة من الفهارس الدقيقة المتنوعة ، للشعراء والقبائل والأعلام ، واللغة ، والقوافى ، والأوصاف ، والتشبيهات ، والمعانى العامة ، والطوائف ، والبلدان والمواضع ، وغيرها . وصدرت الطبعة الأولى منها عن دار المعارف فى القاهرة عام ١٩٥٥م، ثم توالت طبعاتها بعد ذلك .

○ جمهرة أشعار العرب :

مجموعة من القصائد تبلغ تسعا وأربعين ، وعنوانها كاملا : « جمهرة أشعار العرب فى الجاهلية والإسلام ، الذين نزل القرآن بألسنتهم ، واشتُقّت العربية من ألفاظهم ، واتخذت الشواهد من معانى القرآن وغريب الحديث من أشعارهم ، وأسندت الحكمة والآداب إليهم » ، وهى مقسمة إلى سبعة أقسام ، فى كل قسم سبع قصائد ، وكل قسم يحمل عنوانا : المعلقات السبع التى يسميها العرب السموط ، والمجمهرات ، والمذهبات ، وعيون المراثى ، والمشوبات ، أى القصائد التى يختلط فيها فكر الجاهلية بفكر الإسلام ، والملحمات ، وتشمل هذه الأخيرة قصائد : الفرزدق وجرير والأخطل ، وعبيد الراعى ، وذى الرمة ، والكميت والطرمّاح .

وتغلب فى كل الأقسام ، ماعدا الأخير منها ، قصائد الجاهليين ، أما فى القسم

السابع فقد اقتصر على شعراء من العصر الأموى ، وباستثناء مجموعة المعلقات ، أو المسمطات ، ومجموعة المراثى ، فإن هذا التصنيف لم تعرفه العربية من قبل .

وتسبق المختارات خطبة حدّد فيها الجامع الشعراء الذين انتخب قصائده من بين نتاجهم وأنهم « فحول الشعراء الذين خاضوا بحره ، وبَعُد فيه شأوهم ، واتخذوا له ديوانا كثرت فيه الفوائد عنهم ، ولولا أن الكلام مشترك لكانوا قد حازوه دون غيرهم ... ونحن ذاكرون فى كتابنا هذا ما جاءت به الأخبار المنقولة ، والأشعار المحفوظة عنهم ، وما وافق القرآن من ألفاظهم ، وما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشعر والشعراء ، وما جاء عن أصحابه والتابعين مِن بعدهم ، وما وصف به كل واحد منهم » .

ويمضى فيعرض لجملة من قضايا النقد ، هى فى جملتها نقل مباشر من كتاب مجاز القرآن لأبى عبيدة ، فيتحدث عما جاء فى القرآن الكريم وكلام العرب فى اللفظ المختلف ، ومجاز المعانى ، واختلاف الناس فى الشعراء وأيهم أشعر وأذكى ، وأخبار شعراء الجن ، ويوازن بين آراء الذين قدّموا زهير بن أبى سلمى على امرئ القيس ، والذين قدّموا النابغة الذبيانى ، وشيئا من أخبار بعض شعراء الجاهلية، كأعشى بكر، ولبيد بن ربيعة، وعمرو بن كلثوم، وطرفة بن العبد.

ويعنى الجامع خلال عرضه بالجانب اللغوى ، ويلقى بمجموعة من الأحكام النقدية المرسلة ، كقوله : « إن الناس أجمعوا على أن أشعر أهل الإسلام الفرزدق وجرير والأخطل ، وذلك لأنهم أعطوا حظاً فى الشعر لم يعطه أحد فى الإسلام » .

وقد اخْتُلِفَ فى جامع « جمهرة أشعار العرب » ، وفى العصر الذى عاش فيه ، ولمّا كان الكتاب معروفا لابن رشيق القيروانى ، المتوفى ٤٥٦ هـ = ١٠٦٤ م ، فمن المرجح أن تأليفه تم فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ، ويرجحون أن جامعها هو أبو زيد محمد بن الخطاب القرشى، ولو أن مخطوطة الكتاب التى فى مكتبة كوبريلى فى استنبول ، تحمل اسم محمد بن أيوب العزيزى ، ثم العمرى ؛ ولكن ابن رشيق ، وهو أقدم تاريخا من نسخ المخطوطة الذى يعود إلى عام ٦٨٣ هـ = ١٢٨٤ م ، لا يتردد فى نسبتها إلى أبى زيد القرشى ، وكذلك فعل جلال السيوطى من بعد .

ولا نعرف شيئا عن أبي زيد هذا ، ولا عن **المفضل** الذى يروى عنه ، ويرد فى « الجمهرة » مجردا عن الكنية ، وقد ألقى بروكلمان فى كتابه « تاريخ الأدب العربى » باحتمال يصعب ترجيحه ، فذكر أن التسمية موضوعة فيما يبدو على اسمى كل من **أبي زيد الأنصارى** النحوى المشهور ، المتوفى ٢١٤ هـ = ٨٣٠ م ، **والمفضل الضبى** ، المتوفى ١٦٤ هـ = ٧٨٠ عم ، شيخ أبي زيد ، وهو احتمال مستبعد ، لأن أول إشارة للكتاب نلتقى بها عند **ابن رشيق** ، مما يرجح أن تأليفه جاء فى عصر تالٍ لأيامهما ، ولا يمكن أن نذهب به إلى أبعد من نهاية القرن الثالث وبداية الرابع الهجرى ، كما أومأنا من قبل .

وقد ورد اسم **المفضل** مرة كاملا : المفضل بن محمد الضبى ، وهو خطأ من الناسخ دون ريب ، وورد مرة أخرى : أبو عبد الله المفضل بن عبد الله المحيرى ، ورأى **بلاشير** أنها يمكن أن تكون الخبرى ، وأورد **بروكلمان** رواية لم يسندها إلى أحد : « قيل إنه كان فى المرتبة السادسة من سلالة الخليفة : **عمر بن الخطاب** » ، والتقط فؤاد سزكين الرواية ، فى كتابه « تاريخ التراث العربى » ، وزعم أن الاسم كاملا : أبو عبد الله المفضل بن عبد الله بن محمد بن المجبّر بن عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب ، وردنا إلى « **جمهرة** أنساب العرب » لابن حزم ، وحين عدت إليها لم أجد فيها هذه السلسلة ، وليس بين خَلَف عمر بن الخطاب من يُسمَّى **الفضل** ، وهكذا عدنا حيث ابتدأنا : من هو أبو زيد القرشى ؟ ، حتى يومنا هذا يقينا لا أحد يدرى ! .

طبعت جمهرة أشعار العرب لأول مرة فى بيروت عام ١٨٦٢ م ، بعنوان « تزيين الأرب فى أدب العرب » ، وطبعت ثانية بلا شرح بعنوان « نيل الأرب فى فضائل العرب » ، عام ١٨٩٥ م ، واعتمدت على أصل غير الذى اعتمدت عليه الطبعة الأولى .

ونشرها كاملة فى القاهرة ، للمرة الأولى ، **سعيد أنطون عمون** ، وطبعها فى مطبعة بولاق عام ١٣٠٨ هـ = ١٨٩٠ م ، وقدم لها فى صفحة واحدة ، ويبدو أن سفير السويد والنرويج فى القاهرة فى ذلك الوقت هو الذى أمده بالمخطوطة ، لأنه يتقدم بالطبعة إلى « **الكونت كارلو ده لاندبرج** ، الوكيل السياسى لدولة أسوج ونرويج فى الديار المصرية ، أن يجود عليه مما ادخره من كل كتاب لا يقدّر

قدره » . ثم طبعتها ثانية المكتبة التجارية فى القاهرة ، وعهدت بضبطها إلى أحد أفاضل العلماء ، عام ١٣٤٥ هـ = ١٩٢٦ م[(١)].

وفائدة الجمهرة محدودة ، وقيمتها التاريخية متواضعة ، ولكنها مفيدة لمعرفة المثل الأعلى للشعر عند بعض الأوساط الأدبية فى العصر الذى أُلفت فيه .

○ مختارات ابن الشجرى :

جمعها أبو السعادات هبة الله بن على، ويُعرف بابن الشجرى، المتوفى عام ٥٤٢هـ = ١١٤٧م، وهو من الأشراف، وكان نقيب الطالبيين بكرخٍ بغداد، والشجرى نسبة إلى شجرة ، قرية من أعمال المدينة المنوّرة . وكان إماماً فى النحو واللغة وأشعار العرب وأيامها وأحوالها ، متضلعا فى الأدب ، وله فيه : الأمالى ، وهو أكبر تآليفه ، والحماسة ، وحاول أن يضاهى بها حماسة أبى تمام ، والمختارات ، وهى موضع تعريفنا الآن .

جاءت مختارات ابن الشجرى فى ثلاثة أقسام ، تضم أربعة عشر شاعرا ، وخمسين قصيدة ، وبعض المقطوعات ، وقليلا من أخبار الشعراء ، وتتفاوت الأقسام فيما بينها تفاوتا شديدا .

القسم الأول : أورد فيه عشرة من الشعراء هم : لقيط بن يعمر الإيادى ، وقعنب بن أم صاحب ، وعامر بن الحارث المعروف بأعشى باهلة ، وحاتم بن عبد الله الطائى ، وبشامة بن عمرو ، والنمر بن تولب ، وعمر بن مالك المعروف بالشنفرى ، وكعب بن سعد الغنوى ، والمتلمس ، وطرفة بن العبد ، وأتى لكل شاعر منهم بقصيدة واحدة ، ماعدا المتلمس وطرفة ، فقد خصّ كلًّا منهما بقصيدتين .

وهو يأتى بالقصائد دون مقدمة أو تمهيد ، أو تعريف بالشاعر ، أو بمناسبة القصيدة ، أو توضيح المعانى الصعبة ، إلا فى حالات قليلة ، وبطريقة عارضة ، مثلا : قدّم لقصيدة لقيط بن يعمر بأنه كتبها لينذر قومه غزو كسرى إياهم ، وكان يعمل فى ديوانه كاتبا ، فأدت هذه القصيدة إلى قتله[(٢)]، واكتفى عند قصيدة أعشى

---

(١) ثم حققه وضبطه وزاد فى شرحه: على محمد البجاوى - دار نهضة مصر للطبع والنشر - القاهرة - ١٩٨١م.

(٢) تعد القصيدة من روائع الشعر العربى حقا، ويعمر نذكر فى المصادر الأخرى «معمر»، وقد درسنا حياة لقيط، وأثره فى بداية الشعر الجاهلى، وحللنا هذه القصيدة فى كتابنا: امرؤ القيس، حياته وشعره، الطبعة الخامسة، دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٥.

باهلة بأن يقول إنها فى رثاء أخيه المنتشر بن وهب الباهلى ، ولم يزد على ذلك كلمة ، وعرّف بنسب حبيب الطائى قبل أن يورد قصيدته . وقدّم لقصيدة كعب الغنوى بأنها فى رثاء أخيه الذى قُتل « يوم ذى قار » ، ولقصيدتى المتلمس بأن الأولى ينسب فيها نفسه لأعدائه ، وأنه قال الثانية حين هرب من عمرو بن هند إلى الشام .

يثير اختيار المؤلف ، وترتيب الشعراء ، فى هذا القسم عددا من الأسئلة : لم وقف بهم عند هذا العدد ؟ وفى ضوء أى منهج رتّب شعراءه ؟ هل كانت تحكمه قواعد نقدية ، أو تاريخية ، أو فنية ؟ . إن أيًّا من هذه الأمثلة لا يحرى بإجابة شافية ، فهو لم يقصد جانب الأفضلية والتقدم فى ترتيبه ، لأن طرفة من شعراء الطبقة الأولى وجاء به فى آخر القائمة ، والشنفرى من شعراء الطبقة الثانية وجاء ترتيبه السابع ، ولم يراع أيضا الترتيب الزمنى ، لأن جميع الشعراء جاهليون ماعدا قعنب بن أم صاحب فهو أموى ، ومع ذلك جاء ترتيبه الثانى ، وليس بحسب أغراض الشعر لأنها اختلفت من شاعر لآخر ، وشملت الهجاء ، والفخر ، والرثاء ، وليس بينها رابط ، ولا تحكمها قاعدة .

ومن الصعب أيضا أن نحكم لماذا اختار لهم هذه القصائد دون غيرها ، وقصارى ما يمكن أن نقوله ، والاختيار يخضع لذوق المختار دائما ، أنه أخذ من كل شاعر خير ما عنده فيما يرى ، وأكثر قصائده ذيوعاً وشهرة ، فجاء للقيط بالقصيدة التى تسببت فى قتله وأودت بحياته ، ولأعشى باهلة بأشهر شعره ، وهى قصيدته التى رثى بها أخاه ، وللشنفرى بلاميته الذائعة ، ودخلت التاريخ تحت اسم « لامية العرب » ، ولكعب الغنوى ببائيته الذائعة فى رثاء أخيه ، وللمتلمس بقصيدته التى أنشدها حين هرب من عمرو بن كلثوم .

وإذا كان القسم الأول قد اتسم إجمالاً بالقصيدة الواحدة للشاعر الواحد ، فإن القسم الثانى جاء على النقيض منه ، فقد تعدّدت القصائد للشاعر الواحد ، ويضم هذا القسم ثلاثة شعراء هم : زهير بن أبى سُلمى ، وبشر بن أبى حازم ، وعبيد بن الأبرص ، أتى لكل واحد منهم بأكثر من قصيدة ، وكالعادة لا يوضح فى الأعم الأغلب المناسبة التى قيلت فيها القصيدة ، أو يعين على فهم الإشارات الواردة بها . ويرد على الخاطر : هؤلاء الشعراء الثلاثة جاهليون . فلماذا فصلهم

عن القسم الأول وجعلهم قسما مستقلا ؟ ولماذا خصّهم بأكبر قدر من القصائد ؟ .

كان نصيب زهير بن أبى سلمى سبع قصائد ، تضم أربعة وسبعين ومئة بيت ، الأربع الأولى منها والأخيرة فى مدح هرم بن سنان ، ويذكر فى الخامسة النعمان بن المنذر ، وقال السادسة فى سنان بن أبي حارثة و الحارث بن عوف المرّيين .

واختار من شعر بشر بن أبى حازم ست قصائد، تضم تسعة وعشرين ومئة بيت، الأولى والثانية فى هجاء أوس بن حارثة ، والرابعة فى مدحه ، والثالثة فى الفخر ، والسادسة وصية الشاعر قالها وهو يواجه الموت ، ولم يذكر للقصيدة الخامسة مناسبة .

وخصّ عبيد بن الأبرص بأكبر قدر من الشعر ، فجاء له باثنتى عشرة قصيدة ، فى ست وعشرين ومئتى بيت ، ولم يعرض لمناسبة أىٍّ من هذه القصائد ، باستثناء الأولى والثالثة فذكر بأن الشاعر توجه بهما لامرئ القيس يذكره بقتل أبيه[1] .

ونلحظ أن المؤلف فى القسم الأول كان يكتفى عند الحديث عن شعرائه بقوله : « قصيدة فلان » ، أما فى القسم الثانى فاستخدم عبارة « أخبار فلان » ، ومع ذلك لم يأت لنا من أخبار زهير بشىء يذكر ، واكتفى عن أخبار بشر بن أبى خازم بصفحة واحدة ، ولكنه أفاض كثيرا فى أخبار عبيد بن الأبرص .

وفى القسم الثانى ركز على قصائد زهير التى مدح فيها هرماً ، وأباه سنانا ، وابن عمه الحارث بن عوف ، وهى من روائع شعره ، ويراها النقاد قديما المثل الأعلى فى المدح ، وكان يحببها إلى العرب دائما أنها تدور حول الدور الذى قام به الرجلان الممدوحان: هرمٌ والحارث فى إنهاء الحرب بين قبيلتى عبس وذبيان ، المعروفة بحرب داحس والغبراء ، فأصلحا بين القبيلتين ، وتحملا دماء القتلى ، ودفعا دياتهم من حرّ مالهما .

كانت هذه الحرب مريعة ، وتركت أثناء اشتعالها ، وبعد انتهائها ، صدى قويا فى أعماق عرب الجاهلية وحياتهم ، وصيغت حولها الحكايات والقصص ، تفسر ما غمض من وقائعها ، وتقدم ما ضاع من أسبابها ، وأسهمت المرأة العربية بدور

(١) حع القصه كامله . والحوار بين الشاعرين . والصراع بين بنى أسد وامرئ القيس فى كتابنا : مرؤ لقيس حياته وسعره . الطبعه الخامسة ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٥ .

قوى فى إنهائها ، وتقول قصة يرويها الأغانى إن الحارث بن عوف تزوج من بهيسة ابنة أوس بن حارثة ، فأبت أن تمكنه من نفسها حتى يسعى بالصلح بين القبيلتين . وهذه القصة قد تكون صحيحة ، وقد تكون مصنوعة ، ولكن دلالتها فى الحالتين باقية وواضحة ، وهى ضيق الناس بالحرب والخلاف ، ورغبتهم فى السلام والوئام ، ولا غرو إذن أن نجد صدى ذلك كله فى مختارات تصنع بعد الأحداث بما يقرب من ست مئة عام .

واختار من شعر بشر بن أبى خازم قصيدتين ، إحداهما فى هجاء أوس بن حارثة الطائى ، والأخرى فى مدحه ، ومع أنهما من روائع شعره ، ولكنهما تشيان فى الوقت نفسه بموقف الشاعر وتبدّله ، واختار من شعر عبيد بن الأبرص القصائد التى واجه بها شاعرُ بنى أسد امرأ القيس فى صدامه معهم ، ومطالبتهم إياهم بثأر أبيه حجر الذى قتلوه ، ومحاولته أن يسترد ملكه عليهم ، وهى أحداث شغلت من التاريخ العربى فى الجاهلية مكانا متميزا .

أما القسم الثالث والأخير فأوقفه المؤلف على الحُطَيئة وحده ، أخباره وشعره ، وهو أشبه بأن يكون ديوانا له ، فلم يشرك معه غيره ، رغم أن صفحاته لا تقل عن صفحات أىٍّ من القسمين السابقين ، وأورد له من شعره مختارات كثيرة ، فى مناسبات مختلفة ، ما بين قصائد ومقطوعات ، وقدم لها أحيانا ببعض الأخبار والحكايات عنه ، وهو يسهب فى بعض المواطن إسهابا شديدا ، وفى بعضها الآخر يكتفى بجملة : « قال الحطيئة » .

ومن الواضح أنه ركز على « هجاء » الحطيئة ، لأنه الجانب الواضح من شعره ، اشتهر به ، واتخذوا منه مثلا ، وخافه الناس . ولكن لماذا كان الحطيئة وحده ، ولماذا كان له كل هذا الشعر دون بقية رفاقه ؟ سؤال ليس بين يدىّ ما يعين فى الإجابة عنه .

طُبعت مختارات ابن الشجرى باسم « ديوان مختارات شعراء العرب » على الحجر ، لأول مرة فى القاهرة عام ١٣٠٦ هـ = ١٨٨٨ م ، وأعاد محمد أحمد الزناتى طبعها ثانية فى القاهرة عام ١٣٤٤ هـ = ١٩٢٥ م ، بعنوان : « مختارات شعراء العرب » ، بعد أن تبين له أن الطبعة الأولى من الديوان : « لعبت به يد ناسخه ، ومسخته جهالة طابعه » ، واعتمد فى نشره على المخطوطة الموجودة بدار

الكتب المصرية . ولست أعرف له مخطوطة أخرى إلا واحدة كانت مجهولة ، وتوجد الآن فى مجموعة جاريت، فى ٥٢ ورقة، ونسخت عام ١٣٠٦ هـ = ١٨٨٨م، وتملكها جامعة برنستون فى الولايات المتحدة(*) .

○ الحماسة :

مع تطور الذوق ، وارتقاء الحضارة ، لم يعد أحد يطيق الصبر على القصائد الطوال ، فجنح الناس إلى التذوّق ، وقدّم لهم الأدباء ما يريحهم ويرضيهم ، وظهرت اختيارات كثيرة مرتبة حسب أغراض الشعر ومعانيه لتلبى هذه الحاجات ، وأقدم هذه المختارات ما جمعه أبو تمام الشاعر ، المتوفى عام ٢٣١ هـ = ٨٤٦ م .

اسمه حبيب بن أوس الطائى ، فهو ينتسب فى قبيلة طيئ كما نرى ، وزعم غير واحد من المؤرخين أن نسبه هذا غير صحيح ، وأن أباه كان نصرانيا يدعى تدوس العقاقيرى ، وصوابه تيودوس ، وهو لفظ يونانى ، وأنه كان يبيع الخمر فى دمشق ، ولا يستبعد على أية حال أن يكون من نصارى طيئ ، فقد كانت النصرانية قبل الإسلام وبعده شائعة فى قبائل تنوخ وقضاعة وطيئ ، لأن مساكنهم كانت تجاور الحيرة .

وُلد أبو تمام عام ١٩٢ هـ = ٨٠٧ م ، فى قرية جاسم بناحية الجيدور ، فى منطقة تقع بين دمشق وبحيرة طبرية ، ونشأ فى حجر أبيه نصرانيا ثم أسلم ، وعاش فى هذه القرية كما يعيش أبناء الفلاحين ، وانعكس صداها قويا حتى بعد أن هجرها إلى دمشق طلبا للرزق ، كما يفعل الكثيرون من أبناء القرى حين يضيقون بها ، وبحياتهم فيها ، فيهجرونها إلى المدن .

بدأ حياته حدثا فى دمشق يعمل عند حائك ، وعند خمار ، ولم تطب له الحياة فيما يبدو ، فرحل إلى مصر ، واستقر فى الفسطاط ، وأقام خمس سنوات كاملة ، عمل خلالها سقّاء فى جامع عمرو بن العاص ، يحمل الماء إلى المترددين عليه من المصلين والطلاب وشيوخهم ، فأتاح له هذا العمل أن يختلف إلى حلقات الدرس التى تغمر الجامع ، فأفاد منها ، وأعانته على ذلك ذاكرة حديدة ، وحافظة قوية ، فحفظ قدرا كبيرا من الشعر ، وبلغ محفوظه من الأراجيز وحدها ، فيما يقال ، أربع عشرة ألف

(*) حققه الأستاذ/ على محمد البجاوى وصدر عن دار نهضة مصر للطبع والنشر - القاهرة - ١٩٧٥م، ثم حققه فى تلك الأثناء الدكتور/ نعمان أمين طه، وصدر عن الجمعية المصرية السعودية للثقافة والفنون بالرياض - ١٩٧٨م - وقد اطلع بعد إنتهائه من التحقيق على نشرة الأستاذ البجاوى، وانتقدها.

أرجوزة ، غير القصائد والمقطوعات ، مع جودة ما يختار من ذلك ويحفظ ، إلى ذكاء متوقد ، وبديهة مواتية ، وإفحام فى الجدل ، قال له أبو سعيد الضرير العالم الراوية حين التقى به . « يا أباتمام لِمَ لا تقول من الشعر ما يُفْهم » ، فردّ عليه : « وأنت يا أبا سعيد ، لِمَ لا تفهم من الشعر ما يُقال ؟ » .

وتذكر كتب التاريخ مثلا آخر أدل على سرعة بديهته ، وهو قصته مع الخليفة المستعين ، المتوفى ٢٥٢ هـ = ٨٦٦ م ، حين مدحه بسينيته المشهورة ، ومطلعها :

ما فى وقوفك ساعةً من باسِ   تقضى ذَمامَ الأرْبعِ الأدْراسِ

فلما وصل إلى قوله :

إقدام عمْرٍو ، فى سماحةِ حاتمٍ   فى حِلْمِ أحنفَ ، فى ذكاءِ إياس

قال الفيلسوف الكندى ، وكان حاضرا وأراد الطعن عليه . الأمير فوق مَن وصفْتَ ، وما زدت على أن شبهته بأجلاف العرب ، فأطرق أبو تمام قليلا ، ثم قال على البديهة :

لا تنكروا ضَرْبى له مَن دونه   مَثَلًا شروداً فى الندى والباسِ
فالله قد ضرب الأقلَّ لنورِه   مثـلًا من المشكاةِ والنبـراس

ولمّا أُخذت القصيدة منه لم يجدوا فيها هذين البيتين ، فعجبوا ، وقال الفيلسوف للخليفة : مهما يطلب فأعطه ، فإن فكره يأكل جسمه ، كما يأكل السيفُ المهنَّدُ غمدَه ، ولن يعيش طويلا ، فولاه بريد الموصل .

لكن حياته المتواضعة فى مصر لم ترضه ، ولم يحقق ماديا ما كان يطمح فيه ، فقفل راجعا إلى دمشق ، وحين زارها المأمون حاول عبثا أن يحظى بالدخول عليه ، ولما أعياه الرجاء توجه إلى الموصل وأقام بها سنتين ، ثم رحل إلى أرمينية فأجزل له واليها خالدُ بن يزيد العطاءَ ، وبعد وفاة المأمون عام ٢٣٠ هـ = ٨٣٣ م ، قدم إلى بغداد ، واتصل بالخليفة المعتصم ، ثم الواثق من بعده ، وبكبار رجال الدولة ، والكتاب والشعراء ، ولكنه ما لبث أن فارق بغداد ، ورحل إلى خراسان ، ومدح واليها عبد الله بن طاهر ، واستقر بها وقتا ، ثم تركها إلى الحجاز ، وعاش فيه زمنا ، وما لبث أن فارقه عائدا إلى بغداد مرة أخرى ، حيث لقيه الموت شابا لمّا يتجاوز الأربعين من عمره .

كان أبو تمام شاعرا صاحب مذهب ومنحى ، فلفظه جزل ، وأسلوبه متين ، ومعانيه قوية ، يلحُّ عليها ويتعمقها ، يعنى بشعره ويجوّده ، يُكثر من البديع ويفتن فيه ، يعرف منزلته ويقدّرها ، وبلغ حدًّا من الشهرة أخمل فيه كثيرين من شعراء عصره ، وقطع أرزاقهم ، فلم يستطع أحد منهم أن يكسب درهما على حد قول الرواة ، وفرض زعامته هذه فرضا ، فاعترف له بها الناس ، ودانت له بها الشعراء ، وكان كالمتنبى من بعده ، يعرف أن شعره سوف يخلد ، يشرّق ويغرب ، ويملأ الدنيا ، ويثير الكثير من الجدل والنقاش فى المحافل الأدبية ، وبين النقاد والعلماء ، وصح ما توقعه ...

أورد لنا **الآمدى** ، المتوفى ٣٧٠ هـ = ٩٨٠ م ، فى كتابه « الموازنة بين الطائيين » نصا بالغ الأهمية ، يلقى ضوءا كاشفا على ثقافة أبى تمام الشعرية ، ومؤلفاته فى هذا المجال ، ولأهميته أورده كاملاً ، معقِّبا على كل فقرة بما يوضحها ، يقول :

١ - « كان **أبو تمام** مشتهرا بالشعر مشغوفا به ، مشغولا مدة عمره بتبحره ودراسته ، وله كتب اختيارات مؤلفة فيه مشهورة معروفة ، فمنها : **الاختيار القبائلى الأكبر** ، اختار فيه من كل قبيلة قصيدة ، وقد مرّ على يدىّ هذا الاختيار »

وهو كتاب **مختار أشعار القبائل** ، وذكره البغدادى من علماء القرن الحادى عشر الهجرى ، السابع عشر الميلادى ، فى كتابه « خزانة الأدب » ، ولكن أحداً لم يهتد إلى نسخة منه حتى يومنا ، ويذكره **الآمدى** أحيانا « الاختيار القبائلى » دون ذكر الأكبر اختصارا ، فظنه **فؤاد سزكين** فى كتابه « تاريخ التراث العربى » كتابا آخر ، ومضى مع الوهم إلى نهايته فأضاف : « قيل إنه كان يضم ، على العكس من الكتاب الأول ، مقطوعات لشعراء القبائل الأقل شهرة »[1] . وكل ذلك ليس بصواب ، ولا يفهم من إشارات الآمدى أنهما كتابان .

٢ - « ومنها الاختيار الذى تلقّط فيه محاسن شعراء الجاهلية والإسلام ، فأخذ

---

(١) فؤاد سزكين ، تاريخ التراث العربى ، المجلد الثانى ، الجزء الأول ، ص ٦٣ ، ترجمة محمود فهمى حجازى وآخرين ، ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م ، طبعة جامعة محمد بن سعود الإسلامية فى الرياض .

من كل قصيدة شيئا حتى انتهى إلى إبراهيم بن هرمة [المتوفَّى عام ١٥٠ هـ = ٧٦٧ م] وهو اختيار معروف ، يُعرف باختيار **شعراء الفحول** » .

وهذا الكتاب يعرف باسم **فحول الشعراء** ، ونعرف من الإشارات المختلفة إليه فى المصادر الأخرى ، أنه رتّبه حسب الموضوعات ، ولايزال مخطوطا حتى يومنا ، وتوجد مخطوطته بالمكتبة الرضوية ، فى المشهد الرضوى بطوس ، كما يُرى فى فهرستها جـ ٣ ص ١٨٥ ، وهى فى ١٩٣ ورقة ، من القرن الخامس الهجرى ، وهى فريدة فيما أعلم حتى يومنا .

٣ - « ومنها اختيار تلقّط فيه أشياء من أشعار المقلين ، والشعراء المغمورين غير المشهورين ، بوَّبه أبواباً ، وصدّره بما قيل فى الشجاعة ، وهو أشهر اختياراته ، وأكثرها فى أيدى الناس ، ويُلقب **بالحماسة** » .

وهى أهم مختارات أبى تمام ، وأكثرها شيوعا وتأثيرا فيما جاء بعدها ، وسندرسها تفصيلا .

٤ - « ومنها **اختيار المقطّعات** ، وهو مبوّب على ترتيب الحماسة ، إلا أنه ذكر فيه أشعار المشهورين وغيرهم من القدماء والمتأخرين ، وصدّره بذكر الغزل ، وقد قرأتُ هذا الاختيار ، وتلقّطت منه نُتُفا وأبياتا كثيرة ، وليس بمشهور شهرة غيره » .

وسمَّى أبو تمام كتابه **الوحشيات** ، لأن محتواه مقاطيع أوابد ، وشوارد لا تعرف عامة ، وأغلبها للمقلين من الشعراء أو المغمورين منهم ، وشُهر أيضا باسم **الحماسة الصغرى** ، لأنه دون الحماسة فى حسن الاختيار وجودة الانتقاء . ويصفه القاضى **الباقلانى** ، المتوفى ٤٠٣ هـ = ١٠١٢ م ، فى كتابه إعجاز القرآن بأنه فيه « تنكّب المستنكر الوحشى ، والمبتذل العامى ، وأتى بالواسطة » .

ووصلنا حتى الآن فى نسخة فريدة ، وحققه وعلّق عليه **عبد العزيز الميمنى الراجكوتى** ، وزاد فى حواشيه **محمود محمد شاكر** ، وصدر عن دار المعارف بالقاهرة ، فى طبعة جيدة ، فى سلسلة « ذخائر العرب » عام ١٩٦٣م(*) .

٥ - « ومنها اختيار مجرد فى **أشعار المحدثين** ، وهو موجود فى أيدى الناس » .

ولا أعرف فى ما مرّ على من كتب التراث أو دراسات المحدثين من أشار إلى هذه المجموعة الأخيرة ، وواضح من تعبير **الآمدى** أنها لم تكن مشهورة ، ولعل

(*) وصدرت طبعته الثانية عن دار المعارف ١٩٦٨م، وصدرت طبعته الثالثة عن دار المعارف ١٩٨٧م

مخطوطتها موجودة فى مكتبة خاصة ، أو عامة مغمورة ، أو تحت مؤلف آخر ، أو بعنوان مختلف ، أو مجهولة لم تنسب إلى أحد ، وكم فى مخطوطاتنا من طرائف ومفارقات .

ويختم الآمدى حديثه عن مؤلفات أبى تمام بتقييم ثقافته الشعرية ، ويلمح إلى تخصصه وأهمية مختاراته ، وأنها ثمرة استيعاب عميق ، واستقراء واسع ، ومعرفة متمكنة بالمجال الذى يعمل فيه .

* * *

يذكرون فى سبب تأليف **الحماسة** أن **أبا تمام** توجه إلى خراسان ليمدح واليها **عبد الله بن طاهر** ، ولما وصل إليها التقى بأبى سعيد الضرير وآخر يمثلان المستشارَيْن الفنيَيْن للوالى ، فلا يجيز قصيدة إلّا إذا أثنيا عليها ، فأنشدهما **أبو تمام** قصيدته التى مطلعها :

أَهنَّ عوادِى يوسفٍ وصواحبُهْ   فَعَزْماً فَقِدْماً أدركَ الثأرَ طالِبُهْ

فاعترضا عليها وأسقطاها ، بسبب هذا البيت ، لأنهما أدركا فيما يبدو أن البيت معيب من الناحية العروضية ، فقد دخله الخرم ، ولعلهما كذلك أحسّا بالثقل فى قوله « فعزماً فقدماً » ، ولكن **أبا تمام** رجاهما أن يعاودا النظر ، وألّا يتسرعا فى الحكم ، فأخذا فى قراءتها من جديد ، ولما وصلا إلى قوله :

وركْبٍ كأطرافِ الأسِنّة عرَّسوا   على مثلها والليلُ تسطو غياهِبُهْ
لأمْرٍ عليهمْ أنْ تتمَّ صدورُه   وليس عليهِمْ أن تتمَّ عواقبه

استحسنا القصيدة ، وأخذا له من الوالى ألف دينار ، وبعد وقت قرر أن يرجع إلى العراق ، وفى طريقه إليه عرّج على همذان ، فأنزله **أبو الوفا بن سلمة** وأكرمه ، وأصبح ذات يوم وقد وقع ثلج عظيم قطع الطريق ومنع السابلة ، فقال له أبو الوفاء : وطّن نفسك على المقام فإن هذا الثلج لا ينحسر إلّا بعد زمان ، وأحضره خزانة كتبه فطالعها واشتغل بها ، وصنّف الكتب الخمسة التى أشرنا إليها من قبل ، وبينها كتاب **الحماسة** ، وبقيت فى خزائن آل سلمة .. يضنون بها حتى تغيرت أحوالهم ، وورد على همذان رجل مِن دينور ، يُعرف بأبى العواذل ، وكان ورّاقا فيما يبدو ، فظفر بها ، وحملها إلى أصبهان ، فانتشرت النسخ منها ، وعُنى أهل أصبهان بتصحيحها ، واشتهرت الحماسة فيهم ، ثم فيمن يليهم ، وكانت

السبب الأساسى فى مجد أبى تمام وشهرته ، حتى قال شارحه التبريزى : « إن أبا تمام فى حماسته أشعر منه فى شعره »[1] وهو السبب أيضا فى أنك لا تجد أحدا يرويه مسندا إلى أبى تمام رواية .

يصعب التصديق أن أبا تمّام استطاع بدءًا ، دون تفكير سابق ، إعداد المختارات الشعرية التى أومأنا إليها ، من مختارات شعرية غير مصنفة ، فى هذا الوقت اليسير ، ولعل الأقرب أن الفكرة كانت مختمرة فى ذهنه ، وربما قطع فيها شوطا ، فلما فرضت عليه هذه العزلة أتمها ، أو لعله وقع على مجموعات مصنفة على نحوما ، فأعمل فيها ذوقه ، قبولا ورفضا ، ومن ثم كانت مهمته ميسورة ، وجهده محدودا .

أول ما نلحظ على مختارات الحماسة أن الشعر استأثر فيها بالجانب الأوفر ، وجلّه مقطعات لا قصائد . وحظ الأراجيز فيها محدود ، رغم أن المؤلف كان يحفظ منها الكثير كما أومأنا من قريب ، وهو اتجاه وراءه ، فيما أرى ، الغاية من المختارات نفسها ، فقد استهدف بها كما قلنا فى البدء إرضاء المتذوّقين ، وإشباع الهواة ، لا الدارسين ولا الرواة ولا علماء اللغة ، والرجز تغلب على ألفاظه الغرابة ، وهى تعجب الباحث ولكنها تنفّر الهاوى ، ويدعم رأيى هذا أن الأراجيز القليلة التى جاء بها خلت من الألفاظ الغريبة ، وتقل فيها المفردات الحوشية ، إلى حد يقرب بها من الشعر .

وربما رأى أبو تمام ، أن الرجز دون الشعر ، وهو اتجاه نلتقى به واضحا فيما بعد عند أبى العلاء المعرى ، فهو يقرر على لسان ابن القارح ، فى رسالة الغفران ، عند حديثه عن امرئ القيس : « الرجز أضعف من الشعر » ، ويقول فى إحدى لزومياته :

قصرت أنْ تدرك العلياء فى شرف إن القصائد لم تلحق بها الرجزُ

---

(١) فى شرح التبريزى للحماسة : « فبقى كتاب الحماسة فى خزائن آل سلمة يضنون به حتى تغيرت أحوالهم . وورد على همذان رجل من دينور فظفر به وحمله إلى أصبهان » . وفى شرح أبى القاسم الفارسى الفسوى أن أبا تمام ألف فى هذه الفترة ثلاثة كتب : الحماسة ، « والوحشىّ وشيئا من انتخابه » ، وبقيت الكتب عند أبى الوفاء بن سلمة إلى أن توفى ، ثم جاء من حمل الكتب الثلاثة إلى أصبهان . وفى رواية ثالثة ، أنه ألّف الكتب الخمسة التى أشرنا إليها ويمكن الجمع بين الروايات دون صعوبة . فمنهم من نظر إلى الأصل ، أو إلى ما اشتهر وعرف

ويرد فى الخاطر أيضاً أن القدر الهائل من الأراجيز الذى كان يحفظه أبو تمام طالبا يدرس ، بغّض إليه هذا اللون من الشعر ، فلما شب عن الطوق ، وبدأ يختار للراغبين فى الشعر ، لم يشأ يجرعهم من المرارة ما تجرع فى صباه .

تختلف المقطعات فى الحماسة طولا وقصرا ، فقد تبلغ بضعة عشر بيتا كحد أعلى ، وقد تقل حتى تصبح بيتين ، وفى بعض الأحيان بيتاً واحدا ، لأن غاية أبى تمام انتقاء الجيد فحسب ، وهو أمر كان يدفعه أحيانا إلى فصل الأبيات عما قبلها مع شدة ارتباطها بما سبق ، كما فى أبيات عمرو القنا ، وهو شاعر إسلامى من فرسان الخوارج المعدودين :

أَلقـــائلينَ إذا هُم باقَـنا خــرجـــوا ... مِن غــمرة الموتِ فى خَـوْماتهـا عودوا
عـادوا، فـعـادوا كـرامًـا لا تنابلَةٌ ... عنـد اللقـــاءِ ولا رُعْـشٌ رعـــاديدُ
لا قـومَ أكـرمُ منهمْ يوم قـال لهم ... مُحرِّضُ الموتِ: عن أحسابكْم ذودوا(١)

فقد اقتطع هذه الأبيات ممَّا قبلها ، مع شدة ارتباطها به ، لأنه بدأها « بالقائلين » ، وهى صفة لموصوف فى الأبيات التى سبقت ، ومع ذلك ترك البداية لاهتمامه بالجودة وحدها ، ولولا ذلك لجاءنا بما تعلقت به الصفة .

وشعراء الحماسة : ينتسبون فى قبائل شتى ، ومنهم الجاهليون والإسلاميون ، ويرجع تاريخهم إجمالاً إلى ما قبل سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية ، أى قبل عام ١٣٢ هـ = ٦٥٠ م ، ولو أنه يفسح المجال قليلا لشعراء عاشوا فى الدولتين ، مثل أبو عطاء السِّندى ، المتوفى بعد سنة ١٨٠ هـ = ٧٩٦ م ، وأكثر الذين اختار لهم من المقلّين ، أو ممن ليست لهم شهرة واسعة ، وهو أدخل فى باب الشعر ، لأنه بعيد عن التكلف ، وأصحابه يتلبثون به ، ويترددون فيه ، ويتناولونه بالصقل والتهذيب ، فيجىء أحكم عبارة ، وأصفى رواء ، وأجمل موسيقا .

وفى كثير من الأحيان لا ينسب أبو تمام مختاراته إلى قائليها ، مكتفيا بذكر : « وقال آخر ... » ، أو « وقالت امرأة ... » وربما نسبه إلى مجهول أو مجهولة من قبيلة معيّنة ، فيقول : « قال رجل من بنى الحارث » ، أو « قالت امرأة من طيئ » ، وقد ينسبه إلى مجهول أو مجهولة من البدو ، فيقول : « وقال أعرابى » ، أو « وقالت أعرابية » ، ومرد ذلك أنه كان يجهل نسبة الشعر إلى أصحابه ،

(١) ديوان شعر الخوارج - جمع وتحقيق د/ إحسان عباس - دار الشروق - ط ع مزيدة ومنقحة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م - ص ١٠٣

أو يشك فى هذه النسبة ، أو وجد الرواة يختلفون حولها .

كسر أبو تمام حماسته على عشرة أقسام أو أبواب هى : الحماسة ، والرثاء ، والأدب ، والنسيب ، والهجاء ، والأضياف والمديح ، والصفات ، والسير والنعاس ، والملح ، ومذمة النساء .

وسُمِّىَ الكتاب بالحماسة أول أبوابه تغليبا ، لأنها تضم وحدها ١٣٢٤ بيتا ، ولسائر الأبواب الأخرى ٢٤٤٠ بيتا ، أى أن شعر الحماسة وحده يعدل ثلث الكتاب تقريبا .

وأول ما نلحظه على هذه الأبواب أن أبا تمام جمع بين شعر الأضياف والمدح فى باب واحد ، مع أنهما مختلفان ، فالأول يتحدث عن إكرام الضيف والفخر به ، والفخر غير المديح ، غير أنه نظر إليهما ، فيما يبدو ، من ناحية الفكرة ، فكلاهما ثناء وحمد ، فلم يفرق بينهما ، وربما للسبب نفسه لم يضمّن كتابه بابا خاصا بالفخر ، والذين يفرقون بينهما يرون الفخر ثناء المرء على نفسه ، والمدح ثناؤه على غيره .

وفرّق بين الهجاء والمذمّة ، أطلق باب الهجاء ، وأضاف المذمة إلى النساء ، مع أنهما شىء واحد ، وفَصْلُه بينهما يعنى أنه لا يراهما كذلك ، ومن يستعرض الأشعار التى أوردها فى كلا البابين يجد أنه أراد بالهجاء خلو الرجل مما يعده العرب ميزة فيه وفضلا ، كالجبن والبخل ، والضعة ، والهرب عند اللقاء ، وقلّة العشيرة ، وضعف القبيلة ، وغيرها مما هو معنوى فى مجمله ، وقصر الثانى على عيوب المرأة الخِلْقية ، ونقائصها الحسيّة ، دون أن يذهب إلى ما وراء ذلك من حسب أو نسب أو خلق .

وكذلك جعل السيْر والنعاس فى باب خاص مستقل ، مع أن شعرهما يمكن أن يلحق بشعر الوصف ، لأنهما من ظواهر الحياة الملموسة فى البادية ، تمثلان الضرب فى الصحارى ، ومعاناة الشدائد فى البيد ، فلم يرد أن يلحق شعرهما بالوصف لئلا يضيع فيه ، مع شدة اعتناء الناس بهما .

ونلحظ أن أبا تمام أغفل باب الاعتذار ، وهو من أغراض الشعر المرموقة ، فى أيامه وقبلها على الأقل ، ولم أجد للأمر تفسيرا ، إلّا أن يكون الوقت قد ضاق به عن المتابعة وإكمال المختارات .

ونعرف من ملاحظة للمرزوقى أحد شرّاح الحماسة أن أبا تمام كان يصلح الشعر

الذى رواه ، يقول : « إنك تراه ينتهى إلى البيت الجيد ، فيه لفظة تشينه ، فيجبر نقيصته من عنده ، ويبدل الكلمة بأختها فى نقده ، وهذا بيّن لمن رجع إلى دواوينهم فقابل ما فى اختياره بها » .

* * *

يعد كتاب الحماسة جليل القيمة من الناحيتين الفنية والأدبية ، فهو من الناحية الفنية معرض حافل بألوان متعددة من الشعر الجيد ، لعصرين من أرقى عصور العربية : العصر الجاهلى والعصر الإسلامى .

ومن الناحية اللغوية يرجع إليه الأدباء عند المقارنة والتحقيق ، كما يستدل النحاة واللغويون والمفسرون والمحدثون والمؤلفون فى الأدب بنصوصه ، وقد شهد له الإمام الزمخشرى ، المتوفى ٥٣٨ هـ = ١١٤٣ م ، فى تفسيره قول الله تعالى : ﴿ يكاد البرقُ يخطفُ أبصارهم ، كلَّما أضاءَ لهم مشوافيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا ﴾ ، فأظلم يحتمل أن يكون غير متعدّ ، وهو الظاهر ، وأن يكون متعدِّياً منقولا من ظَلِمَ الليل ، وتشهد له قراءة ابن قطيب « أُظْلِمَ » ، على ما لم يسمَّ فاعله ، وجاء فى شعر حبيب بن أوس (أى أبى تمام) :

هُما أُظْلَمَا حالىّ ثُمَّتَ أجليا ظلاميهما عند وجهِ أمردَ أشنب

وهو وإن كان محدثا لا يستشهد بشعره فهو من علماء العربية . فأجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه ، ألا ترى إلى قول العلماء : الدليل عليه بيت الحماسة ، فيقتنعون بذلك لوثوقهم بروايته وإتقانه » .

ويقول النقاد : « إن أبا تمام فى اختياره الحماسة أشعر منه فى شعره » ، يعنون أنه وُفق فى الاختيار كما لم يوفق فى الإبداع ، فسلمت مختاراته مما لم تسلم منه أشعاره ، وهى قولة فيها بعض الحق ، ولا نأخذ بها على إطلاقها ، فمن الظلم أن نوازن بين اختيار أبى تمام وإبداعه ، فهو فى الأول ناقد يتأمل ويدرس ويحكم ويختار ، وفى الثانى مبدع يستجيب لمشاعره الداخلية ، تجرى على لسانه شعرا رائعاً أو نظماً ملتويا .

ويمكن تصور النجاح الذى لقيته حماسة أبى تمام من المختارات العديدة التى صيغت على منوالها ، واستعارت اسمها ، ومن الشروح المثيرة والمتنوعة التى

عرضت لها ، تشرحها إجمالاً أو تقف على جانب منها ، كأن تصلح أخطاءها ، أو توضح مشكل أبياتها ، أو تعربها ، أو تبين أسماء شعرائها ، أو تضبط ألفاظها ، أو تعلق على شروحها ، توجزها أو تضيف إليها ، وضاع جانب كبير من هذه المؤلفات ، ووصلنا عدد لا بأس به ، جانب منه يرقد مخطوطات كاملة أو مجتزأة فى مكتبات العالم المختلفة ، وسوف نشير إلى المطبوع من هذه الشروح ، وإلى المخطوطات التى وصلتنا ولمّا تنشر ، متجاوزين عن الشروح التى لا نعرف غير أسمائها من الكتب المختلفة ، دون أن تصلنا :

● **التنبيه فى شرح مشكل أبيات الحماسة لابن جنى** ، المتوفى ٣٩٢ هـ = ١٠٠٢ م ، وطبع فى القاهرة عام ١٩٢٧ م . وله أيضا : **المبهج فى تفسير أسماء شعراء الحماسة** ، وطبع فى دمشق عام ١٣٤٨ هـ ، ويعد تتمة للكتاب الأول ، واعتمادًا عليهما كتب **الحضرمى** ، إبراهيم بن محمد بن ملكون ، المتوفى ٥٨٤ هـ = ١١٨٨ م شرحه : **إيضاح المُنْهج فى الجمع بين كتابى التنبيه والمبهج** ، ويوجد مخطوطًا فى الإسكوريال فى ١٢٤ ورقة ، وتوجد له مخطوطة أخرى فى المكتبة الحمزاوية فى المغرب .

● **شرح المرزوقى** ، أبو على أحمد بن محمد ، المتوفى ٤٢١ هـ = ١٠٣٠ م ، وحققه **أحمد أمين** ، و**عبد السلام هارون** ، فى أربعة أجزاء ونشر فى القاهرة ١٩٥١ - ١٩٥٣ م .

● **شرح الجرجانى** ، أبى الفتوح ثابت بن محمد ، المتوفى ٤٣١ هـ = ١٠٤٠ م ، وتوجد مخطوطته فى الأسكوريال فى ٢٣٠ ورقة .

● **شرح الفارسى الفَسَوى** ، أبو القاسم زيد بن على ، المتوفى ٤٦٧ هـ = ١٠٧٥ م ، وفرغ منه قبل وفاته بعام واحد ، ويقوم الآن بتحقيقه ودراسته تحت إشرافى ، الباحث السودانى **محمد عثمان على** ، ليحصل به على درجة الدكتوراه من كلية الآداب بجامعة القاهرة ، فرع الخرطوم .

● **شرح الأعلم الشنتمرى** ، المتوفى ٤٧٦ هـ = ١٠٨٣ م ، ولمّا يطبع ، وكانت مخطوطته فى مكتبة العالم التونسى **حسن حسنى عبد الوهاب** ، وانتقلت الآن إلى مكتبة تونس الوطنية ، وهى فى ١٧٤ ورقة .

● **شرح التبريزى** ، أبو زكريا يحيى بن على ، المتوفى ٥٠٢ هـ = ١١٠٩ م ،

وهو فى ثلاث مستويات ، صغير ومتوسط وكبير ، وطبع فى بولاق عام ١٩٢٦ م ، ثم حققه محمد محيى الدين عبد الحميد فى أربعة مجلّدات ، القاهرة ١٣٥٨ هـ .

● **إعراب أبيات الحماسة** ، تأليف **العُكْبرى** ، أبو عبد الله بن الحسين ، المتوفى ٦١٦ هـ = ١٢١٩ م ، وتوجد مخطوطته فى مكتبة ينى جامع فى تركيا فى ٢٠٧ ورقات ، من القرن السابع الهجرى .

● **شرح ابن نظر الجزرى** ، أبى يوسف بن الفضل ، عاش فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى ، ويوجد مخطوطًا ، بخط المؤلف ، فى المتحف البريطانى ، فى ٢٦٠ ورقة .

● **مقتضى السياسة فى شرح نكت الحماسة** ، تأليف **ابن الجوزى** ، يوسف ابن قِزُغلى ، المتوفى ٦٥٤ هـ = ١٢٥٦ م ، ويوجد القسم الأول منه مخطوطًا فى مكتبة جامعة استنبول ، بخط المصنف ، فى ١٩٣ ورقة .

● **أسرار الحماسة** ، تأليف **سيد بن على المرصفى** ، المتوفى ١٣٣٠ هـ = ١٩٣١ ، ونشر القسم الأول منه فى القاهرة ١٣٣٠ هـ = ١٩١٢ م .

وكانت الحماسة من أوائل الكتب التى طُبعت فى أوربا ، أو العالم الإسلامى ، أو العالم العربى ، فقد طبعها فرايتاج فى بُن ، فى جزأين عام ١٨٢٥ - ١٨٤٧ ، وطُبعت لأول مرة فى مصر ، فى مطبعة بولاق عام ١٢٨٦ هـ = ١٨٧٠ م ، ثم توالت طبعاتها بعد ذلك ، ولمّا تتوقف حتى يومنا ، وطُبعت فى الهند : فى كلكتا عام ١٨٥٦ م بشرح مولوى كبير الدين أحمد ، ومحمد غلام ربانى ، وفى لكنو عام ١٢٩٣ هـ = ١٨٧٧ م ، بشرح مولوى فيض الحسينى ، وفى بومباى عام ١٢٩٩ هـ = ١٨٨٣ م ، بشرح الشيخ لقمان ، وطُبعت فى بيروت عام ١٣٠٦ هـ = ١٨٩٠ م ، وطُبعت فى موسكو بتحقيق كريمسكى عام ١٩١٢م .

وترجمها إلى اللغة الألمانية أديب ألمانى مستشرق هو ديكرت ، وصدرت فى شتوتجارت فى جزأين عام ١٨٤٦م . ولها شرح باللغة الفارسية للأحمدى ، يوجد مخطوطًا فى طهران ، فى ١٢٠ ورقة ، نسخ عام ١٢٥٠ هـ .

ونظم الطبيب المظفّر بن أحمد الأصفهانى ديوانًا عارض فيه الحماسة بيتًا بيتًا ، فى عهد ملكشاه السلجوقى ، الذى تولى الملك من ٤٦٥ هـ = ١٠٧٢م إلى ٤٨٥ هـ = ١٠٩٢ م .

○ حماسات أخرى :

أدى إقبال الناس على حماسة أبي تمام واحتفاؤهم بها إلى محاولة التأليف على منوالها ، واقتفاء منهجها ، واستعارة اسمها ، وهي ظاهرة تعرفها الآداب بعامة ، وتتكرر في كل العصور ، ولكن عمل أبي تمام غطّى لزمن ، وربما في بعضها إلى الأبد ، على خطى الذين تبعوه وساروا وراءه ، وسنأتي على ما بقي من هذه الحماسات ، وكان له حظ من التقدير ، مرتبة تاريخيا :

● **حماسة البحترى** ، المتوفى ٢٨٤ هـ = ٨٩٧ م ، وكان تلميذ أبي تمام وراويته ، وظل قريبًا من أستاذه ، ووفيا له ، ويقدمه على سائر الشعراء ، وألف على منواله مجموعة من المختارات الشعرية ، ربّما إجابة لطلب الفتح بن خاقان ، وزير الخليفة العباسى **المتوكل** ، وجاءت فى ١٧٤ بابًا ، تشتمل على مقطوعات صغيرة وأبيات مفردة فى مُختلف معانى الشعر ، ويغلب عليها طابع الدعوة إلى الأخلاق الفاضلة ، ومنتخبة فى مجملها من أشعار الجاهلية ، وحملت اسم الحماسة ، ولا يمكن القطع بأن هذا الاسم من عمل البحترى ، وربما كان من صنع الناسخين والناشرين والورّاقين ، أطلقوه على هذه المختارات لتجد من الرواج والذيوع ما وجدته حماسة أبي تمام ، وليس هناك ما يشى بتوفيقهم ، والعكس صحيح ، فقد كان حظ حماسة البحترى من الرواج محدودا ، ولم تصلنا منها غير مخطوطة واحدة توجد الآن فى مكتبة جامعة ليدن ، وبقيت لزمن طويل غير معروفة تقريبًا ، ولا نعرف لها شراحا ولا معلقين ، حتى أن البغدادى من علماء القرن الحادى عشر الهجرى أنكر أن تكون للبحترى حماسة ، مما يقطع بأنها كانت ساقطة فى زوايا النسيان تمامًا .

وقد طبعها تصويرًا بالحجر عن مخطوطة ليدن ، وعمل لها فهارس المستشرقان : **جاير ومرجليوث** ، ونشراها فى ليدن عام ١٩٠٩ م ، ونشرها فى بيروت عام ١٩١٠ م ، عن المخطوطة نفسها ، مع مقدمة ونقد ، الأب **لويس شيخو** ، ونشرها فى القاهرة **محمد محمود الرافعى** ، بعنوان « مختارات أشعار العرب » عام ١٣٣٠ هـ = ١٩٢٢ م ، ثم نشرها باسمها « حماسة البحترى » **كمال مصطفى** فى القاهرة عام ١٩٢٩ م .

● **الحماسة الشجرية** ، **تأليف ابن الشجرى** ، صاحب المختارات التى عرضنا لها من قبل ، وهى فى خمسة عشر بابًا وعشرين فصلًا ، وتضم مختارات فى الشعر الجاهلى ، وصدر الإسلام والعصر العباسى ، وطبعها المستشرق **كرنكو** فى حيدر أباد عام ١٣٤٥ هـ ، وحققها ونشرها فى دمشق فى جزأين **عبد المعين الملوحى وأسماء الحمصى** عام ١٩٧٠ ، وهى – كحماسة البحترى – لم تلق شيوعًا أو نجاحًا .

● **حماسة الخالديين** ، وعنوانها الأصلى « **الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين** » وهى من تأليف الأخوين : **أبى عثمان سعيد** ، المتوفى ٣٥٠ هـ = ٩٦١ م ، وأبى بكر محمد ، المتوفى ٣٨٠ هـ = ٩٩٠ م ، ابنى **هاشم الخالدى** ، وكانا من شعراء **سيف الدولة الحمدانى** . وليس للكتاب صلة بمنهج الحماسة ، وإن حمل اسمها ، وإنما يهتم بالموازنة بين الشعر القديم والحديث ، وحاولا أن يثبتا أفضلية شعر الجاهلية وصدر الإسلام ، وأخذ عليهما **ابن أبى الفرج** صاحب الحماسة البصرية أنهما يفتقدان المنهج الواضح فى كتابهما ، وقد حقّقه **السيد محمد يوسف** ، ونشره فى القاهرة فى جزأين عام ١٩٥٨ – ١٩٦٥ م .

● **الحماسة البَصْرية** : من تأليف **صدر الدين على بن أبى الفرج البصْرى** ، وقدمها إلى **الملك الناصر** أمير حلب عام ٦٤٧ هـ = ١٢٤٩ م ، ولا نعرف له تاريخ وفاة ، وهى تضم مختارات من الشعر حتى زمن المؤلف ، وألفها على نمط حماسة **أبى تمام** ، ومخطوطاتها موزعة على مكتبات العالم ، وطبعها **مختار الدين أحمد** فى جزأين ، فى حيدر أباد عام ١٩٦٤ (*).

● **صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب** ، وتعرف أيضًا باسم **الحماسة المغربية** ، تأليف أبى العباس **أحمد بن عبد السلام الجراوى** ، المتوفى ٦٠٩ هـ – ١٢١٢ م ، عارض به حماسة **أبى تمام** ، وألّفه للسلطان أبى يوسف **يعقوب بن عبد المؤمن** أمير الموحِّدين ، وتضم مقطعات من الشعر العربى كله حتى زمن المؤلف ، وأبوابه : المدح ، والفخر ، والمراثى ، والنسيب ، والأوصاف ، والأمثال والحكم ، وذم النقائض ، والزهد والمواعظ ، وتوجد له مخطوطة وحيدة فى خزانة تشورلى باشا ، فى مكتبة فاتح ، تحت رقم ٤٠٧٩ ، وهى فى ١١٠ ورقات ، وفرغ ناسخها منها فى غرة جمادى الأولى سنة ٦١٨ هـ = ١٢٢٠ م ، وهى ليست

(*) صدرت عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة بتحقيق الدكتور عادل سليمان جمال – جـ١ ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م . جـ٢ ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م.

النسخة الأصلية وإنما مختصر لها قام به المؤلف نفسه بأمر من السلطان يعقوب .

وضاعت حماسات أخرى لأبي دماش ، ولابن المرزبان ، ولابن فارس ، وللأعلم الشنتمرى ، وآخرين كثيرين .

○ منتهى الطلب من أشعار العرب :

ألّفه محمد بن المبارك بن ميمون ، وهو شخصية مجهولة لنا ، ونعرف من الكتاب نفسه أن هذا الاختيار كمل فى بغداد عام ٥٨٩ هـ = ١١٩٣ م ، ويضم أكبر مجموعة مختارة من الشعر العربى فى الجاهلية وصدر الإسلام ، وكان فى ستة مجلدات وعشرة أقسام ، يضم كل قسم منها مئة قصيدة مشهورة ، أى أن مجموعها ألف قصيدة ، ولكن الواقع أن المجموعة ضمت ١٠٥١ قصيدة ، و ٢٩ مقطوعة ، فى ٣٩٩٩٠ بيتًا ، لمئتين وأربعة وستين شاعرًا . ولم يصلنا من الكتاب إلا نصفه تقريبًا .

وجاء فى مقدمة المصنف أنه أفاد من « المفضليات » و « الأصمعيات » و « نقائض جرير والفرزدق » ، وجمع القصائد التى أوردها ابن دُرَيْد فى كتابه « الشوارد » ، وأضاف إليها أحسن قصائد الهذليين ، وقصائد المذكورين فى طبقات فحول الشعراء لابن سلام ، وقصائد الشعراء الجاهليين والإسلاميين الذين استشهد اللغويون بأبياتهم ، وليست لهم دواوين متاحة لديه ، ولكن هذه المجموعة الجيدة لم تصلنا كاملة ، وإنما وصلنا منها ثلاثة مجلدات فحسب ، وما وصلنا توزعت مخطوطاته على النحو التالى :

١ - مجلّد كُتب سنة ٩٩٥ هـ عن نسخة بخط المؤلف ، فيه الأقسام : الأول والثانى وبعض الثالث ، وينتهى بشعر كُثَيِّر ولما ينته . ويوجد فى مكتبة لا له لى باستنبول رقم ١٩٤١ ، فى ١٦٤ ورقة .

٢ - مجلّد آخر كالسابق ، ولعله نسخة له ، كُتب عام ١٢٩٦ هـ ، فى ١٨١ ورقة ، يضم ٢١٩ قصيدة ، تحتوى على ٧٢٦٤ بيتًا من الشعر ، لثمانية وخمسين شاعرًا ، وتوجد فى دار الكتب المصرية ، رقم ٥٣ أدب ش .

٣ - مجلّد آخر مكتوب فى القرن الثالث عشر الهجرى ، بخط مغربى ، وفيه إحدى وثمانون قصيدة للشعراء : جرير والفرزدق والأخطل وقيس بن الخطيم

وكعب الغَنَوى والشنفرى وتأبّط شرا والأحوص ، وهو فى ١٠٩ ورقات ، ويوجد فى دار الكتب المصرية ، رقم ٥٣ أدب ش .

٤ – يوجد **المجلّد الثالث** فى مكتبة جامعة ييل فى الولايات المتحدة الأمريكية ، تحت رقم ٥٣ – S ، فى ٢٢٦ ورقة ، ونسخ عام ٨٦٦ هـ ، ويضم آخر القسم الرابع ، والخامس كله ، وأول السادس ، وقصائد المجلد ١٤٩ ، لأربعة عشر شاعرًا ، وتحتوى على ٦٧٨٦ بيتًا ، ومحتوى المجلد موزّع على النحو التالى :

تضم خاتمة **القسم الرابع** قصيدتين لعمرو بن برّاقة ، وعشر قصائد لعمر بن أبى ربيعة .

ويضم **القسم الخامس** ستًّا وثلاثين قصيدة لجرير ، وإحدى وثلاثين قصيدة للفرزدق ، وعشرين قصيدة للراعى النميرى ، وأربع عشرة قصيدة للأخطل .

ويضم **القسم السادس** ست عشرة قصيدة لحسّان بن ثابت ، وخمس قصائد لقيس بن الخطيم ، وقصيدة واحدة للحادرة ، وقصيدتين لمتمم بن نويرة ، وقصيدة واحدة لكعبْ الغنوى ، وثلاث قصائد للشنفرى ، وقصيدة واحدة لتأبط شرا ، وثمانى قصائد للأحوص . وهذه المخطوطة تلتقى جزئيا مع المخطوطة رقم ٣ التى توجد فى دار الكتب المصرية ، مع اختلاف فى عدد الشعراء والقصائد .

٥ – ويوجد **المجلد الخامس** فى مكتبة جامعة ييل أيضًا ، تحت رقم ٥٤ – S ، فى ٢٢٤ ورقة ، ونسخ عام ٨٦٧ هـ ، ويضم القسم الثامن ، وجانبًا كبيرًا من القسم التاسع ، ومجموع قصائده ١٧٩ قصيدة ، تحتوى على ٦٨٦٠ بيتًا ، لثمانين شاعرًا ، ويبدأ المجلد بأُنيف بن حكيم الطائى ، وينتهى القسم الثامن منه بأبى وَجْزَة السُّلَمى ، ويبدأ القسم التاسع بالمفضّل النُّكْرى ، وينتهى المجلد ، دون أن ينتهى القسم ، بقصيدة لأبى صخر الهذلى .

ولم تصلنا ثلاثة مجلدات أخرى هى : الثانى والرابع والسادس ، ومن المقدمة والإشارات الواردة فى المجلدات التى وصلتنا يمكن أن نقدم تصوّرا تقريبيا لها . **فالمجلد الثانى** يتضمن بقية القسم الثالث الذى توقف عنده المجلد الأول ، ويكمل شعر كثير ، ويليه القسم الرابع كاملاً . ويبدأ **المجلد الرابع** بتكملة أشعار الأحوص التى تضمنها القسم السادس من المجلد الثالث ولمّا تكمل هناك ، ويضم القسم السابع كاملاً . ويبدأ **المجلد السادس** بتكملة القسم التاسع الذى انتهى

بأوله المجلد الخامس ، ويبدأ بشعر المُلَيْح بن الحكم ، وينتهى بالقسم العاشر كاملًا ، وفى نهايته توجد هاشميات الكميت .

ولعمرى إنها لمجموعة رائعة ، تستحق المتابعة ، ولذلك أطلنا القول فيها ، وقدّمنا كل ما توصلنا إليه من معلومات عنها ، فلعلّ هناك من يبدأ فى السعى وراء بقيتها ، ليكتشف أين تستقر مخطوطاته ، أو يعمل على تحقيق ونشر ما وصلنا ونعرفه منها .

O منتخبات أخرى :

وثمة مجموعات أخرى من المنتخبات ، وقفها مؤلفوها على الشعر وحده أحيانًا ، وضموا إليها فصولًا من النثر أحيانًا أخرى ، ويهدفون من ورائها إلى وضع ثروة من الكلام الجيد بين يدى القراء ، تنمى ذوقهم ، أو تعينهم فى أعمالهم الأدبية ، إبداعًا ذاتيا ، أو تحريرًا مطلوبًا إذا كانوا يعملون فى دواوين الإنشاء ، ونأتى فيما يلى على أكثرها فائدة مما وصلنا فعلًا ، ما طبع منها ، أو لا يزال مخطوطًا :

● **كتاب الأنوار ومحاسن الأشعار** ، لأبى الحسن على بن محمد الشِّمشَاطى ، المتوفى حول عام ٣٧٧ هـ = ٩٨٧ م ، وهو مختار فى الأوصاف والتشبيهات والملح ، ويتضمن الأبواب التالية : فى السيوف والرماح وجمع السلاح - فى القسىّ والسهام - فى الدروع - فى اختيار قطعة من أيام العرب - فى الخيل وصفاتها - فى البرّ والإبل والظُّعُن والبحر والمراكب والسفن - فى حنين الأبل - فى الرباع والمنازل والأطلال وذكر السراب والآل - فى الأبنية والدور والصحون والقصور - فى الطرد والجوارح وما يصطاد من السوانح والبوارح - فى الكلب - فى الفهود - فى البزاة - فى الشواهين - فى الصقور - فى العقاب - فى النعام - فى قوس البندق - فى صيد السمك - فى الفخ .

وفى الكتاب نصوص تاريخية وأدبية لبعض أيام العرب فى الجاهلية ، وأطال الحديث عنها ، لا نجدها عند غيره كيوم الأثلب ومتالع ، وقصائد لشعراء لا تتضمنها دواوينهم التى بين أيدينا ، ولا يقصر اختياره على شعراء بعينهم ، وإنما يورد ما يتصل بموضوعه لا فرق فى ذلك بين شاعر قديم أو محدث ، ولا يعلّق على

المختارات كثيرًا ، وإنما يكتفى بإشارات عابرة ، ويوازن بين ما قاله الشعراء فى الموضوع الواحد أحيانًا ، ويلمح إلى السابق منهم ، وإلى ما يراه أدخل فى باب السرقات الأدبية . وتقدم مختاراته مادة لغوية واسعة ومفيدة فى مواضيع السلاح وأسنان الإبل والخيل ، وبعض الطيور ، وألفاظ أخرى ذات صبغة جاهلية أو بدوية .

ولا نعرف حتى الآن غير مخطوطة واحدة للكتاب توجد فى سراى أحمد الثالث فى تركيا ، تحت رقم ٢٣٩٢ ، من ٢٠٥ ورقات ، وكتبت عام ٦٣٩ هـ برسم خزانة أبى أحمد عبد الله **المستعصم بالله** أمير المؤمنين ، وعليها تملّك بخط صلاح الدين الصفدى . وحقق الكتاب صالح مهدى الغزاوى ، ونشره فى بغداد عام ١٩٧٦ م .

● **كتاب الأنس والعرس** ، وهو مجموعة من الشعر والنثر تدور حول الصداقة والمسامرة ، وترجع إلى أواخر القرن الرابع الهجرى ، واختُلف حول مؤلفه : هل هو **الثعلبى** ، المتوفى ٤٢٩ هـ = ١٠٣٨ م ، أو أحد أتباع **الصاحب ابن عبّاد** ، ويوجد مخطوطًا فى المكتبة الوطنية فى باريس ، تحت رقم ٣٣٠٤ ، فى ١٩٨ ورقة ، وهى نسخة كُتبت فى القرن الثامن الهجرى .

● **المنتخب الميكالى** ، ومؤلفه فيما يبدو **أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالى** ، المتوفى ٤٣٦ هـ = ١٠٤٤ م ، ويضم مختارات من الشعر والنثر ، من الجاهلية حتى عصر البويهيين ، ضمّنه كثيرًا من الشواهد التى يستخدمها البلغاء فى رسائلهم ، وصنفها موضوعيا فى خمسة عشر بابا : فى وصف الخط والكتابة والبلاغة – فى التهادى والتهانى وما يجرى مجراها – فى التعازى والمراثى وما يتصل بها – فى مكارم الأخلاق والمدائح ونحوها – فى الاستماحة والهزّ والشفاعة والاستعانة – فى الشكر والثناء وما يقاربها – فى الاستعطاف والمعاتبات والاعتذار – فى الهجاء والذم وذكر المقابح – فى شكوى الزمان والحال وما يجرى مجراها – فى الأمثال والحكم والآداب وما يجرى مجراها – فى الإخوانيات بما فيها من ذكر الشوق – فى السلطانيات وما يليق بها – فى ذكر الحبس والإطلاق والنكبة وزوالها – فى العيادة وما ينضاف إليها – فى الأدعية وما يقترن بها .

وقد أشار المصنف فى مقدمة الكتاب إلى جملة من أسماء الشعراء الذين استشهد بهم ، وإن تكن غير كاملة ، وهم ٣٢ شاعرًا جاهليا ، ١٠ شعراء إسلاميين ، و ٢٦

شاعرًا إسلاميا مشهورًا أكثرهم من العصر الأموى ، و ٧٤ من المحدثين ، و ٢٣ وزيراً وكاتبًا من العصر العباسى ، و ٢٢ من المولّدين من جيل ابن المعتز ، و ٥٩ شاعرًا من القرن الثالث الهجرى .

والمخطوطة الوحيدة التى نعرفها له الآن توجد فى سراى أحمد الثالث ، تحت رقم ٢٦٣٤ ، فى ٢٢٢ ورقة ، ونُسخت عام ٦١١ هـ .

● **سفينة الفصاحة والبلاغة** ، أو سفينة البلغاء ، لمؤلف مجهول ، يمكن أن نضعه فى القرن الثامن الهجرى ، ويصنف الشعراء من الجاهلية حتى العصر العباسى ، ويتضمن معلومات عن حياتهم ، ومختارات من أشعارهم ، ويمتد زماناً حتى يبلغ القرن السابع الهجرى ، وليس له منهج واضح ، ويستطرد طويلاً فى الجوانب التاريخية ، ويقتبس من كتب الأدب ، ويوازن بين الشعراء ممن ينتمون إلى الفترة الزمنية الواحدة ، وأفاد كثيرًا من يتيمة الدهر للثعالبى ، ويعنى بشعرائها ، وأحدث مصادره كتاب « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » لابن فضل الله العمرى ، المتوفى عام ٧٤٩ هـ = ١٣٤١ م ، ويتضمن المكاتبات التى جرت بين أبى بكر محمد بن هاشم **الخالدى**، المتوفى ٣٨٠هـ = ٩٩٠م، وبين أبى النصر **محمد بن المبارك الجيلى** ، عن الحوادث التى أدت إلى وفاة **المتنبى** ، وأخذها من ملحق ديوان المتنبى ، وكانت بخط الخالدى نفسه .

وتوجد مخطوطة الكتاب فى مكتبة راغب باستنبول ، تحت رقم ١١١٨ ، فى ٢٩١ ورقة ، ويعود نسخها إلى القرن العاشر أو الحادى عشر الهجرى . وتوجد مخطوطة أخرى فى فيينا تحت رقم ٤٢٠ ، فى ٧٤٤ ورقة ، تعود إلى القرن الثالث عشر الهجرى ، ولعلها منقولة عن نسخة مكتبة راغب ، وتوجد لها نسخة أخرى فى المتحف البريطانى ، مخطوطات شرقية تحت رقم ٢٧٩٧ ، فى ٢٩٦ ورقة ، ويعود نسخها إلى عام ١٠٥٢ هـ .

● **السفينة** ، جمع وتأليف **أحمد بن مبارك شاه المصرى** ، المتوفى ٨٦٢ هـ = ١٤٥٨ م ، جمع فيها مختارات من دواوين الشعراء وأخبارهم وتراجمهم ، ومن بدائع المنثور والحكايات ، ومنتخبات من مئات الكتب الطريفة فى شتى الفنون والعلوم ، وهى فى أربعة عشر مجلّدا كلها بخط المؤلف ، ومن بين الشعراء الذين اختارت لهم : بديع الزمان الهمذانى ، وبدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبى ، والبحترى ،

وأبو نواس ، إلى جانب حكاياته وهزلياته ، وابن عربشاه ، وأبو تمام ، وأبو فراس الحمدانى ، وقصائد صفى الدين الحلّى الأرتقيات ، المسماة « درر النحور فى مدح الملك المنصور » ، وأبو العلاء المعرى ، والحطيئة ، وابن مكانس ، وقصيدة أبى حيّان النحوى المسماه : « المورد العذب فى معارضة قصيدة كعب » ، وأبو العتاهية ، وأبو الشيص ، وموشحات وأزجال ، وحديث عن سرقات الشعراء ومآخذهم للمعانى ، واختيارات من كتاب « الوشى المرقوم فى حلل المنثور والمنظوم » لابن الأثير ، ولطائف ونوادر وحكايات اختارها من كتاب « الأنساب » للسمعانى ، ورسالة فى الحمام ، وتواريخ الأنبياء ، واصطلاحات الكتاب ومشكلات نحوية .

والمجلد الأول ناقص من آخره ، وكذلك الثالث ، وبقية المجلدات كلها كاملة ، وتوجد فى مكتبة فيض الله باستنبول ، ابتداء من رقم ١٦١٩ للمجلد الأول حتى رقم ١٦٢٢ للمجلد الأخير ، وتتراوح أوراق المجلدات بين ٣١٥ ورقة وهو أكبرها ، و ١٥٠ ورقة ، وهو أصغرها ، ولها مصورة موجودة بمعهد إحياء المخطوطات العربية بالقاهرة .

ويلاحظ أن الباحثين يخلطون أحياناً بين هذين الكتابين ، وبينهما وبين كتابين آخرين ، أحدهما كتاب السفينة من تأليف محمد بن نجم الدين بن محمد الصالحى الهلالى المتوفى عام ١٠١٢ هـ = ١٦٠٣ م ، ولا يزال مخطوطاً فى مكتبة أيا صوفيا فى استنبول تحت رقم ٤٠٣٤ ، فى ٢٣٠ ورقة ، وهى نسخة بخط المؤلف ، وأخرى فى مجموعة جاريت بجامعة برنستون تحت رقم ٢٢٢ فى ١٢٥ ورقة ونسخت عام ١٠٨٤ هـ . والآخر سفينة أدبية جمع شهاب الدين أبى العباس أحمد ابن محمد بن عمر الخفاجى المصرى ، المتوفى ١٠٦٩ هـ = ١٦٥٩ م ، وله نسخة بخطه توجد فى مكتبة رئيس الكتاب مصطفى فى استنبول تحت رقم ١٢١٦ ، فى ١٤٥ .

○ كتب الأمالى والمجالس :

مع انتشار التعليم ، وكثرة مجالس العلم ، واتساع ثقافة السامعين ، نلتقى ابتداء من القرن الثانى الهجرى بنمط متميز من كتب الأدب ، ثمرة اللقاء بين

الشيخ وطلابه ، بين الأستاذ والمستمعين له ، أخذت اسم الأمالي أو المجالس ، وقد ضاع جلّها ، وبخاصة تلك التي تنتمي إلى البدايات ، مثل كتاب الأمالي لأبي عبيدة معمر بني المثنى ، المتوفى ٢١٠ هـ = ٨٥٢ م ، وكتاب بالعنوان نفسه للأخفش الأصغر ، المتوفى ٣١٥ هـ = ٩٢٧ م ، ولنفطويه المتوفى ٣٢٣ هـ = ٩٣٥ م ، وهذان الكتابان الأخيران كانا معروفين في الأندلس حتى نهاية القرن الخامس الهجري .

وصف لنا **جلال الدين السيوطي** ، المتوفى ٩١٠ هـ = ١٥٠٥ م ، طريقة علماء اللغة المتقدمين في تعليمهم يقول : « وظائف **الحافظ** في اللغة أربعة ، أحدها – وهي العليا – **الإملاء** ، كما أن الحفّاظ من أهل الحديث أعظم وظائفهم الإملاء ... وطريقتهم في الإملاء كطريقة المحدثين سواء : يكتب المستملي أول القائمة : مجلس إملاء شيخنا فلان ، بجامع كذا ، في يوم كذا ، ويذكر التاريخ ، ثم يورد المُمْلي بإسناده كلامًا عن العرب والفصحاء فيه غريب يحتاج إلى التفسير ، ثم يفسره ، ويورد من أشعار العرب وغيرها بأسانيده ، ومن الفوائد اللغوية بإسناد وغير إسناد ما يختاره ، وقد كان هذا في الصدر الأول فاشيا كثيرًا ، ثم مات الحفَّاظ وانقطع إملاء اللغة من دهر مديد ، واستمر إملاء الحديث ... وآخر من علمتُهُ أملى على طريقة اللغويين **أبو القاسم الزجاجي** ، له أمالٍ كثيرة في مجلد ضخم ، وكانت وفاته سنة تسع وثلاثين وثلثمائة ، ولم أقف على أمالٍ لأحد بعده » .

ويقدم لنا **حاجي خليفة** ، المتوفى ١٠٦٨ هـ = ١٦٥٨ م ، في كتابه « كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون » مزيدًا من التفصيل عن التأليف في هذا الفن ، يقول : « هو أن يقعد عالم وحوله تلاميذه بالمحابر والقراطيس ، فيتكلم بما فتح الله سبحانه وتعالى عليه من العلم ، ويكتبه التلاميذ فيصير كتابًا ، ويسمونه **الإملاء والأمالي** ، وكذا كان السلف من الفقهاء والمحدّثين وأهل العربية وغيرها في علومهم ، فاندرست لذهاب العلم والعلماء ، وإلى الله المصير ، وعلماء **الشافعية يسمون مثله التعليق** » .

ومن الواضح أن كلمة **إملاء** بهذا المعنى تعني في معجمنا الجامعي الحديث **المحاضرة** ، وحتى هذه ذات أصول عربية عريقة ، ولو أنها تأخذ حظها من

الشيوع والديوع كما كان الحال مع كلمة « إملاء » . إذ يذكر أبو منصور الأزهرى أن الاصمعىّ أملى كتابا فى النوادر ببغداد ، فزيد عليه ماليس من كلامه ، فأنكر ذلك وقال : خير الكلام ماحاضرتُ به .

ويرد الأمر متداخلا فى المؤلفات الأولى ، فيستعاض عن كلمة الأمالى بكلمة المجالس ومن ثَمّ هناك من العلماء من لايرى فرقا بين محتوى اللفظين ، ولكن عبد السلام هارون يرى أن هناك فرقا دقيقا بينهما ، إذ إن الأمالى ، فيما يرى ، مايمليه الشيخ ، أو من ينيبه عنه بحضرته ، فيتلقفها الطلاب بالتقييد فى دفاترهم ، وفى هذا يكون الشيخ قد أعدّ مايمليه ، أو يلقى إلى الطلبة مايشاء من تلقاء نفسه . وأمّا المجالس فهى تسجيل كامل لما كان يحدث فى مجالس العلماء ، وفيها يلقى الشيخ مايشاء من تلقاء نفسه ، وفيها كذلك يُسأل فيجيب ، ويدوّن طلابه كل هذا فيما يسمى مجلسا .

والأمالى ليست وقفا على الأدب ، وإنما تتناول مختلف العلوم والفنون ، بل إنها بدأت وازدهرت بين علماء الحديث ، وكانوا أكثر الناس اهتماما بها ، وحافظوا عليها حتى وقت متأخر جدا ، كما أشار إلى ذلك السيوطى ، ولو أن التأليف فى الأمالى الأدبية بخاصة لم يتوقف عند التاريخ الذى ذكره . ونأتى فيما يلى على أشهر ماوصلنا من هذه الأمالى :

● أمالى ثعلب ، وحققه عبد السلام هارون ، بعنوان مجالس ثعلب ، ونشرته دارالمعارف بالقاهرة فى سلسلة ذخائر العرب .

● أمالى اليزيدى ، محمد بن العباس بن محمد بن يحيى ، المتوفى ٣١٠ هـ = ٩١١ م ، ونُشرت فى حيدر أباد عام ١٣٦٧ .

● أمالى ابن دريد ، المتوفى ٣٢١ هـ = ٩٣٣ م ، وحققها السيد مصطفى السنوسى ، ونشرها المجلس الوطنى للثقافة والفنون قسم التراث العربى ، فى الكويت عام ١٤٠٤ هـ = ١٩٨٤ م .

● أمالى الزجاجى ، المتوفى ٣٤٠ هـ = ٩٥٢ م ، وحققها عبد السلام هارون ، ونشرها بالقاهرة عام ١٣٨٢ هـ ، وحقق كذلك مجالس الزجاجى ، ونشرها فى الكويت عام ١٩٦٢ م .

● أمالى القالى ، المتوفى ٣٥٦ هـ = ٩٦٧ م ، وهى من أشهر كتب الأمالى

وأوسعها . وأذيعها وأملاها أبو على فى جامع مدينة الزهراء التى بناها عبد الرحمن الناصر فى ضواحى مدينة قرطبة ، حين وفد على الأندلس عام ٣٣٠ هـ = ٩٤١م ، وهو كتاب متفرقات ، يعرض طائفة من الأحاديث التى تشير إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وفصولا متفرقة فى العرب ولغتهم وشعرهم وأمثالهم ، وأخبارا تاريخية تتصل ببعض شعرائهم فى عصر الخلافة ، وقطعًا من النظم والنثر أخذها عن شيوخه .

وقد أهدى أبو على كتابه إلى عبد الرحمن الناصر خليفة الأندلس ، وفيما بعد حاول صاعد البغدادى المتوفى ٤١٧ هـ ، وهو مشرقى قدم الأندلس وأصبح من شعراء المنصور بن أبى عامر ، أن يتصدى لتأليف كتاب يفوق أمالى أبى على ، وزعم للمنصور أنه يملى « على كُتّاب دولته كتابا أرفع منه وأجل ، لايورد فيه خبرا مما أورده أبو على ، فأذن له المنصور فى ذلك ، وجلس بجامع مدينة الزاهرة[١] يملى كتابه المترجم « بالفصوص » . وهو كتاب وصلنا ، وتوجد منه مخطوطة جيدة بخزانة القرويين فى فاس .

احتفى الأندلسيون بكتاب أبى علىّ ، وقال عنه ابن حزم العظيم : « هو مبارٍ لكتاب الكامل لأبى العباس المبرد ، ولعمرى لئن كان كتاب أبى العباس أكثر نحوا وخبرا فإن كتاب أبى على أكثر لغة وشعرا ، وكتاب الفصوص لصاعد بن الحسن الربعى ، وهو جار فى مضمار الكتابين المذكورين » .

وكان موضع العناية من علمائهم شرحا وتعقيبا ، فألّف أبو عبيدة البكرى كتابه « التنبيه على أبى على القالى فى أماليه » ، وهو كتاب وصلنا ، ونشره أنطون الصلحانى فى أربعة أجزاء بمطبعة دار الكتب بالقاهرة عام ١٣٤٤ - ١٩٢٦ م وألّف عنه كتابا آخر بعنوان « شرح اللآلى على كتاب الأمالى » ، ونشره عبد العزيز الميمنى فى جزأين بمطبعة دار الكتب بالقاهرة عام ١٣٥٤ هـ = ١٩٣٦ م ، وبعد ذلك بعام نشر فى القاهرة أيضا فهارس الكتاب وتعليقاته عليه .

نشر كتاب الأمالى مع النوادر والذيل لأول مرة فى القاهرة ، فى مطبعة بولاق

---

(١) الزهراء والزاهرة مدينتان فى ضواحى قرطبة ، بنى الأولى عبد الرحمن الناصر ، وبنى الثانيه المنصور بن أبى عامر ، لمزيد من التفاصيل انظر : فون شاك ، الفن العربى فى إسبانيا وصقلية ، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٥ .

عام ١٣٢٤ هـ . وقام المستشرقان كرنكو وبيفن بعمل فهارس لأشعار هذه الطبعة ونشراها فى ليدن عام ١٩١٣ م ، ونشرته دار الكتب المصرية فى طبعة محققة جيدة عام ١٣٤٨ هـ = ١٩٢٦ م ، وأعادت الهيئة المصرية العامة للكتاب نشر طبعة دار الكتب عن طريق التصوير عام ١٩٧٦ م .

● **أمالى المرتضى** ، المتوفى عام ٤٣٦ هـ = ١٠٤٤ م وهو كتاب فى المجالس ، وعنوانه الأصلى **غرر الفوائد ودرر القلائد** ، وطبع فى القاهرة للمرة الأولى عام ١٩٠٧ م ، وأعيدت طباعته مرارا بعد ذلك ، ويتكون من ثمانين مجلسا ، يدور أكثرها حول موضوعات دينية وعقيدية ، ويتخللها شعر كثير من الجاهلية وصدر الإسلام ، ووصل إلينا فى مخطوطات كثيرة ، وحققه العالم الجليل المرحوم **محمد أبو الفضل ابراهيم** فى جزأين ونشره فى القاهرة عام ١٩٥٦م.

● **بهجة المجالس وأنس المُجالس ، لابن عبد البر الأندلسى** ، المتوفى ٤٦٣ هـ = ١٠٧١ م ، وهو كتاب ضخم ، ويتضمن شعرا من الجاهلية وصدر الإسلام ، ومن العصر العباسى ، والأندلسى بخاصة ، لشعراء ضاعت دواوين أكثرهم ، وقد طُبع محققا فى القاهرة ، وصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب ، فى مجلدين ، الأول عام ١٩٦٢ م ، والثانى عام ١٩٧٣ م .

● **أمالى ابن الشجرى** ، المتوفى ٥٤٢ هـ = ١١٤٨ م ، ويتألف من ٨٤ مجلسا ، ولايتضمن قصائد كاملة ، وإنما اقتصر على مقطعات كثيرة من شعر الجاهلية وصدر الإسلام ، ووصلنا فى مخطوطات كثيرة ، وطبع لأول مرة فى حيدر أباد عام ١٣٤٩ هـ ، ثم حققه محمد الطناحى ، ونال بعمله درجة الدكتوراه من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة ، ولما ينشر بعد .

● **أمالى ابن برى** ، المتوفى ٥٨٢ هـ ، المعروفة بعنوان **التنبيه والإيضاح** ، واشتهرت أيضا باسم **حواشى ابن برى على الصحاح** ، وأملاها فى مجالسه بالمسجد العتيق فى القاهرة ، ونشرها مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٨٠ م ، بتحقيق عبد العليم الطحاوى ومصطفى حجازى .

● أمالى ابن الحاجب ، المتوفى ٦٤٦ هـ ، وحققها محمد هاشم عبد الدايم ، ونال بها درجة الدكتوراه من كلية دار العلوم ولمّا تنشر .

● **أمالى الشهاب الخفاجي** ، المتوفى ١٠٦٩ هـ ، وتُسمى **طراز المجالس** ، وطُبعت بالمطبعة الوهبية بمصر عام ١٢٨٤ هـ .

○ **كتب النحو واللغة :**

لانعرف شيئا محدّدا عن طريقة استخدام الشعر قديما لغايات تربوية أو لغوية ، وبقى أن نفترض أن هذه العملية واكبت غيرها من عمليات التدوين فبدأت قبل النصف الثانى من القرن الثانى للهجرة ، حين كان النحويون واللغويون يلحون على الشواهد الشعرية ، يفسرون بها الغريب ، أو يوضحون الشاذ ، أو يدللون على ظاهرة لغوية معيّنة ، أو يستشهدون بها فى قواعد النحو ، ولذلك نجد أبياتا شوارد كثيرة فى كتب النحو واللغة ، وفى تراجم النحويين واللغويين ، ولدينا إشارات عن أقدم كتاب فى الشواهد ألفه **الخليل بن أحمد** ، المتوفى ١٦٠ هـ = ٧٧٧ م ، غير أن الكتاب نفسه ضاع ولما يصلنا ، ونلتقى فى « مجاز القرآن » **لأبي عبيدة** بأكثر من ألف بيت شعر من الشواهد ، وواضح أنه اعتمد فى حالات غير قليلة على مؤلفين آخرين سبقوه .

والمعاجم كلها مفيدة فى هذا الجانب ، ولكن اثنين منها يستحقان إشارة خاصة ، وهما :

● **لسان العرب لابن منظور** ، جمال الدين محمد ، المتوفى ٧١١ هـ = ١٣١١ م ، وهو معجم واسع المادة ، عظيم القدر ، جمع فيه مؤلفه ماورد فى معظم المعجمات التى ظهرت من قبله ، ذكر منها ستة كتب ، ومن ثَمَّ فهو يغنى عنها ، وهذه الكتب هى : التهذيب للأزهرى ، والمحكم لابن سيده ، والصحاح للجوهرى ، وحواشى الصحاح لابن دريد ، والنهاية لابن الأثير ، وأمالى ابن برِّى ، وبلغت مواد هذا المعجم ثمانين ألفًا ، وهو عدد لم يجتمع مثله فى أى معجم آخر لامن قبل ولامن بعد ، ورتب كلماته حسب ترتيب أواخرها فى حروف الهجاء .

وابن منظور يستطرد فى شرح المادة اللغوية على طريقة أصحاب الموسوعات فى زمانه ، يتوسع فى الاستشهاد على المعانى بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأشعار العرب وأمثالهم وخطبهم ، ومن هنا فكتابه فى الحقيقة،إلى جانب مايقدم من

لغة ونحو وصرف وأدب وأخبار وأحاديث وتفسير، مصدر لابأس به لأبيات الشعر .

طبع لسان العرب قديما فى مطبعة بولاق عام ١٣٠٧ هـ فى عشرين جزءا من الأجزاء الضخمة ، وأعادت دار المعارف بالقاهرة ترتيبه ونشره فى طبعة حديثة دقيقة ، وصدرت له فى بيروت أكثر من طبعة مصورة عن طبعة بولاق ، بغير عناية فى ترتيب الصفحات . أو محافظة على النسخ كاملة .

● **تاج العروس فى شرح جواهر القاموس للزبيدى** ، أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرازق ، الشهير بمرتضى الحسينى الزبيدى ، المتوفى ١٢٠٦ هـ = ١٧٩١ م ، وهو أصلا من زبيد فى اليمن ، وجاء القاهرة فى الثانية والعشرين من عمره يطلب العمل ، وسكن فى حى الصاغة ، وسافر إلى الصعيد ثلاث مرات ، ولقى علماءه وأدباءه ، وأعيانه وكباره ، وإلى الوجه البحرى ، ولقى الترحيب فى أى مكان حل به .

لبث الزبيدى فى تأليف معجمه أكثر من أربعة عشر عاما ، وفرغ منه فى ٢ رجب ١١٨٨ هـ ، واعتمد فى تأليفه على : لسان العرب لابن منظور ، وإضاءة الراموس وإفاضة الناموس على القاموس لأبى عبد الله بن الطيب المغربى ، وهو معجم لمّا يزل مخطوطا ، ومنه نسخة بمكتبة الازهر ، وأمالى ابن بَرّى فى ثلاثين مجلدا ، ومنه يتخذ مادة الشرح فى أغلب الأحوال ، والكتاب فى أربعة عشر مجلدا ، فإذا عرفنا أن القاموس نفسه فى أربعة مجلدات ، أدركنا مدى ماأضاف اليه الزبيدى .

والكتاب قريب فى قدره من لسان العرب لابن منظور ، واكتسب شهرة واسعة ، ونال مكانة عظيمة ، وطبعت الأجزاء الخمسة منه لأول مرة فى المطبعة الوهبية بالقاهرة عام ١٢٨٧ م ، ثم طبع كاملا فى المطبعة الخيرية بالقاهرة عام ١٣٠٧ هـ ، وأعيد نشره محققا فى طباعة جيدة فى الكويت .

* * *

أما أوضح من شرح شواهد النحو ، وقدّم من خلالها نصوصا نادرة فهو : عبد القادر البغدادى ، المتوفى عام ١٠٩٣ هـ = ١٦٨٢ م ، ورغم لقبه فقد أمضى حياته فى القاهرة ، وفيها ألّف كتبه ، ولقى الله ، ورغم قرب عهده نسبيا رجع إلى عديد من المصادر الأولى والهامة ، وأفاد منها ، وعدد كبير من مصادره

ضاع ولّما يصلنا ، مما يصور بدقة حجم الكوارث التى أتت على تراثنا الثقافى فى القرون الثلاثة التى سبقت بداية عصر النهضة فى القرن الماضى ، ويجعل من مؤلفات البغدادى مصدرا أساسيا فيها نقل عنه وأتت عليه أحداث الزمان .

ومن المفيد أن نلقى نظرة مجملة على الخطوات التى دفعت بعبد القادر البغدادى إلى تأليف كتابيه موضع اهتمامنا هنا . ذلك أن جمال الدين أبا عمر عثمان .. بن الحاجب ، المتوفى ٦٤٦ هـ = ١٢٤٩ م ، وهو من إسنا فى صعيد مصر ، ألّف فى النحو والصرف والعروض واللغة كتبا كثيرة ، تميزت بالإيجاز والدقة ، ويهمنا من بينها **الكافية** ، وهى مختصر تعليمى فى النحو ، **والشافية** ، وهى مختصر تعليمى فى الصرف ، وراج الكتابان على نحو غير معهود ، حتى أن مخطوطاتها توجد فى كل مكتبات العالم تقريبا . وطبعت الكافية لأول مرة فى روما عام ١٥٩٢ م ، وعندما عرف العالم العربى والاسلامى المطبعة راجت طبعتهما فى كل أرجائهما .

ولقى الكتابان اهتماما من الشراح لم يحظ به كتاب فى النحو قبلهما ، فعرفت « الكافية » أكثر من سبعين شرحا ، ومايقرب من خمسين حاشية على شروحها ، وثلاث مختصرات ، وثلاث منظومات ، وبين شروحها عدد لابأس به باللغتين الفارسية والتركية ، ولم تكن « الشافية » بأقل اهتماما ، وإن لم تبلغ مبلغ الأولى ، فعليها ستة وعشرون شرحًا ، وخمس حواشٍ ، وأربع منظومات ، وبين شروحها بعض بالفارسية والتركية أيضًا .

من بين شرّاح الكتابين رضى الدين الاستراباذى ، المتوفى ٦٨٦ هـ = ١٢٨٧ م ، وفرغ من شرحه للكافية فى ٦٨٣ = ١٢٨٤ م ويعتبر من أحسن شروح الكافية ، بل من أحسن كتب النحو بعامة ، طُبع لأول مرة فى استنبول عام ١٣٠٥ هـ - ١٣١٠ هـ ، ثم توالت طبعاته بعد ذلك فى القاهرة ، وطهران ، ولكنو . وكذلك شرح الشافية ، وطبع فى لكنو عام ١٢٦٢ هـ ، وطهران ودهلى ، والهند ولاهور ، والقاهرة ، على أن أحسن طبعاته تلك التى حققها وضبطها كل من : محمد نور الحسن ومحمد محيى الدين عبد الحميد ، ومحمد الزفزاف ، والاثنان الأوّلان من كبار علماء الأزهر ، والثالث من دار العلوم وكان أستاذا لى ، وهى أدق وأجود مانشر للكتاب ، وصدرت فى القاهرة عام ١٣٥٨ هـ = ١٩٣٩ م .

كانت مهمة عبد القادر البغدادى أن يشرح الشواهد التى جاءت فى شرحى

الكتابين ، وإذا كانت الشواهد قليلة ، فهى لاتتجاوز فى الشافية مثلا مئة وستة وتسعين بيتا ، إلا أن البغدادى لايقف فى شرحه للشاهد ، سواء فى الكافية أو الشافية ، عند البيت موضع الشاهد فحسب ، وإنما يتجاوزه ، فيأتى أحيانا بالقصيدة كلّها ، أو بعض أبياتها ، وبأبيات أخرى يستشهد بها على ماقال ، أو تتضمنها قصة ارتبطت بالبيت ، وهو فى هذا ينقل عن دواوين الشعراء ، وكتب الأمالى والنوادر ، والنحو ، واللغة وغيرها ، وجانب كبير منها ضاع ولم يصلنا ، كما أشرنا من قبل ، وحين يختلف العلماء حول رواية قصيدة يذكر الآراء كلها . فإذا ذكر الشاهد :

غـداةَ طَفَتْ عَلْمَاءِ بَكْرُ بنُ وائـلٍ وعاجتْ صدورُ الخيل شَطْرَ تميم

عقب عليه : « على أن أصله « على الماء » ، كما بينه . قال المبرِّد فى الكامل : يريد على الماء ، والعرب إذا التقت فى مثل هذا اللامان استجازوا حذف إحداهما استثقالا للتضعيف ، لأن مابقى دليل على ماحذف « والبيت من قصيدة عدتها اثنا عشر بيتا لأحد الخوارج ، قالها فى وقعة دولاب ، وهزموا أهل البصرة حتى غرق أكثرهم ، وعطفوا على بنى تميم فأصابوا » .

وبعد أن فسر لغويات البيت وحلله نحويا ، وبيّن معناه ، أضاف : « أقول : البيت من قصيدة أوردها المبرِّد فى قصص الخوارج من الكامل ، ونسبها لقطرى بن الفجاءة المازنى ، وهى :

لَعَمْرُكَ إنّى فى الحياةِ لزاهِدٌ وفى العيْشِ مالم ألْقَ أمَّ حكيم

وبعد أن أتى على الأبيات كلها أتبعها : « وقال : الأصبهانى فى « الأغانى » : « ذكر المبرِّد أنّ الشعر لقطرىّ بن الفجاءة ، وذكر الهيثم بن عدى وخالد بن خِداش أنه لعمرو القَنا ، وذكر وَهْب بن حبيب بن سَهْم التميمى ، وذكر أبو مِخْنَف أنه لعبيدة بن هلال اليشكرى ، وقال المدينى : هو لصالح بن عبد الله العَبْشَمى » . والله تعالى أعلم » .

حمل شرح البغدادى لشواهد شرح الكافية اسم خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، وشهر به ، وطبع فى بولاق لأول مرة عام ١٢٩٩ هـ ، ثم حققه عبد السلام هارون ، وتولت نشره الهيئة المصرية العامة للكتاب منذ عام ١٩٦٧م.

وتولت مكتبة الخانجى فى القاهرة ومكتبة دار الرفاعى فى الرياض إصدار طبعات أخرى من التحقيق نفسه .

وأمّا شرحه لشواهد شرح الشافية فقد طبع لأول مرة بالقاهرة بتحقيق محمد نور الحسن ، ومحمد الزفزاف ، ومحمد محيى الدين عبد الحميد ، فى طبعة جيدة عام ١٣٥٦ هـ وجاءت تذييلا لنشرهما شرح شافية ابن الحاجب لرضى الدين الاستراباذى ، وشغل الشرح نفسه ثلاثة أجزاء من هذه الطبعة ، وشرح شواهد الشرح للبغدادى الجزء الرابع منها . على أن **البغدادى** فى شرحه هذا لم يقف عند شرح شواهد شرح الاستراباذى ، وإنما ضم إليها أبيات شرح المحقق العلامة **أحمد ابن الحسن الجاربردى** ، المتوفى ٧٤٦ هـ = ١٣٤٥ م ، على الشافية ، وهو من أوائل الكتب العربية التى طبعت فى الهند واستنبول وطهران والقاهرة وغيرها ، وذلك استجابة لإشارة بعض الأفاضل عليه ، « لمسيس الحاجة إليها لكثرة تداولها تدريسا ومراجعة ، حتى يعم النفع ، وهى اثنان وخمسون بيتا » .

* * *

هناك كتابان هامان من كتب الشواهد لمَّا يزالا مخطوطين ، وهما :

● **كتاب أبيات الاستشهاد** ، **لأحمد بن فارس** بن زكرياء القزوينى ، المتوفى عام ٣٩٥هـ = ١٠٠٥م ، ولا يزال مخطوطا. وأهم منه كتاب:

● **الدر الفريد وبيت القصيد** ، **لمحمد بن سيف الدين أيْدَمُر** ، المتوفّى أواخر القرن السابع الهجرى ، وهو أكبر مجموعة وصلتنا تضم أبياتا مفردة ، وقطعا من قصائد ، وظلّت طويلا لايعرفها إلّا القليلون .

ويقع هذا الكتاب فى ثلاث مجلدات من القطع الكبير ، ووصلنا بخط المؤلف . وهو يحكم على الأبيات من وجهة نظر فنية خالصة . ويبدأ بفصل كبير ، وهام للغاية يتناول مسائل نظرية تتصل بالشعر ، وتعقبها أبيات من كل العصور . استخدمت فى الكتابة الزخرفية ، والغناء ، والقص ، والرواية ، وشواهد لغوية ، وبعضها مما جرى مجرى الحكم والأمثال .

والمجلد الثانى يضم وحده ٧٣٠١ بيت من الشعر، مرتبة هجائيًا وفق الكلمة الأولى من كل بيت ، وعلى الجانب الأيمن نجد اسم الشاعر ، كما نجد على الجانبين تعليقات وإضافات ، مما يجعل عدد الشواهد أكثر مما فى صلب الكتاب .

يوجد المجلد الأول والثانى من مخطوطات الكتاب فى استنبول على النحو التالى : **المجلد الأول** مكتبة فاتح ، تحت رقم ٣٧٦١ ، القسم الأول منه فى ١٦٦ ورقة ، والثانى فى ١٨١ ورقة ، وهو بخط المصنف ، وتم نسخه عام ٦٩٣ هـ . **والمجلد الثانى** فى مكتبة أسعد ، تحت رقم ٢٥٨٦ ، فى ٢٦٠ ورقة ، وهو بخط المصنف أيضا ، وفى مكتبة أيا صوفيا تحت رقم ٣٨٦٤ ، فى ٤١٥ ورقة ، تم نسخه بخط المؤلف عام ٦٩٤ هـ ، وفى سراى أحمد الثالث ، تحت رقم ٢٣٠١ ، فى ٣٨٠ ورقة ، ونسخت عام ٧٠٥ هـ بخط المؤلف نفسه . ويوجد **المجلد الثالث** فى إيران ، فى مكتبة مشهد ، فى ٢٦٧ ورقة ، وهى نسخة بخط المؤلف أيضا .

وهناك مجلد فى مكتبة إمبروزيانا فى ميلانو ، تحت رقم H C فى ٢٠٥ ورقات ، ونسخ حوالى عام ٦٨٠ هـ بخط المؤلف ، يبدأ بكلمة « بر » ، وينتهى بكلمة « فما » ، ويبدو أنه من الصياغة الأولى للكتاب .

وقد درس الدكتور **حنا جميل حداد** « شواهد النحوالشعرية : مصادرها ومناهجها » ، وجعل من الموضوع رسالته للدكتوراه ، وتقدم بها إلى كلية الآداب فى جامعة عين شمس عام ١٩٧٥م، ولمّا تزل مخطوطة ، وكسرها على قسمين ، درس فى الأول منها المناهج والمصادر ، وجمع فى الثانى كل شواهد النحو رجزا وقصيدا فبلغت ٣٨٠٠ بيت أو شاهد ، منها ٥٨٥ بيتا من الرجز ، والباقى من القصيد ، وخص المرأة منها ٤٩ بيتاً .

○ المختارات المصنفة :

منذ زمن مبكر ظهرت منتخبات شعرية تقوم على أحكام تقديرية ، وتهدف إلى جمع القصائد ذات النوع الواحد ، أو الإلهام المتشابه ، وتتخذ لها شكلا معينا تدير حوله اختيارها ، قد يكون فنيا ، أو اجتماعيا ، أو موضوعيا ، أو طبقا لواقع الشاعر نفسه ، عملا ، أو قدرة ، أو هواية ، أو مكانة ، أو نوعًا ، أو اسما ، أو حتى لمجرد صدفة عابرة . وبعض هذه الكتب ضاع ، ولا نعرف عنها إلّا عناوينها ، مثل طبقات الفرسان أو « كتاب الموالى » ، ولكن يمكن أن نكوّن فكرة عما لم يصل فى ضوء ماوصل .

كان أبو عبيدة معمر بن المثنى مبرزا فى هذا الجانب ، **فألّف** « كتاب لصوص

العرب » ، أو الصعاليك ، و « كتاب الموالى » ، « وكتاب العققة والبررة » ، وهو الوحيد الذى وصلنا منها ، وحققه عبد السلام هارون فى نوادر المخطوطات ، الجزء الثانى ، وصدر عن مكتبة الخانجى فى القاهرة .

ورغم أننا لم نعثر حتى الآن على كتابى أبى عبيدة « لصوص العرب » و « الحرّاب » ، ولا على كتاب شعراء اللصوص للقيط المحاربى ، ولا « أشعار الشراة لعمر بن شبة ، فإننا نستطيع تكوين فكرة تقريبية عنها ، مما أورده السكرى فى كتابه « أخبار اللصوص » ، وصنفه فى أشعار البدو المشهورين باللصوصية ، ومكانتهم فى قبائلهم ، ويضم كتاب السكرى ديوان طهمان بن عمر الكلابى ، ويعرف بطهمان اللص ، وعاش فى النصف الأول الهجرى ، وله أخبار قليلة تدور حول مغامراته لصا ، وقاطع طريق فى اليمن واليمامة ، وعاصر عبد الملك بن مروان ، وكانت قصيدته إلى الوليد بن عبد الملك آخر ماعرف عنه .

وديوان طهمان صغير ، فى خمس عشرة قصيدة ، وله شرح حديث يوجد مخطوطا فى دار الكتب المصرية ، قام به محمد العطار المصرى ، بعنوان : « كشف المعانى والبيان فى شرح ديوان طهمان » ، فى ٩١ ورقة ، ويرجع تاريخ نسخه إلى عام ١٣١١ هـ ، واعتمد شارحه على طبعة و .دايت فى مجلة Opuscula Arabica عام ١٨٥٩ م ، وكان آلورد قد نشر الديوان قبله عام ١٨٥٠ ، اعتمادا على مخطوطة توجد فى مكتبة ليدن .

وأخيرا قام محمد جبار المعيبد بتحقيق الديوان ، وظهر فى بغداد عام ١٩٦٨ ، وأضاف إلى ما أورده السكرى أبياتا التقطها من كتب الأدب والمعاجم ، بينها قصيدة من ٣٢ بيتا ، وجدها فى كتاب « منتهى الطلب » الذى أشرنا إليه فيما سبق .

○ أشعار النساء :

بدأ التأليف عن النساء فى زمن مبكر جدا ، وأغلب هذه المؤلفات ضاع ولم يصلنا ، ويمكن القول أن هذا التأليف كان يسير فى اتجاهين ، عُنى أحدهما بأشعار النساء فحسب ، وعُنى الآخر بأخبارهن ، وتجىء مختلطة بالشعر أيضا . وقد

ضاعت أغلب الكتب المتصلة بالجانب الأخير ، فلم يصلنا « كتاب المعرفات من النساء فى قريش » لهشام بن الكلبى ، المتوفى ٢٠٦ هـ = ٨٢١ م ، ولا « كتاب الحرات » ولا « كتاب النوائح » لأبى عبيدة ، ولا « كتاب النساء والغزل » لابن قتيبة ، ولا « كتاب أخبار النساء » لهارون بن على بن يحيى المنجم ، المتوفى ٢٨٨ هـ = ٩٠١ م ، ولا « كتاب النساء والغزل » لمحمد بن خلف بن المرزبان ، المتوفى ٣٠٩ هـ = ٩٢١م ، ولا « كتاب الإماء الشواعر » لأبى الفرج الأصفهانى(*)، ولا « أخبار النساء » لأسامة بن منقذ ، المتوفى ٥٨٤ هـ = ١١٨٨ م ولا « كتاب النساء الشواعر » لناجى بن عبد الواحد بن الطراح ، وكان حيا عام ٧٢٠ هـ = ١٣٢٠ م .

ووصلنا من هذا الاتجاه كتابان ، ألف الأول أبو طالب على بن أنجب بن **الساعى** المتوفى ٦٧٤ هـ = ١٢٧٥ م ، بعنوان : « جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء » ، فى مخطوطة وحيدة ، توجد ضمن مجموع ، فى مكتبة ولى الدين فى استنبول ، وحققه **مصطفى جواد** ونشره فى القاهرة دون تاريخ ، ويمكن أن يكون حول عام ١٩٦٠م، بعنوان : « نساء الخلفاء » .

والثانى من تأليف جلال الدين **السيوطى** ، المتوفى ٩١١ هـ = ١٥٠٥ م بعنوان : « المستظرف من أخبار الجوارى » ، وحققه صلاح المنجد فى بيروت عام ١٩٦٣م.

ويمكن أن نقول الشىء نفسه عن كتب الاتجاه الأول ، وهى التى وقفها مؤلفوها على الأشعار ، أو كانت هذه تمثل عندهم الغاية الأولى على الأقل ، فقد ضاع كتاب محمد بن عبيد الله بن عمر **العتبى** ، المتوفى ٢٢٨ هـ = ٨٤٢ م عن « أشعار النساء اللائى أحببن ثم أبغضن » مع بقية كتبه التى ضاعت ، ولم يصلنا كتاب **المفجّع** البصرى ، المتوفى ٣٢٧ هـ= ٩٣٩ م ، وكان كاتبا ونحويا وأديبا وشاعرا معروفًا وتلميذا لثعلب ، ولا « كتاب أشعار الإماء والمماليك » لأبى الفرج الأصفهانى ، ووصلنا منه :

● **بلاغات النساء لأحمد بن أبى طاهر طيفور** ، المتوفى ٢٨٠ هـ = ٨٩٣ م ، وكان أول أمره مؤدِّب كُتّاب عاديًّا ، ثم تخصّص ناسخًا فى سوق الوراقين ، وتحول

(*) حققه الدكتوران نورى حمودى القيسى ويونس أحمد السامرائى - عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية - بيروت - ط١ - ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م، وصححا نسبته إلى أبى الفرج الأصفهانى.

إلى العلم أخيرا ، فألّف كتبا كثيرة ، وأصبح معروفا ، ومن بين مؤلفاته « اختيار المنظوم والمنثور » فى ثلاثة عشر جزءا ، وصلنا منها الحادى عشر والثانى عشر فى مخطوطة المتحف البريطانى ، فى ١٥٦ ورقة ، ونُسخت عام ١٠٩٢ هـ ، وثمة نسخة فى المدينة المنورة تضم الأجزاء الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر ، وتوجد فى دار الكتب المصرية نسخة من هذه الأجزاء الثلاثة ، تحت رقم ٥٨١ أدب ، فى ٢٣٨ ورقة ، نسخها عن مخطوطة المدينة محمد على بن عثمان الردوسى الحسنى عام ١٢٩٧ هـ ، ويهمنا من بين هذه الأجزاء الجزء الحادى عشر لأنه خصصه فى بلاغات النساء وجواباتهن وطرائف كلامهن ، وأخبار ذوات الرأى منهن ، ويضم معظم ماقالته المرأة شعرا ونثرا فى العصور التى سبقته ، منذ الجاهلية إلى أيامه ، وتضمن ٩٢ قصيدة أو مقطوعة للنساء ، إلى جانب النثر بدأها بأقوال الصحابيات ، ثم نساء خلفاء بنى أمية وغيرهن ، ومنازعات الأزواج فى المدح والذم ، وبلاغات النساء ومقاماتهن وأشعارهن ، وأخبار ذوات الرأى والجزالة منهن ، ونوادرهن ، وجواباتهن ، وصرّح بأن أشعار النساء فى كل فن ، للجاهليات والإسلاميات والمحدثات من الحرائر والإماء ، وقد نشر **أحمد الألفى** هذا الجزء بعنوان « بلاغات النساء » فى القاهرة عام ١٣٢٦ هـ = ١٩٠٨ م دون أن يشير إلى المخطوطة التى اعتمد عليها ، وفى العام نفسه طبع فى النجف بالعراق ، ثم طبع بالقاهرة ثانية عام ١٣٦١ هـ = ١٩٤٢م(*)،والكتاب فيما أرى قمين بأن يحقق على نحو علمى لما يحتوى عليه من نصوص أدبية لاتوجد فى مصادر غيره .

● **أشعار النساء لمحمد بن عمران المرزبانى** ، المتوفى ٣٨٤ هـ = ٩٩٣ م ، وهو كبير الحجم ، وأفضل من سابقه فى شعر المرأة،ويوشك أن يكون ديوان شعر لكثير من الشواعر المجهولات ، وذكر ياقوت الحموى أنه فى نحو ست مئة ورقة ، وكان فى ستة أجزاء ، لم يصلنا منها إلا نصف الجزء الثالث ، ويضم ١٢٨ نصا شعريا ، وتراجم لثمان وثلاثين شاعرة ، لاتذكر لهن الكتب المطبوعة أية أخبار ، وانفرد بمجموعة من أشعار النساء الخارجيات وأخريات غيرهن ، وصنف مختاراته تصنيفا قبليا ، فوزع الشاعرات وفقا لقبائلهن ، وأشار إلى الفروق التى بين الروايات المختلفة أحيانًا ، وفسر بعض الكلمات الغريبة فى بعض المواضع وتفاوتت تراجمه للشاعرات بحسب أهميتهن . وقد حقق هذاالجزء سامى مكى

(*) كما صدر عن «انتشارات الشريف الرضى» - بمدينة قم المقدسة - بإيران - د.ت وذلك نقلا عن نشرة أحمد الألفى

العانى وهلال ناجى ، ونشراه فى بغداد عام ١٣٩٦ هـ = ١٩٧٦ م .

● **ريّ الظما فيمن قال الشعر من الإما ، لابن الجوزى** ، أبو الفرج عبد الرحمن المتوفى ٥٩٧ هـ = ١٢٠٠ م ، وهو فقيه حنبلى ، وواعظ ، وكاتب فى التاريخ العام ، وتناولت مؤلفاته جميع علوم عصره ، وكان له أعظم الأثر فى الوعظ والإرشاد ، وكتابه الذى معنا جمع فيه ماوقع إليه من أخبار الإماء فى الدولتين الأموية والعباسية ، وتضمن شعر ثلاثين شاعرة من مشاهير الجوارى ، أمثال عنان وسكن وبدعة وعريب وجلنار ومها ومحبوبة ، وغيرهن الجوارى ، وترك هذا الكتاب أثره فى بقية مؤلفات ابن الجوزى ، فلم يعرض فيها لشعر النساء ، إلا النزر اليسير ، مكتفيا به ، مثل كتابه « ذم الهوى » ، وهو مرجع ضخم ، ومكان طبيعى لأخبار النساء مع الرجال ، ورغم هذا لم يضمنه من أشعار النساء غير ستة عشر نصا ، بعضها للحرائر والآخر لشاعرات من الإماء .

والكتاب لم يزل مخطوطا لمّا ينشر أو يحقق . ولابن الجوزى كتاب آخر عن « أخبار النساء » لايقف عند الشواعر منهن فحسب ، وقد حققه وشرحه الدكتور نزار رضا ، ونشره فى بيروت عام ١٩٧٣ م

● **الحدائق الغنّاء فى أخبار النساء ، لأبى الحسن على بن محمد المعافرى المالقى** ، المتوفى ٦٠٥ هـ = ١٢٠٨ م ، تضمنت تراجم شهيرات النساء فى صدر الإسلام . ومخطوطه يضم أحد عشر جزءا ، حققت منه الدكتورة **عائدة الطيبى** الأجزاء الثالث حتى التاسع فقط ، وتركت الأول والثانى والعاشر والحادى عشر ، لأن هذه الأجزاء الأربعة تتناول ، فيما ترى ، أخبار المرأة منذ بدء الخليقة ، أما الأجزاء السبعة الأخرى فتتعلق بشهيرات النساء فى صدر الإسلام ، ويبلغ عدد النساء المذكورات فى فهارس الأجزاء تسعا وعشرين امرأة لهن صلة برجال مشهورين ، منهن ثمانى مغنيات جوار ، ويتمتعن بشىء من الموهبة الشعرية ، وليس ثمة صلة مشتركة بين المذكورات فى كل جزء . ومن الشواعر اللائى ذكرهن : نائلة بنت الفرافضة ، وأم البراء ، وهوى ، وأم حكيم ، وأم سلمة ، وأم سنان ، وعزة ، وفاطمة بنت الحسين ، وليلى الأخيلية ، وغيرهن . وذكر لكل منهن شعرا ، وقد نشرت الكتاب الدار العربية للكتاب فى ليبيا بلا تاريخ .

● نزهة الجلساء فى أشعار النساء للسيوطى ، وحققه صلاح المنجد ، ونشره فى بيروت عام ١٩٥٨م.

○ ألوان أخرى :

وهناك من كتب عن شعراء كل مايجمع بينهم الاتفاق فى الاسم أو الكنية أو اللقب أو العاهة أو ظروف الحياة ، فكتب ابن الأعرابى المتوفى ٢٣٠ هـ = ٨٤٥ م ، « كتاب من نسب من الشعراء إلى أمه » ، ويضم خمسين شاعرا ينسبون إلى أمهاتهم ، وألّف ابن حبيب ، المتوفى ٢٤٥ هـ = ٨٦٠ م ، كتابا فى الموضوع ذاته وبالعنوان نفسه ، و« كتاب المغتالين من الأشراف فى الجاهلية والإسلام وأسماء من قتل من الشعراء » و« كتاب كنى الشعراء ومن غلبت كنيته على اسمه » ، وكل هذه الكتب وصلتنا ، ونُشرت محققة .

وألّف الجاحظ كتابا عمن يُسمى عمرًا من الشعراء ، ضاع ولم يصلنا ، وبالعنوان نفسه ألّف ابن الجرّاح ، المتوفى عام ٢٩٦ هـ = ٩٠٨ م ، « كتاب من اسمه عمرو من الشعراء فى الجاهلية والإسلام » ، أتى فيه على الشعراء الذين يحملون هذا الاسم من الجاهلية حتى زمنه، وأورد فيه أسماء الشعراء على أساس قبائلهم، وعددهم خمسة شعراء ومئتين، منهم ٧٨ من مضر، و٥١ من ربيعة، و٧٦ من اليمن ، ورتبهم فى نطاق قبائلهم تاريخيا ، فبدأ بالجاهليين ، فالمخضرمين ، فالإسلاميين والأمويين ، فالعباسيين . والكتاب لمايزل مخطوطا . وتوجد مخطوطته فى مكتبة جامع فاتح فى استنبول ، فى تركيا ، تحت رقم ٥٣٠٦ / ٢ ، فى مجموع ، من الورقة ٢٢ إلى ٦٩ ، ونسخت عام ٦١٤ هـ = ١٢١٧ م ، ومنه نسخة حديثة فى دار الكتب المصرية ، وقد نشر المستشرق الألمانى بروى Brau قسما منه فى بحث له بعنوان : « التقسيم القديم للشعراء العرب وكتاب من اسمه عمرو لابن الجراح » ، ونشره فى عامى ١٩٢٧ و١٩٢٨م.

وألف القفطى ، المتوفى عام ٦٤٦ هـ = ١٢٤٨م « المحمدون من الشعراء وأشعارهم » ، جمع فيه ثلاث مئة ترجمة لمن اسمه محمد من الشعراء ، من الجاهلية حتى أيامه ، ورتبه على حروف المعجم بالنسبة إلى آبائهم ، وتتفاوت تراجمه طولا وقصرا بحسب المادة المتاحة له ، من المصادر التى ينقل عنه . وما وصلنا من كتابه

ينتهى عند حرف السين بالنسبة للأب ، ولانعرف ما إذا كان المؤلف نفسه توقف عند هذا الحرف ، أم أن بقية الكتاب ضاعت ، وما وصلنا حققه رياض عبد الحميد مراد ، ونشره المجمع العلمى فى دمشق عام ١٩٧٥ م .

وألّف أبو حاتم السجستانى، المتوفى تقريبا عام ٢٥٠هـ = ٨٦٤م «كتاب المعمرين » ، تناول فيه من عمر من الشعراء ، ونشره جولد تسيهر فى ليدن عام ١٨٩٩ م ، ونشر ثانية بالقاهرة عام ١٣٢٣ هـ = ١٩٠٥ م ، وحقق أخيرا .

* * *

وهناك مَن اتخذ مِن المعانى محور تأليفه ، فهو يجمع من الشعر ماقيل حول موضوع واحد ، فألّف على بن حمزة الكسائى ، المتوفى ١٥٦ هـ = ٧٧٣ م ، « أشعار المعاياة وطرائقها » ، والأصمعىّ « كتاب الأراجيز » ، وعلى بن محمد المدائنى « كتاب التعازى » ، والمبرد « التعازى والمراثى » ، وابن المعتز « مكاتبات الإخوان بالشعر » .

واشتهر الأندلسيون بهذا اللون من التأليف ، وبعض هذه المؤلفات لمّا نعثر عليه ، وبعضها وصلنا ، ومن هذه « كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس » . تأليف ابن الكتانى الطبيب ، المتوفى قريبا من ٤٢٠ هـ = ١٠٢٨ م ، وتوجد مخطوطته فى مجموعة إسماعيل صائب فى مكتبة كلية اللغة والتاريخ والجغرافيا فى أنقرة ، ويضم مقطوعات لواحد وتسعين شاعرا ، ويتضمن الكتاب ستة وستين بابا ، تناول فى كل واحد منها موضوعًا محدّدا ، وفيه نصوص لانجدها فى أى مصدر أندلسى آخر ، كالمقطوعات التى اختارها للشاعر الطليق المراونى ، فما أورده له يعدل ماوجدناه للشاعر فى كل المصادر الأندلسية الأخرى مجتمعة[1] . وقد نشرت دار الثقافة فى بيروت الكتاب عام ١٩٦٦م، ولكن فى طبعة تجارية سيئة ، ومن ثم فهو يحتاج إلى إعادة تحقيق .

وهناك كتاب « البديع فى وصف الربيع » تأليف أبى الوليد الحميرى ، المتوفى قريبا من ٤٤٠ هـ = ١٠٤٨م ، وهو أندلسى من إشبيلية ، وأراد بكتابه هذا أن

---

(١) لتكوين فكرة كاملة عن الشاعر وديوانه ، انظر : مع شعراء الأندلس والمتنبى ، الفصل الخاص بالشاعر الطليق وديوانه . ترجمة د . الطاهر أحمد مكى الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٥م.

يبرهن على روعة الشعر الأندلسى وخصوبته وتنوعه ، فاقتصر فيه على شعراء الأندلس ، وعلى الذين من إشبيلية بخاصة ، لأنها مسقط رأسه ، وجعل الربيع وما فيه من نور وزهور محور مقطوعاته، ورغم أنه ألف الكتاب شابا فقد التزم فى اختياره وتنظيم مواده منهجا نقديا صارما ، أورده فى المقدمة ، والتزمه فى التطبيق ، وقد نشر هنرى بيرس الكتاب عن مخطوطة وحيدة فى الإسكوريال ، وصدر فى باريس عام ١٣٥٩ هـ = ١٩٤٠ م .

وحول الصراع القبلى دارت مؤلفات مفيدة ، تجيء فيها الأشعار عرضا ، وأحيانا يتخذ المؤلفون من الأشعار أساسا يبنون عليه القصص والحكايات ، وحتى الأحداث والوقائع ، ويتجلى ذلك واضحا فى الكتب التى عُنيت بأيام العرب ، ومناقبها ومثالبها ، وبعضها قديم يرجع إلى القرن الأول الهجرى ، وكثير منها ضاع ، أو نعرف عناوينه فحسب ، مثل : « كتاب المثالب » ، تأليف **زياد بن أبيه** ، المتوفى ٥٣ هـ = ٦٧٣ م، و« المآثر والمنافرات » ، تأليف **خالد بن طليق الخزاعى** ، المتوفى ١٦٦ هـ = ٧٨٢ م ، و « مثالب العرب » ، من عمل **هشام الكلبى** ، وهو كتاب وصلنا . وأورد ابن النديم فى كتابه الفهرست طائفة كبيرة من هذه المؤلفات يمكن الرجوع إليها فى الفصل الخاص به من الكتاب .

وأشهر هذا اللون من المؤلفات **كتب النقائض** ، وهى التى ترصد الهجاء المتبادل بين الشعراء ، وتضم أيضا مدح الشاعر لقبيلته ، مسجلا بطولاتها ومناقبها ، ونلتقى بهذا اللون من الشعر فى المؤلفات المبكرة التى تحدثت عن أيام العرب ، وفى دواوين القبائل ، أو مفردة أوقفها مؤلفوها على هذا اللون ، ومن هذا الأخير : « نقائض جرير والأخطل » لأبى عمرو الشيبانى ، و « نقائض جرير والفرزدق » لأبى عبيدة .

○ كتب الطبقات :

التقسيم إلى طبقات أقدم ماعرف الفكر الإسلامى ، وعُنى به « أناس يرجعون إلى طبقة ، أو صنف ، فى تعاقب زمنى جيلا بعد جيل ، أو يتشابهون فى سن أو عهد». وهو ابتداع عربى أصيل، جاء تطورا طبيعيا لفكرة صحابة رسول الله ﷺ، حين ارتبطت هذه مع نقد الإسناد فى علم الحديث ، واستُعملت فى البدء لترجمة

الشخصيات الهامة فى نقل السُّنة ، ثم فى تصنيف أنواع الرجال وبخاصة العلماء ، وأخيرا فى تصنيف الأحداث كما هو الحال فى تاريخ الإسلام للذهبى مثلا . وهو منهج لاصلة له بطريقة الترتيب تبعا للسنين ، التى كانت مألوفة فى تقاليد التراجم الإغريقية ، ودخلت الفكر العربى فى زمن متأخر مع شيوع الترجمة ، ولا باستعمال الكلمة قديما فى وصف الدول الفارسية الأربع المتعاقبة .

وطبيعى أن يترك هذا أثره فى الأدب وتأريخه ، فبعد أن دوّن العلماء دواوين القبائل ، وأيام العرب ، وأنسابها ، وأخبارها ، ومثالبها ، وأخبار الشعراء منفردين ، بدأ التأليف عن الشعراء جملة ، فكان كتاب الأغانى ليونس الكاتب يضم ثمانية وثلاثين مغنيا ، أخبارهم وأغانيهم ، وهو أقدم كتاب نعرفه من هذا النوع ، وسوف يحتذيه أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه الذى حمل الاسم نفسه ، وسار على هديه ، وكان كتاب يونس فى الجانب الأدبى يوازى فى الجانب العقيدى كتاب واصل بن عطاء المعتزلى ، المتوفى ١٣١ هـ = ٧٤٨ م ، الذى حمل اسم « طبقات أهل العلم والجهل » .

ومنذ منتصف القرن الثانى للهجرة بدأ التأليف فى كتب الطبقات الجامعة يسير جنبا إلى جنب مع التأليف عن حياة الشعراء وجمع أشعارهم منفردين ، واضطلع بتأليف كتب الطبقات عدد من كبار العلماء ، وجامعى اللغة ، أمثال : هشام بن الكلبى ، وأبى عبيدة ، والأصمعى ، ودعبل الخزاعى ، والجاحظ ، وعمر بن شبة ، وآخرون ، وقد ضاع جانب كبير من هذه المؤلفات ، ولكن بعضا قليلا منها وصلنا ، وكان تحقيق جلة من العلماء ، مثل كتاب طبقات فحول الشعراء ، والشعر والشعراء ، والأغانى ، وسوف نخص كل واحد منها ، وغيرها من الكتب التى عنيت بالتأريخ للشعر والنثر والحياة الأدبية بدراسة مفصلة تلى هذه السطور .

طبقات فحول الشعراء
لابن سلام الجمحى

أبو عبد الله محمد بن سلام بن عبيد الله بن سلام الجمحىّ ، مولى قدامة بن مظعون الجمحىّ ، فهو جمحىّ بالولاء . ولُد بالبصرة عام ١٣٩ هـ = ٧٥٦ م ، وعاش حياته فى بغداد ، وتوفى بها عن قريب من تسعين عامًا ، فى السنة التى مات فيها الخليفة الواثق وبويع للمتوكل ، عام ٢٣٢ هـ = ٨٤٧ م . وكانت نشأته فى بيت علم وثقافة ، فأبوه راوية أدب ، روى عنه ابنه فى مواضع كثيرة من كتابه ، وأخوه عبد الرحمن من رواة الحديث ، وكان رجاله يوثقون الاثنين : عبد الرحمن المحدّث ، ومحمدا المؤرّخ .

درس ابن سلام على جلة من شيوخ الأدب واللغة فى عصره ، ويتجاوز عدد من سمع لهم ، وروى عنهم سبعين شيخا ، من بينهم أبان بن عثمان ، وعبد الملك الأصمعى ، وخلف الأحمر ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى ، ومعاوية بن أبى عمرو بن العلاء ، والمفضل الضبى ، ويونس بن حبيب ، وآخرون كثيرون .

وحظى ابن سلام بين معاصريه بمكانة رفيعة ، وكان موضع إجلال الناس جميعًا . نقل ياقوت الحموى ، عن الحسين بن فهم ، أن محمد بن سلام قدم عليهم سنة ٢٢٢ هـ = ٨٣٧ م ، وقد تجاوز الثمانين من عمره ، فاعتل علة شديدة ، فما تخلّف عنه أحد ، وأهدى له الأجلّاءُ أطباءهم ، فكان ابن ماسويه من جملة من أُهدى إليه ، فلما جسه ونظر إليه قال له : « لا أرى بك من العلّة ماأرى بك من الجزع » ، فقال : « والله ماذاك على الدنيا مع اثنتين وثمانين ، ولكن الإنسان فى غفلة حتى يوقظ بعلة » . فقال ابن ماسويه : « لاتجزع ، فقد رأيت فى عرقك من الحرارة الغريزية ، ما إنْ سلمت من العوارض ، بلّغك عشر سنين » . قال ابن فهَم : « فوافق كلامه قدرًا ، وعاش محمد بن سلام بعد ذلك عشر سنين » .

وروى عنه من كبار علماء عصره أحمد بن حنبل ، وابنه عبد الله ، وأحمد بن يحيى ثعلب ، والمازنى ، والرياشى ، والزياد ، ويحيى بن معين . وأبو بكر بن

أبى خيثمة ، وابن أخته أبو خليفة الجمحى وسنخصه بحديث خاص .

أورد ابن النديم فى كتابه الفهرست ثبتًا بأسماء الكتب التى ألفها ابن سلام ، وهى : كتاب الفاصل فى ملح الأخبار والأشعار[١] ، وكتاب بيوتات العرب ، وكتاب طبقات الشعراء الجاهليين ، وكتاب طبقات الشعراء الإسلاميين ، وكتاب الحلاب وأجر الخيل (لعله وأجراء الخيل) . وقال ياقوت فى « معجم الأدباء » وألّف كتابًا فى (طبقات الشعر) ، وله « غريب القرآن » . ويفهم من رواية لأبى على القالى ، فى كتابه (الأمالى) أن له مؤلفًا آخر اسمه : (كتاب طبقات العلماء) ويظن بروكلمان أن ابن سلام ألف كتابا آخر فى طبقات (فرسان الشعراء) .

تُرى هل ألف ابن سلام كل هذه الكتب ؟ أم أن بعضها كان فصولا كبيرة من كتاب ، أو أجزاء متسعة له ، ثم أطلق المؤرخون على الكتاب الواحد فى كل مرّة بعض مايتناوله من أقسام ، أو يعالجه من دراسات ؟

الواقع أن بعض هذه الكتب ينفرد بموضوع معين ، فلا سبيل إلى القول بأنها مسميات متعددة لكتاب واحد ، وبعضها الآخر يغلب على الظن غلبة تكاد تصبح يقينا ، أنها أسماء لكتاب واحد ، يرد كل اسم منها فى مصدر ، دون أن يعنى ذلك أنها كتبت مستقلة ، ومن ثم فنحن نرجح أن طبقات الشعراء الجاهليين ، وطبقات الشعراء الإسلاميين وطبقات الشعراء ، هى مسميات مختلفة لكتاب واحد ، هو طبقات الشعراء ، أو طبقات فحول الشعراء ، على نحو ماسنعرض له بعد قليل ، وأما رواية أبى على القالى ، فيرجح الأستاذ محمود محمد شاكر أنها : « وهم من أبى على ، وإنما عنى صدر كتاب « طبقات فحول الشعراء » حيث ذكر علماء العربية ، ولم أجد للكتاب الذى سمّاه أبو على ذكرا فى كتب ابن سلّام[٢] .

عُرِف كتاب ابن سلام فى أكثر الكتب والتراجم باسم « طبقات الشعراء » ، اعتمادا على روايتى ابن النديم وياقوت ، وحملت هذا الاسم كل مطبوعاته فى عصرنا الحديث ، أوربية أو مصرية ، ولم يطبع فى غير مصر من العالم العربى ، فلما أخذ الأستاذ محمود شاكر فى تحقيقه ونشره ، معتمدا على مخطوطة تهيأت له ولم

---

(١) يظن الأستاذ محمود شاكر ، محقق وشارح « طبقات فحول الشعراء » أنها « الفاضل » .

(٢) مقدمة كتاب « طبقات فحول الشعراء » بشرح محمود شاكر ، ص ١٤ .

تتيسر لغيره ، وعالج فى مقدمة التحقيق ما اتصل بالكتاب من قضايا ومشكلات ، آثر أن يسميه « طبقات فحول الشعراء » وأن يجعلها له عنوانًا ، ولم تكن عرفت قبله ، لأسباب ارتآها .

« أولها : أن اسم « طبقات الشعراء » لايطابق موضوع كتاب ابن سلام كل المطابقة ، فإنه لم يستوف فيه ذكر « الشعراء » بل اختار منهم عددا معلوما .. والذى أغفله من كبار الشعراء أضعاف أضعاف ما ذكر . وإذن فاسم « طبقات الشعراء » ثوب فضفاض لايطابق مافى كتابه » .

« ثانيها : أنى رأيت ابن سلام قد أوجدنا اللفظ المطابق لمعنى ماأراد فى كتابه ، فهو يقول : « فاقتصرنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعرا » وهذه كلمة دالة ، وهى مطابقة لما فعل ، فإنه وازن بين الشعراء ، « فألف من تشابه شعره منهم إلى نظرائه » ونزَّلهم منازلهم ، ثم اقتصر « بعد الفحص والنظر والرواية عمن مضى من أهل العلم ، إلى رَهط أربعة ، على أنهم أشعر العرب طبقة » فرأيت أن تسمية الكتاب باسم « طبقات فحول الشعراء » أولى وأدل من تسميته « طبقات الشعراء » .

« ثالثها : أنى رأيت أبا الفرج الأصفهانى ، قد أوجدنا هذه الكلمة فى موضعين من كتابه ، أحدهما فى ترجمة المخبل السعدى إذ يقول : « وذكره ابن سلام فى الطبقة الخامسة من فحول الشعراء »[1] . والآخر فى ترجمة عبيد بن الأبرص إذ يقول : « وجعله ابن سلام فى الطبقة الرابعة من فحول الجاهلية »[2] .

فهاتان ، وكلمة ابن سلام ، تدلُّ جميعًا على كتاب ابن سلام دلالة أحسن من دلالة « طبقات الشعراء » .

و« آخرها : أنى رأيتُ على نسختى التى نقلتها بيدى هذا العنوان : « طبقات فحول الشعراء » ، فلست أدرى بعد هذا الزمن الطويل (زمن نسخها عام ١٩٢٥م ونشرها عام ١٩٥٢م) : أكانت هذه الكلمة فى الأم العتيقة ، ثم نقلتها كما هى ، أم ترانى كتبتها من عندى ؟ وأنا أرجح الأول ، لأنى كنتُ يومئذ صغيرًا لم أتجاوز

---

(١) الأغانى ، جـ ١٢ ص ٣٨ ، طبعة ساسى .

(٢) المصدر السابق ، جـ ١٩ ص ٨٤ ، طبعة ساسى .

السابعة عشرة من عمرى ، ولأنى كنت يومئذ فى أول الطلب ، وأجهل من أن أنظر نظرًا صحيحًا فى مثل هذا الأمر الدقيق ، المحتاج إلى التمييز والبصر » .

« فمن أجل هذا ، لم أتردد - أى الأستاذ محمود شاكر - فى جعل اسم الكتاب « طبقات فحول الشعراء » ، فإن كان هو الاسم القديم الذى سمى به ابن سلام كتابه ، فذاك ، وإلا فإنى أراه بعد ذلك كله أولى بأن يكون اسما للكتاب ، دون الاسم الذى عُرِف به ، وأستغفر الله إن كنت قد أسأت »[1] .

تلك هى وجهة نظر الأستاذ المحقق ، أو ردناها بنصها تقريبًا ، بسطا وتفصيلا ، والأمر قبل ذلك ومن بعده ، يمس قضية خطيرة : إلى أىّ حد يحق لناشر الكتاب ، ومقوّم نصه ، أن يعطيه الاسم الذى يراه أوفق ، مهما يكن المنطق الذى يتسلح به ، مادامت الرواية التى بين أيدينا تجافيه ؟

كان هذا الاتجاه من قارئ الكتاب وشارحه فى تعديل عنوان الكتاب ، وإضافة نصوص من كتاب الأغانى إليه ، رآها منه ، ولم ترد فيها بين أيدينا من مخطوطات مثار جدل عنيف بينه وبين عدد من الباحثين . والحجة التى اعتمد عليها معارضوه أنْ ليس من حقه أن يغير عنوان الكتاب مادام لاتحمله أية مخطوطة بين أيدينا له ، مهما كانت استنتاجاته ودلائله ، لأن الأمر لايخضع للمنطق والاستنتاج ، وإنما لِما سمّى به ابن سلام كتابه مهما تكن التسمية .

وكان ردّ العالم الجليل أنه لم يغيِّر ، وإنما عدل عن اسم مشهور إلى اسم مكتوب على المخطوطة العتيقة التى كتبت فى سنة ٣١٠ من الهجرة ، أو قبل ذلك بقليل ، وهى تعد من أقدم المخطوطات العربية الموجودة الآن فى دور الكتب ، وكان قد التقى بها فتىً فى أول حياته العلمية ، واعتمد عليها فى التغيير ، إلى جانب ماساق من حجج أخرى ، ثم افتقدها ، وبعد زمن جاءه خبرها ، وأنها استقرت فى مكتبة تشستربيتى فى دبلن عاصمة إيرلندا ، فلما أرسل فى طلب مصوّرها ، وجدها هى نفسها ، عليها توقيعه ، وإشاراته ، وتصويباته ، وتحمل عنوان : « طبقات فحول الشعراء » .

أما إضافته إلى كتاب طبقات فحول الشعراء ماوجده فى كتاب الأغانى من

---

(١) مقدمة « طبقات فحول الشعراء » ص ٣٤ و ٣٥ .

نقول لم تتضمنها المخطوطات التى وصلتنا، لأن إحداها ناقصة، والأخرى مختصرة، وأن النسخة التى كانت بين يدى أبى الفرج الأصفهانى من الكتاب أتم ، فهو يرى أن « الأخبار المتفرقة فى كتاب الأغانى تعد مجتمعة ، أوراقا مبعثرة من نسخة أبى الفرج التى لم تصل إلينا ، فما كان من الأخبار فى هذه الأوراق مطابقا لما فى النسختين المخطوطتين عندنا ، فهو منها بالمطابقة ، وما كان منها غير موجود فى المخطوطة المختصرة « م » فهو من الطبقات أيضا ، وما كان زائدا على « المخطوطة » وعلى « م » معا ، فهو زيادة فى نسخة أبى الفرج » .

وقد جمع الأستاذ محمود شاكر كل هذا الحوار ، ماوجه إليه من نقد ، ومارد به على ناقديه ، فى دراسة تجاوزت النقد والرد ، إلى تبيان منهجه فى دراسة الكتب العربية ، وعمله فى كتاب الطبقات ، وتوضيح معنى أصول الكتب المخطوطة ، ومعنى « الإجازة » و « المكاتبة » و « الوجادة » ، عند علماء الرواية ، ونشر كل هذا فى كتاب مستقل أعطاه عنوانا **برنامج طبقات فحول الشعراء** وصدرت طبعته الأولى عام ١٩٨٠م، وبذلك ربحت المكتبة العربية لونا من الحوار العلمى الجاد والساخن والمفيد ، افتقدناه طويلا ، منذ أصاب حياتنا الثقافية داء الطراوة والليونة والترهل والركود .

* * *

وصلنا كتاب « طبقات الشعراء » أو طبقات فحول الشعراء - فى مخطوطتين ، الأولى توجد بمكتبة شيخ الإسلام عارف بك بالمدينة المنورة ، وعنها نُقلت نسختان ، توجدان بمكتبة شيخ العربية محمد محمود بنِ التلاميد التركزى الشنقيطى ، وقد وقفها على دار الكتب المصرية ، ونُسِخَتْ الأولى عام ١٣٠٣ هـ - ١٨٨٥ م وتحمل رقم ٣٦ أدب ش ، ونسخت الثانية عام ١٣١٠ هـ وهى برقم ٣٧ أدب ش . وعن هاتين المخطوطتين نشر يوسف هل J. Hell الكتاب مطبوعا للمرة الأولى فى مدينة ليدن بهولندة ، عام ١٩١٣ - ١٩١٦ م ، مع مقدمة باللغة الألمانية درس فيها نسبة الكتاب لابن سلام وشكك فيها ، وتكلم عن كتاب طبقات الشعراء ، وقارن بينه وبين الأصمعى ، وبين عمل ابن سلام فى كتابه وعمل الأصمعى فى كتابه . وعن النسخة الأوربية ، وعن المخطوطتين المذكورتين ، طُبِعَ

الكتاب فى مصر لأول مرّة عام ١٩٢٠ م ، ثم توالت طبعاته بعدها على نحو تجارى .

وأما المخطوطة الثانية فندع صاحبها يقص من أمرها ماعرف ولمس وشاهد . « ففى سنة ١٣٤٤ هـ تقريبا (١٩٢٥ ميلادية) عاد السيد أمين (الخانجى الكتبى) من رحلته فى العراق وغيره من بلاد العرب ، وقد جمع من نوادر المخطوطات شيئًا لايقدر بثمن ، وكان من بينها صناديق فيها أوراق شتى (دشت) . وذات يوم أقبلتُ (أى الأستاذ محمود محمد شاكر) عليه فى دكانه ، فإذا به يخرج لى ورقة حائلة اللون ، وسألنى : أتعرف ماهذه ؟ فما كدت أقرأ منها سطرا حتى عرفتُ أنها من كتاب « طبقات الشعراء » لأبى عبد الله محمد بن سلّام الجمحّى ، وكنتُ حديث عهد بقراءة الكتاب . فأستُطيرَ فرحا بما عرف ، وقمنا معًا إلى هذه الصناديق المبعثرة الأوراق ، نفرزها ورقة ورقة ، يومًا بعد يوم ، حتى جمعنا من أوراق كتاب الطبقات قدرًا عظيما . فلما فرغنا ، أمرنى رحمه الله أن آخذها فأرتبها وأنقلها ، مخافة عليها من مثل ما كانت فيه ، ومن عوادى البلى عليها ، إذ كانت عتيقة الورق . وفعلت ثم رددتُ إليه الأم العتيقة » .

« وبقى الكتاب عندى إلى أن قضى أمين نحبه فى يوم الجمعة ١٩ جمادى الأولى ١٣٥٨ هـ (يولية ١٩٣٩ م) وقد جاوز السبعين من عمره غفر الله له ورحمه . لم يخبرنى أين استقرّت الأم العتيقة ، ولما سألتُ بعض ولده عنها ، لم أجد عند أحد منهم خبرًا عنها . ثم بدأتُ أبحث عنها فى مظانها من دور الكتب العامة والخاصة ، فلم أعثر عليها حيث ظننت » .

« ولست أستطيع أن أصف الأمِ العتيقة لكتاب طبقات الشعراء ، فقد تقادم عهدى بها ، ولم أقيد من نعتها شيئًا أحفظه ، لأنى لم أكن أتوقع أن يجيء يوم ألتمسها فلا أجدها وكل ما أذكره من أمرها ، أنها كانت جيدة الخطّ ، حسنة الضبط ، محرّرة اللفظ ، يقل فيها الخطأ . وكنتُ أظن أن تاريخ خطها يرتد إلى القرن الخامس من الهجرة ، وهى أوراق متتابعة أو مفرقة من أوّل النسخة وأوسطها وآخرها . وأظنُّ أيضًا أنه كانت قد بقيْت أوراق من آخر الأم العتيقة لم أنقلها ، أُنسيت عددها . ولكنى أتوهمَّ أنها لاتتجاوز عشرين ورقة فيما أظن ، وأنا أرجو الله أن يُعثرنى عليها . أو على نسخة تامة أخرى ، حتى يتُاح لى أن أعيد طبعها على

وجه أتم وأكمل » . وهذه المخطوطة هى التى نشرها الأستاذ محمود شاكر فى طبعة علمية ، محققة مشروحة ، ومضبوطة النص ، مشكولة الكلمات ، صدرت فى طبعتها الثانية فى مجلدين وهى أوفى من الأولى . فى القاهرة عام ١٩٧٤م ، ودون أدنى ريب هى أكمل نسخة بين أيدينا الآن لهذا الكتاب القيم .

يختلف نص مخطوطة الشنقيطى عن نص مخطوطة الأستاذ محمود محمد شاكر ، فالأولى ناقصة ، وربما كانت نصا مختصرًا ، وفى الثانية من الأخبار والتراجم مالا يوجد فى الأولى . وفى الأغانى من الأخبار والتراجم مالا يوجد فى تلك ويوجد أكثره فى هذه ، وسقطت من كليهما ترجمة العجاج ورؤبة ، رغم أن الأغانى أورد بعض أخبارهما فى الجزأين الثامن عشر ، والواحد والعشرين . رواية عن أبى خليفة عن محمد بن سلام وقد ألحقها الأستاذ محمود شاكر بطبعته للكتاب ، وأشار إلى أنه نقلها من الأغانى .

ويروى ابن قتيبة ، عن ابن سلام ، فى « الشعر والشعراء » ، ومعه أبو الفرج الأصفهانى فى « الأغانى » ، قصة امرىء القيس ، فى احتياله لرؤية صاحبته « عنيزة » يوم دارة جلجل ، حين احتمل الحى ، فتقدم الرجال ، وتخلف النساء ، والخدم والثّقَل ، فتأخر امرؤ القيس ، وكمن فى غيابة من الأرض ، حتى مرَّ به النساء وفيهن عنيزة ، فلما وردن الغدير ، نزلنه يتبردن فأتاهن امرؤ القيس وهن غوافل ، فأخذ ثيابهن فجمعها وقعد عليها ، وقال لا أعطى جارية منكن ثوبها ، ولو ظلت فى الغدير يومها ، حتى تخرج متجردة فتأخذه ، إلى آخرما يحكيان من حديث طويل عريض ، لانجد له أثرًا فى طبقات ابن سلام عند حديثه عن امرىء القيس .

ولكل من المخطوطتين اللتين بين أيدينا إسناد مختلف ، فمخطوطة الشنقيطى إسنادها : « قال أبو محمد[١] : أخبرنا أبو طاهر محمد بن عبد الله بن نصر بن بُخَير القاضى ، أخبرنا أبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحى ، قال : أخبرنا

(١) يرجع الأستاذ محمود شاكر أنه: أبو محمد عبد الغنى بن سعيد بن على بن سعيد بن بشر بن مروان بن عبد العزيز بن مروان الأزدى المصرى، أحد المحدثين الحفاظ، وكان عالما بالحديث وفنونه، ومن مؤلفاته «المؤتلف والمختلف» و«مشتبه النسبة»، ولد فى ذى القعدة ٣٣٢هـ = ٩٤٤م وتوفى فى السابع من صفر سنة ٤٠٩هـ= ١٠١٩م.

أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحى » .

ومخطوطة الأستاذ محمود شاكر جاءت مسندة إلى عالمين جليلين ، أولهما أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبرانى اللخمى ، الإمام المحدث الحافظ الرحالة ، صاحب المعاجم الثلاثة فى الحديث ، الكبير والأوسط والصغير ، ولد بطبرية الشام سنة ٢٦٠ هـ = ٨٧٤ م ، وتوفى بأصبهان سنة ٣٦٠ هـ = ٩٧١ م . والآخر : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أسيد ، من محدثى أصبهان ، وتوفى عام ٣٣٦ هـ - ٩٤٨ م .

أما راوية كتاب الشعراء فهو : أبو خليفة الجمحى ، الفضل بن الحباب بن محمد بن شعيب بن صخر ابن أخت محمد بن سلام الجمحى[1] ، وكان أعمى من رواة الأخبار والأشعار والآداب والأنساب ، ولى قضاء البصرة ، وكان يكثر من استعمال السجع فى كلامه ، عالمًا باللغة متشددًا فيها . ولما زار الخليفة المعتضد مدينة البصرة سنة ٢٨٢ هـ = ٨٩٦ م مع وزيره القاسم بن عبد الله ، واستقبله أعيان المدينة ، وجمع غفير من الشعب ، على القوارب والسفن ، تقدم أبو خليفة ، وألقى بحضرته شكاية عن البلاء الشديد الذى قاسته المدينة من ثورة الزنج ، فى أسلوب فصيح شديد ، لأنه اعتاد الإعراب منذ صباه حتى صار فطرة ثانية له . وكان يضيق إذا استخدمت أمامه كلمة هَمْ الفارسية بمعنى أيضًا ، رغم جريانها فى أيامه على ألسنة البصريين ، وقد درس على خاله محمد بن سلام ، وروى عنه كتبه ، ورغم تشيعه كان أدب الخوارج يهزه بما فيه من قوة وصدق وإيمان ، فإذا قرئ عليه - سرا - ديوان عمران بن حِطّان بكى فى مواضيع منه وتوفى فى شهر ربيع الأول سنة ٣٠٥ هـ = ٩١٩ م .

مهد ابن سلام لحديثه عن الشعراء بمقدمة أوضح فيها منهجه ، وأبان عن رأيه ، فتحدث عن عدد من القضايا الأدبية ، ذات أهمية قصوى ، تتصل بالنقد الأدبى ، وبتاريخ الأدب .

---

(١) ذكرها الدكتور عبد الحليم النجار خطأ « ابن أخى العلامة اللغوى ابن سلام » فى ترجمته لكتاب : « العربية ، دراسات فى اللغة واللهجات والأساليب » من عمل المستشرق يوهان فك Johann fuck ، ص ١٤٠ ، القاهرة ١٣٧٠ هـ = ١٩٥١ م ، وهو خطأ جاءه من أن اللغات الأوربية ، تستخدم لابن الأخ وابن الأخت لفظًا واحدًا ، فلم يستطع أن يفرق بينهما فى النص الألمانى .

كان **أول من تكلّم عن الشعر الموضوع** بمنهج علمى ، ووصلنا رأيه مدونًا مفصلا ، فجعل أساس قبول الشعر أن يؤخذ عن طبقة لم تفسد ، ممثلة - على أيامه - فى البدو ، أو يأتينا مدونّا ، شائع الرواية ، عرفه العلماء وارتضوه ، وما يأتى عن غيرهما فليس بمقبول ، ساقط لا يحتج به ولا يستشهد : « وفى الشعر المسموع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه ، ولا حجة فى عربيته ولا أدب يستفاد ، ولا معنى يستخرج ، ولا مثل يضرب ، ولا مديح رائع ، ولا هجاء مقذع ، ولا فخر مُعجب ، ولا نسيب مستطرف ، وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب ، لم يأخذوه عن أهل البادية ، ولم يعرضوه على العلماء ، وليس لأحد - إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شىء منه - أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صُحفى[١] وقد اختلفت العلماء فى بعض الشعر ، كما اختلفت فى بعض الأشياء ، أما ما اتفقوا عليه ، فليس لأحد أن يخرج منه » .

وهو يؤمن بالتخصص ، فالشعر صناعة وثقافة ، ينهض العلم به على المعرفة ، وتعمق معرفته بالتجربة ، واقتحام غير المتخصصين من أهل التاريخ ميدانه ، كان أحد أسباب الانتحال ، وحمل كل غثاء منه ، ويضرب لذلك مثلا بمحمد بن إسحاق ابن يسار ، مولى آل مخرمة ، وكان أكثر علمه بالمغازى والسير ، فقبل الناس عنه الأشعار ، وكان يعتذر منها ويقول : لا علم لى بالشعر ، أوتى به فأحمله ، ولم يكن ذلك له عذرًا . فكتب فى السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرًا قط ، وأشعار النساء فضلا عن الرجال ، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود ، فكتب لهم أشعارًا كثيرة ، وليس بشعر ، إنما هو كلام مؤلف معقود بقواف .

وفى حكم قائم على الاستقراء ، **يرفض ما فوق « عدنان » من أنساب العرب** ، لأنها أسماء لم تؤخذ إلا عن الكتب ، والله أعلم بها ، ولم يذكرها عربى قط ، ولم يرد اسم عدنان فى شعر جاهلى إلا مرة واحدة ، فى بيت قاله لبيد بن ربيعة الكلابى وبيت آخر لعباس بن مرداس ، لم يرتضه ابن سلام وشك فيه . « فنحن لا نقيم فى النسب ما فوق عدنان ، ولا نجد لأولية العرب المعروفين شعرًا ، فكيف بعاد وثمود ، فهذا الكلام الواهن الخبيث ، ولم يرو قط عربى منها

---

(١) الصحفى : الذى يأخذ عن صحيفة ، لم يعرض على العلماء ، ولم يتلق علمه بالرواية .

بيتًا واحدًا ، ولا راوية للشعر ، مع ضعف أسره ، وقلة طلاوته » .

ويشك فى الروايات التى تحاول أن تحدد اسما معينًا كأول متكلم بالعربية ، يوردها وتحسّ مع روايته لها ، أنه يقف منها فى الجانب المقابل . ثم يتحدث فى تفصيل منهجى ، عن **الأسباب التى دعت إلى التوسع فى تدوين الشعر** ، والعوامل التى أنفقت سوق الوضع والانتحال ، وصروف الدهر التى ذهبت بالكثير من شعر العرب ، ودليله « قلة ما بقى بأيدى الرواة المصححين لطرفة بن العبد وعبيد بن الأبرص ، اللذين صحَّ لهما قصائد بقدر عشر . وإن لم يكن لهما غيرهن ، فليس موضعهما حيث وُضِعَا من الشهرة والتَّقدمِة ، وإن كان ما يُروى من الغُثاء لهما ، فليسا يستحقان مكانهما على أفواه الرواة . ونرى أن غيرهما قد سقط من كلامه كلام كثير ، غير أن الذى نالهما من ذلك أكثر ، وكانا أقدم الفحول ، فلعل ذلك لذاك فلما قل كلامهما ، حمل عليهما حمل كثير » .

كان حديثه المفصَّل عن **الانتحال** المعالم الهادية لما قام به المستشرقون فى أواخر القرن الماضى ، وأوائل هذا القرن ، من دراسات عن صحة الشعر الجاهلى ، و من احتذى منهجهم وتبنَّى أفكارهم فى العالم العربى ، وكل الذين تحدثوا بعده فى هذا الأمر كانوا عالة عليه ، والفارق بين ابن سلام وبين العرب المعاصرين أن الرجل كان يقدر دور الكلمة فلم يتخفف من المسئولية ، ولم يتخذ الشطط مطية ، والشهرة غاية ، فجاءت آراؤه وستبقى تشع جلالا وتواضعًا وإخلاصًا .

ثم عرض **لنشأة الشعر العربى** ، وأنه بدأ بأبيات قليلة ، « يقولها الرجل فى حادثة ، وإنما قُصِّدت القصائد وطوِّل الشعر على عهد عبد المطلب ، وهاشم بن عبد مناف » . وهو رأى يقف فيه ابن سلام ، ومعاصروه والقدامى جميعًا ، فى جانب ، والدراسات الأدبية الحديثة فى جانب آخر ، فالشعر العربى أقدم مما ظن ، والقصائد العربية أبعد عهدًا من أيام عبد المطلب و هاشم ، وقد درسنا القضية على نحو مفصل فى كتابنا « امرؤ القيس : حياته وشعره » .

وجعل **بداية الشعر فى ربيعة** ، نشأ فيها وازدهر ، ثم تحول عنها فى قيس ، واستقراء ما بين أيدينا من شعر يدعم رأيه ولو أن الأمر ، فيما يبدو لى ، مرتبط بالمكان أكثر من ارتباطه بالبشر ، فعرفت قبائل يمنية ، كانت تعايش ربيعة فى شمال شرقى الجزيرة ، الشعر كقبيلة كلب وكندة وطيئ .

ولم يفته أن يقسم الشعراء الجاهليين من وجهة نظر أخلاقية ، بين من يتأله فى جاهليته ويتعفف فى شعره ، ولا يستبهر بالفواحش ، ولا يتهكم فى الهجاء ، ومنهم من كان يتعهّر ولا يبقى على نفسه ولا يتستر ، ووضع على رأس هؤلاء امرأ القيس والأعشى[1] ، وأضاف إليهما الفرزدق من الإسلاميين .

كما عرض ابن سلام فى مقدمة كتابه إلى نشأة النحو العربى ، والدواعى التى دفعت العلماء إلى التفكير فيه ، ومن قام به للمرة الأولى ، وتتبع تطوره ، وتحدث عن شيوع اللحن ، ثم فرق بين ما صنع أبو الأسود الدؤلى ، أول واضع له ، من قواعد نحوية بسيطة أساسها المنطق ، وبين ما وضع خلفه . « ثم كان من بعدهم عبد الله بن أبى إسحاق الحضرمى ، فكان أول من بعج النحو ، ومدّ القياس والعلل ، وكان معه أبو عمرو بن العلاء ، وبقى بعده بقاء طويلا ، وكان ابن أبى إسحاق أشد تجريدًا للقياس ، وكان أبو عمرو أوسع علمًا بكلام العرب ولغاتهم وغريبها » .

وهو يدرك قانون التطور والارتقاء إدراكا نافذًا ، فكل جيل أوسع خطوة من سابقه ، وأكثر علمًا ، يضيف إلى ما ورث شيئًا مما أبدع ، دون أن يذهب ذلك بفضل السابقين ، أو يقلل من دورهم : « وسمعت أبى يسأل عن ابن أبى إسحاق وعلمه ، قال : هو والنحو سواء ، أى هو الغاية . قال : فأين علمه من علم الناس اليوم ، قال . لو كان فى الناس اليوم من لا يعلم إلّا علمه يومئذ لضُحك به ولو كان فيهم من له ذهنه ونفاذه ، ونظر نظرهم كان أعلم الناس » .

ويعرف ما فى النفس الإنسانية من استقلال بالرأى ، ونزوع إلى التميز ، وتباين الأهواء والمشارب ، تقرأ للرجل فتعجب به ، ويأخذ بقلبك علمه وأدبه ، لكنك ما تلبث أن تتوقف ، لأن شبهة من عجلة تبدو لك فى بعض ما أورد أو ميلا عن الحق ، أو شرودًا إلى ما لا تحب ، أو ماكنت تؤثر غيره ، فأنت تأخذ منه ما يرضى حاجة فى نفسك ، وتدع له ما تحسه عبئا على عقلك أو ذوقك ، والفنان لا يصدر فى خلقه عن طبيعة متساوية ، إنما يعتوره ما يعتور البشر ، وعلى نحو

---

(١) درسنا فى كتابنا « امرؤ القيس : حياته وشعره » الأسباب التى جعلت كلا من امرئ القيس والأعشى ينفردان بهذا اللون من الشعر ، انظر ص ١٩٤ ، وما بعدها ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٥م.

أشد ، من الكلل والسأم والملل ، والشدّة والضعف والاستهانة ، فيأتى فنه عاليا ساميًا أحيانًا ، ومرذولا ساقطًا أحيانًا أخرى . « وسمعت - أى ابن سلام - يونس يقول : لو كان أحد ينبغى أن يؤخذ بقوله كله فى شىء واحد ، كان ينبغى لقول أبى عمرو بن العلاء فى العربية ، أن يُؤخذ كله ، ولكن ليس أحد إلا وأنت آخذ من قوله وتارك » .

ثم أشار فى إيجاز إلى ابتداع الخليل بن أحمد للعروض « استنبط منه ومن علله ما لم يستخرج أحد ، ولم يسبقه إلى مثله سابق من العلماء كلهم » .

كان حديث ابن سلام فى المقدمة تمهيدًا للهدف الأصلى ، وهو ذكر العرب وأشعارها ، والمشهورين المعروفين من شعرائها ، ففصل الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين ، ونزّلهم منازلهم ، واحتج لكل شاعر بما وجد له من حجة ، وما قال فيه العلماء، وألف من تشابه شعره منهم إلى نظرائه ، فوجدهم عشر طبقات ، أربعة رهط كل طبقة ، متكافئين معتدلين ، فاختار أربعين شاعرًا فى طبقات الشعراء الجاهليين ، وأربعين فى طبقات الشعراء الإسلاميين ، وأربعة شعراء فى طبقة أصحاب المراثى ، واثنين وعشرين شاعرًا فى طبقة شعراء القرى العربية ، وثمانية فى طبقة شعراء اليهود ، فهم جميعًا ١١٤ شاعرًا .

وداخل الطبقة الواحدة كان يرتب الشعراء بحسب أهميتهم ، ويبدأ عادة بذكر نسب كل واحد منهم ، ثم يردفه برأى العلماء فيهم ، بتفضيل شاعر على شاعر ، أو على كل الشعراء أو الموازنة بينهم ، ويورد مع هذه الآراء ما يدعمها من شعرهم ، وفى أحايين قليلة يفسر الكلمات الغريبة التى ترد فى الشعر ، أو يورد آراء علماء اللغة فيها . وفى غير الموازنة بينهم ، يؤثر ذكر أخبارهم مرتبة حسب مكانتهم فى الطبقة التى ينتمون إليها . وفصل بين شعراء الجاهلية وشعراء الإسلام بأصحاب المراثى ، وشعراء القرى العربية ، ومن كانوا يتخذون اليهودية دينا . ومن الجاهليين حظى امرؤ القيس بأعظم عناية منه .. وأوفى ترجمة له ، وكان أطول حديث خص به إسلاميًا من نصيب الثلاثة الأول من شعراء الطبقة الأولى : جرير والفرزدق والأخطل . وأوقف الطبقة التاسعة من فحول الإسلام على من عرفوا بالرَّجز وأجادوا فيه .

ولم يعتبر المخضرمين طبقة قائمة بنفسها ، بل نزَّل المخضرمين منازلهم ، من

طبقات أهل الجاهلية وطبقات أهل الإسلام ، وألف من تشابه شعره منهم إلى نظرائه . ففى الطبقة الثانية من الجاهليين أوس بن حجر وبشر بن أبى خازم ، وهما جاهليان ، ومعهما كعب بن زهير والحطيئة ، وهما مخضرمان ، والطبقة الثالثة كلها مخضرمون والرابعة كلها جاهليون ، والخامسة فيها الجاهلى والمخضرم ، وفى الطبقة الثالثة من الإسلاميين كعب بن جعيل ، وعمرو بن أحمد الباهلى ، وسُحيَم بن وَثيل الرياحى ، وهم مخضرمون ، وأوس بن مغراء وهو مسلم ، وفى الرابعة حُمَيد بن ثَوْر ، وهو مخضرم ، والبقية مسلمون . وفى الثامنة بشامة بن الغدير ، وقُرَاد بن حنش ، وهما جاهليان أدْركا الإسلام ، وهكذا إلى آخر الطبقات العشر فى كل قسم .

لم يذكر ابن سلام صراحة القواعد التى بنى عليها اختياره لشعراء كل طبقة ، واتخذها أساسًا للمفاضلة بين أصحابها ، غير أن بعض الإشارات القليلة والقصيرة المنبثّة عبر الكتاب كله ، توحى بأنه جعل كثرة الشعر سببًا أوّل للتفضيل ، فهو يقول عن الطبقة الرابعة الجاهلية – و شعراؤها : طرفة بن العبد ، وعبيد بن الأبرص ، وعلقمة بن عبدة ، وعدىّ بن زيد – : « هم فحول شعراء موضعهم مع الأوائل ، وإنما أخلَّ بهم قلة شعرهم بأيدى الرواة » والأسود بن يعفر له (قصيدة) واحدة طويلة رائعة لاحقة بأجود الشعر ، لو كان شفعها بمثلها قدَّمناه على مرتبته » . والطبقة السابعة أربعة رهط محكمون ، وفى أشعارهم قلة فذاك الذى أخرهم .

فشرطه الأول جودة الشعر ، مضافًا إليها كثرته . وما من أحد ينازع فى أن المجيد المكثر خير من المقلّ المجيد، فذلك يصدر عن طبع دافق ؛ وشعور فياض ، وهذا يقول الشعر كسلان ، أو يعالجه تفضلا ، أو تضن عليه شياطين الشعر حين يريد . وانطلاقًا من هذا الفهم يجعل لتعدد الأغراض التى عالجها الشاعر نصيبًا من التقدم به على غيره ، فجميل بثينة مقدم فى التشبيب على كُثَيْر عزّة ، وعلى أصحاب النسيب جميعًا ، وجميل صادق الصبَّابة ، وكثير يتقوَّل ولم يكن عاشقًا ، لكن كان له فى فنون الشعر ما ليس لجميل ، فكان يمدح ويستقصى المديح ، فتقدم به ابن سلام وجعله فى الطبقة الثانية من فحول الإسلام ، وتأخرَّ بجميل إلى الطبقة السادسة .

وقد اضطرب الرقم بين يديه وهو يترجم لشعراء القرى الخمسة ، فلم يجعلهم طبقات متعددة ، ولم يقف بهم عند طبقة واحدة ، ولم يلتزم معهم بأربعة شعراء لا يزيدون عليها ، فكان شعراء المدينة خمسة : ثلاثة من الخزرج ، واثنان من الأوس . وشعراء مكة تسعة ، والطائف خمسة،والبحرين ثلاثة ، واختار من شعراء اليهود ثمانية ، وجعل أصحاب المراثى طبقة وقف بها عند العدد الذى اتخذه محورًا تدور عليه كل طبقات الكتاب ، فكانوا أربعة ، ثلاثة شعراء وشاعرة واحدة ، هى الخنساء ، ولم يترجم لامرأة شاعرة غيرها فى كل الكتاب . وفيما أرى ، شعراء مكة لا يرتقون إلى أيّة طبقة أوردها فى كتابه ، ويبدو لى أن اعتبارات غير أدبية جعلته يوقف عليهم من كتابه فصلا خاصا ، يضمّنُه أكبر عدد منهم بين شعراء القرى ، مع اعترافه بأن شعرهم ضائع ، وما بين أيدينا منه زيد فيه ، وهو يورد ما يختار للشعراء المختلفين ، أو يورد مطالعه ، ولكنه لا ينقده ولا يحلله ، وإن كان يومض ، عبر الحديث أحيانًا ، بأحكام نقدية ، أو لمحات تعين على التأريخ الأدبى الصحيح ، فيشير إلى الدور الذى لعبه السمّار فى بلاط الملوك ، يسمرون ويتحدثون ويقصون ، ويحملون على الشعراء ما لم يقولوا ، والملوك لا تستقصى ، وعدى بن زيد كان يسكن الحيرة ومراكز الريف ، فلان لسانه وسهل منطقه ، وقلّ شعر الطائف ، ولانت أشعار مكة ، لأنهم لم يحاربوا ، وإنما يكثر الشعر بالحروب التى تكون بين الأحياء ، بين قوم يغيرون وقوم يغار عليهم ، وأهل البادية يُعجبون بشعر جرير، وسكان الحجاز يفضلون كُثَيْرا ، ولم يتصل الشعر فى ولد أحد من فحول الجاهلية ما اتصل فى ولد زهير ، ولا فى ولد أحد من الإسلاميين ما اتصل فى ولد جرير ، وقد يُفضّل الشاعرِ فى كلمة واحدة ، لا يقدم بينها سببا ، ولا يدعمها بتفصيل : « ومن الناس من يفضل قيس بن الخطيم على حسان بن ثابت ولا أقول ذلك » ، وقد يكون التفضيل إعجابًا ذاتيا ، فى جملة عامة ، فأبو ذؤيب الهذلى « شاعر فحل لا غميزة فيه ولا وهن » وسُحيم عبد بنى الحسحَاس « حلو الشعر رقيق حواشى الكلمات » .

وإذا أورد بيتا لشاعر ، فيه شىء من عيوب الشعر ، وجدها سانحة يتحدث عن هذه العيوب من زحاف وسناد وإيطاء وإقواء ، ولا يمل الإشارة إلى ما خالط تراثنا من شعر مصنوع ومدسوس ، فعدىّ بن زيد حُمل عليه شىء كثير ، وتخليصه

شديد . واضطرب فيه خلف الأحمر . وخلط فيه المفضل فأكثر . وحسان بن ثابت حمل عليه ما لم يحمل على أحد . وقصيدة أبي طالب فى مدح النبى زاد الناس فيها « فلا أدرى أين منتهاها » . ويرفض أن يعدّ ما رواه ابن إسحاق صاحب السيرة لأبي سفيان بن الحارث وغيره شعرا ، ولأن لا يكون لهم شعر ، أحسن من أن يكون لهم ذاك .

والكثير مما أورده ابن سلام من تعليل للظواهر الأدبية تدعمه الدراسات الحديثة ، وبعضها لا يرتضيه الباحث المعاصر فى سهولة . فليس حقًا أن الحرب وحدها وراء كل شعر ، إنها وراء لون واحد منه ما اتصل بالحماسة والإثارة والفخر القبلى ، ومن ثمّ فهى لا تصلح تعليلاً لقلّة شعراء مكة والطائف ، وإلا فأين الغزل ، ومصدره العاطفة والعاطفة قاسم مشترك بين الناس جميعًا ، والمدينة نفسها أهدت العربية واحدًا من كبار الشعراء الغزلين ، أعنى عمر بن أبى ربيعة .

لم خصّ إبن سلام شعراء القرى – كما أسماهم – وشعراء اليهود ، والبارعين فى الرثاء كلًا بطبقة ، ولم يجمعهم مع غيرهم داخل الإطار العام للكتاب ؟

الرأى عندى أنّ ابن سلام قصد بدءا أن يؤلف الكتاب تبعًا لمنهج معين ارتضاه ، عشر طبقات لفحول الجاهلية ، وأخرى مثلها للإسلاميين . ثم وجد أن مكة والمدينة حُرمتا تبعًا لمقاييسه ، من شعراء يضمنّهم كتابه ، ولهما فى نفسه ونفس غيره قداسة ، فخصـهما بحديث من عنده ، وأضاف إليهما مع الزمن ، ما يجعل كتابه أكثر تمثيلاً لكل الأدب العربى على أيامه . فكانت الأقسام الأخرى ، ولعل فى القسم الضائع ألوانا أخرى من التراجم لو توصلنا إليها لساعدت فى جلاء الأمر .

بقى أن نشير إلى أن ابن سلام رجل متحفظ ، وقور فى روايته ، لا تغريه أباطيل القول ، ينأى عن الشبهات ، ويقف حيث تقتضى المسئولية ألّا يمضى ، فإذا ترجم لمتمّم بن نويرة ، وأورد حديثًا عن رثائه لأخيه ، وكان خالد بن الوليد قد قتله حين وجهه أبو بكر رضى الله عنه لقتال أهل الردّة ، فذكر من القصة ما تطمئن إليه نفسه ، ما هو فى جانب خالد وما يراه معارضوه ، دون أن يفيض القول فى قصة خالد مع زوجة مالك بن نُوَيرة ، إنك معه فى هذه القضية ، تجد نفسك أمام راوية تقى خاشع ، فقيه محدث ، يتقدّم بالرواية بطيئًا متمهلا خائفًا حذرًا كأنما يمشى إلى النار . وعبر الكتاب تحسّ منه اعتزازًا ببصريته ، وتقديرًا

لعلماء مِصْره ، لكنه لا يشغب على الآخرين ، ولا يبيح القول فيهم ، وقصارى ما يتهم به الكوفيين ، فى حديثه عن الأسود بن يعفر : وله - أى الأسود - شعر كثير جيد ، وذكر بعض أصحابنا أنه سمع المفضّل يقول : « له ثلاثون ومائة قصيدة ، ونحن لا نعرف له ذلك ولا قريبًا منه ، وقد علمتُ أن أهل الكوفة يروون له أكثر مما نروى ، ويتجوّزون فى ذلك بأكثر من تجوزنا » .

وقصارى القول أن ابن سلام هذَّب النقد الساذج من موروث الجاهلية وإن لم يضف إليه كثيرًا ، وحاول أن يُدخل فى تاريخ الأدب اتجاها نحو التفسير والتعليل ، ومحاولة للتبويب والتنظيم ، تخضع لأسس ، وتنهض على قواعد ، واهتمامًا بسيَر الشعراء وحياتهم ، ليفسّر فى ضوئها نتاجهم . وإن لم يكن قد بلغ الغاية فى كتابه ،فحسبه أن وضع اللبنة الأولى .

○ مختارات من « طبقات فحول الشعراء » :

١٨ - بداية الشعر العربى

جـ١ ص٠ ٤-(١) وكان شعر الجاهلية فى ربيعة: أولهم المهلهل، وهو خال امرئ القيس بن حُجر الكندى، والمرَقّشان، والأكبر منهما عم الأصغر، والأصغر عم طرفة بن العبد، واسم الأكبر عوف بن سعد، واسم الأصغر عمرو بن حَرْملة، وقيل ربيعة بن سفيان، وسعد بن مالك، وطَرَفة بن العبد، وعمرو بن قَميئة، والحارث بن حلزة، والمتلمسّ، وهو خال طرفة، والأعشى المسَيَّب بن عَلَس.

ثم تحوّل [الشعر] فى قيس، فمنهم: النابغة الذبيانى - وهم يعدّن زهير بن أبى سُلمى من عبد الله بن غطفان، وابنه كعبا - ولبيد والنابغة الجعدى والحطيئة، والشمّاخ، و[أخوه] مُزَرّد، وخِداش بن زهير، ثم آل ذلك إلى تميم، فلم يزل فيهم إلى اليوم.

كان امرؤ القيس بن حجر بعد مهلهل ، ومهلهل خاله ، وطرفة وعبيد وعمرو بن قميئة والمتلمس فى عصر واحد .

---

(١) الأرقام التى فى أول الفقرات هى من عمل الأستاذ محقق الكتاب وناشره .

طبقات الإسلام

٣٨٧- عشر طبقات ; كل طبقة أربعة رهط متكافئين معتدلين .

الطبقة الأولى من فحول الإسلام

٣٨٨- خَرير بن عطية بن الخَطفى، واسم الخَطفى حُـذَيفة بن بدْر بن سلمة ابن عوف بن كُليب بن يربوع خَطَّفَهُ بيتٌ قاله :

يرْفعن للّيل إذا ما أسدَفا أعناقَ جِنّان وهَامًا رُجَّفـا
وعَنقًـا ، بعـد الـرسيم ، خَيـطَفـا

٣٨٩- والفرزدق ، واسمه همَّام ، بن غالب بن صَعصعة بن ناجية بن عَقال ابن محمد بن سفيان بن مُجاشع ، وإنما سُمّى الفرزدق ، لأنه شُبِّه وجهه بالخُبزة وهى فرَزْدَقة[1] .

٣٩٠- والأخطل ، واسمه غياث ، بن غوْث بن الصلت بن طارِقة بن السيْحان بن عمرو بن فَدَوْكس بن عمرو بن مالك بن جُشَم بن بكر بن حُبَيب ابن عمرو بن غَنْم بن تَغلب . خطَّله قول كعب بن جُعَيل له : إنك لأخطل يا غلامُ[2] ! .

٣٩١- وراعى الإبل ، واسمه عُبَيد بن حُصَين بن جَنْدل بن قطن بن ظُوَيْلم ابن ربيعة بن عبد الله بن الحارث بن نمير . سُمى راعى الإبل ، لكثرة صفته للإبل وحُسْن نعته لها ، فقالوا : ما هذا إلا راعى الإبل ! فلزمته .

* * *

٣٩٢- فاختلف الناس فيهم أشد الاختلاف وأكثره . وعامة الاختلاف أو كله ، فى الثلاثة . ومن خالف فى الراعى قليل ، كأنه آخرهم عند العامة .

---

(١) وهى العجين الذى يسوى منه الرغيف . وكان الفرزدق غليظ الوجه جهما
(٢) من الخطل وهو السفه وفحش القول

٣٩٣- وسمعتُ يونس [بن حبيب] يقول : ما شهدتُ مشهدًا قط ذُكر فيه جرير والفرزدق فأجمع أهل ذلك المجلس على أحدهما .

٣٩٤- وكان يونس يقدم الفرزدق بغير إفراط ، وكان المفضل الراوية يقدمه تقدمة شديدة .

٣٩٥- وأخبرنى أبو قيس العنبرى عن عكرمة بن جرير ، أن جريرًا قال : نبَعة الشعر الفرزدق .

٣٩٦- وقال ابن دأب.، **وسئل عنهما فقال** : الفرزدق أشعر عامة ، وجرير أشعر خاصة .

البيان والتبيين
للجاحظ

شهرته الجاحظ ، وكنيته أبو عثمان ، واسمه عمرو بن بحر ، ولد بالبصرة عام ١٦٠ هـ = ٧٧٦ م ، والبصرة يومئذ مهد العلم ومنتدى الأدب ، ومركز الإشعاع الثقافى فى العالم الإسلامى كله . وفيها أمضى طفولة شقية ، فقد توفى والده وهو بعد صغير ، وخلّفه بلا ثروة يعيش منها ، إلّا أنّ جوّ المدينة الثقافى جعل من ذهابه إلى الكُتاب ضرورة ، وفيه أظهر الصبى ذكاء خارقًا ، ونهما حادًا إلى المعرفة ، فلما اشتد ساعده أخذ يعمل إلى جانب طلب العلم ، يبيع الخبز والسمك فى الأسواق ، ثم يغشى المساجد ، يلقى علماءها يسمع منهم أو يجادلهم ، ويتردد على سوق المربد ، قرب البصرة ، وإليه يختلف الشعراء والخطباء ، وشغله ذلك كله عن طلب العيش فضاقت به أمه ، وذات يوم جاءها يطلب طعامًا فقدمت له طبقًا فيه كراريس ورق وقالت : كُلْ ، سخرية من اشتغاله بالدراسة ، واهتمامه بالقراءة ، وانصرافه عن الكسب . فخرج إلى المسجد ممرورا ، ورآه يونس بن عمران فأدرك حاله وسأله عن شأنه ، ولما وقف على أمره أعطاه خمسين دينارًا فأخذها الجاحظ ومضى إلى السوق ، فاشترى دقيقًا وطعامًا ، وعاد إلى داره مزهوًّا ، والحمّالون من ورائه ، فلما رأته أمه دهشت ، وسألته : من أين لك هذا ؟ فردّ عليها متشفيًا : من الورق الذى قدمّته لى فى الطبق .

كان الجاحظ نهمًا إلى القراءة ، لم يقع فى يده كتاب إلّا أتى عليه ، ويكترى حوانيت الورّاقين ويبيت فيها للدرس والمطالعة ، وله قدرة فائقة على الحفظ والرواية ، فأكسبه ذلك معرفة واسعة ، وثقافة منوّعة ، بين دينية وأدبية ، عربية ويونانية ، فارسية وهندية . والظاهر أنه عرف كتاب الخطابة Rhetorique لأرسطو ، أو « الروطوريقا » كما تسميه المصادر العربية الأولى ، بعض المعرفة ، قبل أن تتناوله الترجمة الكاملة . وعاش فى عصر طافح بالقمم فى كل فنّ ، فعاصر من رجال الفقه والحديث مالكا والشافعى وأحمد بن حنبل والبخارى . ومن الكتّاب

ابن المقفع ، وإبراهيم الصولى ، وابن قتيبة ، والمبرد ، وابن الزيات . ومن علماء اللغة الخليل بن أحمد ، ومن الشعراء بشّار بن برد ، وأبا نواس ، ومسلم ابن الوليد ، وأبا العتاهية ، وأبا تمام والبحترى ، وابن الرومى . ودرس على الأصمعى ، وأبى عبيدة ، وأبى زيد الأنصارى ، والأخفش .

والتقى بالنظّام ، أبى إسحاق إبراهيم بن سيّار البلخى ، المتوفى عام ٢٢١ هـ = ٨٤٥ م وتتلمذ عليه ، وأعجب به أستاذًا ، وقال عنه : « الأوائل يقولون : فى كل ألف سنة رجل لا نظير له ، فإذا كان ذلك صحيحًا فهو أبو إسحاق النظام » . وقد اتخذ الاعتزال مذهبًا ، وأصبح أحد ثلاثة من كبار رجال المعتزلة ، وله طائفة خاصة تنسب إليه تُسمَّى « الجاحظية » . يقول ياقوت فى « إرشاد الأريب » : « اتفق أهل صناعة الكلام على أن متكلمى العالم ثلاثة : الجاحظ وعلى بن عبد الله اللطفى ، وأبو زيد البلخى . والجاحظ يزيد لفظه على معناه ، وأمّا أبو زيد فيتوافق لفظه ومعناه » .

وإلى جانب العلم المقروء كان صاحب رحلة ، أمضى حياته متنقلا بين البصرة وبغداد ، ورحل إلى دمشق ، وزار أنطاكية ، وثمة احتمال بأنه جاء مصر ، فأكسبه التنقل ، وتنوع البيئة وتباين العيش ، عمقا فى التجربة ، وشمولا فى النظرة ، وخبرة واسعة بأحوال الحياة والناس .

كان الجاحظ دميم الخلقة ، جَهم الوجه ، جاحظ العينين ، وبلغ فيهما الغاية ، ومن ذلك لقبه . حتى إن الخليفة المتوكل عندما سمع بمنزلته من العلم والفهم ، استقدمه إليه بسُرَّ مَن رأى (سامراء) ليؤدب ولده ، فلما رآه استبشع منظره ، وصرفه بعشرة آلاف درهم . وهذه النقائص الجسمية كانت وراء دعابته ومرحه ، وسخريته من نفسه وتندره بأعز أصدقائه ، واستخفّ بالعادات المرعية والآداب السائدة ، وأدرك أن المراوحة بين الجد والهزل تذهب برتابة الحياة ، وتخفّف من ثقلها ، وأن تقديم الهزل بين يدى الجد أنفع له ، وأدعى إلى إقبال الناس عليه ، فكان لطيف الروح ، فكه المحاضرة ، صادق المواساة ، سريع البديهة ، حاضر النكتة ، يقبل على الحياة مغتبطًا بها ، متفائلا لا يرى منها إلا وجهها المشرق ، يسجل الفكاهة حتى لو كانت على نفسه ، يقول : ما أخجلنى إلا امرأتان : رأيت إحداهما فى العسكر ، وهو مصيف الخلفاء ، وكانت طويلة القامة ، وكنت على

طعام ، فأردت أن أمازحها فقلت لها : انزلى كُلِى معنا ، فقالت بل اصعد أنت حتى ترى الدنيا .

وأما الأخرى فجاءتنى وأنا على باب دارى ، فقالت : بى إليك حاجة ، وأريدك أن تمشى معى لنقضيها ، فمشيت معها حتى أتت بى إلى صائغ يهودى فأشارت إلىّ وقالت : مثل هذا ، وانصرفت ، فسألت الصائغ عن قولها فقال : إنها أتت إلىَّ بفص ، وأمرتنى أن أنقش عليه صورة شيطان ، فقلت لها : يا سيدتى ، ما رأيت الشيطان ، فجاءت بك !

وأقبلت الدنيا على الجاحظ ، وأقبل عليها يعب من متعها الحسية ، ولم تجذبه الحياة الخاشعة التقية ، التى كانت تظل جانبًا كبيرًا من مواطنيه وشيوخه ، فأضرب عن الزواج ، وانصرف إلى التسرى ، ولم يعقب ولدًا ، ولم يكن راغبًا فى الإنجاب . سأله ميمون بن هارون ، حينما رأى رفاهيته : ألك ضيعة بالبصرة ؟ فابتسم الجاحظ وقال : « إنما أنا وجارية لى ، وأخرى تخدمها ، وخادم وحمار . أهديت كتاب « الحيوان » إلى محمد بن عبد الملك الزيات فأعطانى خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب « البيان والتبيين » إلى أحمد بن أبى دؤاد فأعطانى خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب « الزرع والنخل » إلى إبراهيم بن العباس الصولى فأعطانى خمسة آلاف دينار ، فانصرفت إلى البصرة ومعى ضيعة لا تحتاج إلى تجديد ولا تسميد » . وكان يحرص دوامًا على أن تكون حياته الخاصة ملكا له ، لا يجاهر بمعصية ، ولا يباهى بخطيئة ، يؤثر الستر ، ويبتعد عن مواطن الإثارة ، ولا يرى فى مداراة العامة عيبًا ، ويتخذ من مرضاتها مذهبًا ، مادام ذلك لا يحمله على غير ما يرغب فيه من الأفكار والعادات .

لكن البصرة ما لبثت أن ضاقت بالجاحظ ، أو لعل الجاحظ أحس أنه أكبر منها ، فرحل عنها إلى بغداد ، وفيها مثّل دور الطالب من جديد ، فتردد على مجالس العلماء والأدباء ، ووجد عند شيوخها ما لم يجده عند أساتذته فى البصرة . وفيها استطارت شهرته ، وسمع به المأمون فأراد أن يفيد منه ، وكان قد قرأ له كتاب « الإمامة » وأعجب به ، فسأل الجاحظ أن يكتب رسالة على مستواه فى « العباسية » والاحتجاج لها ، وأسند إليه ديوان الرسائل ، فلم يبق فيه غير أيام ثلاثة ، تركه بعدها هاربًا بعقله وحريته ، لأنه لم يستطع أن يأخذ نفسه بنظم

الدواوين وتقاليدها ، وما تقتضيه من وقار مصطنع ، ولم يتحمل دسائس الذين خافوا على مناصبهم من علمه وذكائه ، والذين لا يعملون شيئا ويؤذى نفوسهم أن يعمل الآخرون ، ففارق أكبر وظيفة فى ديوان الخلافة غير آسف . ويصف لنا بدقة جو الوظائف حينذاك ، وحتى أيامنا هذه ، يقول : « فإن أولئك (الموظفين) لباسهم الذلة ، وشعارهم الملق، وقلوبهم ممن لهم خول مملوءة قد لبسها الرعب ، وألفها العزل .. فهم مع ذلك فى تكدير وتنغيص ، خوفًا من سطوة الرئيس ، وتنكيل الصاحب ، وتغيير الدول » .

ثم توثقت صلته بمحمد بن عبد الملك ، المعروف بابن الزيات ، وزير الخليفة المعتصم ، ثم الواثق من بعده ، وكان من كبار رجال الأدب والسياسة فكتب له الجاحظ ومدحه ، وأهداه « كتاب الحيوان » وبقى إلى جانبه وزاراته الثلاث ، فلما تُوفى الواثق ، وتولى المتوكل ، وكان يكره المعتزلة ، قتل ابن الزيات ، وفر الجاحظ حتى لا يكون ثانى اثنين إذ هما فى التنور ، ثم قُبض عليه وجئ به مقيدًا ، فقال له أحمد بن أبى دؤاد ، وكان القاضى : « والله ماعلمتك إلا متناسيًا للنعمة ، كفورًا للصنيعة ، معددًا للمساوئ ، وما فُتنى باستصلاحى لك ، ولكن الأيام لا تصلح منك ، لفساد طويتك ، ورداءة داخلتك ، وسوء اختيارك ، وتغالب طبعك » . فقال له الجاحظ : خفِّض عليك ، أيدك الله ، فوالله لأن يكون الأمر علىّ خير من أن يكون لى عليك ، ولأن أسئ وتحسن أحسن لك من أن أحسن فتسئ ، وأن تعفو عنى حال قدرتك أجمل من الانتقام منى . فقال له ابن أبى دؤاد : قبحك الله ، ما علمتك إلا كثير تزويق الكلام ، وقد جعلت ثيابك أمام قلبك ، ثم اصطفيت فيه النفاق والكفر ، ما تأويل هذه الآية : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد » ﴾ قال : تلاوتها تأويلها ، أعز الله القاضى . فقال القاضى : جيئوا بحداد . فقال الجاحظ : أعز الله القاضى ، ليفك عنى أو ليزيدنى ؟ فقال : بل ليفك عنك . فجئ بحدَّاد ، فغمزه بعض أهل المجلس أن يعنف بساق الجاحظ ، ويطيل أمره قليلا . فلطمه الجاحظ وقال اعملْ عَمَل شهر فى يوم ، وعَمَل يوم فى ساعة ، وعَمَل ساعة فى لحظة ، فإن الضرر على ساقى ، وليس بجزع ولا ساجة [1] !

---

(١) الساجة واحدة الساج : شجر عظيم الخشب ، وقد يطلق على الخشب بعامة .

وندع المبرّد صاحب كتاب « الكامل » يصف أيام الجاحظ الأخيرة ، وقد ثقلت عليه السنون فناء بها جسمه ، ووهنت أمامها قواه ، وأصيب بفالج نصفى ، فعاد إلى البصرة مسقط رأسه ، ومهبط ذكرياته ، يحتمى ببيته وأمسه ، يقول : دخلت على الجاحظ فى آخر أيامه ، فقلت له : كيف أنت ؟ فقال : كيف يكون من نصفه مفلوج لو حزَّ بالمناشير ما شعر به ، ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآلمه ، وأشد من ذلك ست وتسعون سنة أنا فيها » . ولم يمت الجاحظ ضحية المرض ، وإنما ذهب شهيد الكتب ، إذ كان من عادته أن يضعها كالحائط محيطة به ، وهو جالس بينها يقرأ ، فانهالت عليه وقتلته ، ولحدته ميتاً ، بعد أن كانت شاغل حياته ، وسلوة عقله ، عام ٢٥٥ هـ = ٩٦٨ م .

كان الجاحظ نابغة عصره ، وكل عصر ، ويحكى عن ثابت بن قرة العالم المشهور أنه قال : ما أحسد هذه الأمة إلا على ثلاثة أنفس : أولهم عمر بن الخطاب ، والثانى الحسن البصرى ، والثالث أبو عثمان الجاحظ . وقد صنف أبو حيان التوحيدى كتابًا فى تقريظ الجاحظ ؛ وبلغ من مزيد اهتمامه بذلك أنه ذكر العلماء الذين كانوا يفضلون الجاحظ ؛ وبين مكانتهم ، ومن تقديره له أنه كان يسلك مسلكه فى تصانيفه ، ويشتهى أن ينتظم فى سلكه ، وقرنه آدم متز فى كتابه « عصر النهضة فى الإسلام » بفولتير Voltaire أديب فرنسا الكبير فى القرن الثامن عشر الميلادى . وبعض كتبه كالبخلاء ، من أوائل المؤلفات التى اضطلع اليونسكو بترجمتها إلى اللغات الأجنبية ، فى مشروعاته التى يضطلع بها ، لتوسيع دائرة التفاهم فى العالم عن طريق الثقافة .

إلا أن التبسط فى الحديث ، والمراوحة فى القول ، والمزاوجة بين الجد والهزل ، كانت تثير عليه المحافظين وأهل الوقار ،وأوجز ابن قتيبة ، وهو خير من يمثلهم ، رأيه فى مصنفات الجاحظ ، معترفًا بعلمه ، ضائقًا بمنهجه : « هو آخر المتكلمين ، والمعاير على المتقدمين ، وأحسنهم للحجة استشارة ، وأشدهم تلطفًا لتعظيم الصغير حتى يعظم ، وتصغير العظيم حتى يصغر ، ويبلغ به الاقتدار إلى أن يعمل الشىء ونقيضه ، ويحتج لفضل السودان على البيضان ، ونجده يحتج مرة للعثمانية على الرافضة ، ومرة للزيدية على العثمانية وأهل السنة ، ومرة يفضل عليا رضى الله عنه ومرة يؤخره ، ويقول : قال رسول الله ﷺ ، ويتبعه : قال الجماز ، وقال

إسماعيل بن غزوان كذا وكذا من الفواحش . ويجلّ رسول الله ﷺ عن أن يذكر فى كتاب ذُكرا فيه ، فكيف من ورقة أو بعد سطر وسطرين ؟ ويعمل كتابًا يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين ؛ فإذا صار إلى الرد عليهم تجوز فى الحجة ، كأنه إنما أراد تنبيههم على ما لا يعرفون ، وتشكيك الضعفة من المسلمين . ونجده يقصد فى كتبه للمضاحيك والعبث ، يريد بذلك استمالة الأحداث وشرّاب النبيذ ، ويستهزئ من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم ، كذكره كبد الحوت ، وقرن الشيطان ، وذكر الحجر الأسود وأنه كان أبيض فسوّده المشركون ، وقد كان يجب أن يبيضه المسلمون حين أسلموا .. وهو مع هذا من أكذب الأمة ، وأوضعهم لحديث ، وأنصرهم لباطل » وعابه أبو الفضل الهمذانى بأن كلامه سهل ، قليل الاستعارات ، قريب العبارات ، وأنه « منقاد لعُريان الكلام يستعمله ، نفور من معتاصه يهمله » . والحق أن ابن قتيبة والهمذانى يقفان وحدهما فى هذا الجانب ، فقد استحدث الجاحظ لونًا من التعبير نسيج وحده ، ووليد عصره ، إن ضاقت به قلة ، فالكثرة الغالبة راضية عنه ، ومِن القلة الضائقة به من يجد فى قراءة كتبه متعة وفائدة وجمالا .

أحاط الجاحظ بأكثر ما عرف على أيامه من علوم ومعارف ، ولم يترك علمًا إلا وضع فيه مؤلفًا ، قد يكون كتابًا ضخمًا أو رسالة صغيرة ، وعالج قضايا لم يفكر فيها أحد قبله ، فبحث فى طبائع الأشياء والحيوان والنبات والمعادن ، وأقام علمه على أساس من المشاهدة والملاحظة والتجربة ، وكتب فى المعلمين ، وبنى هشام ، واللصوص ، وصفات الله ، وكيد النساء ، وأربت مؤلفاته على ثلثمائة وخمسين ، بين كتاب مطوَّل ورسالة مختصرة ، رأى سبط بن الجوْزى ، المتوفى عام ٦٥٤ هـ = ١٢٥٥ م ، أكثرها فى مشهد أبى حنيفة النعمان ببغداد .

لم تصلنا مؤلفات الجاحظ كاملة ، وضاع معظمها فى عهد مبكر ، فنحن لا نعرف شيئًا مثلا عن كتابه « نظم القرآن » إلا ما أورده هو عنه فى كتابه « الحيوان » وما لدينا من بقيَّة مخطوطاته تتقاسمه خزائن الكتب فى العالم بأجمعه ، وقد طبع معظمها ، وبقيتْ منها قلة لن يبعد بها الزمن حتى تطبع ، فأدب الجاحظ يجد من الباحثين عناية ومن القارئين إقبالا . ويطول بنا تعداد رسائله المطبوعة ،

أما كتبه فأشهرها: البخلاء، والحيوان، والبيان والتبيين، وهذان الأخيران موضوع دراستنا منها.

* * *

ألف الجاحظ **البيان والتبيين** فى أخريات حياته ، حين علت به السن وقعد به المرض ، وأهداه إلى القاضى **أحمد بن أبى دؤاد** ، وإذا عرفنا أن صلته به توثقت بعد مقتل **ابن الزيات** عام ٢٣٣ هـ = ٨٤٧ م ، وأن ابن أبى دؤاد صُرِف عن القضاء لفالج أصابه ، وأن الجاحظ لزمه فى هذه الأيام حتى وفاته عام ٢٤٠ هـ = ٨٥٤ م يمكن القول إن كتاب « البيان والتبيين » اتخذ شكله النهائى خلال هذه الأعوام ، وطبقًا لرواية **ياقوت** كان لدى الناس فى عصره **نسختان من الكتاب** ، الثانية منها أصح من الأولى وأجود ، وفيها يبدو أعاد الجاحظ صياغة الأولى رغم كراهيته تصحيح مؤلفاته ، فكانت الأخرى بمثابة الطبعة الثانية للكتاب فى عصرنا الحديث ، تحمل آخر أفكار المؤلف وتصويباته ، وارتأى المستشرق الفرنسى **كليمان أوار** Clement Huart (١٨٥٤ - ١٩٢٧ م) فى كتابه : الأدب العربىLa Litteratuer Arabe أن أصل عنوان الكتاب « البيان والتّبيُّن » لأن كلمة « التبين » تشير إلى النقد والتحقيق أكثر من كلمة « التبيين » وتابعه فى رأيه بعض الباحثين العرب المحدثين . ولم يسق المستشرق الفرنسى بين يديه حججا تعتمد على النقل ، مكتفيًا بأدلته العقلية ، وفيها من التمحّك أكثر مما فيها من العلم ، لأن عناوين الكتب لا يبحث فيها عما هو أولى وأنسب ، وإنما نلتزم بإزائها النص والرواية ، وبخاصة إذا كانت تدعمها شهرة مستفيضة ، وما بين أيدينا من مخطوطات الكتاب يجعل العنوان الذى عُرِف به إن لم يكن يقينا قاطعا ، فهو أقرب إلى اليقين .

لدينا من **مخطوطات الكتاب** ست فيما أعلم ، أقدمها فى مكتبة فيض الله بإستنبول ، برواية **أبى جعفر البغدادى** ، بخط أندلسى نفيس جدا ، فى ١٩٩ ورقة ، كتبها لنفسه محمد بن يوسف بن حجاج بن زهير اللخمى ، فضلا عن نسخة أبى ذر بن محمد بن مسعود الخشنى ، وعارض ما كتب على الأصل ، هو يقرأ وأبو ذر يمسك كتابه ويصحح له ، وكتب أبو ذر نسخته نقلا عن نسخة أبى

جعفر البغدادى نفسه ، وذلك بمدينة سبتة[١] وشهد بذلك الخشنى فخطّ بيده : « أكمل الفقيه الحسيب الأديب أبو عمرو محمد بن يوسف بن حجّاج اللخمى .. وفقه الله ، جميع كتاب البيان والتبيين ، لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله ، وعارض كتابه هذا بكتابى ، وفسرتُ له ما أشكل من معانى نثره ونظمه ، وشرحتُ له غريب لغته ، وبيّنتُ له مواقع بلاغته ، حسب اعتنائى بهذا الكتاب ومزاولتى له ، فكمّل قراءته علىّ فى العشر من ذى الحجة سنة ٥٨٧ هـ = (ديسمبر ١١٩١ م) والحمد لله حق حمده . قاله وكتبه بخطه أبو ذرّ ابن محمد بن مسعود الخشنى فى التاريخ المذكور » .

والمخطوطة الثانية توجد فى مكتبة كوبريلى بإستنبول أيضًا ، وهى فى جزأين تنبّه فى آخر كل جزء منهما على أنه قد انتهى وابتدأ الذى يليه ، والجزء الأول فى ٣٥٦ صفحة ، والثانى فى ٣٥٥ ، ومسطرتها سبعة عشر سطرا وفى نهايتها : « كمل السفر الثانى ، وبتمامه تمّ الكتاب بأسره بفضل الله وعونه . والصلاة على سيدنا محمد وآله . فى الجمعة سابع المحرم من سنة أربع وثمانين وستمائة (= مارس ١٢٨٥ م) علّقه الفقير إلى الله أحمد بن سلامة بن سالم المعرى » .وتوجد مصوّرة فى دار الكتب المصرية فى أربعة مجلدات ، تحت رقم ٤٣٧٠ أدب .

والثالثة نسخة دار الكتب المصرية ، وتوجد برقم ٤٧١ أدب ،وهى فى مجلد واحد يقع فى ٧٠٠ صفحة ، ومسطرتها عشرون سطرًا ، ومكتوبة بخط فارسى جميل وليس بها ضبط ، وكتب فى صدرها : (فيما صار نسخه بالمدينة المنوّرة على ذمة « الكتبخانة الخديوية » ومضاف فيماه مايو ١٨٨٢) وكلمة « فيماه » مكونة من « فى » العربية ، و « ماه » الفارسية التى بمعنى شهر ، ويقابل من التاريخ الهجرى عام ١٢٩٩ . وعنوانها : « كتاب البيان والتبيين لأبى عثمان عمرو بن (يحيى) الجاحظ وهو كتاب جيّد النظم والنثر الموضوع على منوال كامل المبرّد بل يفوق عليه حسنا ، وبلاغة » وكلمة « يحيى » تحريف لكلمة « بحر » أما إشارته إلى « كامل المبرّد » فخطأ تاريخى ، لأن الجاحظ سبق المبرد كتابا وحياة رغم تعاصرهما ، ولم يشر ناسخها إلى الأصل الذى نقل عنه .

(١) سبتة ceuta مدينة أندلسية قديمة ، تقع فى المغرب ، على شاطئ البحر الأبيض ، قريبًا من طنجة ، وهى إحدى مدينتين مأهولتين بالإسبان ، وما زالتا تتبعان إسبانيا حتى الآن .

والنسخة الرابعة فى دار الكتب المصرية ، تحت رقم ١٨٧٢ أدب ، وهى فى مجلد واحد يقع فى ٧٥١ صفحة ، ومسطرتها واحد وعشرون سطرًا مكتوبة بالخط المعتاد ، وغير مضبوطة ، وأتمّ نسخها محمد سليم من أصل لم يشر إليه ، فى يوم الخميس المبارك الموافق ١١محرم الحرام سنة ٣٠٩هـ ثلثمائة وتسعة بعد الألف (= أغسطس ١٨٩١م) وعليها أثر تصحيحات بقلم العلامة محمد محمود بن التلاميد التركزى الشنقيطى ، وألصق بآخرها ورقة بها تعليقات فهرسية لمواضع متفرقة من الكتاب بخطه أيضًا .

والمخطوطة الأخيرة توجد فى المكتبة التيمورية برقم ٤٨٩ أدب ، فى مجلد واحد ، تبلغ صفحاته ٥٨٨ صفحة ، ومسطرتها تسعة عشر سطرًا ، وكُتبت فى خط فارسى معتاد ، وبهوامشها تعليقات كثيرة بخط الناسخ ، وهى مجهولة التاريخ وكُتب فى صدرها أنها من كتب الفقير عبد السلام المويلحى فى ٢ رجب ١٢٨٥هـ (= أكتوبر ١٨٦٨ م) ، وبها عدة أسقاط ، من مواضع متفرقّة ، تبلغ نحو ٢٠ صفحة ، قيد مواضعها فى أوّل الكتاب المغفور له أحمد تيمور باشا .

تُرَى هل هذا كل ما وصلنا من مخطوطات « البيان والتبيين » أشك فى ذلك كثيرًا ، فالكتاب كان معروفًا على امتداد العالم العربى كله ، وأتصوّر أن عددًا من مخطوطاته مازال دفينًا فى خزائن الكتب العامة ، أو فى المكتبات الخاصة وليس من سبيل إلى معرفة ما تحتويه ، والأمر يحتاج إلى مزيد من الجهد فى تتبع آثار الجاحظ ، لتعود بين أيدينا نصوصًا مقوّمة كما صاغها صاحبها ، بلا تحريف ولا تصحيف ولا إسقاط .

* * *

دأب الجاحظ فى « البيان والتبيين » ، وغيره من مؤلفاته ، **أن يرسل نفسه على سجيتها** ، لا يتقيد بنظام يترسمه ، ولا بمنهج يلتزمه ، يبدأ الكلام فى قضية ثم يدعها أثناء ذلك ليدخل فى قضية أخرى ، ثم يعود إلى ما أسلف ، حتى ليصعب الاهتداء فى جنبات مؤلفه إلى الفكرة والرأى لمن يبحث عنها ، وكان الجاحظ يشعر بذلك ، ويعتذر عنه أحيانًا . فإذا تكلم عن « البيان » بعد حديث طويل عن العجز والعىّ وحال قريش فى بلاغة المنطق ، مهدّ له بقوله : « كان فى الحق أن يكون هذا الباب فى أول الكتاب ، ولكنّا أخرناه لبعض التدبير » . وأدى ذلك إلى تكرار

النصوص ، والحديث عن الموضوع الواحد فى أكثر من مكان ، وقد يكون التكرار فى « الباب » نفسه ، وقد يكون فى الكتاب ، فى الجزء نفسه أو فى جزء آخر منه ، كالحديث عن البلغاء وأخبارهم ، والخطباء ومواقفهم ، والحمقى ونوادرهم ، وعلل الجاحظ استطراده بأنه صنع ذلك ليدفع السأم عن نفس القارئ ، وعلله الآخرون بأنه جاء نتيجة علمه الكثير يتدافع عليه ، وأراه وليد تكوين الجاحظ الثقافى ، القائم على معرفة كل شيء ، ومن أن الكتاب لم يُؤَلف مرة واحدة ، وإنما كتب فصولا متفرقة ، فى أزمنة متباعدة ، فاستحال أن يربطه خيط فكرى واحد .

وعلى غير عادة معاصريه واجه موضوعه مستعيذًا من التكلّف لما لا يحسن ، ومن العجب بما يحسن ، ومن السلاطة والهذر ، ومن العِيّ والحصر ، وكانت هذه الاستعاذة مقدمة الكتاب ، وكانت موضوعه ، فلم يقدم بين يدى كتابه منهجا التزمه ، ولا خطة شرحها ، ولا قصدا حدّده .

تحدَّث الجاحظ تحت عناوين ثلاثة ، **البيان والبلاغة والخطابة** ، عن قضية واحدة هى الكلام الجيد ، خطبة أو جدلا ، أو حوارًا أو قصصًا .

فالبيان عنده كل شيء كشف لك قناع المعنى ، وهتك الحجاب دون الضمير ، حتى يفضى السامع إلى حقيقته ، فبأى شيء بلغتَ الأفهام ، وأوضحت عن المعنى ، فذلك هو البيان . وجميع أصناف الدلالات على المعانى ، من لفظ وغير لفظ ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد :

اللفظ ، والإشارة ، والعقد[1] ، والخط والحال .

والبلاغة تصحيح الأقسام ، واختيار الكلام ، وحسن الاقتضاب عند البداهة ، والغزارة يوم الإطالة ، وهى وضوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة ، وحسن الإشارة . وكل من أفهمك حاجة من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ ، فإن أردت اللسان الذى يروق الألسنة ، ويفوق كل خطيب ، فإظهار ما غمض من الحق ، وتصوير الباطل فى صورة الحق ، وزيْن ذلك كله ، وبهاؤه وحلاوته وسناؤه ، أن تكون الشمائل موزونة ، والألفاظ معدّلة ، واللهجة نقيّة ، فإن جامع ذلك السنّ والسمت والجمال وطول الصمت ، فقد تمّ كل التمام ، وكمل كلّ الكمال .

---

(١) العقد : ضرب من الحساب يكون بأصابع اليدين ، يقال له حساب اليد .

وفى الخطابة ينبغى للمتكلم أن يعرف أقدار المعانى ، ويوازن بينها وبين أقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ، ولكل حالة من ذلك مقاما ، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعانى ، ويقسم أقدار المعانى على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات .

وقف الجاحظ كتابه على الأدب الشفاهى بألوانه المتعددة ، وإذا عرض لغيره ففى مقام الاستدلال أو المقارنة ، ولم يقصر بحثه على الأدب وحده ، وإنما تعداه إلى الأديب نفسه ، فدرسه تشريحًا وثقافة وتاريخًا ، فأفاض القول فى الخطابة ، وما تتطلبه من الجهر بالقول وترفيع الصوت ، وفى الدمامة وتأثيرها فى قدر الخطيب ، وفى اكتمال أسنانه ونقصها أو سقوطها ، وسعة شدقه أو ضيقه ، وأثر ذلك فى مخارج حروفه ، وما يجب أن يكون عليه أثناء الكلام ، من استخدام الإشارة ، وارتفاع الصوت ، أو سكون الجوارح وهدوء النبر . وعدة الخطيب : « شدّة العارضة ، وقوة المنة ، وظهور الحجة ، وثبات الجنان » . وخص العصا كلازمة للخطيب بفصل خاص .

وعَبْرَ ذلك كله ، قدم لنا معلومات ضافية ، عن البلغاء والخطباء والفقهاء والأمراء ، وهو لا يهتم بتراجمهم الشخصية وأخبارهم ، بقدر ما يركز على تصوّرهم للبلاغة ، أو تفوّقهم فى مجال القول . وبسط القول عن علماء المعتزلة فما منهم إلا وأورد عنه خبرًا ، أو ذكر له نادرة ، كواصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد ، وعيسى بن حاضر ، وبشر بن المعتمر ، وعرض فى حياد للصراع الذى كان بين بشار بن برد الشاعر وواصل بن عطاء . وترجم لبعض علماء الخوارج وخطبائهم فى إيجاز ، كالقاسم بن عبد الرحمن ابن صُديقة ، والضحاك ابن قيس ، وعمران بن حطان ، ولم يتردد فى الثناء على من عرف منهم ، فيقول عن أستاذه أبى عبيدة معمر بن المثنى ، مولى تيم بن مرة : « لم يكن فى الأرض خارجى ولا جماعى أعلم بجميع العلم منه » ، وأورد لخطبائهم نصوصا متعدّدة .

والبيان ليس خطابة وحسب ، فقد يكون رسائل ووصايا ، ويخيل إلىّ أن الجاحظ وهو يتكلم عن الأولى ، كان يضع عينه على الرسائل الشفوية أيضا ، وقد يكون حُكما فى منافرة ، أو فصلا بين خصوم ، أو وعظا لقوم ، أو قصة تحدَّث فى جمع ، فاعتنى بذلك كله ، وأورد منه نصوصًا كثيرة ، وعرض لمشاهير القصاص

والنساك والزهاد ، والكهان ، وكل حديثهم أدب مسجوع .

ولم يخص الشعر كفن مستقل إلا بصفحات قليلة ، وخص ما قيل منه فى مدح الخطب واللسن بباب مستقل ، ويورد قول أبى عمرو بن العلاء : « إن الشاعر كان مقدّما فى الجاهلية على الخطيب ، لفرط حاجتهم إلى الشعر الذى يقيد عليهم مآثرهم ويَفخم شأنهم ، ويهوّل على عدوّهم ومن غزاهم ، ويهيّب من فرسانهم ويَخوف من كثرة عددهم ، ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم ، فلما كثر الشعر والشعراء ، واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوقة ، وتسرعوا إلى أعراض الناس ، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر » ويحتج لقلة النثر الجاهلى : « ما تكلمت به العرب من جيد المنثور ، أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون ، فلم يحفظ من المنثور عشره ، ولا ضاع من الموزون عشره » ولا يعنى ذلك أن الشعر فى كتابه قليل ، فهو لا يكاد يبدى رأيًا أويورد خبرًا إلا وشحه بالبيت أو البيتين أو القصيدة كاملة .

وإذا كانت المقابلة تزيد الأمر وضوحًا ، فلا يعرف الشىء إلا قرين نقيضه ، تحدّث الجاحظ عن الصمت والعىّ ، والحمق ، والتشادق والإغراق والفضول ، واللحن ونوادر الأعراب والألغاز ، والمجانين ، وأخطاء العلماء ومزدوج الكلام والإيماء ، وهو حديث فضلا عن تجليته لقضية البيان ، كما يراه الجاحظ ، فيه ترويح عن نفس القارئ له ، ونفع له فى بيانه وعبارته كيلا يضلّ السبيل .

وكانت دراسة المسلمين للحديث فى عصر الجاحظ وبعده ، قائمة على نقد الإسناد ، دون تعرض للمتن نفسه ، أما الجاحظ فخرج على هذه القاعدة ،وعندما روِى حديث يمس « البيان » رفضه ورد عليه : زعمتم أن رسول الله ﷺ قال : « شعبتان من شعب النفاق : البذاء والبيان . وشعبتان من شعب الإيمان : الحياء والعى . ونحن نعوذ بالله أن يكون القرآن يحث على البيان ورسول الله يحث على العى ، ونعوذ بالله أن يجمع رسول الله ﷺ بين البذاء والبيان ، وإنما وقع النهى على كل شىء جاوز المقدار ، ووقع اسم العى على كل شىء قصَّر عن المقدار ، فالعى مذموم ، والخطل مذموم ، ودين الله تبارك وتعالى بين المقصر والغالى » .

وفى الكتاب مادة موفورة لدراسة عادات وتقاليد المجتمع الإسلامى فى

بغداد والبصرة على أيام الجاحظ ، لأنه يغترف مما حوله ، ويلتزم الدقة فى إيراده ، حتى الألفاظ العامية يوردها كما هى ، وشكا من أن الرسم العربى غير كاف لتصوير كل الأصوات التى يريد كتابتها ، فهو مصدر لعالم اللغة ، حين يبحث فى تطور الكلمات ، وتوزّع اللهجات ، وظواهر اللحن ، وخصائص القبائل ، وفروق الدلالات ، والحروف الأكثر دورانًا ، والألفاظ الأكثر توافقًا ، وتطور المصطلحات فى مختلف مجالات العلوم ، ويورد قصة الأعرابى وقد سئل : أتهمز إسرائيل ؟ قال : إنى إذًا لرجل سوء ، فقيل له أتجرّ فلسطين ؟ أجاب : إنى لقوى ، لأنه لم يعرف من الهمز والجر غير معناهما اللغوى .

وضمّن الكتاب **بعض خواطر معاصريه وسابقيه فى الشعر العربى** ، وهى خطرات ذهن ، ولفتات فيها من الذكاء واللماعية ، أكثر مما فيها من التأمّل والقاعدة ، ولا تجد فى « البيان والتبيين » أية إشارة تدل على أنه كان يعنى « بالبلاغة » المعنى الذى ستعرف به فيما بعد عصره بقليل ، ومع أنه استخدم فى الكتاب كلمات : الإيجاز والحذف والسجع والازدواج والتشبيه والإطناب إلا أن حديثه عنها كان حديثًا فضفاضًا ، ومفهومه لها مرتبط كما قلنا بلون معين من القول ، وأظن أن أستاذنا المرحوم الدكتور إبراهيم سلامة جانب الصواب حين قرر أن الجاحظ « واضع أساس البلاغة العربية ، وواضع بعض مصطلحاتها ما فى ذلك ريب[1] » .

لكن **استطراد الجاحظ** وتَرسله إذا أخذ بلب القارئ ، فإنه فى الوقت نفسه ، **يجعل مهمة الباحث عسيرة** ، لأن معرفة ما فى الكتاب وما يراد من روايته ، وهى جزء من فهم النص ، تتطلب أناة فى القراءة ، ومعاودة لها ، وتحليلا دقيقًا لمدلولات كل لفظ ، وأيًّا ما كان الأمر فقد أصبحت هذه الطريقة جزءًا من الجاحظ وأدبه ، وانعكاسًا لنفسيته ومزاجه ، وليس بوسعنا الآن غير أن نقول : « لو سلك طريقًا آخر أكثر تنظيمًا ، لكان أفضل » وقد حاول كثيرون تلخيص بعض كتب الجاحظ وتجريدها من الاستطراد ، وما حوته من الاستشهاد ، فانتهى بهم الأمر إلى

---

(١) إبراهيم سلامة . بلاغة أرسطو بين العرب واليونان . ص ٦٥ . الطبعة الأولى . القاهرة ١٣٦٩ هـ = ١٩٥٠ م .

العجز ، أو يعود الكتاب فى أيديهم جثة هامدة ، لا شىء فيها من روح الجاحظ وفنه .

كان كتاب « البيان والتبيين » موضع تقدير القدامى ، فقال عنه المسعودى المؤرخ ، إنه أشرف ما كتب ؛ « لأنه جمع فيه من المنثور والمنظوم ، وغُرَرَ الأشعارِ ومستحسن الأخبار ، وبليغ الخطب ، ما لو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى به » وكان من الكتب المحببة إلى أبى بكر الخوارزمى ، المتوفى عام ٣٨٣ هـ = ٩٩٣ م ، يقول : « وضعت عن يمينى عهد أردشير بن بابكان ، وعن يسارى كتاب « البيان والتبيين » ، وبين يدىّ فصول بزرجمهر بن البختكان ، وقبل ذلك رسائل مولانا الصاحب بن عباد » .

وأوجز أبو هلال العسكرى فى كتابه « الصناعتين » فضائل الكتاب وعيوبه ، وهو يتحدث عن كتب البلاغة فقال : « وكان أكبرها وأشهرها كتاب « البيان والتبيين » لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وهو لعمرى كثير الفائدة ، جمّ المنافع ، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة ، والفِقَر اللطيفة ، والخطب الرائعة ، والأخبار البارعة ، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء ، وما نبه عليه من مقاديرهم فى البلاغة والخطابة ، وغير ذلك من فنونه المختارة ، ونعوته المستحسنة ، إلّا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة فى تضاعيفه ، ومنتثرة فى أثنائه ، فهى ضالة بين الأمثلة ، لا توجد إلا بالتأمل الطويل ، والتصفّح الكثير » . وجعله ابن خلدون واحدًا من أركان الأدب الأربعة : أدب الكاتب لابن قتيبة ، والكامل للمبرّد ، والأمالى لأبى على القالى ، والبيان والتبيين للجاحظ ، وقد أفاد منه كثيرون ممن جاءوا بعده فنقل عنه ابن قتيبة فى « عيون الأخبار » والمبرّد فى « الكامل » ، وابن عبد ربه فى « العقد الفريد » ، وأبو هلال العسكرى فى « الصناعتين » ، والحصرى فى « زهر الآداب » ، وابن رشيق القيروانى فى « العمدة فى صناعة الشعر ونقده » .

* * *

وفى العصر الحديث لقيت كتب الجاحظ بعامة و « البيان والتبيين » بخاصة ، إقبالا من القراء ، فكانت من أوائل المطبوعات ، فطبع « البيان » للمرة الأولى ، فى مجلدين ، خلال الأعوام ١٣١١ - ١٣١٣ هـ . ونشر للمرة الثانية فى ثلاثة

مجلدات ، بإشراف الأستاذ **محب الدين الخطيب** ، عام ١٣٣٢ هـ . وقام الأستاذ **حسن السندوبي** بتحقيقه ونشره فى ثلاثة مجلدات ، وظهرت الطبعة الأولى عام ١٣٤٥ هـ ، والثانية ١٣٥١ هـ ،وبذَل جهدا مشكورًا فى تحقيق نصّه ، والتعريف بأعلامه ، وألحق به بعض الفهارس .

وأخيرا قام الأستاذ **عبدالسلام هارون** بتحقيق الكتاب ، مستخدمًا المخطوطات التى تحدثنا عنها قبلاً ، باستثناء المخطوطة الأولى ، « وعُنِىَ بضبط الكتاب محققًا ما به من الألفاظ الغريبة والكلمات الفارسية والبصرية ونحوها ، كما عُنى بتحقيق الأعلام وترجمتها على ما فى ذلك من عُسر شديد وجهد جهيد » كما حقق نصوصه وخرّجها ، ونسب الشعر إلى قائله ، وأبقى تقسيمه كما صنعه الجاحظ ، لم يحدث فيه تغييرًا ، ولم يضف إليه شيئا من العناوين . وصدرت الطبعة الأولى منه ، فى أربعة مجلدات ، عن « لجنة التأليف والترجمة والنشر » عام ١٣٦٧ هـ = ١٩٤٨ م ، وقد ألحق بكل مجلد فهرسًا للأعلام المترجمة ، وفى آخر الكتاب قدَّم فهارس تفصيلية ، للخطب ، والرسائل والوصايا ، والأشعار ، والأرجاز ، والأمثال ، واللغة ، والأعلام ، والبلدان والمواضع والمياه ، وأيام العرب ، والحضارة ، والكتب .

○ **مختارات من « البيان والتبيين » :**

بين الكُمَيْت والطرمَّاح[١]

قال أبو عثمان الجاحظ : ولم ير الناس أعجب حالا من الكميت والطرّماح ، وكان الكميت عدنانيًّا عصبيًّا ، وكان الطرّماح قحطانيًّا عصبيًّا . وكان الكميت شيعيًّا من الغالية ، وكان الطرّماح خارجيا من الصُّفْريَّة . وكان الكميت يتعصب لأهل الكوفة ، وكان الطرَّماح يتعصّب لأهل الشام . وبينهما مع ذلك من الخاصة والمخالطة ما لم يكن بين نفسين قط ، ثم لم يجر بينهما صَرْمٌ ولا جفوة ولا إعراض ، ولا شيء مما تدعو هذه الخصال إليه . ولم ير الناس مثلهما إلاّ ما ذكروا من حال

---

(١) هذا العنوان ، وكل عناوين المختارات ، من وضعى أنا

عبد الله بن يزيد الأباضى ، وهشام بن الحكم الرافضى ، فإنهما صارا إلى المشاركة بعد الخلطة والمصاحبة .

كل حرفة وتمامها !

وقال إبراهيم بن هانئ : من تمام آلة القصص أن يكون القاص أعمى ، ويكون شيخا بعيد مدى الصوت . ومن تمام آلة الزمر أن تكون الزامرة سوداء ، ومن تمام آلة المغنّى أن يكون فاره البرْذَون ، برّاق الثياب ، عظيم الكبر ، سيِّئ الخُلُق . ومن تمام آلة الخمار أن يكون ذميًا ، ويكون اسمه أذين أو شَلُومَا ، أو مازيار ، أو أزدا نقاذار ، أو ميشا ، ويكون أرقط الثياب مختوم العُنق . ومن تمام آلة الشعر أن يكون الشاعر أعرابيًّا ، ويكون الداعي إلى الله صوفيا . ومن تمام آلة السؤدد أن يكون السيد ثقيل السمع ، عظيم الرأس . لذلك قال ابن سنان الجديدى ، لراشد بن سَلَمة الهُذلى : « ما أنت بعظيم الرأس ، ولا ثقيل السمع ، فتكون سيدا ، ولا بأرسح فتكون فارسًا » .

خطبة أبي حمزة الخارجي(١)

دخل أبو حمزة الخارجى مكة – وهو أحد نسّاك الإباضية وخطبائهم ، واسمه يحيى بن المختار – فصعد منبرها متوكئًا على قوس له عربية ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

أيها الناس ، إن رسول الله ﷺ كان لا يتأخر ولا يتقدّم إلا بإذن الله وأمره ووحيه ، أنزل الله كتابًا بين له فيه ما يأتى وما يتقى ، ولم يك فى شك من دينه ، ولا فى شبهة من أمره ، ثم قبضه الله وقد علم المسلمين معالم دينهم ، وولّى أبا بكر صلاتهم ، فولّاه المسلمون أمر دنياهم حين ولّاه رسول الله أمر دينهم ، فقاتل أهل الردّة وعمل بالكتاب والسنة ، فمضى لسبيله رحمة الله عليه .

....

ثم أقبل على أهل الحجاز فقال :

---

(١) هذا العنوان من عمل الجاحظ .

يا أهل الحجاز ، أتعيرونني بأصحابي وتزعمون أنهم شباب ؟! وهل كان أصحاب رسول الله ﷺ إلا شبابا . أما والله إني لعالم بتتابعكم فيما يضرّكم في معادكم ، ولولا اشتغالي بغيركم عنكم ما تركت الأخذ فوق أيديكم ، شباب والله مكتهلون في شبابهم ، غضيضة عن الشرّ أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة وأطلاح سهر ، ينظر الله إليهم في جوف الليل منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقا إليها ، وإذا مرّ بآية من ذكر النار شهق كأن زفير جهنم بين أذنيه . موصول كلالهم بكلالهم : كلال الليل بكلال النهار . قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم ، وأنوفهم وجباههم ، واستقلوا ذلك في جنب الله ، حتى إذا رأوا السهام قد فُوّقت ، والرماح قد أُشرعت ، والسيوف قد انتضيت ، ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعد الله ، ومضى الشاب منهم قدمًا حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه ، فأسرعت إليه سباع الأرض ، وانحطتْ عليه طيرُ السماء ، فكم من عينٍ في منقار طائر طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خوف الله ، وكم من كفّ زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها في جوف الليل بالسجود لله . آه آه آه ، ثم بكى ونزل .

متفرقات

وقيل لمحمد بن عمران : ما المروءة ؟ قال : أن لا تعمل في السرّ شيئًا تستحي منه في العلانية .

وقيل للأحنف : ما المروءة ؟ قال : العفّة والحرفة .

وقال طلحة بنُ عبيد الله : المروءة الظاهرةُ الثياب الطاهرة .

وقيل لأبي هريرة : ما المروءة ؟ فقال : تقوى الله ، وإصلاح الصنيعة والغداء والعشاء بالأفنية .

ونظر بكر بن الأشعر ، وكان سجّانا ، مرة إلى سور دار بجالة بن عبدة فقال : لا إله إلا الله ، أي سجن يجيء من هذا .

وقال إنسانٌ صيرفيّ : باعني إنسان عشرين جريبًا ، ودانقين ونصفًا ذهبا

قال : ونظر عثمان بن عفان رحمه الله إلى عير مقبلة ، فقال لأبى ذرّ : ما كنت تحب أن تحمل هذه ؟ قال أبو ذرّ رجالا مثل عمر .

وقيل للزُّهرى : ما الزهد فى الدنيا ؟ فقال : أما إنه ليس بشعث فى اللمّة ، ولا قشِف الهيئة ، ولكنه ظَلْف النفس عن الشهوة .

وقيل له أيضًا : ما الزهد فى الدنيا ؟ قال : ألا يغلب الحرام صبرك ، ولا الحلال شكرك .

قالوا : ومر المسيح عليه السلام بحلَق بنى إسرائيل فشتموه ، فكلما قالوا شرا قال المسيح ﷺ خيرًا ، فقال له شمعون الصفىّ : أكلما قالوا شرًا قلتَ لهم خيرًا ؟ قال المسيح : « كل امرئ يعطى مما عنده » .

وقال بعضهم : قيل لامرئ القيس بن حُجر : ما أطيبُ عيش الدنيا ؟ قال : بيضاءُ رعبوبة ، بالطيب مشبوبة ، بالشحم مكروبة .

وسئل عن ذلك الأعشى فقال : صهباء صافية ، تمزجها ساقية ، من صوب غادية .

وقيل مثل ذلك لطرفة فقال : مطعم شهى ، وملبس دَفى ، ومركب وطىِ .

كتاب الحيوان
للجاحظ

● كتب المستشرق الإسبانى ميجيل أسين بلاثيوس هذه الدراسة ونشرها فى مجلة « إيزيسIsis » ، مايو ١٩٣٠م، العدد رقم ٤٣ ، المجلد الرابع عشر ، ثم نشرت بعد وفاته فى أعماله المختارة ، المجلد الثانى ، الصفحات ٢٩ - ٧٠ ، مدريد ١٩٤٨م.

عـاش عـالم البـصـرة الموسـوعى فى القـرن التـاسع الميـلادى، واشـتـهـر بأنه أديب وفيلسوف أكثر منه رجل علم[١] ، ودعوناه موسوعيا لأن فضوله الفكرى تجاوز كل حد ، وبين مؤلفاته الكثيرة عدد من الكتب يعرض لموضوعات تنتمى إلى عالم الطبيعة أو الفيزياء ، واحتفظ لنا الجاحظ نفسه ، فى مقدمة كتابه « الحيوان »[٢] بعناوين هذه الكتب ، والعناوين وحدها كافية لكى تومئ إلى أهمية محتواها .

وإليك قائمة بما هو أكثر أهمية من بينها لتأريخ علم المعادن ، والكيمياء والنبات ، وعلم الأجناس ، والاجتماع ، وطبائع الإنسان ، والتقنية ، وغيرها : كتاب الصرحاء والهجناء ، ومفاخرة السودان والحمران ، وموازنة ما بين حق الخئولة والعمومة ، الزرع والنخل والزيتون والأعناب ، أقسام فضول الصناعات ومراتب التجارات ، وفضل ما بين الرجال والنساء ، وفرق ما بين الذكور والإناث ، « وفى أى موضع يغلبن ويفضلن ، وفى أى موضع يكن المغلوبات والمفضولات ، ونصيب أيهما فى الولد أوفر ، وفى أى موضع يكون حقهن أوجب ، وأى عمل هو بهن أليق ، وأى صناعة هن فيها أبلغ » . وكتاب القحطانية

---

(١) لمعرفة حياته وأعماله انظر : سارتون ، مقدمة لتاريخ العلم ، جـ ١ ص ٥٨٦ - ٥٩٧ وعن أفكاره الفلسفية والكلامية ، وتأثيره فى نشأة الفلسفة الإسلامية فى الأندلس ، انظر : أسين بلاثيوس ، ابن مسرة ومدرسته ، ص ٢١ ، ١٣٣ ، ١٣٧ مدريد ١٩١٤ .

(٢) كتاب الحيوان ، طبعة القاهرة ١٣٢٣ هـ ، جـ ١ ، الصفحات ٢ - ٥ .

والعدنانية ،وكتاب العرب والموالى ، والعرب والعجم ، والأصنام ، وفيه يدرس حب الهنود لبوذا ، وسبب عبادة العرب إياها ، وكتاب المعادن ، وفيه يدرس جواهر الأرض ، وتنوع المواد : السائلة والجامدة ، الطبيعية والصناعية ، وكيف يتغير بعضها سريعًا ، والبعض الآخر ببطء ، وكيف صار بعض الألوان يصبغ ولا ينصبغ ، وبعضها ينصبغ ولا يصبغ ، وبعضها يصبغ وينصبغ ، والقول فى الأكسير والتلطيف ، وكتاب الرياضيات ، وغيرها . ولو أن معظم كتب الجاحظ لم يصلنا لسوء الحظ ، ومع ذلك فبعض الموضوعات الهامة المتصلة بها تظهر من حين لآخر ، خلال الصفحات التى نقلها الجاحظ منها فى مؤلفه العظيم : كتاب الحيوان[1] .

ليس هذا الكتاب دراسة منهجية وتقنية لعالم الحيوان ، وإنما سيل من الملاحظات العلمية غير المنتظمة ، تختلط بالمأثورات الشعبية ، والشعر والقصص والحكايات المتصلة بالحيوان .

ولا يهدف المؤلف أصلًا إلى تهذيب القارئ ، بقدر ما يهدف إلى أن يوقظه ، واضعا أمام عينيه روائع عالم الحيوان ، لكى يستطيع أن يتأمل بديع صنع الله ، ويؤكد الجاحظ فى أكثر من مكان على غايته الأولى من الكتاب ، وفى ضوء هذه الغاية انبثق منهجه ، وخطة تحريره .

إنه لا يكتب للتقنيين ، وإنما لعامة الناس ، ولهذا يهرب من التزام أى منهج علمى منظم فى دراسة وتتبع أنواع الحيوان المختلفة ، ويحاول على العكس ، أن يبهج القارئ ما استطاع ، فيورد فى بداية كل باب لونًا من القصص والأشعار[2] .

ولكن ، إذا لم يكن الكتاب علميا بخطته ومنهجه ، فإنه بمادته يأتى فى أعلى طبقة من العلمية . وقبل كل شىء ، فإن المؤلف يستمد معلوماته من مصادر ممتازة ، على

---

(١) يتكون كتاب الحيوان من سبعة أجزاء ، جاءت فى ١٠٨٩ صفحة ، على النحو الآتى : الجزء الأول فى ١٩٦ صفحة ، الثانى فى ١٣٥ ، الثالث فى ١٦٨ ، الرابع فى ١٥٦ ، الخامس فى ١٧٥ ، السادس فى ١٧٥ ، السابع فى ٨٤ صفحة .

(٢) إليك الفقرات التى بسط فيها الجاحظ غايته من الكتاب ومحتواه ومنهجه وخطته ، ودفاعه فى مواجهة النقاد الذين عابوه ، عند ظهور المخطوطة لأول مرة ، دون شك ، انظر : الحيوان ، جـ ١ الصفحات ٦ ، ١٩ ، ٤٦ جـ ٣ ص ٢ - جـ ٤ ص ٦٩ - جـ ٥ ص ٥٠ - جـ ٦ ص ٢ ، ٧٥ - جـ ٧ ص ٢ ، ٤ .

نحو ما يشير إليه هو نفسه فى المقدمة (جـ١ ص ٦) . فقد استخدم فى تحريره كتب الفلاسفة ، وأخبار الرحالة ، وروايات البحارة وغيرهم ، والملاحظة والتجربة المباشرة ، أما غرام الجاحظ بالكتب فذائع فى العالم الإسلامى ومشهور . ومن ثم دبّج فى مقدمة كتابه الحيوان (جـ ١ ص ٢٤ - ٤٨) مقالا رائعا عن فضيلة الكتاب ، أى كتاب ، يفيض بالآراء الصائبة ، والأفكار المحلقة ، وفيه جمع العبارات الأكثر شهرة فى مدح الكتب ، وأطرى سمو الكتابة فى مواجهة كل وسائل التعبير الأخرى ، بما فيها الخطابة ، لأن الكلمات تطير والكتابة تبقى ، وليس من السهل دائما العثور على أساتذة ، ولكن الكتب فى متناول اليد عندما نحب ، وهى آثار أكثر خلودًا من القصور والحصون . وقد شغل التقتير فى شراء الكتب ، وفضيلة الجود ، اهتمام الجاحظ ، ووقف عندهما طويلا ، يثنى على هذه ويذم تلك . ثم مضى يحدد الخصائص الأكثر أهمية فى تقدير أى كتاب ، وأشار إلى أن الوضوح يأتى فى المرتبة الأولى ، ويليه الإيجاز دون مغالاة ، ومن بين النصائح التى يقدمها لمؤلفى الكتب نقف عند هذه الفقرات منها ، لأنها تجىء فى القمة بلاغة وروعة وإصابة : « ينبغى لمن كتب كتابًا ألا يكتبه إلا على أن الناس كلهم له أعداء ، وكلهم عالم بالأمور ، وكلهم متفرغ له . ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه غفلا ولا يرضى بالرأى الفطير ، فإن لابتداء الكتاب فتنة وعجبًا ، فإذا سكنت الطبيعة ، وهدأت الحركة ، وتراجعت الأخلاط ، وعادت النفس وافرة ، أعاد النظر فيه ، فتوقف عند فصوله توقف من يكون وزن طبعه فى السلامة أنقص من وزن خوفه من العيب » .

وتسرب الثقافات الإغريقية والهندية والفارسية إلى أعماق الثقافة الإسلامية يتمثل أيضا فى إشارات موجزة ، ولكنها موحية ، وذات فائدة قصوى عند التأريخ لحركة الترجمة عند العرب فى العصر العباسى ، فهو يشير إلى كتب إقليدس وجالينوس وأرسطو وغيرهم ، ولكتاب المجسطى أكبر كتب بطليموس الفلكية ، وبعامة إلى كتب المنطق والطب والرياضيات والفلك والموسيقى والزراعة والكيمياء والآلات والتقنية (صناعة الفسيفساء والزجاج والفخار) والبحرية ، وكتب أخرى . ولو أن الجاحظ ، لسوء الحظ ، لا يهتم بإيراد عناوين الكتب ، أو أسماء

المؤلفين ، كاملة وفى دقة[١] ، لأن الغاية الرئيسية من هذه الإشارات تكمن عنده بالدقة فى توثيق القواعد التى يراها ضرورية لكى يحذوها المترجم فى عمله . وقد أدرك الجاحظ التفوق العلمى للشعوب غير العربية ، ويعترف دون تردد بالتراث الذى تلقاه الإسلام من الثقافات القديمة ، وبأن معارف العرب التجريبية فيما يتصل بالمواد العلمية غير ذات قيمة ، إذا قورنت بالتراث الضخم الذى تنطوى عليه الكتب الإغريقية والفارسية والهندية ، ومن هنا كانت الترجمة ضرورية ، وبواسطتها ورث الإسلام عالميًّا علم الشعوب القديمة .

ومع ذلك لم يخف على الجاحظ مشاكل الترجمة الأمينة والدقيقة والفنية . فالمترجم يجب أن يتوفر فى الحقيقة ، ما أمكن ، من السيطرة على العلم الخاص الذى يعالجه الكتاب الذى يحاول ترجمته ، وأن يكون فيه – تقريبًا – على مستوى المؤلف نفسه ، لأن الكلمات لا يمكن أن تفهم إلا وهى فى خدمة فكرة ، وعندما تكون هذه علمية ، تصبح للكلمة قيمة تقنية تجهلها اللغة الدارجة[٢] ومن جانب آخر يجب على المترجم أن يتقن اللغتين جيدًا : اللغة التى ينقل منها ، واللغة التى ينقل إليها ، ولكن ، كما لحظ الجاحظ فى ذكاء مُذهل ، هذا التمكن نفسه من اللغتين قد يؤدى بالضرورة إلى خطر اللبس ، فمن يتحدث لغتين يخلط غالبًا بينهما ، فينقل ألفاظ وتعبيرات لغة إلى أخرى . وتجيء الدقة فى استخدام المترادفات صعوبة أخرى ، لا يكاد المترجم الذى يبحث عن الأمانة والدقة يجد لها حلا . ويضاف إلى كل هذا الصعوبات التى تجيء من شكل كتابة الألفاظ ، لأن الكتابة القديمة من جهة ، والأصوات الأجنبية من جهة أخرى ، وشكل الكتابة ، وأخطاء النساخ أخيرًا ، كلها تربة خصبة لأخطاء لا يمكن تجنبها . وإذا كان هذا يحدث كثيرًا فى المؤلفات التى كتبت فى اللغة الأصلية ، فإنه يتضاعف ، فيما يرى الجاحظ ، فى الكتب المترجمة ، لما يعتور فهم النص من غموض ، بسبب أخطاء

---

(١) انظر : الحيوان ، جـ ١ ص ٣٨ ، حيث يورد أسماء عدد من المترجمين العرب ترجموا مؤلفات أرسطو ، هم : ابن البطريق ، ابن نعيمة ، أبو قرة ، ابن فهر ، ابن الواهلى ، ابن المقفع ، ويورد اسم خالد ، كمترجم لكتب أفلاطون .

(٢) عن صعوبات التقنية العلمية انظر : جـ ١ ص ١٤٥ وجـ ٣ ص ١١٣ .

النسخ ، التى تتناثر عبر صفحات المخطوطة من جراء إهمال النساخ المأجورين والمتهاونين .

ولم يكن الجاحظ واضحًا فيما يتصل بالمصادر التى أفاد منها فى كتابه الحيوان ، أحيانًا يذكر مصادر عربية ، أدبية ولغوية أكثر منها حيوانية خالصة ، عن حيوان ما ، كالحصان مثلا[١] على حين تكثر فى صفحات كتابه الإشارة إلى كتاب أرسطو الشهير عن « الحيوان » ويشير إليه غالبًا بلقب « صاحب المنطق »[٢] ومن ثم ليس صوابا النقد الذى وجهه إليه البغدادى فى كتابه « الفرق بين الفرِق » بأنه نقل من كتاب أرسطو هذا ، ومن كتب أخرى لمؤلفين عرب عن الحيوان[٣] وقد استشهد أيضًا من كتب جالينوس الطبية للتدليل على بعض النقاط المحددة ، المتصلة بالأمراض التى تحدثها لسعة بعض الحيوانات وعلى غرائز بعض الطيور ، وقضايا أخرى[٤] وأخيرا نشير إلى أنه ذكر مرة كتاب « كليلة ودمنة » بمناسبة حديثه عن النسر والفيل[٥] . ومن نافلة القول الإشارة إلى أننا نلتقى عبر صفحات الكتاب ، وفى كل خطوة ، بالآيات القرآنية ، والأحاديث ، والشعر الجاهلى ، المتصلة بالحيوان بخاصة ، وهى وثائق قيمة جدًّا فيما يتصل بالمأثورات الشعبية لدراسة المعرفة التجريبية والسحر المتصلة بالحيوان عند عرب الجاهلية .

إلى هذه المصادر يجب أن نضيف ، كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق ، ملاحظات الجاحظ الشخصية ، والأخبار التى التقطها أثناء رحلاته ، ولدينا فقرة شديدة الوضوح تؤكد قولنا هذا ، فعندما يتحدث عن جحور بعض الحيوانات يقول (جـ ٧ ص ١٥) : « ورأيت عجبًا آخر ، وهو أنى فى طول ما دخلت البرارى ، ودخلت البلدان فى صحارى جزيرة العرب والروم والشام والجزيرة وغير ذلك ، وما أعلم أنى رأيت على لقم طريق أو جادة أو سرك مصافت ذلك ، وأنا جاريت الطرق ، وأمعنت فى البرارى ، وضربت إلى المواضع الوحشية .. » . وفيما يتصل

(١) الحيوان ، جـ ٦ ص ١٥٠ .
(٢) الحيوان ، جـ ٥ ص ١٩ ، وجـ ٦ ص ٦ ، ٩٠ وغيرها .
(٣) كتاب الفرق بين الفرق ، ص ١٦٠ - ١٦٥ ، طبعة القاهرة ١٩١٠
(٤) الحيوان ، جـ٣ ص ١١٣ ، وجـ ٤ ص ٤٣ ، وجـ ٧ ص ١٠ و ١٣
(٥) الحيوان ، جـ ٦ ص ١٠٨ ، وجـ ٧ ص ٢٩

بالشواهد المرتبطة بآخرين فإن الجاحظ يوردها فى كل خطوة ، ليؤكد أو يصحح الملاحظات التى التقطها من الكتب ، أو وردت فى الشعر الكلاسيكى .

حاول الجاحظ إذن ، كما نرى ، دون أن يكون عالمًا بالحيوان مهنة ، أن يلتقط مادة كتابه فى فضول صابر لا يمل ، وصنفها فى إتقان كبير ، ومن ثم فهو يعد بالنسبة لنا وثيقة بالغة الأهمية لا يمكن التقليل من شأنها . وخاصة فيما يتصل بتأريخ الحيوان ، وبعض العلوم الطبيعية والفيزيائية وعلم السلالة . وأهمية هذه الوثيقة دفعتنى إلى أن أنشر بين علماء دراسات الحيوان ، وهم ليسوا مستشرقين ، الإطار العام للمادة التى تضمنها كتاب الجاحظ ، كمقدمة ضرورية لا غنى عنها لدراسة أكثر عمقا واتساعًا . والفوضى التى حرر فيها الكتاب تتطلب ، كمقدمة لهذه الدراسة ، إعادة تنظيم منهجية ومسبقة لمادته ، وأنا أيضًا لا أدرس الحيوان مهنة ، وعملى يجب أن يتوقف عند مهمة المخبر فحسب ، وقراءتى لأجزاء الكتاب السبعة ليست مستأنية تمامًا ، ولكنها سمحت لى بأن ألتقط على نحو منهجى رءوس الموضوعات العلمية التى درسها الجاحظ ، وأن أفصل منها ما كان لغويًا خالصًا ، وأن أميز بينها ، وأن أنظمها كلها منهجيًا تحت عناوين تسهل الإفادة منها للباحث الذى يجئ بعدى ، وتعطى فى الحال فكرة موحية وكافية عن القيمة الفريدة لهذا الكتاب .

وثمة ملاحظة عامة يجب أن تقال قبل إيراد رءوس الموضوعات الملتقطة : إن النصوص المذكورة التى تحتوى على هذه الموضوعات ليست دائما دراسة مفصلة للمواد المتصلة بها ، وإنما هى ، فى كثير من الأحيان ، مجرد إشارات عابرة إليها ، ومع ذلك فهى مفيدة من وجهة النظر التاريخية . وقد رأيت من المفيد أن يتم توزيع هذه المواد على خمسة أقسام كبرى :

- العلوم الطبيعية والفيزيائية والكيماوية .
- علوم الحيوان ومايتصل به .
- العلوم المتصلة بالإنسان .
- الأديان والمذاهب والفرق .
- الموضوعات اللغوية أو الأدبية .

والحيوانات هى الموضوع الأساسى للكتاب ، كما يفهم من عنوانه ، وقد

أوردتها مرتبة هجائيًا لتسهل الإفادة من النصوص المتصلة بكل واحد منها .
أما بقية الفقرات العلمية فقد نظمتها طبقًا لفكرة منهجية ، أى فى ضوء الغاية من كل مادة فى نطاق كل علم .

ولتكملة هذه النظرة المجملة على نحو ما ، أضفت إلى القائمة ترجمة لبعض الفقرات المختارة ، والتى تصلح نموذجًا لتقدير القيمة العلمية للكتاب وأسلوبه المتميز . اخترت موضوعًا فيزيائيًا : « النار فى المنجم » ، وبيولوجيا : « الصراع من أجل البقاء » ، وحيوانيًا بالمفهوم العلمى للكلمة : « النمل » وأخيرًا حللت فقرات من الدراسة الخاصة بالخصاء فى الحيوان والإنسان ، وهى مليئة بالمعلومات البالغة الأهمية ، المتصلة بعلم الأحياء ، وعلم النفس الجنسى ، وتاريخ العادات .

كشاف تحليلى لمادة كتاب الحيوان

● المواد الرئيسية مرتبة هجائيا.
● الرقم الأول يشير إلى الجزء والتالى ، أو التالية ، إلى الصفحة .
● طبعة كتاب الحيوان ، على نفقة الحاج محمد الساسى المغربى ، القاهرة ١٣٢٣ هـ .

١ - الطبيعة والفيزياء والكيمياء

● **الحرارة :**

الحرارة ، والنار ، والضوء ، وحقيقة جوهر الحرارة ، وصفاتها الحساسة الأخرى ، وآلية الاحتراق : ٥ / ٢ ، ٣ ، ٥ - النار ، طبيعتها وخصائصها : ٥ / ٣٣ - فوائد الحرارة وتأثيرها فى المناجم : ٥ / ٣٥ - الصلة بين النار والإنسان ، النار فى المناجم ، المصباح وحياة الإنسان : ٥ / ٣٧ - النار فى البيع والكنائس : ٥ / ٤١ - حيوانات وأخشاب لا تحترق : ٥ / ٩٥ - الصاعقة : ٤ / ١٠٤ - اختلاف سرعة الضوء والصوت : ٤ / ١٣١ .

● **الذرة :**

الذرة أو تفتيت الجوهر ٥ / ٢٠ - تركيب الذهب والفضة والزجاج والأحجار الكريمة : ٥ / ١٩ ، ١٠٦ و ٣ / ١١٦ .

● **الرائحة :**

الروائح الطيبة فى بلاد مختلفة : ٧ / ٧١ - فضلات الإنسان ، نتانتها : ٣ / ٤ ، ١٠٢ - المرافق : ٥ / ٩١ - الروائح النتنة : ١ / ١١٦ .

● **الصوت :**

روعة الصوت وتأثيره ، الموسيقى و الغناء : ٤ / ٦٣ - اختلاف سرعة الصوت والضوء : ٤ / ١٣١ .

٢ - علم الحيوان

● ملاحظات عامة عن الحيوان :

الأجسام النامية وغير النامية ١ / ١٣ - الأجسام النامية نوعان : الحيوان والنبات[1] ، تصنيف عام لأنواع الحيوان : حيوانات تمشى ، أو تطير ، أو تسبح ، أو تزحف : ١ / ١٤ - ١٥ و ٤ / ٩٠ - تصنيف آخر للحيوان بواسطة التعبير : ١ / ١٦ - حيوانات جوية ، ومائية وأرضية : ٦ /١٣٥ حيوانات تعيش على اللحم ، وأخرى تأكل النبات ، ونوع ثالث يعيش عليهما معًا : ٧ / ٤٨ - حيوانات مستأنسة وأخرى وحشية ٤ / ١٦ - طيور تألف المنازل : ٥ / ٦٦ - طيور تعيش على النبات ، وطيور تعيش على اللحم ، وأخرى تعيش عليهما معا : ٥ / ٦٦ - حيوانات يؤكل لحمها : ٤ / ١٤ و ٦ / ١٢٨ ، ١٣١ - حيوانات تحتفظ بالدنانير : ٦ / ١٦٣ - حيوانات لا تموت حين يقطع منها عضو : ٦ / ١٦٣ ـ حيوانات من ذوات القرن : ٧ / ٧٧ - حيوانات من ذوات الظلف : ٧ / ٧٥ - حيوانات حمقاء ، وحيوانات جميلة ، وأخرى قبيحة : ٧ / ١٤ - حيوانات موطنها الهند : ٧ / ٥٠ - حيوانات وردت فى القرآن : ٤ / ١٢ - حيوانات تعالج نفسها بالغريزة : ٧ / ١٣ - وصفات علاج تتخذ من الحيوان : ٧ / ٢٨ - حواس الحيوان : ٧ / ٢ ، ٦ - ٧ - عيون بعض الحيوانات : ٤ / ٧٧ - عيون تلمع فى الظلام : ٥ / ١٠٠ - حيوانات تبصر بالليل : ٣ / ١٦٧ - حدة حاسة الشم عند بعض الحيوانات : ٤ / ١٢٩ - حيوانات صماء : ٤ / ١٢٣ - حيوانات تتغذى بالصخر وبالأشياء الصلبة : ٤ / ١٠٢ - أسلحة الحيوان للدفاع عن نفسه : ٤ / ١٢٤ - طريقة ذكية لصيد الطيور المائية : ٥ / ١٥٦ حيوانات لها رئيس وأمير : ٥ / ١٢٦ ، ١٥٥ - طريقة المشى عند بعض الحيوان ٥ / ٦٨ - ضخامة بعض الحيوان : السمكة ،

---

(١) ثمة إشارات كثيرة تتصل بالنبات ، انظر مثلا عن النيلوفر وعباد الشمس جـ ٦ ص ١٢٠ ، وعن أفضل أنواع العنب جـ ٧ ص ٣ ، وغيرها .

● المشكلات المتصلة بالجنس والتناسل :

---

(١) نجو الفيل : فضلاته

● الصراع بين الحيوانات :

٣ - القضايا المتصلة بالإنسان

● علم النفس الإنسانى الفردى :

● موضوعات تتصل بالسلالة وعلم الاجتماع :

● موضوعات علم النفس المقارن :

٤ - الديانات والفرق والمذاهب

الإسلام :

● الخرافات :

الأرواح والشياطين والجان عند المسلمين والهنود والمسيحيين : ٦ / ٦١ ، ٦٢ - ظواهر غريبة : ٢ / ٥٠ - التنبؤ بالغيب : ٦ / ٦٢ - التفاؤل والتشاؤم : ٣ / ١٤٢ - الحسد : ٢ / ٥١ - طلاسم فى المدن ضد الحيوانات الضارة : ٥ / ١٢٠ - هاروت وماروت والزهرة : ١ / ٨٦ و ٦ / ٦١ .

٥ - موضوعات لغوية

● الأعلام وما يتصل بها :

أسماء مشتقة من البيض : ٤ / ١١٠ - جمل يدخل فيها هذا اللفظ : ٢ / ١٢٣ - أسماء مواليد بعض الحيوانات : ٦ / ١٢٦ - أسماء بعض الطيور مشتقة من محاكاة أصواتها : ٣ / ١٦٢ - أسماء أعلام مشتقة من الفيل : ٧ / ٥٧ - أسماء تدعو إلى التفاؤل : ٦ / ٦٥ - مغازلة الجميلات : ٥ / ٤٧ - أسماء تدعو إلى التشاؤم لأنها تبدأ بحرف الشين : ٣ / ٧ - إطلاق صفة يهودى على بعض الحيوان ، وعدم استخدام لفظ مسيحى : ٦ / ١٦٢ - أسماء حيوانات تطلق على الإنسان احتقاراً ، وأسماء تطلق على الجوارى والنجوم والكواكب إطراء : ١ / ٩٩ - مدح يؤدى إلى الهجاء : ٧ / ٣٥ - التصغير : ١ / ١٦٤ - الأسماء العبرية : ٤ / ٩ .

● الحكمة والأمثال :

أمثال تدور حول الحيوان : ١ / ٨٨ ، ١٠٤ و ٧ / ٤ - أمثال تتصل بالحمار : ٢ / ٩٣ .

● الشعر العربى :

حداثته : ١ / ٣٧ : المواهب الشعرية لا ترتبط بالأسباب المادية ولا العنصرية ٤ / ١٢٢ - السرقات الشعرية : ٣ / ٩٦ - رواية الشعر العربى : ١ / ٣٧ - تدريس الشعر : ١ / ٣١ - الجمال والآراء النقدية : ٣ / ٢٨ و ٤ / ٣٤ .

● **الحكايات :**

حكايات بذيئة : ١ / ١٨٢ و ٢ / ١٣١ ، ١٣٢ و ٣ / ١١ ، ٣٨ - المؤمنون بالخرافات : ذكاء أو سذاجة : ٣ / ١٣٩ و ١ / ١٨٢ و ٢ / ١٣١ ، ١٣٢ ، ٣ / ١١ - ٣٨ - حكاية الرجل الذى ظل يلاحق امرأة جميلة : ٣ / ١١ - حكاية دليل الأعمى : ٣ / ٩ - حكاية الرجل الذى لم يخرج الزكاة : ٣ / ٨ - حكاية الضيف النهم الذى أكل أطيب ما على المائدة : ١ / ١٣٠ - حكايات المكى : ٣ / ١٠١ - حكايات أخرى : ٣ / ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ٣٨ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ١٠١ ، ١٠٦ ، ١٢٤ ، ١٣٩ و ٤ / ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٩ ، ١٣٤ و ٥ / ١١٥ ، ١١٩ ، ١٣٨ و ٦ / ١٣٧، ٧٣، ٧٤ ، ٨١ ، ٨٢ ، ١١٤ ، ١٥٣ ، ١٦٠ ، ١٦٦ ، ١٦٧ و ٧ / ٧٤ ، ٨٣ - أسطورة العجوز والعصافير : ٥ / ٧٥ .

● **متنوعات :**

أشعار وحكايات البسطاء : ٣ / ١٤٤ - حكم وأمثال : ٥ / ١٧١ و ٦ / ١٧٢ و ٧ / ٦١ - اشتقاقات مضحكة : ٥ / ٧٢ - صيغ لتصور المستحيل : ٥ / ١٥٣ .

● **مختارات من كتاب الحيوان :**

النـار فى المناجم

« ... لأنى وجدت الإنسان يحيا ويعيش فى حيث تحيا النار وتعيش ، وتموت وتتلف حيث يموت الإنسان ويتلف ، وقد تدخل نار فى بعض المطامير والجباب والمغارات والمعادن فتجدها متى ماتت هناك علمنا أن الإنسان متى صار فى ذلك الموضع مات ، ولذلك لا يدخلها أحد مادامت النار إذا صارت فيها ماتت ، ولذلك يعمد أصحاب المعادن والحفاير إذا هجموا على فتق فى بطن الأرض ، أو مغارة فى

أعماقها أو أضعافها ، قدموا شمعة فى طرفها أو فى رأسها نار ، فإن ثبتت النار وعاشت دخلوا فى طلب الجواهر من الذهب ، وإلا لم يتعرضوا له ، وإنما يكون دخولهم بحياة النار ، وامتناعهم بموت النار » .

(جـ ٥ ص ٣٧)

الانسجام مع البيئة

« لا ننكر أن يفسد الهواء فى ناحية من النواحى فيفسد ماؤهم وتفسد تربتهم ، فيعمل ذلك فى طباعهم على الأيام ، كما عمل ذلك فى طباع الزنج ، وطباع بلاد الصقالبة ، وطباع بلاد يأجوج ومأجوج ، وقد رأينا العرب ، وكانوا أعرابا ، حين نزلوا خراسان كيف انسلخوا من جميع تلك المعانى ، وترى طباع بلاد الترك كيف تطبع الإبل والدواب وجميع ماشيتهم من سبع وبهيمة على طبائعهم . وترى جراد البقول والرياحين وديدانها خضرا أوتارها وفى غير الخضرة على غير ذلك . وترى القملة فى رأس الشباب الأسود الشعر سوداء ، وتراها فى رأس الشيخ الأبيض الشعر بيضاء، وتراها فى رأس الأشمط شمطاء، وفى لون الجمل الأورق ورقاء. فإذا كانت فى رأس الخضيب بالحمرة تراها حمراء ، فإن نصل خضابه به صار فيها شكله من بين بيض وحمر . وقد نرى حرة بنى سليم وما اشتملت عليه من إنسان وسبع وبهيمة وطائر وحشرة فتراها كلها سوداء » .

(جـ ٤ ص ٢٤)

الصراع من أجل البقاء

« فإن الجرذ يخرج يلتمس الطعم ، فهو يحتال لطعمه ، وهو يأكل ما دونه فى القوة كنحو صغار الدواب والطير وبيضها وفراخها، ومما لا يسكن فى جحر، أو تكون أفاحيصه على وجه الأرض، فهو يحتال لذلك ويحتال لمنع نفسه من الحيات ومن سباع الطير . والحية تريغ الجرذ لتأكله ، وتحتال أيضاً للامتناع من الورل ، والقنفذ ، وهما عليه أقوى منه عليهما ، والورل إنما يحتال للحية ويحتال للثعلب ، والثعلب يحتال لما دونه . قال : وتخرج البعوضة لطلب الطعم ، والبعوضة

تعرف بطبعها أن الذى يُعيشها الدم ، ومتى أبصرت الفيل والجاموس وما دونهما علمت إنما خلقت جلودهما لها غذاء ، فتسقط عليهما وتطعن بخرطومها ثقة منها بنفوذ سلاحها ، وبهجومها على الدم ، وتخرج الذبابة ولها ضروب من المطعم ، والبعوض من أكبر صيدها ، وأحب غذائها إليها ، ولولا الذباب لكان ضرر البعوض نهاراً أكثر . وتخرج الوزغة والعنكبوت الذى يقال له الليث فيصيدان الذباب بألطف حيلة وأجود تدبير . ثم تذهب تلك أيضاً بشأن غيرهما ، كأنه يقول هذا مذهب فى أكل الطيبات بعضها لبعض، وليس لجميعها بد من الطعم، ولابد للصائد أن يصطاد ، وكل ضعيف فهو يأكل من أضعف منه ، وكل قوى فلابد أن يأكله من هو أقوى منه ، والناس عن بعض شبيه بذلك ، وإن قصروا عن درك المقدار، فجعل الله عز وجل بعضها حياة لبعض، وبعضها موتًا لبعض».

(جـ ٦ ص ١٣٣ و ١٣٤)

الخصـــاء

ترجم الكاتب « باب ذكر ما يعترى الإنسان بعد الخصاء ، وكيف ما كان قبل الخصاء » كاملا ، وعلق عليه ، والمناخ الفكرى الذى يسود العالم العربى اليوم ، لا هو فى مستوى ما كان عليه عصر الجاحظ ، إبان ازدهار الحضارة العربية ، وبلوغها القمة ، تحرراً وحواراً ودرساً ، ولا هو لحق بما عليه العالم الغربى الآن ، ومن ثم وجدت كثيراً من الحرج فى ذكره ، وترجمة تعليقات الكاتب عليه ، فانظر - رعاك الله ! - كيف حالنا ! . ومهما يكن فالذين لديهم الرغبة فى أن يعرفوا محتواه ، يمكن أن يعودوا إلى « كتاب الحيوان » ، الجزء الأول ، الصفحة ٤٨ وما بعدها .

الكامِـل
للمبرِّد

أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر ، من بنى ثُمالة ، فهو أزدى يمانى عربى ، وشهرته « المبرّد » ، لقبٌ أجهد العلماء أنفسهم كثيراً وطويلا بحثًا عن تعليل له ، وربطه بحادث كان مصدره .

كان المبرد نفسه أول من حاول أن يجد للقبه تفسيراً ، فذكر أن صاحب الشرطة فى المدينة طلبه يوماً للمنادمة والمذاكرة ، فكره الذهاب إليه ، ولاذ بأستاذه أبى حاتم السجستانى ، فجاء رسول الوالى يطلبه ، فقال أبو حاتم للمبرد : ادخل فى غلاف هذه المزمّلة الفارغة ، فدخلت فيه وغطى رأسها ، ثم خرج إلى الرسول وقال له : ليس عندى . فقال : أُخبرتُ أنه دخل إليك . فقال : ادخل الدار وفتشها فدخل ، وطاف كل موضع فى الدار ولم يفطن لغلاف المزملة ، ثم خرج فجعل أبو حاتم يصفّق ، وينادى : « على المزمّلة المبرد ، وتسامع الناس بذلك فلهجوا به » . أورد هذه القصة أبو الفرج الجوزى فى كتابه « الألقاب » ولا أكاد أطمئن إليها ، لأنها تعنى أن اللقب جاءه فى سن متقدمة ، عالما له شهرة ، وسميراً ينادم ، والأخذ بها يسقط كل التفسيرات الأخرى ، وقد جاءت على التأكيد لأن الرواة وجدوا أنفسهم أمام لقب لا يعرفون له مصدراً ، فمال كلٌّ إلى ما سمع ، أو اعتقد أنه الأصل من الروايات .

وأورد ياقوت فى « معجم الأدباء » أن المازنى لما صنف كتابه « الألف واللام » سأل أبا العباس عن دقيقه وعويصه ، فأجابه بأحسن جواب ، فقال له : « قم فأنت المبرّد ، أى المثبت للحق ، وحرّفه الكوفيون ففتحوا الراء » وهذه الرواية لا تعنى ، عند النظر المتمعّن ، أن المازنى هو أول من أطلق اللقب على تلميذه ، وتفسير الكلمة ، فيما أرى ، من صنع الرواة ، وكلمة « أنت المبرد » ، إنما تعنى أنت خليق بما عُرِف فيك وما هو ذائع عنك ، من علم وذكاء ، وتوحى فى الوقت

نفسه بأن أبا العباس شهر بها فى وقت سابق ، ويأخذ السيوطى فى كتابه « المزهر » بنفس الرواية ، ويضيف إليها أن الكوفيين حرفوه إلى المبرِّد تهكمًا به .

وابن عبد ربه ، صاحب « العقد الفريد » ، يعلل فتح الراء فى كلمة « المبرد » بأن أبا العباس ألَّف كتاباً أسماه « الروضة » ، قصد فيه إلى أخبار الشعراء المحدَثين ، على أيامه ، فلم يختر لكل شاعر إلا أبرد ما وجد له ، حتى انتهى إلى الحسن بن هانى (أبى نواس) فاستخرج له من البرد أبياتًا ما سمعناها ، ولا رويناها ، ولا ندرى من أين وقع عليها ، وجل أشعاره فى الخمريات بديعة لا نظير لها ، فخطر بها كلها ، وتخطاها إلى التى جانسته فى برده ، فما أحسبه لحقه هذا الاسم (أى المبرد) إلا لبرده ، وقد تخير لأبى العتاهية أشعاراً تقتل من بردها . ورواية ابن عبد ربه يبدو فيها التحامل واضحاً ، فقد كان المبرد يختار شعر الآخرين فى ضوء ثقافته وفهمه وتذوقه ، وهى عوامل قد تدفعه إلى اختيار مالا يعجب ابن عبد ربه الشاعر الغرد الطروب ، لكنها لا تبرر ما اتهمه به .

واختار الوزير الأندلسى محمد بن هشام المصحفى ، المتوفى عام ٤٧١ هـ = ١٠٨٨ م ، أن يضبطها بفتح الراء ، وقال : « لُقب بالمبرد لحسن وجهه ، يقال ، رجل مبرَّد ، ومقسم ومحسَّن ، إذا كان حسن الوجه » . ولم أجد فى المعاجم التى رجعت إليها ، المعانى التى أشار إليها الوزير الأندلسى لكلمة مبرَّد ولا أدرى على أى مصدر اعتمد .

لا أرتضى أيًّا من هذه التفسيرات ، وفيما يبدو لى اللقب أقدم منها جميعًا ، ذلك أن الألقاب التى تلحق بالمرء ، وتعلو على النسيان ، تطلق عليه عادة فى سن طرية ، أو فتيا إثر حادث جلل ، وهو ما نفتقده فيما بين أيدينا من محاولات لربط اللقب بحادث كان مصدراً له .

كان هذا اللقب مثار فكاهات كثيرة بين معاصرى المبرد ، تقبّلها أحياناً وضاق بها أخرى ، فقد لقى بَرْدُ الخيار الكاتب أبا العباس المبرد ، على الجسر فى يوم بارد ، فقال له : أنت المبرد ، وأنا برد الخيار واليوم بارد ، اعبر بنا لئلا يصيب الناسَ الفالجُ . وكان المبرد أشد ما يكون ضيقاً بلقبه إذا نُطق مفتوح الراء فكان يقول : « برَّد الله من بردنى ! » .

وُلد المبرد في البصرة ، يوم الاثنين غداة عيد الأضحى ٢١٠ هـ = ٨٢٦ م ، ودرس على جلّة من علماء عصره ، قرأ كتاب سيبويه فى النحو على الجرمى ، أبو عمر صالح بن إسحاق ، وختمه على المازنى ، أبو عثمان بكر بن محمد ، وتلقى عن أبى حاتم السجستانى ، وقرأ أشعار جرير على عمارة بن عقيل ، وكان يعيش فى سهول البصرة ، ويُعد حُجة ثبتاً فى أمور اللغة ، وقد أظهر المبرد نبوغاً مبكراً ، ونال شهرة واسعة ، وحدث يومًا أن الخليفة المتوكل قرأ بحضرة الفتح ابن خاقان قوله تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩]، بفتح همزة أنها، فقال له الفتح: يا سيدى، إنهـا بكسر الهمزة، فتبايعا على عشرة آلاف درهم، أو دينار، وتحاكما إلى يزيد بن محمد المهلبى، وكان صديقًا للمبرد، فقال : والله لا أعرف الفرق ، وما رأيت أعجب من أن يكون باب أمير المؤمنين يخلو من عالم متقدم ، ولا أعرف أحداً يتقدم فتى بالبصرة يعرف بالمبرد . فأمر المتوكل فجئ به إلى سُرّ من رأى (= سامراء) سنة ٢٤٦ هـ = ٨٦٠ م ، فحضر مجلس الخليفة ونال عطاياه . فلما قُتل المتوكل بعد ذلك بعام ، رحل المبرد إلى بغداد واستقر فيها .

وفى بغداد ، غريبًا فقيراً مجهولا ، كان عليه أن يشق لنفسه ، بجهد بالغ ، مكاناً فى دنيا العلم والناس ، وحين اختل أمره وأدركته الحاجة توخى شهود صلاة الجمعة ، فلما قُضيت الصلاة ، أقبل على بعض من حضره ، وسأله أن يفاتحه السؤال ليتسبب له فى القول ، فلم يكن عندهم من عِلْم ، حينئذ رفع صوته ، وطفق يفسر ، يوهِم بذلك أنه قد سُئل ، فصارت حوله حلقة عظيمة ، فتشوف ثعلب أحمد بن يحيى ، إلى الحلقة ، وكان كثيراً ما يرد الجامع قوم خراسانيون من ذوى النظر ، فيتكلمون ويجتمع الناس حولهم ، فإذا أبصرهم ثعلب أرسل من تلاميذه من يفاتشهم ، فإذا انقطعوا عن الجواب انفض الناس عنهم .

فلما نظر ثعلب إلى منْ حوْل أبى العباس المبرد أمر الزجاج وابن الخياط ، من تلاميذه ، بالنهوض إليه ، وقال لهما : فُضَّا حلْقة هذا الرجل ، فنهض معهما من حضر من أصحابه . فلما صاروا بين يديه قال له الزجاج : أتأذن - أعزك الله - فى المفاتشة ؟ فقال : سلْ عمَّا أحببت . فسأله عن مسألة فأجابه فيها بجواب أقنعه فنظر الزجاج فى وجوه أصحابه متعجبًا من تجويد أبى العباس للجواب ، ثم سأله

عن أخرى ، وأخرى ، حتى بلغت مسائله أربع عشرة ، وهو يجيب عن كل واحدة منها بما فعله فى المسألة الأولى ، فلما رأى ذلك الزجاج قال لأصحابه : عودوا إلى الشيخ فلست مفارقًا هذا الرجل ، ولابد لى من ملازمته ، والأخذ عنه ، فعاتبه أصحابه وقالوا له : تأخذ من مجهول لا تعرف اسمه وتدع من قد شُهِرَ علمه ، وانتشر فى الآفاق ذكره ؟ « فقال لهم لست أقول بالذكر والخمول . ولكنى أقول بالعلم والنظر » . وقد دامت الخصومة بين العالمين الجليلين زمنًا طويلا وأصبح لكل منهما أنصار وأعوان ، فانتصر أحمد بن فارس ، وأبو بكر الأنبارى لثعلب ، وألف كل منهما كتابا . ولزم ابن دَرَستويه والزجاج جانب المبرّد ، وردّ كل منهما على ثعلب وأعوانه بكتاب .

فلما اطمأن الناس إلى علمه بدأ يعلم بأجر ، وبأجر محدّد ، يتناسب مع مكانته ، لا يقول كلمة واحدة لم يقع عليها اتفاق وشرط . وتركت أيام الفقر الأولى أثرها فى نفسه ، فكان ، كعدد من علماء عصره وما بعده ، بخيلًا ممسكا حتى بعد أن أقبلت عليه الدنيا وعاش فى سعة ، وأُثر عنه « ما وزنتُ شيئًا بالدرهم إلا ورجح الدرهم فى نفسى » .

ومع ذلك كان حسن المحاضرة ، مليح النادرة ، خفيف الروح ، كثير النوادر ، صاحب ظرْف ولباقة ، غزير المادة ، كثير الحفظ ، حسن الخط ، انتهى إليه العلم بالعربية بعد طبقة الجرمى والمازنى ، وكان على صلة بالجاحظ استمرت حتى آخر أيام حياته . ويُنسَب إليه شعر قليل موزع فى مصادر الأدب له خصائص شعر العلماء ، من نظم ورتابة ، أكثره فى المدح والغزل والإخوانيات ، وقد تتلمذ عليه جلة من العلماء ، من بينهم الزجاج ، والأخفش علىّ بن سليمان ، وأبو بكر بن السراج ، ومحمد بن جعفر الصيدلانى ، وأصهر إلى أستاذه فتزوج ابنته . وكانت إمامته فى النحو واللغة مُعترفًا بها ومقدّرة ، يقول عنه ابن جنى : « بُعد جبلًا فى العلم ، وإليه أفضَت مقالات أصحابنا ، وهو الذى نقلها وقرَّرها وأجرى الفروع والعلل والمقاييس عليها » . ومدحه من الشعراء البحترى ، وخصه ابن الرومى بقصيدة طويلة قاربت أبياتها المائة ومطلعها :

طرقتْ أسماءُ والركب هجودُ   والمطايا جُنَّحُ الأذوادِ قُود
طرقتنا ، فأنالت نائلًا   شكره، لوكان فى النية الجحود

وقلما ظفر نحوى بقصيدة مدح طويلة ، من شاعر كبير معاصر له[1] ، وتوفى المبرد فى بغداد ، فى شوال عام ٢٨٥ هـ = ٩٩٨ م ، على أرجح الروايات ، أيام خلافة المعتضد ، بعد أيام حافلة بالعلم والدرس والتأليف .

* * *

كتب المبرّد فيما كان يشغل علماء عصره ، من نحو ولغة واشتقاق وشعر ، يختاره أو يشرحه أو يعلق عليه . وبعض مؤلفاته لا نعرف منه غير عنوان الكتاب ، جاء عرضاً فى مصادر الأدب ، فالبغدادى فى « خزانة الأدب » يشير إلى كتاب له ، اسمه « الاعتنان » وموضوعه بيان أسباب التهاجى بين جرير والفرزدق ، وذكر الصولىّ فى أخبار « أبى تمام » أنه قرأ على المبرّد كتابه « الفتن والمحن » ، وعرض المبرّد نفسه لقصة جذيمة الأبرش الأزدى ، والزباء التى قتلته ، وعقّب على الحديث : « وله قصص تطول ، وقد شرحنا ذلك فى كتاب « الاختيار » .

وأورد ابن النديم فى « فهرسته » وياقوت فى « معجمه » ، أسماء كتب أخرى لا نعرف عنها شيئاً غير عناوينها ، وربما كانت رسائل صغيرة ، وجلها فى النحو والصرف والعروض وشرح الشواهد وإعراب القرآن ، وبعضها « كأدب الجليس » و « الحث على الأدب والصدق » يوحى عنوانها بأنها طرائف وحكايات ذات صبغة أخلاقية .

ولدينا ثلاث مخطوطات لم تنشر بعد : « المذكر والمؤنث » ويوجد مخطوطاً فى المكتبة الظاهرية بدمشق . و « التعازى والمراثى » ومخطوطته فى مكتبة ديرالإسكوريال ، قريباً من مدريد بإسبانيا . ثم « الروضة » وذكر السخاوى فى كتابه « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ » ، أن جعفر بن محمد بن حمدان الموصلى ، المتوفى عام ٣٢٣ هـ = ٩٣٤ م ، له كتاب فى الإخبار سماه

---

(١) توجد القصيدة كاملة فى مخطوطة ديوان ابن الرومى بدار الكتب المصرية الورقة ٩١ و ٩٢ ، وأورد البارودى فى مختاراته طرفاً منها جـ ١ ص ٣٤٥ و ٣٤٦ ونشرها كاملة المرحوم محمد عبد الخالق عضيمة فى كتابه : المبرد ، حياته وآثاره ، ص ٤٠ وما بعدها وهى دراسة نشرها كمقدمة لتحقيقه كتاب « المقتضب » للمبرد ، القاهرة ١٣٨٥ هـ .

« الباهر » ، عارض به المبرّد فى كتابه « الرّوضة » ، وقد عثر الأستاذ عبد العزيز الميمنى على مخطوطته أخيراً .

أما مؤلفاته المنشورة فهى : « الفاضل والمفضول » و « ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد » و « نسب عدنان وقحطان[١] » . و « أعجاز أبيات[٢] » و « شرح لامية العرب[٣] » و « المقتَضب[٤] » ، ورسالة أورد فيها الحجج التى تثبت أفضلية الشعر[٥] ثم كتاب « الكامل » وهو موضوع دراستنا .

كان الكامل آخر ما ألف المبرّد من كبريات كتبه ، فكان خيرها جلال قدر وعميم نفع ، وتمثلت فيه بوفاء وصدق ثقافة المبرد بكل جوانبها ، لغوية أو نحوية أو أدبية ، وأوجز القاضى أبو الفرج المعافا بن زكريا بن يحيى النهروانى ، المتوفى عام ٣٩٠ هـ = ٩٢١ م ، رأيه فى الكتاب ، فقال فى مقدمة مؤلفه « الجليس الصالح الكافى ، والأنيس الناصح الشافى[٦] » : « وعمل أبو العباس محمد بن يزيد النحوى كتابه الذى سمَّاه « الكامل » وضمنه أخباراً وقصصاً لا إسناد لكثير منها ، أودعه من اشتقاق اللغة وشرحها وبيان أسرارها وفقهها مايأتى به مثله ، لسعة علمه ، وقوّة فهمه ، ولطيف فكرته ، وصفاء قريحته ، ومن جلىّ النحو والإعراب وغامضها ما يقلّ وجود من يسدّ فيه مسدّه » .

---

(١) هذه الكتب الثلاثة نشرت بتحقيق الأستاذ الميمنى ، الأول منها نشرته دار الكتب المصرية سنة ١٣٧٥ هـ ١٩٥٦ والثانى نشرته المطبعة السلفية ، لصاحبها محب الدين الخطيب ، عام ١٣٥٠ هـ = ١٩٣٢ م والثالث نشرته « لجنة التأليف والترجمة والنشر » سنة ١٣٥٤ هـ = ١٩٣٦ م .

(٢) نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر ضمن « نوادر المخطوطات » عام ١٣٧١ هـ = ١٩٥١ م . بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون .

(٣) طبعت بمطبعة « الجوائب » فى الآستانة ، مع كتاب « أعجب العجب » للزمخشرى .

(٤) قام بتحقيقه ، مع مقدمة درس فيها حياة المؤلف المرحوم محمد عبد الخالق عضيمة ، ونشر الكتاب فى إخراج جيد ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامى ، القاهرة ١٣٨٥ هـ = ١٩٦٥ م .

(٥) نشرها المستشرق غوستاف فون جرنباوم Gustave F. von Grunebaum وهو نمساوى الأصل ، ويعمل الآن رئيسا لقسم دراسات الشرق الأدنى فى جامعة كاليفورنيا ، بالولايات المتحدة .

(٦) لا يزال هذا الكتاب مخطوطًا لم ينشر بعد ، وتوجد مخطوطته كاملة بمكتبة أحمد الثالث باستنبول ، ومخطوطة ثانية ناقصة ، تنتهى بالمجلس الحادى والأربعين ، توجد بمكتبة داماد إبراهيم بنفس المدينة ، ويوجد الجزء الأول منه ، وينتهى إلى آخر المجلس الحادى والعشرين ، فى دار الكتب المصرية .

والمخطوطة الوحيدة التى أعرفها لكتاب « الكامل » توجد فى مكتبة ديرالإسكوريال ويرجع تاريخها إلى عام ٥١٢ هـ = ١١١٨ م ، كتبها لنفسه على بن عبد الله بن خلف بن محمد بن النعمة ، بخط أندلسى ، وجاءت فى ١٧٨ ورقة ، ومسطرتها ٢٧ سطراً ، وإسناد النسخ المطبوعة التى بين أيدينا أندلسى ، وقد أورد لنا ابن خير فى « فهرسته » عما رواه عن شيوخه ، إسنادين متصلين لرواية الكامل ، الأول منهما يبدأ بابن خير نفسه يقول : « حدثّنى به أبو محمد بن عتاب ، عن أبى عمر بن عبد البر ، عن أبى عثمان سعيد بن عثمان النحوى ، عن أبى عثمان سعيد بن جابر » . والثانى يبدأ بأبى محمد بن عتاب يقول : « وحدثنى به أبى رحمه الله ، قال حدثنا به أبو مطرف عبد الرحمن بن مروان القنازعى ، عن أبى بكر محمد بن عبد العزيز بن القوطية ، عن أبى عثمان سعيد بن جابر » ، وكان أبو عثمان هذا (ت ٣٢٧ هـ = ٩٣٨ م) تلقى رواية « الكامل » من أبى الحسن على بن سليمان ، الملقب بالأخفش الصغير ، تلميذ المبرّد ، ومحرّر الكتاب .

* * *

أوجز المبرّد فى مقدمة الكتاب مادتّه ، والمنهج الذى سوف يسير عليه ، يقول :

« هذا كتاب ألّفناه ، يجمع ضروبا من الآداب ، ما بين كلام منثور ، وشعر مرصوف ، ومثل سائر ، وموعظة بالغة ، واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة » .

« والنيَّة أن نفسر كل ما وقع فى هذا الكتاب من كلام غريب ، أو معنى مستغلق ، وأن نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحاً وافيًا ، حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفيًا ، وعن أن يرجع إلى أحد فى تفسيره مستغنيًا » .

وعبر الكتاب تحدث فى إشارات مختصرة عن الشعراء المحدَثين ، أو المولَّدين بلغته ، ويعنى بهم ، أولئك الذين عاصروه من شعراء الدولة العباسية فخصهم بباب قدم له بقوله : « هذه أشعار اخترناها من أشعار المولدين ، حكيمة مستحسنة ، يحتاج إليها للتمثل ، لأنها أشكل بالدهر ، ويستعار من ألفاظها فى المخاطبات والخطب والكتب » وأوضح فى مكان آخر : « وليس لقدم العهد يُفَضّل القائل ،

ولا لحدثان عهده يُهتضم المصيب ، ولكن يعطى كل ما يستحق » . ويعلق على شعر ابن مُناذر بقوله : « كان رجلا عالمًا شاعراً مُفلقًا وخطيباً مِصْقعًا ، وفى دهر قريب ، فله فى شدة شعره كلام العرب بروايته وأدبه ، وحلاوة كلام المحدثين بعصره ومشاهدته » ، وبحديثه عن القدامى والمحدثين مهد القول لابن قتيبة ؛ لكى يزيد الأمر تفصيلا ووضوحاً فى كتابه « الشعر والشعراء » .

يحمل كتاب « الكامل » طابع العصر الذى أُلّف فيه ، فهو يميل إلى الاستطراد ، وينتقل من قضية إلى أخرى لأدنى ملابسة ، وتجاوز دَوْرُه فى النصوص الأدبية الجمع والاختيار ، إلى الشرح اللغوى ، والتصويب النحوى ، وتتبع دلالات اللفظ الواحد فى وجوهها المختلفة ، عند جمهرة الأدباء والشعراء .

وكان الأخفش الصغير ، راوية الكتاب ، يمدّ عقله داخل كتاب شيخه ، فيشرح من الكلمات اللغوية ما يراه صعبا ولم يفسره المؤلف ، أو يعرف بمن يراه نادراً وغريبًا من الأعلام ، أو يصحح له روايته ، أو يزيد عليها ، ينسب التصحيح إلى نفسه ، أو يتكئ فيه على ثعلب خصم المبرّد العنيد ، وهو يشير إلى اسمه كاملا أحيانًا فيذكر : « قال أبو الحسن الأخفش ... أو أبو الحسن .. » ويكتفى منه فحسب بحرف الشين أحيانًا أخرى : « قال ش » ، ويهمل اسم المصحّح قليلا ، فلا نعرف من هو ، وأظن أنه الأخفش نفسه ، ترجيحاً لا يبلغ اليقين .

والمبرّد عربى أزدى يمانى ، والكامل يمثل هذه المعانى تمثيلا صحيحًا ، فما فيه ثقافة عربية خالصة ، فلا تجد عنده ما تجده عند الجاحظ من ألوان الثقافات الأجنبية أيًّا كان مصدرها ، والمرة الوحيدة التى خرج فيها عن مجال تخصصه ، أخطأ القول ، وجانبه الصواب ، فقد أورد أبياتًا للشاعر إسماعيل بن القاسم ، يرثى بها شخصاً لا يشير إليه ، وختمها بالبيت :

وكانت فى حياتك لِى عِظاتٌ وأنتَ اليومَ أوعظُ منك حيًّا

فعقب عليها : « وكان إسماعيل بن القاسم لا يكادُ يُخلى شعره مما تقدّم من الأخبار والآثار ، فينظم ذلك الكلام المشهور ، ويتناوله أقرب متناول ، ويسرقه أخفى سرقة ، فقوله : وأنت اليوم أوعظ منك حيًّا ، إنما أخذه من قول الموبذ لقباذ الملك حيث مات ، فإنه قال فى ذلك الوقت ، كان الملك أمس أنطق منه اليوم ، وهو اليوم أوعظ منه أمس » . وهو خطأ واضح ، لأن هذه الجملة قيلت أمام تابوت

الإسكندر الأكبر غداة موته ، وأوردها الجاحظ فى « البيان والتبيين » صحيحة النسبة ، وليس لقباذ ملك فارس من عمل جليل ، يحمد عليه ، أو يورثه ذكراً . وخصّ أذواد اليمن فى الإسلام بباب خاص استعرض فيه تاريخهم ، وحديثه عن قومه من اليمن ، عبر الكتاب كله ، يشوبه العطف عليهم ، دون أن يفقد جادة الحق والاعتدال .

وهو **مصدر أصيل لما أصاب الإسلام من فتن عاتية** ، منذ سقط الخليفة عثمان شهيداً ، وتأجج الخلاف بين على ومعاوية ، وموسوعة قيمة للأدب الذى عبرّ عن هذا الصراع ، من خطب ورسائل ومنافرات وهجاء ، وقصص وشعر وأنساب ، وللرجال الذين شاركوا فى هذه الأحداث ، **وخص الخوارج من بينهم بحديث مفصّل طويل** ، فى باب مستقل وعبر الأبواب الأخرى ، وأطنب فى ذكر نشأتهم وأخبارهم وفرقهم ، وخطبائهم وقوادهم وأبطالهم ، على كثرتهم ونفاذ بصيرتهم ، وتوطين أنفسهم على الموت . وأفسح لأدبهم من مؤلفه مكاناً واسعاً ، وتحسُّ وأنت تقرأ روايته لأخبارهم أنه يشعر نحوهم بشىء من العطف ، حتى أن ابن أبى الحديد ، وهو شيعى ، فى شرحه لكتاب « نهج البلاغة » للإمام على ، اتهمه بالميل إلى رأى الخوارج ، لإطنابه فى سيرتهم ، واعتداله فى الحكم عليهم . والحق أن مَيل المبرّد إليهم كان إنسانيا وأدبيًّا أكثر منه سياسيًّا ، فللخوارج من ألوان البطولة الخارقة ، والمقاومة المؤمنة العنيدة ما يهز الناس جميعًا فى عصرهم وبعد عصرهم ، وفى أدبهم من الصدق والقوة والجمال ما يثير إعجاب المبرّد ، وغير المبرد ، وكان أبو العباس فى حديثه عنهم مستجيباً لكلا العاملين ، فأورد من تاريخهم ما يجعل من « الكامل » أصحّ مرجع لكتابته ، وسجّل من نصوصهم الشىء الكثير ، فهو أوفى مصدر لدراسة أدبهم . ومعتذراً عن نفسه ، لمن حوله ، وضّح المبرّد وجهة نظره فيما يتصل بحديثه عنهم ، فشرح فى البدء منهجه : « ... وأخبار الخوارج كثيرة طويلة ، وليس كتابنا مفرداً لهم . لكنا نذكر من أمورهم ما فيه معنى وأدب ، أو شعر مستطرف ، أو كلام من خطبة معروفة مختارة » . ثم اعتذر فى نهاية الكلام عما أطال من حديثهم : « وهذا الكتاب لم نبتدئه لتتصل فيه أخبار الخوارج ، ولكن ربما اتصل شىء بشىء ، والحديث ذو شجون ، ويقترح

المقترح ما يفسخ به عزْم صاحب الكتاب ، ويصدّه عن سنته ، ويزيله عن طريقه » .

وجريًا على هذا النهج ، التزم موقف الاعتدال من الخصومات السياسية العنيفة التى شهدها عصره بين الفئات المتصارعة ، فلم يشارك فيها عملا ، وبَعُدَ عن التحيّز لأحد مؤلفا ، وعفّ عن صغارها وآثامها ، فلم يضمن « الكامل » شيئا فى ذمْ على أو معاوية ، ولم يورد لنا من رسائلهما ما يتضمن هذا الذم ، وإذا أورد رسالة تضمنت من ذلك شيئاً أمسك عنه . أورد كتابًا وجهه معاوية إلى علىّ رضى الله عنه يقول فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من معاوية بن صخر إلى على بن أبى طالب .

أما بعد ، فلعمرى لو بايعكَ القومُ الذين بايعوك وأنت برىء من دم عثمان كنت كأبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم أجمعين ، ولكنك أغريتَ بعثمان المهاجرين وخذّلتَ عنه الأنصار ، فأطاعك الجاهل ، وقوى بك الضعيف . وقد أبى أهل الشام إلا قتالك ، حتى تدفع إليهم قتلَةَ عثمان ، فإن فعلتَ كانت شورى بين المسلمين ، ولَعمْرى ما حجتك علىّ كحجتّكَ على طلحة وَالزبير ، لأنهما بايعاك ولم أبايعك ، وما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل البصرة ، لأن أهل البصرة أطاعوكَ ولم يطعك أهل الشام ، وأما شرفك فى الإسلام ، وقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وموضعك من قريش ، فلست أدفعه . ثم كتب إليه فى آخر الكتاب بشعر كعب بن جُعَيْل ، وهو :

أرى الشامَ تكره مُلْكَ العراق ... وأهل العراقِ لهُمْ كارهينا
وكُلًّا لصاحبه مبغضًا ... يرى كلَّ ما كان من ذاك دينا
إذا ما رمونا رميناهم ... ودِنّاهم مثلِ ما يُقْرِضونا
فقالوا علىٌّ إمامٌ لنا ... فقلنا رضينا ابنَ هند رضينا
وقالوا نرى أن تدينوا له ... فقلنا ألا لا نرى أن نَدينا
ومن دون ذلك خَرْطُ القَتَادِ ... وطَعنٌ وضربٌ يُقرُّ العيونا

وأتبع ذلك قوله : « وفى آخر هذا الشعر ذمّ لعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أمسكنا عن ذكره » . والعجيب أن ابن أبى الحديد ، وهو شيعى ويتهم المبرد بالخارجية أورد هذا الشعر ، وهو :

وكـلٌ يُسَـرُّ بمـا عنـده يرى غثَّ ما فى يديه سمينا
ومـا فى علىّ لمستعتبٍ مقالٌ سوى ضمّه المُحدثِينا
وإيثاره اليوم أهل الذنوبِ ورفع القصاصِ عن القاتلينا
إذا سِيلَ عنه حذا شبهةً وغمَّى الجوابَ عن السائلينا
فليس براض ولا ساخط ولا فى النهاة ولا الآمرينا
ولا هو ساء ولا سَرَّهُ ولابدّ من بعض ذا أن يكونَا

ثم أورد جواب على بن أبى طالب عن هذه الرسالة ، وصنع فيه ما صنع فى رسالة معاوية ، من حذف ما رآه غير لائق :

« بسم الله الرحمن الرحيم :
من على بن أبى طالب إلى معاوية بن صخر ، أما بعد ؛ فإنه أتانى منك كتاب امرئ ليس له بصر يهديه ، ولا قائد يرشده ، دعاه الهوى فأجابه ، وقاده فاتّبعه ، زعمتَ أنَّك إنما أفسدَ عليك بيعتى خطيئتى فى عثمان ، ولعَمرى ما كنتُ إلا رجلا من المهاجرين ، أوردتُ كما أوردوا ، وأصدرتُ كما أصدروا ، وما كان الله ليجمعهم على ضلال ، ولا ليضربهم بالعمى . وبعدُ ، فما أنتَ وعثمانُ ، إنما أنت رجلٌ من بنى أمية ، وبنو عثمان أولى بمطالبة دمه ، فإن زعمتَ أنك أقوى على ذلك فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، ثم حاكم القوم إلىّ . وأما تمييزك بينك وبين طلحة والزُّبير ، وأهل الشام وأهل البصرة ، فلعمرى ما الأمر فيما هناك إلا سواء ، لأنها بيعة شاملة لا يُستثنى فيها الخيارُ ، ولا يُسْتأنف فيها النظر . أما شرفى فى الإسلام ، وقرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وموضعى من قريش ، فلعمْرى لو استطعت دفْعه لَدفَعْته » .

« ثم دعا النجاشى ، أحد بنى الحارث بن كعب ، فقال له : إنَّ ابن جُعَيْل شاعر أهل الشام ، وأنت شاعر أهل العراق ، فأجب الرجل ، فقال : يا أمير المؤمنين : أسمعنى قوله : قال : إذاً أسمعَك شعر شاعر ، فقال النجاشى يجيبه :

دعًا يا معاوى ما لن يكونا فقد حقق اللهُ ما تحذرونا
أتـاكم علىٌّ بـأهـل العراق وأهـل الحجاز فـما تصنعونـا

ويعقب على هذا بقوله : « وبعد هذا ما نمْسك عنه » ، وما أمسك عنه المبرّد

أبياتًا ، عدتها أحد عشر بيتًا ، فيها مدح لعلىّ وأنصاره ، وزهو بأهل الحجاز والعراق ، وردّ على معاوية وتابعيه ، ونجتزئ منها بالبيتين التاليين :

. . . .

فقـلْ للمضلّل مـن وائـل ومَن جعل الغث يوماً سمينا
جـعلتـم عليًّـا وأشيـاعـه نظير ابن هند أما تستحونا

. . . .[1]

وإذا أورد الرسائل المتبادلة بين أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور ، وبين **محمد بن عبد الله بن حسن العلوى** ، أورد ما يجوز ذكره ، وأمسك عن الباقى ، « فقد قيل : الراوية أحد الشاتمين » .

والكتاب معرض حافل بألوان من اللغة فى مختلف جوانبها ، من اشتقاق ونحو وصرف ودلالات ، مبثوتة خلال ما أحسن اختياره من نصوص ، فإذا عرض لتفسير لفظ تتبع مختلف دلالته ، يذكر قول الطِّرِمَّاح :

وأخْرجَ أمّهُ لسـواس سلْمَى لمعفـور الضـرا ضَـرِمَ الجنـين[2]

ويوضّح ما غمض من ألفاظه ، يقول : « وقوله ضرم الجنين يقول مشتعل . والجنين ما لم يظهر بعد ، ويقال للقبر جَنَن . والجنين الذى فى بطنِ أمه ، والمجنّ الترس ، لأنه يسترك ، والمجنون : المُغَطَّى العقل . ويُسمىَّ الجنُّ جنًا لاختفائهم . وتُسمىَّ الدروعُ الجُنَن لأنها تستر من كان فيها » .

وأكثر الأبيات الشعرية ، والحكم والأمثال التى أوردها ، أعرب ما هو غامض من جملها ، مستقصياً أوجه الإعراب المختلفة ، لمن يرضى من العلماء ، وما يرتضى من مذاهب النحاة . وما ارتآه هامًّا من قواعد النحو أو الصرف خصَّه بباب مستقل ، مثلا : « باب ما يجوز يَفْعُل فيما ماضيه فَعَل مفتوح العين » ، « باب اللام التى للاستغاثة والتى للإضافة » وباب « فَعَل » و « النسب إلى المضاف » .

---

(١) توجد الأبيات كاملة فى : سيد على المرصفى : رغبة الآمل فى كتاب الكامل جـ ٣ ص ٢١٥ ، ٢٢٦ .

(٢) الأخرج : الذى فى لونه سواد وبياض – سواس : شجر ينبت فى جبل سلمى – أمه : الشجرة التى هى أصله – المعفور : ما سقط من النار من الزند – الضرا : الضراء ، ما واراك من شجرة خاصة .

وهو يجرى على سَنَن المدرسة البصرية ، فينكر متشدّداً روايات النحو أو اللغة التى تخالف القياس العام . ويرى « أن القياس المطرد لا تعترض عليه الرواية الضعيفة » ، حتى قال عنه ابن ولادّ : « هذا رجل يجعل كلامه فى النحو أصلا . وكلام العرب فرعًا ، فاستجاز أن يخطئها إذا تكلمت بفرع يخالف أصله » .

جاء المبرد وكتاب سيبويه فى النحو المرجع والأستاذ ، منه يؤخذ العلم والشاهد فدرَسه واحتفظ لنفسه بنسخة ثمينة منه ، كان يضنّ بها على من يريد نسخها ، وعُرف عنه أنه خير من يفسر الكتاب ويشرحه ، وإليه يُرْحل لسماعه ، لكن شخصيته لم تتضاءل أمام سيبويه ، فخالفه فى مسائل كثيرة ، رجع عن بعضها واعتذر منه بأنه « شىء كنا رأيناه فى أيام الحداثة ، فأما الآن فلا » ، وبقى على رأيه فى بعضها الآخر حتى آخر حياته . فأثار هذا عليه عدداً من العلماء ، فعلى بن حمزة ، فى كتابه « التنبيهات على أغاليط الرواة » يقول عنه : « لو تشاغل أبو العباس بمُلَح الأشعار ، ونُتف الأخبار ، وما يعرفه من النحو لكان خيراً له من القطع على كلام العرب ، وأن يقول : « ليس كذا من كلامهم ، فلهذا رجال غيره ، وياليتهم أيضاً يسلمون » .

وأجاز لنفسه ، فى نصوص تلقاها عصر، رواية شفوية ، أن يردّها إلى ما يرى أنه الأصل ، لتجرى على قواعد اللغة ، مادام المعنى لا يختلف ، فإذا روى سيبويه بيت امرئ القيس :

فاليوم أشربْ غيرَ مستحقب إثـمًا مـن الله ولا واغـل

مستشهداً به على تسكين الفعل المضارع المرفوع للضرورة ، اعترض المبرّد على سيبويه وردَّ روايته للبيت ، وأورده « فاليوم أسقى » بدل « فاليوم أشربْ » ، وهى تؤدى المعنى ، ولا تصطدم مع قواعد اللغة ، وفى مكان آخر قال إنّها « فاليوم فاشْربْ » ، فهى فعل أمر سُكّن اطرداً ، وليست فعلا مضارعًا جُزِم ضرورة . وفيما يبدو كان التغيير من صُنع المبرّد ، وأن الرواية جاءتْ كما ذكرها سيبويه لأن علىَّ بن حمزة فى « التنبيهات » يقول : « لم يقل امرؤ القيس إلا « فاليوم أشربُ » وما رواه المبرّد من تغييره ، وبه اشتهر . وناقش أبو الفتح بن جنى فى كتابه « المحتسب » رأى المبرّد : و « أمّا اعتراض أبى العباس هنا على الكتاب - أى كتاب سيبويه - فإنما هو على العرب لا على صاحب الكتاب ، لأنه حكاه كما

سمع ، ولا يمكن فى الوزن أيضًا غيرهُ ، وقول أبى العباس : إنما الرواية « فاليوم فاشربْ » فكأنه قال لسيبويه : كذبْتَ على العرب ، ولم تسمع ما حَكَيته ، وإذا بلغ الأمر هذا الحدّ من السرف فقد سقطتْ كُلفة القول معه » : وخلال القضايا النحوية تعرض المبرد للقراءات القرآنية ، وأبدى رأيه فيها ، ترجيحاً أو تهوينًا ، وضعفّ بعضها حتى ولو كان من القراءات السبع المشهورة .

وكتاب الكامل كمحاضرات يدرسها الطلاب بلغ الغاية فى بابه ، لأن تعليم النحو واللغة عن طريق الأدب ، من خلال النصوص الجيدّة ، أفضل ما يشير به مربّ عارف ، ويجارى أحدث النظريات التربوية ، ولكبار المتخصصين منهم على نحو أدق . لكن عصر الاحتضار ترك آثاره فى تفكيرنا ، برغم يقظتنا المعاصرة ، فظلت الكليات المتخصصة تعلم النحو فى كتب ذات قواعد مجردة ، وأمثلة مفتعلة ، وشواهد لا تتغير ، بهُت جمالها لكثرة ما دار حولها من نقاش ، ودراسة كتاب مثله يمكن أن تحقق أكثر من هدف فى وقت واحد ، تعلم النحو ، وتربى الذوق ، وتربط النظرية بالتطبيق .

لم تقتصر تعليقات المبرد على النحو واللغة ، وإن كانت مناط اهتمامه الأوّل ، فتعرض لعدد من مسائل البلاغة ، دون أن تأخذ شكل قاعدة علمية محدّدة ، فتكلم عن الكناية وأقسامها ، والمجاز وأنواعه ، والاستعارة وألوانها ، والالتفات والتجريد ، وأطنب القول فى التشبيه ، وعقد له باباً خاصًّا ، وبَّين أن « العرب تشبِّه على أربعة أضرب ، فتشبيه مفرط وتشبيه مصيب وتشبيه مقارب ، وتشبيه بعيد يحتاج إلى التفسير ، ولا يقوم بنفسه ، وهو أخشن الكلام » وأعطى لكل ذلك أمثلة من جيد الشعر ، وخصّ الإيجاز ، ويسميه الاختصار ، ويقيده بالمُفْهِم ، والإطناب ويصفه بالمُفَخَّم ، بباب آخر أورد فيه ألوانًا « من ألفاظ العرب البينة ، القريبة ، المفهمة ، الحسنة الوصف ، الجميلة الرصف » .

لكن حظَّ النقد من كتابه محدود ، فهو يروى الشعر ، يفسّر لغوياته ، ويعرب كلماته ، ويحلل جمله ، ولكنه لا يتعرض لمناحى الجمال فيه ، وإن أبدى رأيه ففى إيجاز لا يتعدى تقديم البيت أو القصيدة بقوله : « ومما يستحسن لفظه ويستغرب معناه ، ويحمد اختصاره » ، أو « ومما يستحسن ويستجاد » أو « وهذا فى باب المدح حسن ومتجاوز ومبتدع لم يُسْبق إليه » أو « لم تجد الرواة ، ولا من يفهم

جواهر الكلام ، له مذهبًا حسنًا » أما تعليل ذلك وتفصيله وردّه إلى أسبابه فلا يعرض له ، ويتعرّض أحياناً قليلة للسرقات الأدبية ، دون أن يعطيها هذا الاسم ، يورد البيت من الشعر ثم يشير إلى من تناول المعنى نفسه ، ومن أجاد منهم أو تخلف ، ومن ابتدع المعنى أو نقله عمن سبقوه ، وهو فى ذلك يقابل بين الشعر والنثر على السواء .

وعقد للشعراء المولّدين بابًا صدّره بقوله : « هذه أشعار اخترناها من أشعار المولدين حكيمة مستحسنة ، يحتاج إليها للتمثّل لأنها أشكل بالدهر ، ويستعار من ألفاظها فى المخاطبات والخطب والكتب » . وعنى بالمولّدين معاصريه من الشعراء العباسيين ، فأورد أشعاراً لطائفة منهم ، بعضهم معروف مرموق مثل : بشار بن برد ، وأبى العتاهية ، والحسن بن هانئ (أبو نُواس) ويسميه الحكمى ، نسبة إلى حكم قبيلة من مَذْحِج ، وصالح بن عبد القدوس ، ودعبل الخزاعى . وبعضهم معروف لدارسى الأدب المتخصصين فحسب ، مثل : أشجع السّلَمىّ ، وعبد الصمد بن المعذّل ، أو معروف وشُهِرَ بغير الشعر ، كالخليل بن أحمد واضع علم العروض . وفى آخر الكتاب عقد لهم بابًا آخر جعل عنوانه : « هذا باب طريف من أشعار المحدثين » أورد فيه شعراً لمطيع بن إياس ، وأبى عبد الرحمن العينى ، ويزيد المهلّبىّ ، ولم يضمن كتابه شيئًا من شعر البحترى ، على ما كان بين الرجلين من ألفة وود .

ومن لوازم المبرّد فى الشرح أن يتبع قوله بكلمة « يا فتى » مما يوحى بأن الكتاب فى الأصل أمالى ألقاها على طلابه ، وأن يُقّيد وعوده بالمشيئة ، حتى أن بعض العناوين جاءت مقرونة بها : « باب الحروف التى تكون استفهامًا وخبراً ، وسنذكرها مفسَّرة فى أبوابها إن شاء الله » .

وقريباً من آخر الكتاب أحس أن قارئه يستشرف النهاية متعباً ، مع رحلة طالت ، بين جدّ القول ، وروائع الشعر ، بين بديع النثر ، وعويص النحو ، فاستأنى به شيئاً ، وأنشأ له بابًا ذكر فيه « من كل شىء شيئاً ، لتكون فيه استراحة للقارئ ، وانتقال ينفى الملل لحسن موقع الاستطراف ، ونخلط ما فيه من الجدّ بشىء يسير من الهزل ، ليستريح القلب ، وتسكن إليه النفس » . وهو باب لم يخرج فيه أبو العباس عن منهاجه ، وكل ما هناك أنهّ اختار مادته التى يدور حولها

الحديث ، من موضوع محبّب إلى قلوب الناس فى عصره وما بعد عصره ، فكان عن العشق والهوى والصبّابة ، والنساء والوصل والهجر ، لكنه لم يتخففّ من وقاره ، فكان جادًّا لم يضمّن المادة كلمة خارجة ، أو تعبيراً مكشوفاً ، أو فكرة جارحة .

* * *

لقى « الكامل » تقديراً كبيراً من العلماء ، واحتذاه بعضهم فى تآليفه ، فألف **إبراهيم بن مَاهَوَيْه الفارسى** كتابًا عارض به المبرّد فى « كامله » ، وألّف **محمد بن جعفر** ، أبو الفتح المراغى ، المتوفى عام ٣٧١ هـ = ٩٨١ م كتاباً أسماه « البهجة على نمط الكامل » . واهتم آخرون بتتبع سقطاته وأغاليطه ، فألف أبو القاسم على بن حمزة البصرى ، المتوفى عام ٣٧٥ هـ = ٩٨٥ م ، كتابه « التنبيهات على أغاليط الرواة » نبّه فيه على الأخطاء الواردة فى عدد من مؤلفات علماء عصره ، من بينها كتاب « النبات » لأبى حنيفة الدينورى ، و « الفصيح » لثعلب و « التنبيهات على ما فى المقصور والممدود » لأبى العباس بن ولّاد و « الكامل » للمبرّد ، وكتب أخرى . وقد أخذ على المبرّد ما عدَّه أخطاء فى تفسير عدد من الكلمات ، وفى رواية أبيات من الشعر ونسبته لقائله أو شرحه ، وأغاليط تتصل بالنحو والتاريخ ، وختم تنبيهاته عن الكامل بقوله : « هذا آخر ما أخذناه على أبى العبَّاس مما لا عذر فيه ، وقد سامحناه فى كثير من الأغلاط . وقد أخذ الناس على أبى العباس قبلنا فى هذا الكتاب وفى غيره ، فمنهم مخطئ ومصيب ،فممن أخذ عليه فى هذا فأصاب أبو جعفر بن النَّحاس ، وممن أخذ عليه فأصاب وأخطأ الأخفش »[١] .

وصادف « الكامل » هوى فى نفوس الأندلسيين بخاصة ، فأقبلوا على درسه ، وعنوا بشرحه ، وبينهم من كان يستظهره . وحفظ المؤرخون أسماء عدد منهم ، مثل : **خلف بن يوسف بن فرتون** ، المتوّفى سنة ٥٣٢ هـ = ٩٦٣ م ، **وإشراقة السوداء العروضية** ، مولاة أبى المطرف عبد الله **بن غلبون** ، المتوفّاة سنة ٤٥٠ = ١٠٥٨ م وآخرين كثيرين .

(١) « التنبيهات على أغاليط الرواة » لأبى القاسم على بن حمزة ، مخطوطة فى دار الكتب المصرية ، وهى ناقصة ، وبها خروم ، وتوجد تحت رقم ٥٠٢ لغة .

وشرحه منهم القاضى أبو الوليد هشام بن أحمد **الوَقَّشىّ**[١] من أهل طليطلة . (ولد سنة ٤٠٨ هـ - ١٠١٧ م وتوفى فى مدينة دانية فى ٢٩ جمادى الآخرة سنة ٤٨٩ هـ = ١٠٩٦ م) ، وكان - كما يقول ابن بشكوال - « ضليعًا فى النحو واللغة ، ومعانى الأشعار ، وعلم العروض ، وصناعة البلاغة ، وكان شاعراً متقدّمًا ، حافظًا للسنن ، وأسماء نقلة الأخبار ، بصيراً بأصول الاعتقادات وأصول الفقه ، نافذاً فى علم الشروط والفرائض ، متحققا بعلم الحساب والهندسة ، مشرفًا على جميع آراء الحكماء ، حسن النقد للمذاهب » وتسمّى شرحه « نُكت الكامل » ، ولم يصلنا هذا الكتاب ، لكن جلال الدين السيوطى ، من علماء القرن العاشر الهجرى ، الخامس عشر الميلادى ، أشار إليه فى كتابه « بغية الوعاة » ، وتردَّد ذكره فى كتاب « خزانة الأدب » لعبد القادر البغدادى ، المتوفى ١٠٩٣ هـ = ١٦٨٢ م .

وشرحه **ابن السيِّد البَطْلَيوسى** ، عبد الله بن محمد ، من بطليوس Badajos المتوفَّى عام ٥٢١هـ= ١١٢٧م و « كان عالمًا بالآداب واللغات متبحراً فيهما ، مُقدّما فى معرفتهما وإتقانهما ، يجتمع الناس إليه ، ويقرءون عليه ، ويقتبسون منه . وكان حسن التعليم ، جيِّد التلقين ، ثقة ضابطاً ، وألف كتباً حساناً[٢] » من بينها شرح « سقط الزند » للمعرى ، وشرح ديوان المتنبى ، ولم أجد فيما بين يدىّ من مراجع أندلسية إشارة إلى شرحه « للكامل » ، ولكن **عبد القادر البغدادى** ذكره أكثر من مرَّة فى كتابه « شرح شواهد الشافية » ، ولم يذكر عنوان الكتاب ، واكتفى بقوله فيها جميعاً : « قال ابن السيِّد فيما كتبه عن الكامل » .

والأخير من هذه الشروح الأندلسية صنعه محمد بن يوسف **بن مرونَجوش السرقسطى** ، المتوفى عام ٥٣٩ هـ - ١١٤٤ م ، ولم يذكره أحد من الأندلسيين ، ممن قرأت لهم ، ولكن حاجى خليفة المتوفى فى عام ١٠٦٦ هـ = ١٦٥٦ م ، أشار إلى هذا الشرح فى موسوعته : « كشف الظنون من أسامى الكتب والفنون » .

وشرحه فى عصرنا الحديث سيد **على المرصفى** ، ألقى شرحه دروسا فى

---

(١) نسبة إلى بلدة وقش فى الأندلس ، وما تزال موجودة فى إسبانيا واسمها Huccas.

(٢) ابن بشكوال ، تكملة الصلة ، ترجمة رقم ٦٣٩ .

الأزهر ، فى مطلع هذا القرن ، عندما اصطفاه **الإمام محمد عبده** للتدريس فيه ، ثم نشر شروحه فى كتاب أسماه : « رغبة الآمل من كتاب الكامل » ، جاء فى ثمانية أجزاء ، وطبع للمرة الأولى خلال أعوام ١٣٤٦ هـ = ١٩٢٧ م و ١٣٤٨هـ = ١٩٣٠ م ، ولم يطبع بعد ذلك مرة أخرى ، وقد وجد أن « أبا العباس كثيراً ما يعتمد فى لفظه على جودة حفظه ، فربما نزع فى غير قوسه ، فزاغ عن القصد سهمه ، أو صعد فى الأدب مرتقى زلت به إلى الحضيض قدمه » ، « فأبان ما حاد فيه المبرد عن سننِ الصواب من خطأ فى الرواية » أو اللغة أو التاريخ . وإذا ذكر أبو العباس شاهداً من شعر العرب ، أورد المرصفى « القصيدة كاملة ، مع ضبط كلماتها وبيان مبهماتها » .

وفى نهاية القرن السابع الهجرى أحس أمير مغربى هو **أبو زكريا بن أبي محمد بن أبي جعفر** ، بما فى مادة الكتاب من فوضى ، فعهد إلى علماء مغاربة ، أو عالم ، لا نعرف أسماءهم ، بترتيب مادة الكتاب وتحريره وتهذيبه ، فجعلوه فى أربعين باباً . وبعض الأبواب اشتمل على فصول متعددة تبلغ العشرين ، وبعضها لا فصول تحتها . فمثلا الباب الأول فى التفسير ، والثانى فى الحديث ، والثالث فى المواعظ والزهد ، والرابع فى الخطب ، والخامس فى الرسائل والتوقيعات والوجوه ، والسادس فى الحكم ، والسابع فى الأمثال ، والثامن فى البلاغة ، وفيه ثلاثة فصول : وصف البلاغة ، ونقد الشعر وما فى معناه ، وفى تمرين اللسان ، والتاسع فى التسبيهات والأوصاف وفيه ثلاثة عشر فصلا : ما وقع فى القرآن ، وفى تقسيمها ، وفى طول الليل والسهر والنجوم ، وفى السحاب والأمطار والمياه والرياض والمجالس والرسوم والأطعمة ، وفى الخيل والإبل وجملة من الحيوان ، وفى الجيوش والسلاح والآلات وما قاربها ، وفى المصلوب والمطعون ، وفى الصيد والوحش والهوام ، وفى الغزل وما يتعلق به ، وفى ذكر الهمم والرءوس ، وفى الخمر وآنيتها ، وفى الأمداح ، وفى الهجاء.. إلى آخر ما هناك من تقسيمات ليس القصد أن نلَّم بها كلها ، وإنما أن نعطى صورة لها. وفرِغ من نسخه وتحريره فى أواخر شهر محرم سنة ٦٤٦ هـ ، وسُمِّىَ « بغية الآمل فى ترتيب الكامل » ، وهو كتاب لمَّا يطبع ، ولدينا منه مخطوطتان كاملتان سليمتان محفوظتان فى خزانة القصر الملكى بالرباط أولاهما تحت رقم ٢٤٨٦ والأخرى تحت رقم ٥١٦٣ .

طُبع الكامل لأول مرة فى أوربا ، نشرته الجمعية الألمانية فى ليبزج Leipzig عام ١٨٦٤ م ، وصدر فى ثلاثة مجلدات ، بإشراف المستشرق رايت W. Wright (١٨٣٠ - ١٨٨٩ م) ، وضمّن الكتاب ملاحظاته وتعليقاته ، وألحق به فهارس منوّعة .

ثم طبع فى الآستانة ، فى مجلد واحد ، بلغت صفحاته ٧١٦ صفحة ١٢٧٦ هـ = ١٨٦٩ م ونشرته المطبعة الخيرية فى مجلدين عام ١٣٠٨ = ١٨٩٠ م ، ونشرته مطبعة التقدم فى مجلدين أيضًا ، وبهامشه كتاب « الفصول المختارة » للجاحظ ، ١٣٢٣ هـ = ١٩٠٥ م ، وتوالى بعد ذلك طبعه على نحو تجارى ، ثم ظهر فى طبعة علمية محقّقة ، قام على ضبط نصها الأستاذان محمد أبو الفضل إبراهيم ، والسيد شحاته ، ونشرت فى أربعة مجلدات عام ١٩٥٦م.

وهذه الطبعات مأخوذة كلها عن المخطوطة الوحيدة التى أشرنا إليها من قبل ، وتتمايز فيما بينها بمدى ثقافة وعلم القائمين على التحقيق ، وقدرتهم على خدمة النصّ ، ومن ثمّ كانت طبعة الأستاذ محمد أبى الفضل إبراهيم وصاحبه أضبط نصًا ، والطبعة الألمانية أكثر تعليقًا ، وشرح المرصفى أجلّ فائدة . وقد قام الأستاذ السباعى بيومى بتهذيب الكامل ، ونشره فى مجلدين عام ١٣٤١ هـ - ١٩٢٣ م [١]

○ **منتخبات من كتاب « الكامل » :**

باب من أَخبار الخوارج[٢].

قال أبو العباس : ذكر أهل العلم من الصُّفْرِية أن الخوارج لما عزموا على البيعة لعبيد الله بن وهب الراسِبىّ من الأزْد تكرَّه ذلك فأبوْا من سواه ، ولم يريدوا غيره ، فلما رأى ذلك منهم قال : يا قوم استبيتوا الرأىَ ، أىْ دعوه يُغِبّ ، وكان يقول : نعوذ بالله من الرأى الدبرىّ . قوله استبيتوا الرأى يقول : دعُوا رأيكم تأت عليه ليلة ثم تعقّبوه ، يقال : بيَّت فلان كذا وكذا إذا فعله ليلا . وفى القرآن

(١) وآخر نشراته وأكثرها علمية ودقة قام بها الدالى.
(٢) العنوان: من عمل المبرد نفسه.

﴿إِذْ يُبَيِّتُون ما لا يرْضَىٰ مِن الْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨]، أى أداروا ذلك ليلا بينهم، وأنشد أبو عبيدة:

أتـوْنى فلم أرضَ ما بيَّتـوا   وكـانـوا أتـوْنى بـأمـرٍ نُكُـرْ
لأنــكــحَ أيمهــم مُــنْــذِراً   وهل يُنْكِح العبـدَ حُرٌّ لحـرّ

والرأى الدبرىّ الذى يعرض من بعد وقوع الشىء كما قال جرير:

ولا يعرفون الشرَّ حتى يُصِيبَهم   ولا يعرِفُون الأمرَ إلا تدبُّرا

وكان عبد الله بن وهب ذا رأى وفهم ولسان وشجاعة، وإنما لجأوا إليه وخلعوا مَعْدان الإيادى، لقول معْدان:

سلامٌ على مَن بايع الله شاريًّا   وليس على الحزب المقيم سلامُ

فبرئت منه الصُّفْرِيّة، وقالوا: خالفت لأنك برئتْ من القعَد.

قـال أبوالعـبـاس: والخـوارج فى جـمـيع أصـنافهـا تبـرأ من الكاذب، ومن ذى الظاهرة.

لو(١)

فلو أصلها فى الكلام أن تدلّ على وقوع الشىء لوقوع غيره، تقول: لو جئتنى لأعطيتك، ولو كان زيد هناك لضربته. ثم تتسع فتصير فى معنى «إنْ» الواقعة للجزاء، تقول: أنت لا تكرمنى ولو أكرمتك. تريد وإنْ أكرمتك، قـال الله عــزّ وجل: ﴿فَلَن يُقْبَلَ منْ أَحَدِهم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ﴾ [آل عمران: ٩١]، فإنّ تأويله عند أهل اللغة لا يُقبل به أن يتبرأ وهو مقيم على الكفر، ولا يُقبل إن افتدى به، «فلو» فى معنى «إنْ». وإنما منع «لو» أن تكون من حروف المجازاة فتجزم كما تجزم إنْ أنّ حروف المجازاة إنما تقع لما لم يقع، ويصير الماضى معها فى معنى المستقبل. تقول: إنْ جئتنى أعطيتك، وإن قعدت زُرتكَ. فهذا لم يقع، وإن كان لفظه لفظ الماضى لما أحدثته فيه «إنْ»، وكذا متى أتيتنى أتيتك. و«لو» تقع فى معنى الماضى، تقول: لو جئتنى أمس لصادفتنى،

---

(١) العنوان. من عمل مؤلف هذا الكتاب.

ولو ركبتَ إليَّ أمس لألفيتني ، فلذلك خرجتْ من حروف الجزاء ، فإذا أُدْخِلَتْ عليها « لا » صار معناها أن الفعل يمتنع لوجود غيره ، فهذا خلاف ذلك المعنى ، ولا تقع إلا على الأسماء ، ويقع الخبر محذوفاً ، لأنه لا يقع فيها الاسم إلا وخبره مدلول عليه ، فاستغنىَ عن ذكره لذلك ، تقول : لولا عبد الله لضربتك ، والمعنى فى هذا المكان من قرابتك أو صداقتك ، أو نحو ذلك ، فهذا معناها فى هذا الموضع .

ولها موضع آخر تكون فيـه على غير هذا المعنى، وهى «لولا» التى تقع فى معنى «هلا» التى للتـحضـيض، ومن ذلك قوله تعـالى: ﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور١٢]، أى هلا. وقـال الله تعـالى: ﴿لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ﴾ [المائدة:٣٦]، فهذه لا يليها إلا الفعل، لأنها للأمر والتحضيض، مُظهرا أو مضمرًا، كما قال (نُسِب لجرير وقيل للأشهب بن رُميلة):

تعدّون عقْرَ النّيبِ أفضلَ مجدِكم بنى ضَوْطرى لولا الكِمىَّ المقنّعا

أى هلّا تعدّون الكمى المقنّعا . و « لولا » الأولى لا يليها إلا الاسم على ما ذكرتُ لك ، ولابد فى جوابها من اللام أو معنى اللام ، تقول : لولا زيدٌ فعلتُ ، والمعنى لفعلتُ ، وزعم سيبويه أن زيداً من حديث لولا ، واللام والفعل حديث معلق بحديث لولا ، وتأويله أنَّه للشرط الذى وجب من أجلها ، وامتنع لحال الاسم بعدها .

و « لو » بغير « لا » لا يليها إلا الفعلُ مضمراً أو مظهراً ، لأنها تشارك حروف الجزاء فى ابتداء الفعل وجوابه ، تقول : لو جئتنى لأعطيتك ، فهذا ظهور الفعل. وإضماره قوله عزّ وجلّ: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ١٠٠]، والمعنى، والله أعلم، ولو تملكون أنتم. فـهذا الذى رفع أنتم، ولمّا أُضْمِـرَ ظهر بعده ما يفسره. ومثل ذلك: لو ذاتُ سوارٍ لطمتنى، أراد: لو لطمتْنى ذات سِوار، ومثله قول المغلس:

ولو غيرُ أخوالى أرادوا نقيصتى جعلتُ لهم فوق العرانين مِيسما

وكذلك قول جرير :

لو غيرَكم عَلقَ الزبيرُ بحبله أدّى الجوارَ إلى بنى العوّامِ

فنصب بفعل مضمر يُفسره ما بعده لأنَّه للفعل وهو فى التمثيل : لو عَلِقَ الزبيرُ غيرَكم ، وكذلك كل شىء للفعل ، نحو الاستفهام ، والأمر والنهى وحروف الفعل نحو إذْ وسوْف ، (كذا وقع هنا إذ وسوف ، ولم يذكر سيبويه مع سوف إلاّ قد ، وهو الصحيح)[١] ، وهذا مشروح فى الكتاب المقتضب على حقيقة الشرح .

بـــاب[٢]

قال أبو العباس : قال رجل من بنى أسد بن خُزيمة ، يمدح يحيى بن حيان ، أخا النَّخع بن عمرو بن عُلَة بن جَلْد بن مَذْحِج ، وهو مالك :

ألَا جعـلَ الله اليمـانـينَ كلّهم ... فِدًى لفَتَى الفتيان يحيى بن حَيَّانِ
ولـولا عُـرَيقٌ فىَّ من عصبيـةٍ ... لقلتُ وألْفًا من مَعَدّ بن عَدْنانِ
ولكن نفسى لم تـطبْ بعشيرتى ... وطابت لـه نفـسى بأبنـاء قـحطان

وهذا من التعصّب المفرْط . وحدثنى شيخٌ من الأزْد ثقة ، عن رجل منهم ، أنه كان يطوف بالبيت ، وهو يدعو لأبيه ، فقيل له : ألا تدعو لأمك ، فقال : إنها تميمية . وسمُعَ رجل يطوف بالبيت وهو يدعو لأمه ولا يذكر أباه ، فعوتب ، فقال : هذه ضعيفة ، وأبى رجل يحتال لنفسه . وحدثَّنى المازنى عمن حدثه قال : رأيتُ رجلا يطوف بالبيت ، وأمه على عنقه ، وهو يقول :

أحمـلُ أُمِّى وهِىَ الحمَّالـهْ ... تُـرْضِعُنى الـدرَّةَ والعُـلالـهْ
ولا يُجـازَى والدٌ فَعَـالهْ

قوله الدَّرة ، فهو اسم ما يدُرُّ من ثدييها ، ابتداء كان أو غير ذلك ، والعُلَالة لا تكون إلا بعدُ . يقال علَّهُ يَعُلّه ويَعِلّهُ والاسم العُلالة . وكل شىء كان على فَعَلت من المدغم فمضارعُه إذا كان متعديًا إلى مفعول يكون على يفعُل نحو ردَّه يردُّه ، وشجّه يشجُّه ، وفرَّه يَفُرُّه ، فإذا قلت فَرَّ يفِرُّ فإنما ذلك لأنه غير متعد إلى مفعول ، ولكن تقول فررت الداية أفُرُّها . وجاء فَعل يفعِل من المتعدّى فى ثلاثة أحرف ، يقال : علّهُ يَعُله ويَعِله ، وهرَّهُ يَهُره ويَهِرُّه ، إذا كرهه .. » .

---

(١) واضح أن ما بين القوسين هو تعليق من الأخفش الصغير راوية الكتاب .

(٢) العنوان : من عمل المبرد نفسه .

الشعر وَالشعراء

لابن قُتَيْبَةَ

قرين الجاحظ فى سعة الثقافة وشمولها ، ونده فى الذود عن مبادئه والنضال دونها : ابن قُتَيْبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم ، ولد فى بغداد أو الكوفة ، على خلاف فى ذلك ، عام ٢١٣ هـ – ٨٢٨ م ، لأب فارسى أصله من مرو ، ولا تكاد المراجع تذكر عن أبيه شيئًا ، والتعليل القريب أنه لم يكن ذا شأن اجتماعى أو سياسى .

وعلى فرض أنه وُلدَ بالكوفة فإنّ إقامته بها كانت قصيرة ، إذ ما لبث أن فارقها إلى دار السلام ، فى وقت بلغت فيه عاصمة بنى العباس قدراً عاليًا من التحضّر ، على نحو كانت تجمع فيه بين الشىء ونقيضه ، وتبلغ القمّة فى كليهما . وفيها درس على إسحاق بن راهويه ، ومحمد بن زياد الزيادى ، وأبى حاتم السجستانى ، وآخرين . واتصل بالعلماء والأدباء وغشى ندواتهم ، وحضر مجالس المتكلّمين وأعجب بها . وأنفق الشطر الأكبر من حياته فى بغداد ، يطلب العلم ، ويتولى التدريس ، ويعكف على التصنيف ، وتركها لمدّة قصيرة ، عمل فيها قاضيًا لمدينة دينور ، ولكنه ضاق بقيود الوظيفة كما ضاق بها الجاحظ من قبل ، « لأن أولئك – الموظفين – لباسهم الذّلة ، وشعارهم الملق ، وقلوبهم ممن لهم خول مملوءة ، قد لبسها الرّعب ، وألفها الذلّ ... فهم مع ذلك فى تكدير وتنغيص ، خوفاً من سطوة الرئيس ، وتنكيل الصاحب ، وتغيير الدول » . فعاد من جديد إلى بغداد وبقى بها حتى لقى الله عام ٢٧٦ هـ = ٨٨٩ م على أرجح الروايات .

كان ابن قتيبة ، فيما يقول ابن النديم ، « عالمًا باللغة والنحو ، وغريب القرآن ومعانيه ، والشعر والفقه ، كثير التصنيف والتآليف » .. وتاق منذ صغره إلى أن يكون أديبًا ، بمفهوم الأدب على أيامه ، فهو يحدّث عن نفسه : « كنت فى عنفوان الشباب ، وتطلّب الآداب ، أحب أن أتعلّق من كل علم بسبب ، وأن أضرب فيه

بسهم » ..ويزيد الأمر وضوحاً : « من أراد أن يكون عالمًا فليطلب فنًا واحداً ، ومن أراد أن يكون أديبًا فليتسع فى العلوم » . وقد اتسع معها ما واتته إمكانات الحياة ، فدرس الفارسية وأجادها ، وقرأ التوراة والإنجيل واقتبس منهما ، وكان ملمًا بالفلسفة فهو ينقل عن أرسطو صاحب الفلسفة ، ويقول صراحة : « قرأت فى كتب العجم والهند واليونان » . وأخذ بحظ وافر من النزاع العقيدى الذى لفّ عصره ، ولزم جانب أهل السنة ونافح عنها ، وكان لها ما كان الجاحظ للمعتزلة . وشارك فى الصراع العنصرى ، الذى كان قائماً بين العرب والموالى ولزم ، وهو فارسى ومولى ، جانب العرب ، لأنه أدرك وهو المسلم التقىّ ، ما وراء الحملة على العرب من أهداف بعيدة تتربص بالإسلام نفسه فالعرب مادة الإسلام ، كما يقول عمر رضى الله عنه ، وإثارة النزعات العنصرية البغيضة فيه تشويه لمعانى الإسلام السامية ، وجماعها أن يلتقى الناس إخوة على ما هو جميل ونبيل من الأفكار ، دون أن تباعد بينهم حماقات تتخذ اللون أو الجنس أو الإقليم أساسًا للتفاضل والتعالى . ولم يلزم جانب العرب سلوكاً صامتاً ، وإنما اتخذه مبدءاً يناضل عنه : « لا يمنعنى نسبى فى العجم أن أدفعها - أى الشعوبية - عما تدّعيه لها جهلتها » .

هذا العلم الواسع أكسبه ورعًا وتواضعًا ، فكان حسن العشرة ، موطأ الأكناف عفّ الخصومة ، مع اعتداد بالنفس ، وترفع عن الدنايا ، فلم يؤثر عنه أنه تعلق بأحد من أصحاب الجاه أو السلطان ، والصلة الوحيدة التى نعرفها له من المصادر التى تحدثت عنه ، صداقته للوزير أبى الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، وزير المتوكل وابنه المعتمد ، وأهدى إليه كتابه « أدب الكاتب » . وفى غير نطاق الدين كان معتدل الرأى ، روى عن الكوفيين ، وأخذ عن البصريين ، وخلط بين المذهبين ، وكان واحداً من أئمة المدرسة البغدادية ، وكانت تقوم على المزج بينهما .

كانت تآليفه صورة صادقة لثقافته ، فجاءت متنوّعة تشمل أغلب معارف عصره ، وذكر له صاحب الفهرست ثلاثة وثلاثين كتابًا ، ويرتفع بها بعضهم إلى ستين ونيّف ، وبلغ بها آخرون ثلثمائة ، وهو رقم يبدو لى أن أصحابه خلطوا بين أسماء الكتب نفسها ، وبين أسماء الفصول التى تحتويها الكتب الكبيرة ، وكان يطلق عليها أحياناً اسم « كتاب » ، كما فى « معانى الشعر الكبير » فهو يحتوى على اثنى عشر كتابًا ، أى فصلا ، ومناطق اهتمامات هذه الكتب القرآن

والحديث ، والنحو واللغة ، والأدب من شعر ونثر وأمثال والتاريخ والآداب الاجتماعية وغيرها . وقد أورد لنا ابن خير الأشبيلى ، فى « فهرسته » عما رواه عن شيوخه ، كتب ابن قتيبة الأوسع انتشاراً فى وطنه الأندلس ، فذكر منها : الأنواء ، والمعارف ، والشعر والشعراء ، والمسائل ، وعيون الأخبار ، ومعانى الشعر ، والميسر ، والقداح ، ويهمنا من هذه الكتب « الشعر والشعراء » ، وهو موضع دراستنا .

* * *

وصلنا كتاب الشعر والشعراء فى عدد من المخطوطات موزعة على عدد من مكتبات العالم ، فى القاهرة ودمشق والمدينة المنورة وبرلين وباريس وفيينا وليدن ، وتتفاوت فيما بينها عدد صفحات وموضوعات .

فى دار الكتب المصرية منها ثلاث نسخ ، إحداها « مخطوطة بقلم معتاد ، بخط يحيى بن محمد بن لونيس بن القاضى المغرَبىّ الزواوى ، نقلها من نسخة مخطوطة محفوظة بالقسطنطينية فى دار كتب راغب باشا ، وفرغ من كتابتها لثلاث ليال خلون من شهر رجب سنة ١٢٨٦ هـ = (= ١٨٦٩ م) ، وبهامشها بعض تقييدات » ، ومسطرتها ٢٦ سطراً ، وجاءت فى ١٠١ ورقة ، وتوجد تحت رقم ٥٥٠ أدب . والثانية « بخط عيسى بن محمد بن سلمان ، فرغ من كتابتها ظهر يوم الإثنين ، الثالث من شهر جمادى الآخرى ١٠٥٩ هـ (= ١٦٤٩ م) بها ترقيع وأكل أرضة وتلويث ، وبهامشها تقييدات » ، ومسطرتها ٢٥ سطراً ، وعدد أوراقها ١٤٥ ورقة ، مع ورقتين فى البدء ، جعل منهما الناسخ فهرسًا لتراجم الشعراء الواردة فى الكتاب ، وتوجد تحت رقم ٤٢٤٧ أدب ، والأخيرة نسخة فى مجلد ، بقلم معتاد ، بخط محمد بن على بن حيدر بن محمد بن نجم الحسينى الموسوى ، فرغ من كتابتها فى الساعة الثانية من ليلة اليوم العاشر من شهر جماد الأول سنة ١١١٣ هـ = ١٧٠١ م وبهامشها تقييدات قليلة ، وبالورقة الأولى منها خرم ، وهى فى ١٥١ ورقة ، ومسطرتها ١٨ سطراً ، وتوجد تحت رقم ٩١٦٠ أدب .

ولم تتفق المصادر التى تحدثت عن الكتاب ومخطوطاته على « عنوانه » فهو عند ابن النديم « الشعر والشعراء » ، وفى ملاحظة على كتاب « المحاسن والأضداد » ، للجاحظ ذُكر باسم « أخبار الشعراء » ، ويسميه ابن قتيبة فى

« المعارف » كتاب الشعراء ، وفى « عيون الأخبار » كتاب الشعر ، وعنوان مخطوطة بيروت « ديوان الشعر والشعراء » ، ومخطوطات القاهرة الثلاث ، واحدة تسميه « الشعر والشعراء » والأخريان عنوانها « طبقات الشعراء » . وعلى هامش مخطوطتى برلين وليدن « كتاب طبقات الشعراء » ، ويلاحظ المستشرق ألورد Ahlwardt أن الشعراء فى الكتاب ، برغم أنهم غير مرتبين بدقة فى طبقات ، مقسمون بحسب قدرة الشاعر الفنية ، أو بحسب القبائل ، وإذن يكون عنوان « طبقات الشعراء » مناسباً للكتاب ، وملاحظة ألورد غير دقيقة ، فالقدرة الفنية غير واردة فى منهج المؤلف ، على نحو ما سنشير إليه ، و « الشعر والشعراء » أدق تعبيراً عن مادة الكتاب ، ودراسته لكل جانب منهما مستقلة حتى لتكاد تصبح كتاباً قائماً بنفسه ، ويخيل إلىَّ ، والكتاب بعض ما ألَّف ابن قتيبة فى أواخر حياته ، أن كلًّا منهما كان نواة مؤلف مستقل ، لم تواته الفرصة ليمضى به إلى غايته كاملة ، فجمع بينهما برغم تباعد المنهج والمادة ، فهو فى الأول مبدع ناقد ، وفى الآخر راوية مؤرِّخ . ويعزز رأيى هذا أنه يشير إليه فى بعض مؤلفاته الأخرى باسم « كتاب الشعر » ، على حين يحيلنا فى مؤلف آخر إلى « كتاب الشعراء » .

* * *

فصّل ابن قتيبة منهجه فى دراسته ، وهو أول منهج يصلنا فى العربية على هذا القدر من الوضوح ، ففيه حديث عن مادة الكتاب ، وغاية المؤلف ، ووسيلته إلى هذا الهدف ، فمادته « عن الشعراء وأزمانهم ، وأقدارهم ، وأحوالهم فى أشعارهم ، وقبائلهم وأسماء آبائهم ، ومن كان يعرف باللقب أو بالكنية منهم . وعما يستحسن من أخبار الرجل ويستجاد من شعره ، وما أخذته العلماء عليهم من الغلط والخطأ فى ألفاظهم أو معانيهم ، وما سبق إليه المتقدّمون فأخذه عنهم المتأخرون » .

« وأخبرتُ – الضمير يعود على ابن قتيبة – فيه عن أقسام الشعر وطبقاته ، وعن الوجوه التى يختار الشعر عليها ويستحسن لها » .

« وكان أكثر قصدى للمشهورين من الشعراء ، الذين يعرفهم جلّ أهل الأدب ، والذين يصحّ الاحتجاج بأشعارهم فى الغريب ، وفى النحو ، وفى كتاب الله عز وجل ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

« فأمّا من خفى اسمه ، وقلّ ذكره ، وكسد شعره ، وكان لا يعرفه إلا بعض الخواصّ ، فما أقلّ من ذكرتُ من هذه الطبقة ، إذ كنت لا أعرف منهم إلا القليل ، ولا أعرف لذلك القليل أيضًا أخباراً ، وإذ كنت أعلم أنه لا حاجة بك إلى أن أسمّى لك أسماء لا أدلّ عليها بخبر أو زمان ، أو نسب أو نادرة ، أو بيت يستجاد ، أو يستغرب » .

واعتذر ابن قتيبة بأن الشعراء ليسوا بمنزلة رواة الحديث والأخبار والملوك والأشراف ، فيبلغهم العدد ويجمعهم الإحصاء ، ويمكن أن يضمهم كتاب واحد لا يدع شاعرًا قديماً ولا حديثا إلا ذكره . « والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم فى الجاهلية والإسلام ، أكثر من أن يحيط بهم محيط ، أو يقف من وراء عددهم واقف ، ولو أنفذ عمره فى التنقير عنهم ، واستفرغ مجهوده فى البحث والسؤال . ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ، ولا قصيدة إلا رواها » .

ولم يعرض فى كتابه « لمن كان غلب عليه غير الشعر ، فقد رأينا بعض من ألّف فى هذا الفنّ كتابًا يذكر فى الشعراء من لا يُعرَف بالشعر ولم يقل منه إلّا النبذ اليسير ، كابن شبُرُمة القاضى ، وسُليمان بن قَتَة التَّيْمىّ المحدث ، ولو قصدنا لذكر مثل هؤلاء فى الشعر لذكرنا أكثر الناس ، لأنه قلّ أحد له أدنى مُسكة من أدب ، وله حظ من طبع ، إلا وقد قال من الشعر شيئاً ، ولا حتجنا أن نذكر صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجلة التابعين ، وقومًا كثيراً من حملة العلم ، ومن الخلفاء والأشراف ، ونجعلهم فى طبقات الشعراء » .

وفصّل القول فى مسألة أشار إليها المبّرد فى « الكامل » عَرَضاً وعلى استحياء ، وأعنى بها ، الوقوف فى وجه التيار الجامد ، الرامى إلى إجلال كل قديم ، والتهوين من شأن كل معاصر ، فكان فى اختياره لمادته متحرراً من التبعية والتقليد : « ولم أسلك ، فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له ، سبيل من قلّد ، أو استحسن باستحسان غيره . ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره . بل نظرت بعين العدل على الفريقين ، وأعطيت كلا حظه ، ووفّرت عليه حقه » .

ويعتب على نقاد الشعر ودارسيه من أهل زمانه ، أن منهم « من يستجيد الشعر

السخيف لتقدّم قائله ، ويضعه فى متخيَّره ، ويُرْذِل الشعر الرصين ، ولا عيب له عنده إلّا أنه قيل فى زمانه ، أو أنه رأى قائله » .

ولا يكتفى ابن قتيبة برأيه فى هذه القضية يقدمه بين يدى القارئ ، وإنما يحتج له بأسباب عمادها الملاحظة والمنطق والعقل ، فلم « يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خصَّ به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده فى كل دهر ، وجعل كل قديم حديثًا فى عصره ، وكلّ شرف خارجيَّة فى أوّله ، فقد كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم يعدّون مُحَدثين . وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : لقد كثرُ هذا المحدث وحَسُن حتى لقد هممت بروايته » .

« ثمّ صار هؤلاء قدماء عندنا بُبْعِد العهد منهم ، وكذلك يكونُ من بعدهم لمن بعدَنا كالخُرَيمى والعتّابى والحسن بن هانئ وأشباههم ، فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له ، وأثنينا به عليه ، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله ، ولا حداثةِ سنه ، كما أن الردىء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدُّمه » .

وإذا كنا ندين لابن سلام الجمحى بمعلوماتنا الوافرة عن **الانتحال فى الشعر العربى** ، طبيعته وأسبابه ، فنحن ندين لابن قتيبة بأول إشارة واعية وصريحة عن **الصراع بين القديم والحديث** فى عصره ، والتزامه جانب العدل دون النظر إلى قديم وحديث . غير أنه لم يمض بالقضية إلى غايتها ، فصمت عن العنصر الذى تدور حوله الجودة فى الشعر ، فيحكم عليه فى ضوئها وجوداً وعدماً . وكان هذا هو الجديد الذى أضافه علىّ بن عبد العزيز الجرجانى ، المتوفى عام ٣٩٢ هـ = ١٠٠١ م ، فى كتابه « الوساطة بين المتنبى وخصومه » حين عالج القضية بعد ذلك بمائة عام ، إذ رأى أن « ملاك الأمر فى هذا الباب خاصة ترك التكلف ، ورفض التعمّل ، والاسترسال للطبع ، وتجنب الحمل عليه ، والعنف به ، ولست أعنى بهذا كل طبع ، بل المهذّب الذى قد صقله الأدب ، وشحذته الرواية ، وجلته الفطنة ، وألهم الفصل بين الردىء والجيد ، وتصور أمثلة الحسن والقبيح » .

ولم يُرد ابن قتيبة أن يكرر نفسه ، فاعتذر عما أغفله فى هذا الكتاب مما يتصل بموضوعه وتحدث عنه فى كتاب آخر من مؤلفاته : « وكان حقّ هذا الكتاب أن

أودعه الأخبار عن جلالة قدر الشعر وعظيم خطره ، وعمن رفعه الله بالمديح ، وعمن وضعه بالهجاء ، وعما أودعته العربُ من الأخبار النافعة ، والأنساب الصحاح ، والحكم المضارعة لحكم الفلاسفة والعلوم ، فى الخيل ، والنجوم وأنوائها والاهتداء بها ، والرياح وما كان منها مبشراً أو جائلا ، والبروق وما كان منها خُلّبًا أو صادقاً ، والسحاب وما كان منها جهاماً أو،ما طراً وعما يبعث منه البخيل على السماح والجبان على اللقاء ، والدنىّ على السموّ ، غير أنى رأيت ما ذكرت من ذلك « فى كتاب العرب » كثيراً كافيًا ، فكرهت الإطالة بإعادته ، فمن أحبّ أن يعرف ذلك ، ليستدل به على حلْو الشعر ومرّه ، نظر فى ذلك الكتاب » . وقد التقط هذه الفكرة ، فيما بعد ، ابن رشيق القيروانى ، المتوفى عام ٤٦٣ هـ = ٩٦٨ م ، فطبّقها فى كتابه « العمدة » فى صناعة الشعر ونقده » .

وبعد أن قدّم بين يدى القارئ منهاجه ، تجاوزه إلى مادة الكتاب نفسها ، فجعلها على قسمين : « الشعر » و « الشعراء » . ويمكن القول ، بوجه عام ، أنه فى الجانب الأول خالق مبدع ، وأنه فى الآخر جمّاع راوية .

تحدّث فى القسم الأول عن الشعر ، لفظه ومعناه ، ما حسُن منه وما رذُل ، وهو تقسيم ينهض أساساً على المنطق الشكلى ، وخلال الحديث عن هذه الأقسام ، لاحظ - وبحق - أن « أشعار العلماء ليس فيها شىء جاء عن إسماح وسهولة ، كشعر الأصمعى ، وشعر ابن المقفع ، وشعر الخليل ، ودلّل على رأيه بأبيات للخليل ابن أحمد العروضى :

إن الخليط تصدّعْ فطِرْ بدائِك أوقَعْ
لولا جوارٍ حسانٌ حُورُ المدامع أربعْ
أمُّ البنين وأسما ءُ والرّبابُ وبوْزَعْ
لقلتُ للراحل ارْحلْ إذا بدا لك أو دَعْ

وهو شعر « بيِّن التكلف ، ردىء الصنعة » ولو لم يكن إلا « أمّ البنين » و « بَوْزَعْ » لكفاه ! .

وأورد لنا تعليلا ، نسبه إلى بعض أهل الأدب ، لنهج القصيدة العربية ، فى وقوفها بالأطلال ، وانتقالها منه إلى الغزل ، فإلى وصف رحلة أو ما عليه يُرْحل ،

ثم إلى الموضوع ؛ وانتهائها ببيت أو أبيات تجرى مجرى الأمثال . وهو تعليل سقط فيه على بعض الحق ، وجانبه الصواب فى بعضه الآخر[١] .

ويرى ابن قتيبة أنه « ليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين » فيما يتصل بشكل القصيدة ، لكنه يكره لهم أن يقلدوا القدامى فى المعانى والأخيلة ، أو يجددوا ما هو شر من التقليد ، كأن يقف الشاعر على منزل عامر ، أو يبكى عند بنيان مُشيّد ، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر ، والرسم العافى ، أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما ، لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير . أو يرد على المياه العذاب الجوارى ، لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامى ، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والآس والورد ، لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنْوةِ والعَرَارَة » .

وتكلم عن الطبع والتكلف فى الشعر وعند الشعراء ، ودواعى الشعر « التى تحث البطئ وتبعث المتكلف » وعد منها خمسة : الطمع ، وَالشوق ، وَالشراب ، وَالطرب ، وَالغضب وقد أصاب حين ذكر هذه الدوَاعى ، لأن الانفعال وليدها ، أو يشتد معها وَيحتد ، وأصاب حين اتخذها مثلا وَلم يقصر الدوَاعى عليها ، لأن مظاهر الانفعال وَأسبابه عديدة ، إلا إذا فهمنا مدلول الألفاظ على نحو فضفاض يتسع لكل رغبات الإنسان وَنقائضها ، وَالنقائض انفعالات أيضًا ، ودلل على دعواه بعدد من تجارب الشعراء ، مثل الحطيئة ،وكثّير عزة ، والأحوص ، والشنفرى ، وَغيرهم . وَمن ثَمَّ فإن الشعر - وكل ضروب النثر - يقرب ويَبعد تبعًا لانفعال الشاعر ، وَالانفعال لا يأتى حين يريده المرء ، ولا حيلة له فى دفعه إذا جاء ، وبقدر عمق الانفعال ، وصدق التعبير عنه ، تختلف أشعار ورسائل الكتاب والتكلّف فى الشعر بأن ترى البيت فيه مقرونًا بغير جاره ، ومضمومًا إلى غير لفقه . « والمطبوع من الشعراء من سَمَح بالشعر واقتدر على القوافى ، وأراك فى صدر بيته عَجُزْه ، وفى فاتحته قافيته ، وتبينت على شعره رونق الطبع ووشى الغريزة ، وإذا امتحُن لم يَتَلَعْثم ولم يتزَحّر »[٢] .

---

(١) انظر كتابنا : امرؤ القيس ، حياته وشعره ، ص ١٥٩ وما بعدها ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٥م.

(٢) الزحير : إخراج الصوت أو النفس بأنين عند عمل أو شدة .

وأدرك ابن قتيبة واعيًا أن مجموعة الخصال النفسية التى تهيئ كل إنسان إلى عمل ما فى الحياة بتفوّق وإجادة ، تختلف من شخص إلى آخر ، وتيسّر لمن وُجدت عنده السبيل التى تهيئها له طبيعته ، فالشعراء مختلفون فى الطبع : « منهم من يسهل عليه المديح ، ويعسر عليه الهجاء . ومنهم من يتيسر له المراثى ويتعذر عليه الغزل » . والطبع وحده لا يكفى لقول الشعر أو نقده ، وإنما يحتاج معه الشاعر أو الناقد إلى ثقافة تمدّه بالفكرة ، وتعينه على التصوير ، وتعمق تجاربه بالمعرفة ، « وكل علم محتاج إلى السماع ، وأحوجه إلى ذلك علم الدين ، ثم الشعر ، لما فيه من الألفاظ الغريبة ، واللغات المختلفة ، والكلام الوحشى ، وأسماء الشجر والنبات والمواضع والمياه ... وأشباه هذا ، لأنه لا يلحق بالذكاء والفطنة ، كما يلحق مشتق الغريب » .

ثم عالج عيوب الشعر : الإقواء ، والإكفاء ، والسناد ، والإيطاء ، والإجازة . وتعرض لأخطاء الأعراب ، وما يجب أن يكون عليه الشعر من تسام عن سواقط اللهجات ، وشواذ اللغات .

وأوقف ابن قتيبة القسم الثانى من كتابه ، وهو الأكثر أهميَّة بالنسبة لتأريخ الأدب على الشعراء ، أنسابهم وأشعارهم ، وما اتصل بهم من تاريخ وحكايات ، ومهَّد له بحديث قصير مبتور عن أوائل الشعراء ، ذكر فيه ثلاثة منهم دُوَيد بن نهد القضاعى ، وأعصر بن سعد بن قيس عيْلان ، والحارث بن كعب ، وأورد لكل واحد منهم أبياتًا قليلة ، ولم يقدم بين يديه خبرًا واحدًا يعين على وضعه فى مكانه من التاريخ . وبعض الشعراء الذين ذكرهم ابن سلام الجمحى على أنهم من أوائل الشعراء ، فجعلهم خارج طبقاته ، وتحدّث عنهم فى المقدّمة ، ضمنهم ابن قتيبة كتابه ووضعهم فى زمرة الشعراء المعروفين . وقد بلغت عدَّة الشعراء الذين ترجم لهم ٢٠٦ شعراء ، بين جاهلى ومخضرم وإسلامى ، ومن عاصره من العباسيين ، بدأهم بامرئ القيس وختمهم بالأشْجَع السُّلمَى ، ولم يترجم معهم لغير شاعرتين هما : الخنساء بنت الشريد ، وليلى الأخُيَليّة .

ولم يلتزم بنهج معين يسير عليه فى تعريفه بالشعراء ، وكل ما هنالك أنّه أورد الجاهليين أوّلا ، وأتبعهم بالإسلاميين ، وتناثر المخضرمون بين القسمين . وداخل كل قسم سار فيه على ما يمكن أن أسميه « تداعى المعانى » ، فقد بدأ دراسة

الشعراء بامرئ القيس ، وثنى بزهير ، وأتبعه بابنه كعب ، للرابطة الأسرية التى بينهما ، وما من سبب آخر غير هذه الصلة يبررّ تقدمه ، لأن الذين جاءوا بعده كطرفة بن العبد ، والحارث بن حلِزّة ، وعمرو بن كلثوم ، أقدم زمنًا ، وأجود نتاجًا . وليس من الضرورى أن تكون هذه الصلة قرابة مباشرة كالتى بين زهير وابنه كعب ، بل قد تكون مجرّد صلة قبَلية ، فقد عاقب بين شعراء هذيل ، وخصّهم بعنوان مستقل ، وترجم لاثنى عشر شاعرًا منهم على التوالى .

وقد تكون **القرابة الفنية** سببًا فى إلحاق شاعر بشاعر ، فقد ترجم لشعراء النقائض متتابعين : جرير والفرزدق والأخطل على التوالى ، والأخطل أسنّهم . ولعّله لحظ فى ترتيب الثلاثة منزلتهم الشعرية . ولما ترجم للعجّاج الراجز ، ثم ترجم لابنه رؤبة من بعده ، ترجم لبقّية الشعراء الرّجّاز الآخرين ، وهم : أبو نُخَيْلة ، من بنى حِمّان بنى كعب بن سعد ، وأبو النجم ، الفضل بن قدامة ، ودكين بن رحاء ، والأغلب بن جشم .

وقد يكون الداعى **مجرّد الاشتراك فى حادثة معينة** ، فإذا ترجم لتوبة بن الحُمَيِّر وكان شاعرًا لصّا ، وأحد عُشاق العرب المشهورين ، ترجم بعده لصاحبته ليلى الأخيلية وإذا ترجم لكثير عزّة ترجم بعده لصاحبه الأحوص ، وكان على مذهبه فى الحياة والنساء ، وإذا ترجم لمجنون ليلى ، قيس بن معاذ ، ترجم بعده للعرجى عبد الله بن عمر حفيد الخليفة عثمان ، فكلاهما كان شاعرًا غزلا ، وإن اختلفا منحى وأسلوبا . وإذا ترجم لعروة بن حزام صاحب عفراء ، وأحد العشّاق الذين قتلهم العشق ، ترجم بعده لقيس بن ذَريح صاحب لبنى ، ونِدّه فى دنيا العواطف والهيَام .

وقد تكون **الصداقة بين شاعرين** إحدى هذه الدواعى ، فقد ترجم للكُمَيْت بن زيد ، من بنى أسد ، وأتبعه بترجمة الطرمّاح بن حكيم ،من طيئ ، وكان بين الاثنين من المودّة والمخالطة ما لم يكن بين اثنين ، على تباعد ما بينهما فى الدين والرأى ، لأن الكميت كان رافضيًّا ، وكان الطرمّاح خارجيًّا صُفْريًا ، وكان الكميت عدنانيًّا عصبيًّا ، وكان الطرمّاح قحطانيًّا عصبيًّا ، وكان الكميت متعصبًا لأهل الكوفة ، وكان الطرمَّاح يتعصب لأهل الشام .

وفيما يبدو كان ابن قتيبة ، إذا تيسرت له مادة علمية أثناء التأليف حول شاعر

معين ضمَّها إلى كتابه ، دون أن يهتمّ بوضع الشاعر فى المكان الموافق لزمنه أو اتجاهه ، فقد ترجم لدريد بن الصّمَّة ، « وهو أحد الشُّجَعاء المشهورين فى الجاهلية » فى القسم الإسلامى ، فسبق به فى الترجمة يحيى بن نوفل اليمانى ، وكان على أيام الحجاج الثقفى ، وأتبعه إبراهيم بن هَرْمَة ، وكان على أيام أبى جعفر المنصور . وترجم للعباس بن مرداس ، وهو من المخضرمين ، بين الشعراء الجاهليين ، ترجمة قصيرة لا تتجاوز نصف الصفحة ، ثم عاد وقدم له ترجمة أخرى بين الشعراء الإسلاميين فى ثلاث صفحات كاملات .

كانت ترجمة امرئ القيس أطول التراجم وأوفاها ، فتضمَّنتْ عددًا وافرًا من الروايات المتصلة بتاريخ حياته ، وتشغل من الكتاب فى أحدث طبعاته أكثر من ثلاثين صفحة ، ومن ثَّم فهو يعد بحق من المصادر الأولى لدراسة حياة امرئ القيس وشعره . لكن بعض التراجم تقصر حتى لا تتجاوز اسم الشاعر ، يتلوه بيت له من الشعر ، كما فى تراجم : سُحَيْم بن وَثيل ، وصخر الغى ، وأبو العيال ابن أبى عنترة . وطريقته فى التراجم المطوَّلة ، أن يورد نسب الشاعر ، وبعض أخباره ، وشيئًا من نصوصه المختارة فى إيجاز ، ثم يعود فيبسط ما أجمل ، وهو مجمِلا وباسطًا لا يتردد فى ذكر الروايات المتعددة حول الخبر الواحد ، وقد تتعارض الروايات فيما بينها . والقليل من أخباره جاء كامل الإسناد ، وبعض منها اقتصر فيه على الراوى المباشر ، وجانب كبير أورده بلا إسناد كليّة . وبعض الشعراء مثل يحيى بن نوفل ، كان الوحيد الذى ترجم لهم من بين معاصريه .

وابن قتيبة لا يهتم عادة بتفسير لغويات النصوص التى يوردها ، ولا بشرحها ، وقد يعلّق عليها أحيانًا ، ينقد بعض ما يرويه ، لكن نقده يقوم على على التذوّق ، لا على التحليل والتعليل ، فإذا أورد قول المرقّش الأكبر :

هلْ بالديار أن تُجيبَ صَمَمْ ... لـو أن حيًّـا نـاطقًـا كَلَمْ
يـأبى الشباب الأقْـوَرينَ ولَا ... تَغْـبِط أخـاكَ أنْ يُقَـال حكَمْ

علّق عليها : والعجبُ عندى من الأصمعىّ ، إذ أدخله فى مُتخَيَّره ، وهو شعر ليس بصحيح الوزن ، ولا حسن الروىّ ، ولا مُتَخَير اللفظ ، ولا لطيف المعنى ، ولا أعلم فيه شيئًا يستحسن إلا قوله :

النشْـرُ مِسْكٌ والـوجوه دَنَـا ... نِـيرٌ وأطْـرافُ الأكُفّ عَنَمْ

وقد يمهد لاختياره الأبيات بتعليق لا يتجاوز قوله : « ويستجاد من تشبيهه » أو « مما يستجاد من شعره » أو « ومما يعاب عليه من شعره قوله » ، ولكنه يُكثر من المقارنة بين الأبيات متفرّدة ، يستقصى ما أخذ اللاحقون من السابقين ، ويقارن بين الاثنين ، ولا ينسى للمتقدم فضل السبق ، وللمتأخر فضل الزيادة إن أجاد .

وبرغم الدقة التى التزمها ابن قتيبة فى إيراده للأخبار ، والتزامه الأمانة فى النقل ، كانت ذاكرته تخونه على قلّة ، فيخطئ فى نسبة الشعر أو نسب الشاعر ، وقد تتشابه عليه الأسماء فيخلط بينها ، ويضيف من الأحداث لشاعر ما ليس له . فحين ترجم لأبى دواد الإيادى ذكر أنهم « اختلفوا فى اسمه ، فقال بعضهم : هو جارية بن الحجاج ، وقال الأصمعى : هو حنظلة بن الشّرقى » . ونسبة هذا الخبر إلى الأصمعى خاطئة ، لأن حنظلة بن الشرقى هو أبو الطمحان القينى ، وقد ذكر الأصمعى نسب أبى داود صحيحًا فى « أصمعياته » فذكر أنّه أبو دواد الإيادى واسمه « جارية بن الحجاج » .

ومهما يكن من شىء فالكتاب على قدر كبير من التنظيم ، وهو أول ما نلقى من تأليف عربى منظم ، بعد فوضى الجاحظ والمبرّد ، إنه أشبه ما يكون بالتأليف المدرسى فى عصرنا الحاضر ، يضم كل موضوع إلى شبيهه ، ويقسم الكتاب إلى تراجم ذات عناوين ، وهوَ يلتقى مع الجاحظ فى إيثار الجمل الوجيزة المتوازية ، ويختلف عنه فى أنه لا يلتفت إلى السجع ، ويميل إلى ما هو سهل من المفردات والتراكيب . وخاتمة الكتاب لا تشعر بانتهائه ، فهو ينتهى بها عند ترجمة أشجع السلمى ، ببيت شعرى له يعلق عليه بأنه أخذه من شاعر سابق له ، ثم لا ينتهى الحديث على طريقة التأليف فى أيامه ، فإذا عرفنا أن الكتاب خلا من تراجم لثلاثة من كبار شعراء عصره ، وكانوا معاصرين له ، وهم : أبو تمام والبحترى ، وابن الرومى ، كان لنا أن نتصور أن النسخة التى بين أيدينا ليست كاملة ، والظن فى احتمال آخر أمر بعيد .

* * *

كان كتاب « الشعر والشعراء » من أوائل المصادر العربية التى قام على تحقيقها ونشرها المستشرقون ، فقام المستشرق الألمانى **نولدكه** Th. Noldeke

(١٨٣٦ - ١٩٣٠ م) بترجمة الجزء الأول (= المقدمة) الخاص بالشعر إلى اللغة الألمانية عام ١٨٦٤م، ونشر ريترهَوْزن الكتاب نفسه مع ترجمته إلى اللغة الهولندية عام ١٨٧٥م . وقد أعاد المستشرق الهولندى دى خويه De Goeje نشره مرة أخرى فى ليدن عام ١٩٠٢ م . ونشر المستشرق الفرنسى جوفروى ديمومبين Gaudefroy–Demombynes المقدمة مرة أخرى فى باريس ، مصحوبة بترجمة فرنسية عام ١٩٤٧ م .

أما فى العالم العربى فقد طبعه السيد محمد أمين الخانجى لأول مرة فى مصر عام ١٣٠٢ هـ = ١٩٠٤ م ، مع بعض تعليقات للسيد محمد بدر الدين النعسانى ، وهى نسخة مختصرة غير كاملة . وفى نفس السنة طُبع أيضًا بمدينة الآستانة فى تركيا . وطبعه محمود توفيق بمطبعة المعاهد بمصر سنة ١٣٥٠ هـ = ١٩٣٢ م ، وصححه وعلق حواشيه الأستاذ مصطفى السقا ، وهذه الطبعة مثل طبعة الخانجى ، مختصرة غير كاملة ، ولا تزيد عليها إلا قليلا .

ثم عهدت « دار إحياء الكتب العربية » فى مصر بتحقيقه مرة أخرى إلى العلامة المرحوم أحمد محمد شاكر ، فقام بهذا العمل ، معتمدًا فى تحقيقه على طبعة ليدن لعام ١٩٠٢ ، واجتهد فى تخريج ما فى الكتاب من شعر وغيره ، وصنع له فى آخر الجزء الثانى فهارس جمة متقنة : للكتاب على أبوابه ، وللأعلام عامة ، وللأماكن ، وللقوافى ، ولأيام العرب ووقائعها ، وفهرسًا للألفاظ المفسَّرة فى الكتاب . وصدّر الكتاب بترجمة للمقدمة اللاتينية التى صدّر بها دى خويه طبعته ، قام بترجمتها الأستاذ وهيب كامل ، ثم وصف النسخ المخطوطة التى اعتمد عليها . وقد صدرت الطبعة الأولى منه فى جزأين بين سنتى ١٣٦٤ - ١٣٦٩ هـ = ١٩٤٥ - ١٩٥٠ م ، وصدرت الطبعة الثانية منه عن دار المعارف عام ١٣٨٦ هـ = ١٩٦٦ م . ولا شك أن هذه الطبعة هى أكمل ما بين أيدينا من نسخ الكتاب حتى الآن .

○ مختارات من كتاب « الشعر والشعراء » :

أَقسام الشعر

قال أبو محمّد : تدبَّرْتُ الشعرَ فوجدته أربعة أضْرُب :

● ضربٌ منه حَسُنَ لفظه وجاد معناه ، كقول القائل فى بعض بنى أمية :

فى كَفه خَيْزُرَانٌ ريحه عَبِقٌ   من كَفّ أرْوَعَ فى عِرنينهِ شَمَمُ
يُغْضِى حياء ويُغْضَى من مَهابتهِ   فما يُكلَّم إلا حِينَ يَبْتَسِمُ

لم يُقلْ فى الهيبة شىء أحسنُ منه .

وكقول أوْس بن حَجَرٍ

أيَّتُهَا النّفس أجْملِى جَزَعًا   إنَّ الّذى تَحْذَرينَ قد وقَعَا

لم يبْتَدِئْ أحد مرَثيةً بأحسن من هذا .

وكقول أبى ذُؤيب :

والنفْسُ راغِبةٌ إذا رَغّبْتَها   وإذا تُردُّ إلى قليلٍ تَقْنَعُ

حدَّثنى الرياشِىّ عن الأصمعى ، قال : هذا أبدع بيت قالته العرب . وكقولُ حُمَيْد بن ثَوْر :

أرَى بَصَرِى قد رَابنى بعد صحّةٍ   وحَسبُك داءً أن تصِحّ وتَسْلَما

ولم يُقَل فى الكبَرِ شىءُ أحسنَ منه .

وكقول النابغة :

كِلينى لهم يا أمَيْمَةُ ناصِب   وليلٍ أقاسِيهِ بَطىءِ الكَواكِبِ

لم يبْتدئ أحدٌ من المتقدّمين بأحسنَ منه ولا أغربَ .

ومثل هذا فى الشعر كثير .

● وضربٌ منه حَسُنَ لفُظه وحَلا ، فإذا أنتَ فتّشْته لم تجدْ هناك فائدة فى المعنى ، كقول القائل :

ولمّا قَضَيْنَا مِن مِنىً كلَّ حاجةٍ   ومَسَّحَ بالأركانِ من هو ماسِحُ
وشُدّت على حُدْبِ المهارى رِحالنا   ولا ينظرُ الغادِى الذى هو رائح
أخذْنا بأطرافِ الأحاديثِ بيننا   وسالَتْ بأعناقِ المطىِّ الأباطحُ

هذه الألفاظُ كما ترى أحسنُ شيء مخارجَ ومطالع ومقاطع . وإن نظرت إلى ما تحْتها من المعنى وجدته : ولما قطعنا أيام منى واستلمنا الأركان ، وعالينا إبِلَنا الأنْضاء[١] ومضى الناس لا ينتظر الغادى الرَّائحَ ، ابتدأنا فى الحديث وسارتْ المطىُّ فى الأبْطح .

وهذا الصنف فى الشعر كثير .

ونحوه قول المَعْلُوط :

إن الذين غَدوْا بُلْبكَ غادروا وَشَلاً بعينِكَ ما يزال مَعينَا[٢]
غيَّضن من عبراتهن وقُلن لِى ماذا لقيتَ من الهَوى ولَقِينا

ونحوه قول جرير :

يا أخت ناجيةَ السَّلامُ عليكُمْ قبلَ الرحيلِ وقبلَ لَوْمِ العُذّلِ
لو كُنت أعْلَمُ أن آخر عَهْدِكمْ يوم الرحيلِ فعلت ما لم أفْعَلِ

● وضربٌ منه جاد معناه وقصُرتْ ألفاظه عنه ، كقول لَبيد بن ربيعة :

ما عاتبَ المرء الكريم كَنفسهِ والمرءُ يُصْلحهُ الجليس الصَّالح

هذا وإن كان جيّد المعنى والسَّبْك فإنه قليل الماء والرَّونق .

وكقول النّابغة للنعمان :

خَطاطيفُ حُجْنٍ فى حِبَالٍ متينةٍ تَمُدُّ بها أيدٍ إليك نوازِعُ[٣]

قال أبو محمد : رأيت علماءنا يستجيدون معناه ، ولست أرى ألفاظه جيادًا ولا مُبَيّنَةً لمعناه ، لأنه أراد : أنت فى قدرتك علىّ كخطاطيفَ عُقْف يُمَد بها ، وأنا كدلْو تُمَدُّ بتلك الخطاطيف . وعلى أنى أيضًا لست أرى المعنى جيدًا .

● وضربٌ منه تأخر معناه وتأخرَّ لفظه ، كقول الأعْشَى فى امرأة :

وفَوهـا كـأقاحـىَّ غـذاه دَائِـمُ الهَطْلِ
كـما شيبَ بـراحٍ بـاردٍ من عَسَلِ النَّحْلِ

---

(١) الأنضاء جمع نضو ، وهو الدابة التى أهزلتها الأسفار وأذهب لحمها . وعالينا إبلنا الأنضاء أى اعتلينا الإبل الهزيلة من مشاق الرحلة .

(٢) الوشل من الدمع يكون القليل والكثير .

(٣) الحجن : جمع أحجن وهو المعوج .

وكقول الخليل بن أحمد العروضى :

إنَّ الخليطَ تَصَدَّعْ فطِرْ بدائِك أوْ قَعْ
لولا جوارٍ حِسَانٌ حور المدامع أَرْبَعْ
أُمُّ البنينَ وأسماءُ والرَّبابُ وبَوزَعْ
لقلْت للراحِل ارْحَلْ إذا بدا لَكَ أو دَعْ

وهذا الشعر بيّن التكلف ، رديء الصّنعة ، وكذلك أشعار العلماء ، ليس فيها شيءٌ جاءَ عن إسمَاح وسهولة كشعر الأَصْمَعيّ وشعر ابن المقفع ، وشعر الخليل ، خلا خلفٍ الأحمرَ فإنه أجودهم طبعًا وأكثرهم شعرًا ، ولو لم يكن فى هذا الشعر إلا (أم البنين) و (بوزع) لكفاه !

عيوب الشعر

● **الإقواء :**

قال أبو محمَّد : كان أبو عمرو بن العَلاء يذكر أن الإقواء هو اختلافُ الإعراب فى القوافى ، وذلك أن تكون قافيةٌ مرفوعة وأخرى مخفوضة كقول النابغة :

قالتْ بَنُو عامرٍ خالوُا بنى أَسَدٍ يا بُؤْسَ للجهْلِ ضَرَّارًا لأقوامِ

وقال فيها :

تَبْدُو كواكِبُهُ والشمس طالعةٌ لا النور نورٌ ولا الإظْلام إظلامُ

● **السناد :**

والسناد هو أن يختلف إردافُ القوافى كقولك : « علَيْنا » فى قافية « وفينا » فى أخرى ، كقول عمرو بن كُلْثُوم :

* ألا هُبى بصَحْنِكِ فاصبحينا *

فالحاء مكسورة . وقال فى آخر :

* تصفقّها الرياح إذا جَرَيْنا *

فالراء مفتوحة وهى بمنزلة الحاء .

● **الإيطاء :**

والإيطاء هو إعادة القافية مرّتين وليس بعيب عندهم كغيره .

● **الإجازة :**

اختلفوا فى الإجازة ، فقال بعضهم : هو أن تكون القوافى مقيَّدة فتختلفُ الأردافُ كقول امرئ القيس :

* لَايدَّعِى القومُ أنِّى أفِرّ *

فكسر الرّدْفَ ، وقال فى بيت آخر :

* وِكْنْدَة حَوْلِى جميعًا صُبُرْ *

فضم الرّدْف . وقال فى بيت آخر :

* أَلْحَقْتَ شَرا بِشَرّ *

ففتح الرّدْف .

وقال الخليل بن أحمد : هو أن تكونَ قافيةٌ ميمًا والأخرى نونًا ، كقول القائل :

يارُبَّ جَعْدٍ منهُم لو تَدْرِينْ
يضرِبُ ضَرْبَ السّبْطِ المقادِيمْ

دواعى الشعر وبواعثه

وللشعر دواع تحثُّ البطئ وتبعث المتكلّف ، منها الطمع ، ومنها الشوق ، ومنها الشّراب ، ومنها الطربُ ، ومنها الغضبُ .

وقيل للحطيئة : أىُّ الناسِ أشْعَرُ ؟ فأخرج لسانًا دقيقًا كأنه لسانُ حيَّةٍ فقال : هذا إذا طمع .

وقال أحمد بن يوسف الكاتب لأبى يعقوب الخُرَيمىّ : مدائحكَ لمحمد بنِ منصور ابن زياد ، يعنى كاتبَ البرامكة ، أشعر من مراثيكَ فيه وأجْود . فقال : كُنّا يومئذ نعملُ على الرَّجاء ، ونحن اليومَ نعمل على الوفاءِ ، وبينهما بَوْنٌ بعيد .

وهذه عندى قصة الكُمَيت فى مدحه بنى أمية وآل أبى طالب ، فإنه كان يتشَّيع ، وينحرف عن بنى أمية بالرأى والهوى ، وشعرهُ فى بنى أميَّة أجودُ منه فى الطالبِّيين ، ولا أرى علة ذلك إلا قوة أسبابِ الطمع وإيثار النفس لعاجل الدنيا على آجل الآخرة .

وقيل لكُثير : يا أبا صخر ، كيف تَصْنَعُ إذا عَسُر عليك قولُ الشعر ؟ قال : أطوفُ فى الرباع المخلية ، والرياض المعشبة ، فيسهل على أرصَنُه ، ويسرعُ إلىّ أحسنُه . ويقال أيضًا إنه لم يُسْتَدعَ شاردُ الشعرِ بمثل الماء الجارى والشرَّف العالى والمكانِ الخضر الخالى .

وقال عبد الملك بنَ مروان لأرْطاة بن سُهَّية : هل تقول الآن شعرًا ؟ فقال : ما أشربُ ولا أطربُ ولا أغضبُ ، وإنما يكون الشعرُ بواحدة من هذه .

وللّشعر تاراتٌ يبعُدُ فيها قريبُه ، ويستصعبُ ريِّضُه ، وكذلك الكلامُ المنثورُ فى الرسائل والمقامات والجوابات ، فقد يتعذّرُ على الكاتب الأديب ، وعلى البليغ الخطيب . ولا يُعرفُ لذلك سَبَبٌ ، إلا أن يكون من عارض يعترضُ على الغريزة من سوء غذاء أو خاطر غمّ .

وكان الفرزدق يقول : أنا أشعر تميم ، وربّما أتت علىَّ ساعةٌ ونزعُ ضرس أسهلُ علىَّ من قول بيت .

وللشعر أوقاتٌ يسرعُ فيها أتيُّه ، ويسمحُ أبيُّه ، منها أولُ الليل قبل تَغَشِّى الكرى ، ومنها صدرُ النهار قبل الغَذاء ، ومنها يوم شربُ الدواء ومنها الخلوة فى الحبْس والمسير .

ولهذه العللِ تختلفُ أشعارُ الشاعر ورسائل الكاتب .

والمتكلّفُ من الشعر وإن كان جيداً محكمًا فليس به خفاء على ذوى العلم لتبينهم فيه ما نزل بصاحبه من طول التفكر وشدَّة العناء ، ورشح الجبين ، وكثرة الضرورات ، وحذف ما بالمعانى حاجةٌ إليه ، وزيادة ما بالمعانى غنى عنه ، كقول الفرزدق فى عمر بن هُبَيرة لبعض الخلفاء :

أَوَلّيْتَ العـراقَ ورافِـدَيْـه فَـزاريًّـا أَحَـذَّ يـد القميص

يريد : أولّيتها خفيف اليد ، يعنى فى الخيانة ، فاضطرته القافيةُ إلى ذكر القميص .

وتتبينُ التكَلّف فى الشعر أيضًا بأن نرى البيت فيه مقرونًا بغيره جار ، مضمومًا إلى غير لفقه ، ولذلك قالَ عمرُ بنُ لجأ لبعض الشعراء : أنا أشعر منك . قال . وبم ذلك ؟ فقال : لأنى أقول البيت وأخاه ، ولأنك تقول البيت وابن عمّه .

والمطبوع من الشعراء من سمحِ بالشعر واقتدر على القوافى ، وأراك فى صدر بيته عجُزه وفى فاتحته قافيته ، وتبينت على شعره رونَقَ الطبع ووشى الغريزة ، وإذا امتُحِن لم يتلعثم ولم يتزحَّرْ .

والشعراء أيضًا فى الطبع مختلفون : منهم من يسهُل عليه المديح ويعسُر عليه الهجاء . ومنهم من يتيسَّرُ له المراثى ويتعذّرُ عليه الغزلُ . وقيل للعجاج : إنك لا تحسنُ الهجاء فقال : إن لنا أحلامًا تمنعُنا من أن نَظلم ، وأحسابا تمنعنا من أن نُظلم ، وهل رأيت بانيًا لا يُحسنُ أن يهدم ؟

تراجم الشعراء

الخنساء

... ودخلت خنساء على أم المؤمنين عائشة ، وعليها صدار[1] لها من شعر ، فقالت لها عائشة رضى الله عنها : يا خنساء إن هذا لَقبيح ، قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فما لبستُ هذا ، قالت : إن له قصة قالت : فأخبريني ، قالت : زوجنى أبى رجلا ، وكان سيدًا مِعْطاءً ، فذهبَ مالهُ ، فقال لى : إلَى مَنْ يا خنساء ؟ قلتُ : أخي صخر ، فأتيناه ، فقسم ماله شطرين ، فأعطانا خيرهما ، فجعل زوجى أيضًا يُعطى ويحَملُ حتى نفدَ مالُه ، فقال : إلى مَن ؟ فقلت إلى أخى صخر ، (فأتيناه) فقسم ماله شَطرين ، فأعطانا خيرهما ، فقالت امرأته : أما ترضى أن تعطيها النصف حتى تُعطيها أفضلَ النّصفَيْن ؟ فأنشأ يقول :

والله لا أمنحُهـا شِـرارَهـا ولـو هَلكتُ مَـزَّقتْ خِمَـارَهـا
وَجَعَلَتْ من شَعَر صِدَارَها

فذلك الذى دعانى إليه أن لبستُ هذا حين هلك .

---

(١) الصدار : ثوب رأسه كالمقنعة وأسفله يغشى الصدر والمنكبين تلبسه المرأة . وكانت المرأة الثكلى إذا فقدت حميمها فأجدت عليه لبست صدارًا من الصوف

وكانت تقف بالمَوْسم فتسوّم هودَجَها بسُومة[1] ، وتُعاظِمُ العربَ بمصيبتها بأبيها عمرو بن الشريد وأخَويْها صخر ومعاوية ابنى عمرو ، وتُنشدهم فتُبكى الناسَ .

وكان أبوها يأخذ بيدَى ابنيه صخر ومعاوية ، ويقول : أنا أبو خيرَى مُضَر ، فتعترف له العربُ بذلك . ثم قالت الخنساءُ بعد ذلك : كنتُ أبكى لصخر من القتل ، فأنا أبكى له اليوم من النار .

ومما سبقت إليه قولُها :

أشمُّ أبلجُ تـأتَمُّ الهـداة بـه   كـأنـه علم فى رأســهِ نـارُ

جميل بن معمر العذرى

وهو أحد عشاق العرب المشهورين بذلك ، وصاحبته بُثَيْنَة ، وهما جميعاً من عُذرَة ...

والجمال فى عُذْرَة والعشق كثيرٌ ، قيل لأعرابى من العذريّين : ما بال قلوبكم كأنها قلوب طير تَنماث[2] كما ينماث الماء فى الملح ؟ أما تجلّدون[3] ؟ قال : إنّا لننظر إلى محاجر أعين لا تنظرون إليها !! وقيل لآخر : ممّن أنت ؟ فقال : من قوم إذا أحبوًّا ماتوا ، فقالت جاريةٌ سمعته : عذريٌّ وربِّ الكعبة !

وعشق جميلٌ بثينة وهو غلام ، فلما كَبِرَ خطبها فَرُدَّ عنها ، فقال الشعر فيها وكان يأتيها سرًّا ، ومنزلها وادى القُرى ، فجمع له قومها جمعًا ليأخذوه إذا أتاها ، فحذّرته بثينةُ ، فاستخفى وقال :

ولو أنَّ ألفًا دون بَثْنَةَ كُلُّهُمْ   غيارَى وكلُّ حاربٌ مُزمعٌ قَتلى
لحـاولتُها إمّـا نهارًا مُجـاهِـرًا   وإمّا سُرَى ليلٍ ولو قُطِعَتْ رِجْلِىَ

وقال كُثيرٌ : قال لى جميل : خُذ لى موعدًا من بثينة ! قلت له هل بينك وبينها علامةٌ ؟ فقال لى : آخر عهدى بها وهم بوادى الدوم يَرْحَضُون ثيابهم . فأتيتُهم فأجدُ أباها قاعدًا بالفناء ، فسلّمتُ ، وحادثته ساعةً حتى استنشدنى فأنشدته :

فقلتُ لها : يا عَزّ أرسَلَ صاحبى   على نأىْ دارٍ ، والمَوكّل مُرْسَلُ

---

(١) سومة : علامة .

(٢) تنماث : تذوب .

(٣) تجلدون : تتجلدون ، حذفت التاء الأولى للتخفيف أى تصبرون .

بأن تجعَلى بينى وبينك موعدًا　　وأن تأمرينى بالذى فيه أفعلُ
وآخرُ عهدٍ منك يومَ لَقيتِنِى　　بأسْفَل وادى الدّوْم والثوْبُ يغْسَل

فضربتْ بُثينة الخِدْرَ وقالت : اَخْسَأ ! فقالَ لها أبوها : مَهْيَمَ يا بثينة[1] ؟ قالت : كلبٌ يأتينا إذا نوّم الناسُ من وراء هذه الرّابية . قال : فأتيتُ جميلاً فأخبرته أنّها واعدتهُ وراءَ الرّابية إذا نوّمَ الناسُ ..

---

(١) مهيم : كلمة يمنية يستفهم بها ، معناها : ما أمرك وما شأنك ؟

الأغـــانى
لأبى الفرج الأصفهانى

أبو الفرج على بن الحسين بن محمد ، عربى قرشى ، من بنى أمية ، فهو من ولد مروان بن الحكم ، ولد بأصبهان ، واشتهر منسوبًا إليها ، فقيل أبو الفرج الأصفهانى . وأجمع الرواة على أن مولده كان عام ٢٨٤ هـ - ٨٩٧ م ، فى خلافة المعتضد بالله ، وهى نفس السنة التى مات فيها البحترى الشاعر .

وقد انتقل إلى بغداد ، وانصرف فيها إلى طلب العلم ، ودرس على جلة من علماء عصره ، بينهم ابن دُرَيْد ، وابن الأنبارى ، والأخفش ، ونفطويه ، والطبرى ، وغيرهم من رجال الشعر والأدب واللغة والنحو ، والحديث والتفسير ، والأنساب والأخبار والتاريخ ، وكان أبو الفرج حاد الذهن ، قوىّ الحافظة ، فاستوعب من علمهم الشىء الكثير ، وكان له مع ذلك إلمام بالطب والنجوم والموسيقا ، فأتاحت له ثقافته الواسعة المتنوعة مكانة عالية ، فتحت أمامه الأبواب المغلقة ، فكان يتنقَّل كيف شاء بين كبريات المدن ، ومراكز الحضارة ، وعواصم الدولة ، فى بغداد وحلب وفارس ، ولقى حظوة عند كبار رجال عصره ، وكان أكثرهم إيثارًا له ، وحدبًا عليه ، الوزير المهلبى ، وزير معزّ الدولة بن بويه ، فانقطع إليه ومدحه ، وأصبح من ندمائه المقرَّبين . إلى أن تُوفِّىَ فى خلافة المطيع بالله عام ٣٥٦ هـ = ٩٦٧ م ، بعد أن خولط فى عقله ، وأصابه الفالج .

ليس القصد أن نتناول حياة الأصفهانى بالدرس والتحليل ، فلذلك مكانه فى دراسات التراجم ، لكن يهمنا أن نشير بصفة خاصة إلى جوانب ثلاثة من حياته ، كان لها أبلغ الأثر فى تأليف الكتاب ، وتحديد منهجه ، وانعكست بشكل واضح فى مادته .

الجانب الأول منها شخصى بحت ، يتصل بأخلاق أبى الفرج نفسه ، فكان - فيما يقال - قذر الهيئة ، رث الثوب والنعل ، لم يغسل له ثوبًا منذ أن فصله إلى أن

قطعه ، ولا ينزع دراعة إلا بعد إبلائها وتقطيعها وفى داره ، على نهر دجلة ، بين درب سليمان ودرب دجلة ، كان يشكو الفأر ، ويأنس بالسنانير . وإلى جانب ذلك كان أكولا نهما ، يدمن الشراب ، ويحب الغلمان ، ويتهالك على النساء ، ويسرف فى اللذات والشهوات . ظريف النادرة ، فكه المجلس حاضر النكتة والبديهة ، فلعلّ ذلك ما رغب عِلْيَة المجتمع فيه ، وجعلهم يغضون الطرف عن مقابحه ومساويه .

والجانب الثانى يتصل بمادته ، فقد كان ملمًا بأشتات من العلوم والمعارف ، واسع الدراية بالتاريخ العربى ، حافظًا لكثير من منثور الأدب ومنظومه ، وكان هو نفسه شاعرًا ، وله ميل خاص إلى تتبع أنساب القبائل وأخبارها ، ومعرفة ما يدور فى المجتمع حوله ، من أعظم قصر إلى أصغر حانة ، وما يقع لكبار الناس وعامتهم على السواء ، واهتم باللهو وأشكاله ، والموسيقى وألوانها ، ووراءه مكتبة عامرة بذخائر التراث العربى على أيامه ، يفيد منها ويستهديها ، كان - كما يقول النوبختى وهو من معاصريه - يدخل سوق الورّاقين ، وهى عامرة بالدكاكين ، مملوءة بالكتب ، فيشترى شيئًا كثيرًا من الصحف ويحملها إلى بيته . والتقت فى شخصه صفات كثيرة ، فكان كاتبًا ومؤلفًا ومصنّفًا وراوية ، وكان أيضًا سليط اللسان ، عليما بالمثالب ، مخاف الجانب ، مخشىّ البادرة .

والجانب الثالث ، والأخير ، من حياته ، اتجاهاته السياسية ، أو على نحو أدق موقفه من التشيع والشعوبية ، ويمكن القول إن أبا الفرج كان يلزم جانب التشيّع ، رغم أنه صريح النسب فى بنى أمّية ، إلّا أن تشيُّعه فيما يبدو كان اعترافًا بأمر واقع فعلا ، أكثر منه إيمانًا باتجه سياسى يؤمن به ويناضل دونه ، فكان رفيقًا فى مذهبه ، مقتصداً فى عقيدته ، لم يتنكر لنسبه ، فراسل أمويى الأندلس وتقبّل عطاياهم ، وأورد ما كان لخلفائهم فى المشرق من فضائل . ومقامه عند الوزير المهلبىّ ، لم يجعل منه شعوبيًا ، فبقى على ولائه للعرب .

أورد ياقوت الحموى قائمة مفصلة بما استطاع أنْ يذكره من مؤلفات **أبى الفرج الأصفهانى** ، وهى : « كتاب الأغانى الكبير ، كتاب مجرّد الأغانى ، كتاب التعديل والانتصاف فى أخبار القبائل وأنسابها ، لم أره - أى ياقوت - وبودّى لو رأيته ، ذكره هو فى كتاب الأغانى ، كتاب مقاتل الطالبيين ، كتاب أخبار القيان (وذكر

السخاوى أنه فى مجلدين) ، كتاب الإماء الشواعر ، كتاب المماليك الشعراء ، كتاب أدب الغرباء ، كتاب الديارات ، كتاب تفضيل ذى الحجة ، كتاب الأخبار والنوادر ، كتاب أدب السماع ، كتاب أخبار الطفيليين ، كتاب مجموع الأخبار والآثار ، كتاب الخمارين والخمارات ، كتاب الفرق والمعيار فى الأوغاد والأحرار ، وهَى رسالة عملها فى هارون بن المنجم ، كتاب دعوة النجار ، كتاب أخبار جحظة البرمكى ، كتاب جمهرة النسب ، كتاب نسب بنى عبد شمس ، كتاب نسب بنى شيبان ، كتاب نسب المهالبة ، كتاب نسب بنى تغلب ، كتاب الغلمان المغنين ، كتاب الخصيان ، عمله للوزير المهلبى فى خصيّين مغنيين كانا له . وله بعد تصانيف جياد ، فيما بلغنى ، كان يصنفها ويرسلها إلى المسئولين علي بلاد المغرب من بنى أمية ، وكانوا يحسنون جائزته ، لم يعد منها إلى الشرق إلا القليل » . ضاع معظم هذه الكتب ، وفيما أعلم ، لم يصلنا منها كاملا غير كتابيه : « مقاتل الطالبين » ، وقد طبع فى القاهرة منذ أعوام غير بعيدة ، وكتاب « الأغانى » .

* * *

يُعدُّ « الأغانى » ، وبحق ، من خيرة ذخائر التراث العربى ، ألّفه أبو الفرج فى خمسين سنة ، وكتبه مرة واحدة فى عمره ، وأهداه إلى سيف الدولة الحمدانى فأنفذ له ألف دينار واعتذر إليه ، فلما سمع بذلك الصاحب بن عباد استقلها ، وبعث إليه الحكم الثانى ، خليفة الأندلس ، ألف دينار عينًا ذهبًا ، وخاطبه يلتمس منه نسخة من كتابه الذى ألفه فى الأغانى ، وما لأحد مثله ، فأرسل إليه منه نسخة حسنة منقّحة ، قبل أن يظهر الكتاب لأهل العراق ، أو ينسخه أحد منهم .

وأجمع المؤرخون وأهل الأدب على أن « الأغانى » نسيج وحده فى هذا الباب ، وأن كلّ كتاب فى الأدب جاء بعده كَلٌّ عليه ، ولولاه لضاع الكثير من أخبار الجاهلية وصدر الإسلام ، وأيام بنى أمية ، وسمّاه « الأغانى » لأنه بنى مادته ، فى البدء على مائة صوت كان هارون الرشيد قد أمر مُغَنّيه إبراهيم الموصلى أن يختارها له ، وضم إليها أصواتًا زيدت للخليفة الواثق ، وأصواتًا أخرى اختارها هو بنفسه ، وحدّد غرضه من الكتاب بأنه : « نَسَبَ ما ذكره من الأغانى إلى قائل شعره ، وصانع لحنه ، وطريقته من إيقاعه ، وإصبعه التى ينسب إليها من طريقته ، واشتراك – إن كان – بين المغنين فيه » ثم امتدّ به القول إلى السبب الذى من

أجله قيل الشعر، أو صنع اللحن، وما يشاكل الموضوع أو يوضّحه، من أخبار وسير ، وأشعار ورسائل ، وخطب وقصص ، ومُلَح ونكت ونوادر . فاشتمل الكتاب على أكثر أيام العرب ووقائعهم وغزواتهم ، وأخبار قبائلهم وأنسابهم ومياههم . وكما وصف البادية وما عليها من حيوان وشجر ، والبدو وما يحكمهم من عادات وخلائق ، اندس إلى القصور الضخمة ، فى المدن الكبيرة ، فوصف ما بداخلها من أشياء نفيسة ، وما فيها من رياش وأثاث ، وما يلتزمه أهلوها فى طعامهم وشرابهم ، وأفراحهم وأحزانهم ، من مراسم وتقاليد . وما عليه العامة ، لغاتها ومعتقداتها وتدليسها ، وسيطرتها على الخاصة . وأتاح لنا أن نعرف على نحو دقيق ، مهابط الناس فى أوقات الفراغ ، وشواغلهم إذا أرادوا التروُّح ، فوصف النوادى والملاعب ، والمطاعم والحانات ، والمترددين عليها من قصاص ومُضحكين . وأزاح لنا الستار عن أنماط من الحياة ، لولاه ما عرفنا عنها شيئًا ، أو كان ما عرفناه محدودًا ، لا يعين على بناء صورة متكاملة لعصر كان أزهى عصور العربية ، وأثراها بما هو طيب وخبيث على السواء .

وصف الصاحب بن عباد كتاب « الأغانى » بأنه : « مشحون بالمحاسن المنتخبة ، والفقر الغريبة ، فهو للزاهد فكاهة ، وللعالم مادة وريادة ، وللكاتب والمتأدب بضاعة وتجارة ، وللبطل رُجلة وشجاعة ، وللمتطرّف رياضة وصناعة ، وللملك طيبة ولذاذة . ولقد اشتملت خزانتى على مائة ألف وسبعة عشر ألف مجّلد ، مافيها سميرى غيره » . وجعله ابن خلدون أحد أركان الأدب الأربعة ، وقال عنه : « ديوان العرب ، وجامع أشتات المحاسن التى سلفت لهم فى كل فنّ من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال ، ولا يعدله كتاب فى ذلك ، فيما نعلمه ، وهو الغاية التى يسمو إليها الأديب ويقف عندها » . وقد أفاد منه المستشرق الإنجليزى فارمر H. G. Farmer فائدة كبيرة فى كتابه « تاريخ الموسيقى العربية » ، وقال عنه « إنه كتاب من الطراز الأول فى الانتاج الأدبى للعرب ، وقد أنفق فيه مؤلفه الجانب الأكبر من حياته ، وإن المعارف الواسعة التى يعرضها ، ودع جانبا ما استلزمه من دأب وصبر ، ليترك المرء خجِلا مما يسمى فى أيامنا أدبًا موسيقيًّا » .

كِبَرُ حجم « الأغانى » وشهرته ، وحرص المثقفين على اقتنائه ، فى مشرق

العالم العربى ومغربه ، حماه من الضياع ، ووضع بين أيدينا مخطوطات كثيرة له ، موزعة على عدد من مكتبات العالم الإسلامى والأوربى ، تملكه كاملا أو أجزاء منه . وكُتب فى خطوط متعددة ، ولم يتوقف نسخه منذ أن خط أبو الفرج أول نسخة منه إلى أن اخترعت الطباعة .

لم يكن أبو الفرج ، على كثرة ماأورد فى كتابه ، وعلى سعته وشموله ، حاطب ليل يدوّن كل شيء ويكتب كل مايروى له ، وإنما التزم منهجًا نقديًا محدّدا إزاء المادة التى تعرض له .

فهو يورد أخباره مسندة ، ثم لايقنع بالإسناد ، وإنما ينتقد الرواة ، ويبين وجه الخطأ أو التناقض فى روايتهم ، ثم يرجع إلى رأيه ، ولايتردد فى القول عن ابن الكلبى ، وقد ذكر بعض الأخبار نقلا عنه ، بأنه كذاب ، وأخباره موضوعة ، والتوليد فيها بيِّن ، ويعتذر لنفسه عن روايتها بأنه « ذكرها على مافيه لئلا يسقط من الكتاب شيء وقد رواه الناس وتداولوه » .

وينتقد المؤرخ ابن خَرَدَاذَبَة لأنه قليل التصحيح لما يرويه ويضمنّه كتبه ، فهو يذكر عن معبد المغنى أنه غنَى فى أوّل دولة بنى أمية ، وأدرك دولة بنى العباس ، وقد أصابه الفالج وارتعش وبطل صوته ، والصحيح أن معبدًا توفّى فى أيام الوليد بن يزيد ، وأصابه الفالج فعلا ، وارتعش وبطل صوته ، ولكنه لم يدرك دولة بنى العباس ، ولم يقل بذلك أحد ، ولا رواه إنسان سوى ابن خرداذبة ، فقد جاء به مجازفة .

ويروى قصة نزول امرئ القيس بعمرو بن جابر بن مازن ، من بنى فزارة ، وأن هذا دله على منزل أكثر أمنًا ، أن يذهب إلى السموأل بن عادياء فى تيماء ، ثم صحبه رجل فزارى يرافقه إلى السموأل ، فقال الفزارى : إن السموأل يعجبه الشعر ، فتعالَ نتناشد أشعارًا ، فقال له امرؤ القيس : قل حتى أقول . فقال الربيع :

قل للمنيَّة أى حين نلتقى ... بفناء بيتك فى الحضيض المزْلَق
ولقد أتيت بنى المُصَاص مُفَاخرًا ... وإلى السموأل زرتُه بالأبْلَق
فأتيت أفضل من تحمّل حاجة ... إن جئته فى غارم أو مُرهق

وهى قصيدة طويلة اجتزأنا منها بالأبيات الثلاثة . قال : فقال امرؤ القيس :

طرقتك هندٌ بعد طول تجنُّب وهنًا ولم تك قبل ذلك تَطْرُق

وهى قصيدة طويلة ، وأظنها منحولة ، لأنها لاتشاكل كلام امرىء القيس ، والتوليد فيها بين ، وما دونها فى ديوانه أحد من الثقات ، وأحسبها مما صنعه دارم لأنّه من ولد السموأل ، أو مما صنعه من روى عنه ، فلم تكتب هنا (أى فى الأغانى) .

ويقف مما يروى للخلفاء من أغان موقفًا واضحًا : « المنسوب إلى الخلفاء من الأغانى ، والملصق بهم منها ، لا أصل لجله ، ولاحقيقة لأكثره ، لاسيما ماحكاه ابن خرداذبة ، فإنّه بدأ بعمر بن الخطّاب رضى الله عنه ، فذكر أنه تغنى فى هذا البيت :

كأنّ راكبها غصنٌ بمروحةٍ

ثم والى بين جماعة من الخلفاء واحدًا بعد واحد ، حتى كأن ذلك عنده ميراث من مواريث الخلافة ، أو ركن من أركان الإمامة ، لابد منه ولامعدل عنه » .

ومصادر **أبى الفرج الأصفهانى متعددة** ، منها ماسمعه شفاهًا من عامة المثقفين ، أو فى ندوات الأدب التى يعقدها الخاصة ، أو رواه له شيوخه ، أو قرأها فى كتاب ونقل منه مباشرة ، وفى الأعم الأشمل لايذكر اسم الكتاب ، ولكنه لايهمل اسم المؤلف ، لأهمية ذلك فى الثقة بالخبر وتقويمه .

وتأتى الأخبار المتشابهة فى الأغانى متلاصقة ، ويمزج أبو الفرج بين تلك الأخبار ، ويتمم بعضها ببعض ، وينسقها بحذف العناصر المتناقضة فيها ، وأوضح مثل لذلك قصة مجنون ليلى ، فهى عبارة عن مزيج من القصص يروى عن عمر ابن شبة ، وابن قتيبة ، وخالد بن كلثوم ، وابن الكلبى وغيرهم ، ومن الواضح أن صاحب الأغانى كان يعرف أن بعض هذه الأخبار ، وما تضمنته من أشعار ، ليس من عمل المجنون ، وإنما صنعه أناس آخرون ونسبوه إليه ، لأنه يروى مع الأخبار قول **الجاحظ** « ماترك الناس شعرًا مجهول القائل قيل فى ليلى إلا نسبوه إلى المجنون ، ولاشعرًا هذه سبيله قيل فى لبنى إلا نسبوه إلى قيس بن ذريح » .

كان أبو الفرج يدرك أن كتابًا على هذا النحو من السعة ، لابد أن يدفع الملل إلى القارئ ، فاحتال عليه ، بأن أحسن اختيار مادته ، ونخل أخباره وأشعاره ورواياته ، فلم يبق منها إلا مايثير فضول القارئ ، ويملك عليه جماع عقله وقلبه ، فتخيرّ شعره من كل ماهو متين الأسلوب ، رقيق اللفظ ، واصطفى قصصه وأحسن

تصويرها ، وأخذ من اللغة مايخدم غايته ومنهجه ، يختار اللفظ المناسب للمعنى ، حتى ولو كان عاميًّا شائعًا ، ويسمّى الأشياء بمسمياتها ، لايتحرج ولا يتأثم ، ويعرف لكل مقام مقاله ، ولكل موضوع بيانه ، فلا تأتى أخباره ورواياته على وتيرة واحدة .

وكان يأمل أن يرضى به أذواق الناس جميعا ، فهو يقول فى مقدمته : « إن القارئ إذا تأمل مافيه من الفِقَر ونحوها ، لم يزل متنقلا بها من فائدة إلى فائدة ، ومتصرفًا منها بين جدّ وهزل ، وآثار وأخبار ، وسير وأشعار متصلة بأيام العرب المشهورة ، وأخبارها المأثورة ، وقصص الملوك فى الجاهلية ، والخلفاء فى الإسلام ، يجمل بالمتأدبين معرفتها ، وتحتاج الأحداث إلى دراستها ، ولايرتفع من فوقهم من الكهول عن الاقتباس منها ، إذ كانت منتخلة من غرر الأخبار ، ومنتقاة من عيونها ، ومأخوذة من مظانها ، ومنقولة عن أهل الخبرة بها » .

ويفصل بين سلوك الأديب وخلقه الفنى ، يروى أخبارًا كثيرة عن حياته يمكن فى ضوئها تفسير نتاجه ، ويورد نصوصا من أدبه يمكن عن طريقها سبر أغوار نفسه ، دون أن يجرد ذلك الأدب من الجمال لأن صاحبه عار عن الفضيلة . يرى أن الأحوص دنىء الأخلاق والأفعال ، قليل المروءة والدين ، هجاء للناس ، ويذكر من ذلك قصصًا كثيرة يبرهن بها على رأيه ، ثم يعقب عليها : « ولم أذكر ماجرى منه للغض منه فى شعره ، ولكنا ذكرنا من كل مايؤثر عنه ، وماتعرف به حاله من تقدّم وتأخرّ ، وفضيلة ونقص ، فأما تفضيله وتقدمه فى الشعر فمتعالم مشهور ، فهو أشدّ تقدّما عن بقية الشعراء عند جماعة من أهل الحجاز وأكثر الرواة ، وهو أسمح طبعًا ، وأسهل كلامًا ، وأصح معنى منهم ، ولشعره رونق وديباجة صافية وحلاوة وعذوبة ألفاظ ليست لواحد منهم ، وشعره ينبىء عن نفسه ، ويدلّ على فضله فيه وتقدمه » .

وإذا أورد لشاعر أبياتا ، وعرف لها مصدرًا نقل الشاعر عنه ، أو اقتبس منه ، أو تأثر به ، أشار إليه ، فقد أورد أبيات **أبى العتاهية** :

ألَا منِ لى بأنُسْكِ يا أُخيًّا　　ومنَ لى أن أبُثكَ ما لـديًّا
طَوَتْكَ خطوبُ دهرِكَ بعد نشْرٍ　　كـذاك خُطُوبـه نشـرًا وطيًّـا
فلو نَشَرتْ قُواكَ لىَ المنايَاَ　　شكوتُ إليك ما صنعت إليًّا

بكيتُكَ يا علىُّ بدمعٍ عَيْني فما أغنى البكاء عليك شيًّا
وكانت فى حياتك لى عِظاتٌ وأنْتَ اليومَ أوعظُ منك حيًّا

وعلّق عليها بقوله : « هذه المعانى أخذها كلها أبو العتاهية من كلام الفلاسفة لما حضروا تابوت الإسكندر ، وقد أُخرج الإسكندر ليدفن . قال بعضهم : كان الملك أمس أهيب منه اليوم ، وهو اليوم أوعظ منه أمس . وقال آخر : سكتت حركة الملك فى لذاته ، وقد حرّكنا اليوم فى سكونه ، جزعا لفقده . وهذان المعنيان هما اللذان ذكرهما أبو العتاهية فى هذه الأشعار » .

وإذا توهمّ أبو الفرج فى الشعر الذى يورده كلمة غامضة شرحها فى بساطة ووضوح ، كما يتجلى فى شرحة لأبيات من قصيدة عنترة :

بَكَرَتْ تخوفنى الحتوف[1] كأنّنى أصبحتُ عن عَرَض[2] الحتوف بمعزل[3]
فأجبتُها: إن المنية منهلٌ لا بدَّ أن أُسْقَى بكأس المنهل[4]
فاقنى حياءك، لا أبالك! واعلمى أنى امرؤ سأموت إن لم أُقْتلِ[5]

* * *

يعتبر «الأغانى» أوفى المصادر فى تاريخ الغناء العربى وأخبار المغنين والمغنيات، فى صدر الإسلام والدولة الأموية، والجانب الذى عاشه من دولة بنى العباس، لكن مصطلحات الأصوات الواردة فى الكتاب غير معروفة، ولم ينته العلماء من تحديد مدلولاتها بعد.

لكن يؤخذ على أبى الفرج أنه، وقد تأثر بأخلاقه الشخصية وبمنهجه فى التأليف، اهتم بسرد الجوانب الإنسانية الضعيفة فى حياة الشعراء، وركز على جانب الخلاعة والمجون فى تصرفاتهم، وأهمل الجاد الرزين المعتدل منها، مما يوهم القارئ - وقد أوهم البعض فعلا - بأن بغداد لم تكن على أيامه غير مدينة نافقة بالمجان والخلعاء والقيان والسكارى. ولقد كان فى بغداد هذا اللون من الحياة

(١) الحتوف: ما عرض للإنسان من المكاره والمتالف.
(٢) عن عرض: أى ما يعرض منها
(٣) بمعزل: أى فى ناحية معتزلة عن ذلك
(٤) منهل: مورد
(٥) قوله: «فاقنى حياءك» أى احفظيه ولا تضيعيه

حقًّا ، وربما على نحو أكثر وأبلغ مما قص أبو الفرج ، لكن الحق أيضًا أن هذا الجانب لم يكن هو كل ماهنالك ، ولا حتى الجانب الأوفر منه ، وإنما كانت تقوم إلى جانبه ، وعلى نحو أكثر إشراقًا ، حياة علمية جادة ، ودعوات صوفية زاهدة ، وكانت بغداد أكبر مركز للمتصوفين ، وعاش فيها على أيام أبى الفرج ثلاثة من كبارهم : أبو بكر الشبلى ، وأبو محمد عبد الله بن محمد المرتعش (ت عام ٣٢٨ هـ = ٩٤٠ م) ، والخُلْدى (ت عام ٣٤٨ هـ = ٩٥٩ م) . ويروى عن الجنيد (ت ٩٦٧ م) أن ورْده كان فى كل يوم وليلة ثلثمائة ركعة ، وثلاثين ألف تسبيحة ، وأقام عشرين سنة لايأكل إلّا من الأسبوع إلى الأسبوع .

وأنه قصد بكتابه **الإمتاع لا التاريخ** ، أراد به ، كما يقول هو نفسه : « مايروق الناظر ويلهى السامع » ، وإذن فهو يهمل من الأخبار ماليس جذّابًا حتى ولو كانت فيه فائدة ، ويعمد إلى ماهو شائق ومسلّ من القصص والحكايات ، يطرف به النفوس المحزونة ، ويروحّ به عن العقول المكدودة ، حتى ولو كان قليل الأهمية ، أو واهيا ، ومن ثم فإن أخباره ، على أهميتها ، تمثل جانبًا واحدًا من الحياة أرّخ لها ، لا كل الجوانب .

وأخباره عن خلفاء بنى أمية وقد كُتبتْ فى ظلّ العبّاسيين ، وما رواه عن الخلفاء العباسيين أنفسهم ، يجب أن يؤخذ فى حذر شديد ، وقد ردّ ابن خلدون فى « مقدمته » على ماورد فى « الأغانى » استنادًا إلى أخبار القصاص الواهية ، من معاقرة الرشيد والمأمون ويحيى بن أكثم الخمر ، وقال : « إنما كان شرابهم النبيذ ، ولم يكن ذلك محظورًا عندهم ، وأما السُّكْر فليس من شأنهم » .

وصاحب الأغانى **يخطئ فى روايته على قلّة** ، فهو يقول عند حديث عن ابن ميادة إنه : « شاعر فصيح مقدم مخضرم من شعراء الدولتين ، وجعله ابن سلام فى الطبقة السابعة ، وقرن به عمر بن لجَأ ، والعجيف العقيلى ، والعجير بن عبد الله السلولى . ولم يورد ابن سلام فى كتابه « طبقات فحول الشعراء » ابن ميادة ، وعدّ عمر بن لجأ فى الطبقة الرابعة ، وأورد شيئًا من شعره ، ولم يذكر العجيف وأورد العجير فى الطبقة الخامسة ، فلعل أبا الفرج أخطأ الرواية فى النقل ، أو تقلت إليه الرواية مشافهة غير صحيحة ، أو اطلع على نسخة من « طبقات فحول الشعراء » غير التى بين أيدينا » .

ويلاحظ أن صاحب الأغانى أغفل ترجمة أبى نواس إغفالا تامًّا ، على الرغم من اتفاقهما فى المنزع الأخلاقى ، وكان ابن منظور المصرى صاحب لسان العرب ، ومختصر كتاب الأغانى ، أوّل من تنبّه لهذا الإغفال ، فقد أفرد كتابًا خاصة بأخبار أبى نواس ، قال فيه : « لم أجد لأبى نواس ترجمة مفردة فى نسخ الأغانى التى وقفت عليها » ، كما أغفل التنويه بشاعر فحل كابن الرومى ، بينما أفاض فى أخبار البحترى معاصره ، وبآخرين أقل منه قدرا ، بل إن ذكر ابن الرومى لم يرد فى الأغانى كله على سعته إلا مرتين ، فى موقفين لايشرفان ابن الرومى ، فى المرة الأولى عرضه لنا سارقًا منتحلا لبيت من الشعر ، وفى الثانية قدمه لنا هاجيا فى موقف لايحسن فيه الهجاء .

* * *

وكما حاز كتاب الأغانى فى القديم شهرة واسعة ، نال فى العصر الحديث أهمية بالغة . فنشر المستشرق الألمانى كوزجارتن C. L. Kosegarten (١٧٩٢ - ١٨٦٠ م) الجزء الأول منه ، رفق ترجمة له باللغة الألمانية ، تحت عنوان Alii Ispahananensis Liber Cantilenarum Magnus فى مدينة جريفسفالد Greifswald بألمانيا ، عام ١٨٤٠م. ويقع القسم العربى منه فى ٢٣٨ صفحة من حجم الأغانى ، وينتهى عند أخبار « ابن محرز ونسبه » وآخر صفحة فيه تتفق مع صفحة ١٥٢ من الجزء الأول فى طبعة بولاق ، وصفحة ٣٨٢ من طبعة دار الكتب ، وكل كلماته مضبوطة بالشكل الكامل .

ثم طُبع الأغانى بعد ذلك كاملا ، وللمرة الأولى ، بمطبعة بولاق ، فى عشرين جزءًا عام ١٣٠٥ هـ = ١٨٦٨ م ، وهى طبعة غير محققة علميًّا ، وذات أخطاء وأضاف إليها المستشرق برونوف R. E. Brunow الجزء الواحد والعشرين ، قام بنشره فى ليدن عام ١٣٠٥ هـ = ١٨٨٧ م ، وهذا الجزء ليس من تجزئة أبى الفرج ، وإنما مجرد زيادات عثر عليها برونوف فى عدة نسخ مخطوطة ومحفوظة بمكتبة برلين ، وغيرها ، عند مراجعته طبعة بولاق على هذه الأصول ، فجمعها وجعل منها جزءًا مستقلا ، أعطاه اسم الجزء الواحد والعشرين .

كما قام المستشرق الإيطالى جويدى I. Guidi (١٨٤٤ - ١٩٣٥ م) ، بمعاونة

نفر من المستشرقين ، بعمل فهارس كاملة لكتاب الأغانى ، حسب طبعة بولاق ، باللغة الفرنسية ، مرَّتبة على حروف المعجم ، ونشرت فى مجلد ضخم على حدة ، بمدينة ليدن عام ١٣١٨ هـ = ١٩٠٠ م ، وتشمل فهارس لأسماء الشعراء وللقوافى ، وللأعلام من الرجال والنساء والقبائل وغيرها ، وأسماء الأمكنة والجبال والمياه .

أما الطبعة الثانية للكتاب فقام بها الحاج محمد الساسى التونسى فى القاهرة ، عام ١٣٢٢ - ١٣٢٣ هـ = ١٩٠٤ - ١٩٠٥ م ، ويرمز إليها عادة بطبعة ساسى ، وهى إعادة لطبعة بولاق ، وقد أضاف إليها الناشر الجزء الواحد والعشرين الذى نشره المستشرق الألمانى برونوف ، وترجم الفهارس التى وضعها جويدى باللغة الفرنسية إلى اللغة العربية ، ونشرها فى أربعة مجلدات . وهى أكثر من سابقتها أخطاء وعدم اعتناء .

وكان الشيخ محمد محمود بن التلاميد الشنقيطى يملك نسخة من طبعة بولاق وكان حجة فى العلم بغريب اللغة وأنساب العرب ، فقام بتصحيح نسخته الخاصة مدونا تصحيحاته على الهامش أو فى ثنايا السطور ، يكشط الكلمة المحرفة ثم يعيد كتابتها بدقة ، أو يصلح الحرف المغلوط ، أو يعجم الحرف المهمل ، ويهمل المعجم ، يكشط نقطة أو يضيفها . ولما كان شيخ العروبة أحمد زكى يملك نسخة من كتاب الأغانى ، من طبعة بولاق ، فقد طلب إلى محمد عبد الجواد الأصمعى أن يصحح له نسخته على نسخة الشنقيطى المحفوظة بدار الكتب المصرية[1] ، ورأى فيما بعد أن يجمع هذه التصحيحات ويطبعها فى كراسة مستقلة مع الإشارة إلى رقم الصفحة والسطر ، فى كل من طبعتى بولاق والساسى ، ليستفيد بها كل من توجد لديه نسخة من كتاب الأغانى . سواء أكانت الطبعة الأميرية أم العادية وقد طبعت هذه التصحيحات على هيئة جداول ليسهل مراجعتها ، وصدرت فى عام ١٣٣٤ هـ = ١٩١٦ م ، وقد استفاد منها مصححو القسم الأدبى عند إعادة طبع كتاب الأغانى .

اضطلعت دار الكتب المصرية بالطبعة الثالثة لكتاب الأغانى ، ونهضت بها

---

(١) النسخة الأصلية للأستاذ الشنقيطى توجد محفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم : ١٤٤ ، أدب ش .

استجابة لرغبة على راتب باشا أحد السراة المثقفين المصريين ، فقد رغب إليها أن تطبع الكتاب على نفقته ، وبدأت المشروع على أسس علمية دقيقة عام ١٩٢٥ م ، حيث صدر الجزء الأول منه ، وتوشك الآن على الانتهاء من طبعه كاملا ، وتعتبر طبعتها أدق طبعة وأوفاها ، مستقيمة النص ، مضبوطة اللفظ ، مشروحة الغوامض ، مزودة بالفهارس التفصيلية فى نهاية كل جزء ، وقد درجت مؤخرا ، بعد أن ضعف شأن القسم الأدبى أو تلاشى ، أن تعهد بتحقيق الأجزاء التى تنشرها إلى كبار علماء اللغة وجهابذة الأدب ، من أساتذة دار العلوم وخريجيها ، فجاءت طبعتها وافية بالغرض المنشود منها ، محققة الأمل المعلق عليها . ثم قامت وزارة الثقافة فى مصر بإعادة نشر كل ماسبق أن نشرته دار الكتب المصرية ، بعد أن نفدت أغلب أجزاء الكتاب المطبوعة ، وكثر الإقبال عليه واشتدت حاجة الناس إليه ، وذلك عن طريق تصوير مطبوع دار الكتب ، ويسرته لجمهور المثقفين بأسعار زهيدة للغاية ، لكن القائمين على المشروع أساءوا بجهلهم إلى هذه الفكرة الجليلة ، فحذفوا من كل جزء فهارسه الملحقة به ، وهى عنصر جوهرى لكى يفيد منه الباحث المعاصر .

لا أعرف أن الكتاب طبع فى مكان آخر من العالم العربى ، غير محاولة قامت بها إحدى دور النشر فى بيروت منذ سنوات ، حين لجأت إلى إعادة نشر طبعة دار الكتب فى فصلات صغيرة ، مضافاً إليها الأخطاء التى تنتج عن عدم العناية بالمراجعة ، وتصحيح تجارب الطبع . وفى هذا العام قامت دار نشر أخرى فى بيروت بإعادة طبع الكتاب كله ، نقلت الأجزاء التى حققتها دار الكتب ، ثم أكملته من طبعتى بولاق والساسى ، فى طباعة أنيقة ، على ورق بالغ الجودة .

* * *

حاول كثيـــر **تلخيص كتاب الأغانى** ، إحساسًا منهم بسعته ووفرة مادته ، وأولهم أبو الفرج الأصفهانى نفسه ، فقد أوجزه فى كتاب أسماه « مجرد الأغانى » ضاع ولم يصلنا .

وأول من اختصر كتاب « الأغانى » ، بعد مؤلفه ، الأديب النحوى **أبو الفتح ، عثمان بن عيسى البلطى** ، المتوفى سنة ٥٩٩ هـ - ١٢٠٢ م . أصله من بَلَط بليدة قريبة من الموصل ، أقام فى دمشق زمنًا ، وجاء مصر مع صلاح

الدين الأيوبى ، فعينه صلاح الدين أستاذاً بالجامع العتيق ، يقرئ به النحو والقرآن ، وكان إلى جانب النحو مؤرخاً شاعراً ، له من المؤلفات : « العروض الكبير » ، و « العظات الموقظات » ، وكتاب « المنير فى العربية » ، وكتاب « أخبار المتنبى » ، و « علم أشكال الخط » ، ومؤلفات أخرى ، وذكر السخاوى ، أبو الخير محمد شمس الدين ، المتوفى عام ٩٠٢ هـ = ١٤٩٧ م ، فى كتابه : « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ » أن أبا الفتح عثمان بن عيسى ، لخص كتاب الأغانى ، لكنه لم يذكر عنوان الكتاب ، ولا اهتديت إليه فى مصدر آخر .

والثانى هو القاضى جمال الدين محمد بن سالم بن نصر الله ، المعروف بابن واصل الحموى ، المتوفى عام ٦٩٧ هـ = ١٢٩٧ م ، وأسماه « تجريد الأغانى من ذكر المثالث والمثانى » جرّد فيه الأغانى من ذكر الأصوات وما احتوت عليه من أنواع النغم والإيقاعات التى لا فائدة فى ذكرها ، ومن الأسانيد والمكررات ، ومما لا فائدة فى ذكره من الأخبار والأشعار والمشتركات . واقتصر فيه على ذكر غرر الفوائد ، ودرر الفرائد ، وشرح بعض الغامض من ألفاظه . ولدينا مخطوطة لهذا الكتاب يرجع تاريخ نسخها إلى حياة المؤلف ، كتبها محمد بن محمد التصيبى ، برسم خزانة السلطان أبى الفتح محمود بن محمد بن عمر شاهنشاه ، وكان القاضى جمال الدين قد ألف الكتاب استجابة لطلبه ، ويوجد الجزء الأول منه فى مكتبة أياصوفيا باستنبول ، فى ٥٥٠ ورقة ، تحت رقم ١٤٠٠ ، ويوجد الجزء الثانى فى متحف الأوقاف بنفس المدينة ، فى ٣٠٠ ورقة ، تحت رقم T ٢٠٠٧ وقد قامت « دار التحرير » بالقاهرة بطبع الكتاب منذ أعوام ثلاثة ، فى أجزاء عديدة ، قليلة الصفحات ، تبيعها رخيصة الثمن ، لكنها لم تكن وَفية فى العنوان الذى أعطته للكتاب ، فأسمته الأغانى ، مما جعل الإقبال عليه شديداً .

والثالث جمال الدين محمد بن مكرم ، المعروف بابن منظور، المتوفى عام ٧١١ هـ = ١٣١١ م صاحب معجم « لسان العرب » الشهير ، فقد لخص كتاب الأغانى ، ورتبة على حروف الهجاء ، وأسماه « مختار الأغانى فى الأخبار والتهانى » ، وجاء فى ثمانية أجزاء ، والجزء الثالث أوقفه المؤلف على أخبار أبى نواس ، وكان صاحب الأغانى قد أهمل الترجمة له ، وقد وصلنا الكتاب كاملا

بخط المؤلف نفسه ، وتوجد مخطوطاته فى مكتبة كوبريلى باسطنبول ، وقد طبع « مختار الأغانى » حديثًا فى القاهرة ، بعد أن قام على تحقيقه وضبط نصه جماعة من العلماء .

كما قام عالم مغربى يُدَعى السلَوى بن عبد الرحمن الأندلسى الفاسى ، استجابة لرغبة السلطان المغربى **محمد بن عبد الله العلوى** ، « بتجديد نسخة من كتاب الأغانى وتحريرها وتصحيحها وتهذيبها وتنقيحها وتحقيقها ، لتكون للسلطان تذكرة ، ولغيره من العلماء تبصرة » ، وأضاف إليها « ما اختاره السلطان من كلام المولدين ، وانتخبه من أشعار المحدَثين مما تحسن إضافته ، وتُسْتَحسن روايته ودرايته وذلك فى أوائل محرم عن عام ١١٨٠ هـ » .

وقد حدّد السلطان للمؤلف الغاية مما يريد ، بعد أن درس الكتاب وألم بأسراره ، فطلب منه أن يحذف الإشارات الموسيقية ومصطلحات الأغانى ، لأنها « اصطلاح فهيم ذهب بذهاب أربابه ، وانقرض بانقراض أهاليه وأصحابه ، واضمحل فلم يوقف له على خبر ، ولا بقيت له عين ولا أثر ، إلا ما يذكر من ذلك على سبيل الحكاية ، كالأشياء الغريبة التى لا تعرف لها حقيقة ولا يوقف لها على غاية » وأن يعيد ترتيب تراجم الكتاب ، « بتأخير ما يستحق التأخير منها ، وتقديم ما يستحق التقديم ، وإبقاء بعض منها بمركزه الذى هو به ، وأن يفتتح كل سفر من أسفاره الخمسة والعشرين بشاعر كبير من فحول الشعراء ، أو بسيد جليل من السادة الكبراء » . وعين لابتداء السفر الأوّل « أشعر شعراء الإسلام ، وأحمدهم طريقة وأسرعهم بديهة ، وأعلمهم بمسالك الكلام وأساليبه **حسان بن ثابت** شاعر الرسول عليه الصلاة والسلام» وأمر بتقديم تراجم الشعراء على ما اتصل بها من الأصوات والأشعار ، ومن النكت واللطائف والأسرار . وأسماه : « إدراك الأمانى من كتاب الأغانى » وجاء فى خمسة وعشرين سفراً ، لدينا منها واحد وعشرون ، لما تزل مخطوطة بعد ، وتوجد فى خزانة القصر الملكى بالرباط ، تحت رقم ٢٧٠٦ .

وأخيراً فى عصرنا الحديث ، قام المرحوم **محمد الخضرى** باختصار الأغانى فى سبعة أجزاء ، ونشرها فى القاهرة عام ١٩٢٥م بعنوان « مهذّب الأغانى » .

○ منتخبات من كتاب « الأغانى » :

إسلام جبلة بن الأيهم

لما أسلَمَ جبلةُ بن الأيهم الغسَّانى ، وكان من ملوك آل جَفنة ، كتب إلى عمر رضى الله عنه يستأذنه فى القدوم عليه ، فأذن له عمر ، فخرج إليه فى خمسمائة من أهل بيته من عك وغَسَّان ، حتى إذا كان على مرحلتين كتب إلى عمر يعلمه بقدومه ، فسر عمر رضوان الله عليه ، وأمر الناس باستقباله ، وبعث إليه بأنزال[١] وأمر جبلة مائتى رجل من أصحابه فلبسوا السلاحَ والحديد وركبوا الخيول معقودةً أذنابها ، وألبسوها قلائد الذهب والفضة ، ولبس جبلة تاجه ، وفيه قُرطا مارية ، وهى جدّته ، ودخل المدينة فلم يبق بها بكر ولا عانس[٢] إلا تبرَّجت وخرجت تنظر إليه وإلى زيّه ، فلما انتهى إلى عمر رحَّب به وألطفه[٣] وأدنى مجلسه . ثم أراد عمر الحجّ فخرج معه جبلة ، فبينما هو يطوف بالبيت وكان مشهوداً بالموسم ، إذ وطئ إزاره رجلٌ من بنى فزارة فانحلَّ ، فرفع جبلة يده فهشم أنف الفزارى ، فاستعدى[٤] عليه عمر رضوان الله عليه ، فبعث إلى جبلة فأتاه ، فقال : ما هذا ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، إنه تعمّد حل إزارى ، ولولا حرمةُ الكعبة لضربت بين عينيه بالسيف ، فقال له عمر : قد أقررت ، فإما أن تُرضى الرجل وإمَّا أن أقيده[٥] منك . قال جبلة : ماذا تصنع بى ؟ قال : آمر بهشم أنفك كما فعلت . قال : وكيف ذلك يا أمير المؤمنين وهو سوقة وأنا ملك ؟! قال : إن الإسلام جمعك وإياه ، فلست تفضله بشىء إلا بالتقى والعافية . قال جبلة : قد ظننتُ يا أمير المؤمنين أنى أكون فى الإسلام أعزّ منى فى الجاهلية ، قال عمر : دع عنك هذا ، فإنك إن لم ترض الرجل أقدته منك ، قال : إذاً أتنصَّر ، قال : إن تنصَّرت ضربت

(١) الأنزال : جمع نزل وهو ما هيئ أن ينزل عليه .
(٢) عنست الجارية : طال مكثها فى أهلها بعد إدراكها حتى خرجت من عداد الأبكار ولم تتزوج .
(٣) ألطفه بكذا : بره .
(٤) استعداه : استغاثه واستعانه واستنصره .
(٥) أقاد القاتل بالقتيل : قتله به .

عنقك ، لأنك قد أسلمت ، فإن ارتددت قتلتك . فلما رأى جبلة الصدق من عمر قال أنا ناظر فى هذا ليلتى هذه . وقد اجتمع بباب عمر من حىّ هذا وحىّ هذا خلقٌ كثير ، حتى كادت تكون بينهم فتنة . فلما أمسوا أذن له عمر فى الانصراف ، حتى إذا نام الناس وهدأوا حمل جبلة بخيله ورواحله إلى الشام ، فأصبحت مكة وهى منهم بلاقع[١] فلما انتهى إلى الشام تحمل فى خمسمائة رجل من قومه ، حتى أتى القسطنطينية فدخل إلى هرقل فتنصَّر هو وقومه ، فسرَّ هرقل بذلك جداً ، وظنّ أنه فتح من الفتوح عظيم وأقطعه حيث شاء ، وأجرى عليه من النُزل ما شاء ، وجعله من محدثيه وسمَّاره[٢] .

البحتــرى

ويكنى أبا عبادة شاعرٌ فاضل فصيح ، حسن المذهب نقيُّ الكلام مطبوع ، كان مشايخنا رحمة الله عليهم يختمون به الشعراء ، وله تصرّفٌ حسن فاضل فى ضروب الشعر سوى الهجاء ، فإن بضاعته فيه نزرة[٣] وجيده منه قليل . وكان ابنه أبو الغوث يزعُمُ أن السبب فى قلة بضاعته فى هذا الفن أنه لما حضره الموت دعا به وقال له : اجمع كلَّ شىء قلته فى الهجاء ، ففعل : فأمره بإحراقه ثم قال له : يابنى هذا شىء قلته فى وقت فشفيت به غيظى وكافأت به قبيحاً فعل بى ، وقد انقضى أربى فى ذلك ، وإن بقى روى . وللناس أعقاب يورثونهم العداوة والمودة ، وأخشى أن يعود عليك من هذا شىء فى نفسك أو معاشك لا فائدة لك ولا لى فيه . قال : فعلمت أنه قد نصحنى وأشفق على فأحرقته . أخبرنى بذلك على بن سليمان الأخفش عن أبى الغوث . وهذا وإن كان كما قال أبو الغوث لا فائدة فيه له ، لأن الذى وجدناه وبقى فى أيدى الناس من هجائه فأكثره ساقط ...

وكان البحترى يتشبّه بأبى تمام فى شعره ويحذو مذهبه وينحو نحوه فى البديع الذى كان أبو تمام يستعمله ، ويراه صاحباً وإماماً ويقدّمه على نفسه ويقول فى

(١) البلاقع : جمع البلقع وهو الأرض القفر .

(٢) «الأغانى» ج ١٤ ص ٤

(٣) نزرة : قليلة .

الفرق بينه وبينه قول منصف : إنّ جيدَ أبي تمام خير من جيده ، ووسطه خيرٌ من وسط أبي تمام ورديئه ، وكذا حكم هو على نفسه[١] .

عقلية العامة

قال أبو الفرج :

أخبرني الحسن بن على قال : حدثني ابن مهرويه قال : حدّثني عثمان الوراق ، قال : رأيت العتابي يأكل خبزاً على الطريق بباب الشام ، فقلت له : ويحك أما تستحي ؟ فقال لى : أرأيت لو كناً فى دار فيها بقر كنت تستحى وتحتشم أن تأكل وهي تراك ؟ فقال : لا ، قال : فاصبر حتى أعلمك أنهم بقر ، فقام فوعظ وقصّ ودعا حتى كثر الزحام عليه ، ثم قال لهم : روى لنا غير واحد أنه من بلغ لسانه أرنبة[٢] أنفه لم يدخل النار ! فما بقى أحد إلّا وأخرج لسانه يومئ به نحو أرنبة أنفه ويقدر حتى يبلغها أم لا ، فلما تفرقوا قال لى العتابى : ألم أخبرك أنهم بقر[٣] .

الغناء فى حمص

قال حنين :

خرجتُ إلى حمص ألتمس الكسب بها وأرتادُ من أستفيد منه شيئاً ، فسألت عن الفتيان وأين يجتمعون ، فقيل لى : عليك بالحمامات ، فإنهم يجتمعون بها إذا أصبحوا ، فجئت إلى أحدها فدخلته فإذا فيه جماعة منهم ، فأنست وانبسطت ، وأخبرتهم أنى غريب ، ثم خرجوا وخرجت معهم فذهبوا بى إلى منزل أحدهم ، فلما قعدنا أوتينا بالطعام فأكلنا ، وأتينا بالشراب فشربنا ، فقلت لهم هل لكم فى مغن يغنيكم ؟ قالوا : ومن لنا بذلك ؟ قلت : أنا لكم به . هاتوا عوداً ، فأتيت به ، فابتدأت فى هنات أبى عبّاد معبد ، فكأنما غنيت للحيطان ، لا فكهوا لغنائى ولاسرُّوا به ، فقلت : ثقل عليهم غناء معبد لكثرة عمله وشدّته وصعوبة مذهبه ،

---

(١) « الأغانى » ج ١٨ ص ١٦٧

(٢) الأرنبة : طرف الأنف

(٣) « الأغانى » ج ١٢ ص ٤

فأخدت فى غناء الغريض فإذا هو عندهم كلا شىء ، وغنيتُ خفائف ابن سريج ، وأهزاج حكم ، والأغانى التى لى ، واجتهدت فى أن يفهموا فلم يتحرك من القوم أحدٌ ، وجعلوا يقولون : ليت أبا منبه قد جاءنا ، فقلت فى نفسى : أرى أنى سأفتضح اليوم بأبى منبه فضيحة لم يفتضح أحدٌ قطٌّ مثلها ، فبينا نحن كذلك إذ جاء أبو منبه ، وإذا هو شيخٌ عليه خفان أحمران كأنه جمال ، فوثبوا جميعاً إليه وسلموا عليه ، وقالوا : يا أبا منبه أبطأت علينا ، وقدموا له الطعام وسقوه أقداحاً ، وخنست أنا حتى صرت كلا شىء خوفاً منه ، فأخذ العود ثم اندفع يغنى :

طرب البحر فاعبرى يا سفينهْ　　لا تشقىّ على رجال المدينة

فأقبل القوم يصفقُون ويطربون ويشربون ، ثم أخذ فى نحو هذا من الغناء فقلت فى نفسى : أنتم هنا . لئن أصبحت سالماً لا أمسيتُ فى هذه البلدة . فلما أصبحت شددت رحلى على ناقتى واحتقبت ركوةً من شراب ورحلت متوجهّا إلى الحيرة وقلت :

ليت شعرى متى تخبّ بى النّا　　قة بين السدّير والصّنين[1]
محقباً ركوة وخبز رقاق　　وبقولا وقطعة من نونِ[2]
لست أبغى زاداً سواها من الشا　　م وحسبى علالة تكفينى[3]
فإذا أبتُ سالما قلتُ سحـ　　ـقاً وبعاداً لمعشر فارقونى[4]

طمع أعرابى

أخبرنى محمد بن مزيد قال : حدثّنا عمر بن شبّة قال : حدثنا ابن زبالة قال : حدثنا ابن ربيح راوية بن هَرْمة عن أبيه قال : كان أبان بن عثمان من أهزل الناس وأعبثهم وبلغ من عبثه أنه كان يجئ بالليل إلى منزل رجل فى أعلى المدينة له

---

(١) الخبب : ضرب من العدو . صنين : كسكين موضع بالكوفة .
(٢) الرقاق : كغراب الخبز الرقيق .
(٣) العلالة : ما يتعلل به وما حلب بعد الفيقة الأولى .
(٤) « الأغانى » ج ٢ ص ١١٩ .

لقب يغضب منه فيقول له : أنا فلان ، ثم يهتف بلقبه فيشتمه أقبح شتم وأبان يضحك ، فبينا نحن ذات يوم عنده وعنده أشعب إذ أقبل أعرابى ومعه جمل له ، والأعرابى أشقر أزرق أزعر[١] غضوب ، يتلظى[٢] كأنه أفعى ، ويتبين الشر فى وجهه ، مايدنو منه أحد إلا شتمه ونهره ، فقال أشعب لأبان : هذا والله من البادية ، ادعوه . فدعى وقيل له : إن الأمير ابن عثمان يدعوك . فأتاه فسلم عليه ، فسأله أبان عن نفسه فانتسب له فقال : حياك الله ياخالى ، حبيب ازداد حباً ، فجلس فقال له : إنى فى طلب جمل مثل جملك هذا منذ زمان فلم أجده كما أشتهى بهذه الصفة وهذه القامة واللون والصدر والورك[٣] والأخفاف ، فالحمد لله الذى جعل ظفرى به من عند من أحبه ، أتبيعه ؟ فقال : نعم أيها الأمير . فقال : فإنى قد بذلت لك به مائة دينار ، وكان الجمل يساوى عشرة دنانير ، فطمع الأعرابى وسر وانتفخ وبان السرور والطمع فى وجهه ، فأقبل أبان على أشعب ثم قال له : ويلك ياأشعب إن خالى هذا من أهلك وأقاربك ، يعنى الطمع ، فأوسع له مما عندك فقال له : نعم ، بأبى أنت وزيادة ، فقال له أبان : يا خالى إنما زدتك فى الثمن على بصيرة ، وإنما الجمل يساوى ستين ديناراً ، ولكن بذلت لك مائة لقلة النقد عندنا ، وإنى أعطيك به عروضاً[٤] تساوى مائة ، فزاد طمع الأعرابى وقال : قد قبلت ذلك أيها الأمير ، فأسرّ إلى أشعب فأخرج شيئاً مغطى فقال له : أخرج ماجئت به ، فأخرج جَرْد عمامة خز خَلقَ[٥] تساوى أربعة دراهم فقال له : قوّمها يا أشعب ، فقال له : عمامة الأمير تعرف به ويشهد فيها الأعياد والجمع ، ويلقى فيها الخلفاء ، خمسون ديناراً ، فقال : ضعها بين يديه ، وقال لابن ربيح أثبت قيمتها ، فكتب ذلك ، ووضعت العمامة بين يدى الأعرابى فكاد يدخل بعضه فى بعض غيظاً ولم يقدر على الكلام ، ثم قال : هات قلنسوتى ، فأخرج قلنسوة طويلة خلقة قد علاها الوسخ والدهن وتخرقت تساوى نصف درهم ، فقال : قوّم فقال :

---

(١) شعر أزعر : قليل متفرق .

(٢) يتلظى : يتلهب .

(٣) الورك : ما فوق الفخذ .

(٤) العروض : جمع العرض وهو المتاع وكل شىء سوى النقدين .

(٥) الخلق : البالى ، للمذكر والمؤنث . الجرد الخلق .

قلنسوة الأمير تعلو هامته ويصلى فيها الصلوات الخمس ويجلس للحكم ، ثلاثون ديناراً ، فقال : أثبت ، فأثبت ذلك ، ووضعت القلنسوة بين يدى الأعرابى فتربد[١] وجهه وجحظت[٢] عيناه وهمّ بالوثوب ثم تماسك وهو متقلقل ، ثم قال لأشعب : هات ما عندك ، فأخرج خفين خلقين قد نقبا[٣] وتقشرا وتفتّقا فقال له : قوّم ، فقال : خفا الأمير يطأ بهما الروضة ويعلو بهما منبر النبى صلى الله عليه وسلم ، أربعون ديناراً ، فقال ضعهما بين يديه ، فوضعهما ، ثم قال للأعرابى : اضمم إليك متاعك ، وقال لبعض الأعوان : اذهب فخذ الجمل ، وقال لآخر : امض مع الأعرابى فاقبض مابقى لنا عليه من ثمن المتاع ، وهو عشرون ديناراً ، فوثب الأعرابى فأخذ القماش[٤] فضرب به وجوه القوم لا يألو فى شدة الرمى به ، ثم قال له : أتدرى أصلحك الله من أى شىء أموت ؟ قال : لا ، قال : مالم أدرك أباك عثمان فأشترك والله فى دمه إذ ولد مثلك ، ثم نهض مثل المجنون حتى أخذ برأس بعيره ، وضحك أبان حتى سقط كل من كان معه ، وكان الأعرابى بعد ذلك إذا لقى أشعب يقول له : هلم إلى يا ابن الخبيثة حتى أكافئك على تقويمك يوم قوّم ، فيهرب أشعب منه[٥] .

---

(١) تربد : تغير .

(٢) جحظت عينه : خرجت مقلتها .

(٣) نقبا : رتقا .

(٤) القماش : ما على وجه الأرض من فتات الأشياء .

(٥) « الأغانى » ج ١٧ ص ١٠٢ - ١٠٣ .

العقد الفريد

لابن عبد ربه

كانت الحملة الإسلامية فى شبه جزيرة إيبريا ، المدخل الجنوبى الغربى لأوروبا ، أروع عمل حربى عرفه تاريخ العصور الوسطى ، فما هى إلا سنوات سبع (٧١١ - ٧١٧ م) حتى تم فتح شبه الجزيرة ، التى تعتبر من أجمل وأوسع الأقاليم فى أوربا - وقُدّر للحضارة العربية ، بعد نصر يبدو كأنه أسطورة ، أن تستقر هناك زمناً ، وأن يصبح لها ، بعد وقت ، طابعها الخاص المميز ، على الرغم من أصولها المشرقية ، وأن تصبح قرطبة ، وقد جعل منها **السمح بن مالك الخَولانى** عاصمة ، أعظم مركز للثقافة فى أوربا ، وأن تنال شهرة عالمية تبعث الرهبة والإعجاب. لقد كان لها إحدى وعشرون ضاحية، وفيها سبعون داراً للكتب ، مرصوفة الطرق ، مضاءة الشوارع ، زاخرة بالحمامات العامة ، فى الوقت الذى كانت فيه جامعة أكسفورد - مثلا - ترى الاستحمام عادة وثنية .

كان المجتمع الأندلسى بعامة ، والقرطبى بخاصة ، حضرياً مترفاً ، بلغ فيه ذوق الناس العام قدراً عالياً من الرقة وتذوق الفنون الجميلة ، يطرب للموسيقى والشعر ، ويهتز للإنشاد الجميل ، والغناء الحلو ، تأسره الطبيعة بجمالها وسهولها وجبالها ، وشمسها وقمرها ، وتميزت حضارته بأنها تعشق المياه الجارية ، والبساتين الخضرة والبحيرات المتصلة ، والأنوار المنتثرة ، فى عصر الحصون والأسوار والقصور المظلمة .

وكانت وسائل الثقافة متاحة للناس جميعاً وعلى حين لم يكن فى بقية أوربا من يعرف القراءة والكتابة ، باستثناء رجال الكهنوت ، كانت معرفتها أمرًا عاديًّا وشائعًا فى إسبانيا الإسلامية وقلّ فيها من كان أميًّا ، وكان **الحكم الأول** يطمح فى أن يأتى على الجهالة فى دولته ، فأنشأ فى العاصمة وحدها ، ولحسابه الخاص ، سبعاً وعشرين مدرسة كبيرة ، يستطيع فيها أبناء الفقراء أن يتعلموا مجاناً ، وهى ميزة لم

تكن وقفاً على العاصمة ، وحدها ، وإنما كانت تشاركها فيها كبريات المدن الأندلسية كإشبيلية والمرية ومالقة وجيّان وغيرها . وكانت المكتبة الملكية فى قرطبة لاتضارع فى شرق أو غرب ، حتى أن الإمبراطور البيزنطى وجد أن خير هدية يمكن أن يهديها لعبد الرحمن الناصر هى كتاب يونانى ، أحسن تجليده وزخرفته وتجميله وكان غرام الناس بالكتب لاحدّ له ، وبلغ من اعتناء أهلها بالكتب ، أنهم أخذوا يتجملون بها ، كما يتجمل الناس اليوم باقتناء السجاجيد والخزف والطرف الأثرية .

وإلى جانب ذلك ، كانت بلد العلم والفقه والأدب ، وإليها الرحلة فى رواية الشعر ، ومنها كان علماء الأندلس . يبدأون رحلتهم إلى المشرق فى أعداد وفيرة ، يطلبون العلم فى جامعاته ، من فقه وتفسير وحديث ، وفلسفة وفلك وطب ، ولغة وأدب وتاريخ ، كذلك كانت قرطبة نفسها مقصد كبار علماء المشرق ، ممن يرومون الشهرة ، أو يبغون الثروة ، أو يريدون أن يضيفوا إلى علمهم جديداً . ولم تكن الثقافة العربية فى إشراقها وازدهارها وقفاً على المسلمين من سكان الأندلس ، إنما شملت بقية العناصر الأخرى من مسيحيين ويهود ، وتحفظ كتب التاريخ الإسبانية شكوى مريرة أرسلها « ألفارو » أسقف قرطبة ، يشكو فيها من أن تابعيه من المسيحيين أهملوا كليةً دراسة اللغة اللاتينية ، وأقبلوا على اللغة العربية عن إعجاب وحب ، يحفظون أشعارها وقصصها ، ويبدعون بها شعراً جميلاً ، لايقل روعة عما يبدعه العرب أنفسهم ، فلا غرو أن وصفتها الراهبة الألمانية روسفيتا (ت حوالى ١٠٠٢ م) فى قصيدة لها بأنها : جوهرة العالم المتألقة ، مدينة حديثة رائعة ، زهوة بمنعتها ، نافقة بمباهجها ، مختالة بثقافتها ، فاضت ينابيع المعرفة السبعة بها ، وطبق اسمها الآفاق ، أبد الدهر ، بما أحرزت من نصر متواصل .

يذكر المؤرخون فى التعريف بنسب ابن عبد ربه أنه : « أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حدير بن سالم القرطبى » ، ولد فى قرطبة عام ٨٦٠ م ، وهى على ماأشرنا إليه قبل ، وبها نشأ ، ومن ثقافتها نهل ، درس الشائع فى عصره من أدب وتاريخ ولغة ، وفقه وتفسير وحديث ، على جلة من علماء عصره ، فكان من أساتذته : محمد بن وضاح ، وبقى بن مخلد ، ومحمد ابن الحارث الخشنى ، وعنه يقول ابن خلكان : « كان من العلماء المكثرين من

المحفوظات والاطلاع على أخبار الناس » .

انتمى إلى بلاط محمد بن عبد الرحمن شاباً فتياً ، ولازمه طوال مدة إمارته (٨٥٢ - ٨٨٦ م) ، وترك هذا فيه أبلغ الأثر . كان محمد بن عبد الرحمن واقعاً تحت تأثير أعظم شخصين فى قرطبة فى ذلك الوقت : يحيى بن يحيى الفقيه ، وزرياب المغنى ، فجاء ابن عبد ربه موزع القلب بين هذين الأمرين ، كان فقيهاً دارساً ، وبهذا اللقب عرف ، تكريماً له على طريقة عصره ، وكان صاحب لهو يطرب ويشرب ويعشق ، وإذا كان مؤرخو عصره قد مروا بالجانب الثانى من حياته سراعاً ، ورعاً منهم أو إجلالا له ، فقد اعترف بأنه يحب سماع الموسيقى والأغانى ، على طريقة أهل المدينة ، وأنه يشرب النبيذ جرياً على مذهب أهل العراق .

دينُنا ، فى السماع ، دينٌ مدَينىٌّ وفى شربنا الشراب عراقى

وقد دافع عن الغناء فى « عقده » : « إن كانت الألحان مكروهة فالقرآن والأذان أحق بالتنزيه عنها ، وإن كانت غير مكروهة فالشعر أحوج إليها » . وقد حار المتأخرون من علماء المشرق والمغرب فى أمره ، إزاء المتناقض من خبره فبينما يمدحه صاحب « بغية الملتمس » بأنه : « كانت له ديانة وصيانة » ويقول عنه صاحب إرشاد الأريب : « وكانت : لأبى عمر بالعلم جلالة » نجد فيما وصلنا من شعره ، ومن الملامح العامة لعقده ، أنه عب من المباهج الحسية لعصره ، وشارك فيما كان يجرى حوله من طرب وشرب ولهو . ولا تناقض بين الروايتين فيما أرى ، فإحداهما تصفه شاباً مقبلاً على الحياة ، آخذاً من مباهجها بقدر واسع ، والأخرى تتحدث عنه شيخاً ، مدبراً عن الدنيا زاهداً فيها ، يحاول أن يتزود لآخرته بأوفى نصيب ، ومصداق ذلك أنه عمد فى أخريات أيامه إلى أشعاره فى الغزل والشراب فمحصها ، ونقضها بمثيلها فى المواعظ والزهد ، وسماها الممحصّات ، وجعلها على أعاريض تلك وقوافيها ، فقصيدته الغزلية :

هلّا ابتكرت لبين أنت مبتكرٌ هيهات يأبى عليك الله والقدرُ
مازلتُ أبكى حذار البيْن مُلتهفاً حتى رثى لى فيك الريحُ والمطرُ
يابرده من حيَا مُزنٍ على كبد نيرانُها بغليل الشوقِ تستعرُ

آليت ألا أرى شمسًا ولا قمرًا حتى أراك فأنت الشمس والقمر

فقد نقضها بقوله :

يا عاجزًا ليس يعفو حين يقتدر ولا يقضىَّ له من عيشه وطرُ
عـاين بقلبك إنّ العـين غافلة عن الحقيقـة واعلم أنها سقـرُ
سوداء تزفر عن غيظ إذا سعرت للظالمـين فـلا تبـقى ولاتــذر
إنّ الذين اشتروا دنيا بآخـرة وشقـوةً بنعيمٍ ، سـاء مـاتجـروا
يا من تلهىَّ وشيبُ الرأس يندبه ماذا الذى بعد شيب الرأس تنتظر
لو لم يكنٍ لك غيرُ الموت موعظة لكان فيه عن اللذات مـزدجر
أنت المقولُ له ما قلت مبتدئاً : « هلا ادكرتَ لبينٍ أنت مبتكرُ »

وقد لازم ابن عبد ربه الأمراء : محمد بن عبد الرحمن (٨٥٢ - ٨٨٦م) ، والمنذر بن محمد (٨٨٦ - ٨٨٨م) وعبد الله بن محمد (٨٨٨ - ٩١٢م) وعبد الرحمن الناصر (٩١٢ - ٩٦١م) ، وكان معهم جميعاً شاعر البلاط ونديمه ، وقال فى غزوات الناصر وانتصاراته شعرًا كثيرًا ، وخصه بأرجوزة ذكر فيها كلٍ سنة من مغازيه على حدة ، لكن ليس فى شعره ولا فى عقده مايدل على أنه شخصياً كان يشارك فى الحروب أو يسهم فيها بنصيب .

لا يعرف لابن عبد ربه نثر يمكن أنْ يستدل به على مكانته فى الكتابة ، غير مقدماته لأبواب عقده ، وهى تمتاز بالوضوح والرقة فى الأسلوب ، والخلو من الغريب ، والبعد عن التكلف والتعقيد ، والازدواج فى العبارة ، مع وضوح فى التعبير وجزالة فى اللفظ .

أما شعره فكان موضع إعجاب القدامى وتقديرهم ، ذكره الفتح بن خاقان فى « مطمح الأنفس » وقال : « إنه حجة الأدب وإن له شعراً انتهى منتهاه وتجاوز سماك الإحسان وسهاه » وقال عنه ابن سعيد المغربى فى « المرقصات والمطربات » : « إمام أهل أدب المائة الرابعة ، وفرسان شعرائها فى المغرب كله » وذكر ابن خلكان فى « وفيات الأعيان » : « أنّ له ديوان شعر جيد » ، وروى ياقوت فى « إرشاد الأريب » : أن أبا الوليد بن عسال لقى المتنبى فى مسجد عمرو بن العاص ، وأن المتنبى قال له : أنشدنى لمليح الأندلس ، يعنى ابن عبد ربه . فأنشده :

يا لؤلؤًا يسبى العقول أنيقا ورشا بتقطيع القلوب رفيقا
ما إن رُميتُ ولا سمعْت بمثله درًّا يعود من الحياء عقيقا
وإذا نظرت إلى محاسن وجهه أبصرت وجهك فى سناه غريقا
يا من تقطع خصره من رقة ما بال قلبك لا يكون رقيقا

فاستعاده المتنبى ثم صفق بيديه وقال : « يا ابن عبد ربه ، لقد يأتيك العراق حبوًا » .

واختلف المحدَثون بإزائه، فإن الدكتور أحمد ضيف، فى «بلاغة العرب فى الأندلس » يرى فى شعر ابن عبد ربه : أنه كان « من قبيل الصناعة وحب الكلام الجميل ، لأنه كان يميل إلى قول الشعر ونظم الكلام ، لا ممن خلقوا شعراء » . والمستشرق الإسبانى أنخل جنثالث بالنثيا يرى فى كتابه « تاريخ الأدب الأندلسى » : « أنه كان شاعر بلاط فقط ، ولم يكن ذا شاعرية ممتازة » وأحمد أمين ، فى « ظهر الإسلام » ، يرى أن « ابن عبد ربه غير واضح الشخصية ، يسير فى ركاب المشارقة ، ويجتهد ما استطاع أن يأخذ من معانيهم ، ويزيد عليها ، ويختار فى كل نوع من الشعر إمامًا من المشارقة ، فطورًا إمامه صريع الغوانى ، وطورًا أبو العتاهية ، وغيرهم . لم يتحرر تحررًا كافيًا ولم يصغ إلى قلبه قط » .

لزم ابن عبد ربه الأندلس طوال حياته ، فلم تعرف له أية رحلة إلى بلد آخر . ومعارفه الواسعة عن الثقافة المشرقية جاءته من أساتذته ، ممن رحلوا إلى المشرق ، ومن قراءاته ، ومن صلاته بعلماء المشرق الوافدين على الأندلس . وهناك من يظن أن له رحلة ، اعتمادًا على الوصف الدقيق الذى أورده للحرمين فى آخر العقد ، والواقع أنّ هذا الوصف مما أضيف إلى العقد ، بعد وفاة المؤلف ، إلى جانب أخبار أخرى .

بالمرض الذى مات به الجاحظ من قبل ، وأبو الفرج الأصفهانى من بعد ، أصيب ابن عبد ربه ، فمات بالفالج عام ٩٤٠ م ، وهو ابن واحد وثمانين عامًا .

* * *

شهر ابن عبد ربه بكتابه « العقد الفريد » وليس له بين أيدينا كتاب آخر ، وإنْ كان حاجى خليفة فى فهرسه « كشف الظنون » ذكر أنّ له مؤلفًا ثانيًا اسمه : « اللباب فى معرفة العلم والآداب » ولم ترد إليه إشارة فى مصدر آخر ، ولم يعثر له

على أثر . ومن هنا يظن أن « اللباب فى معرفة الآداب » ليس إلا جزءًا من العقد نفسه ، أورده المؤلف تحت عنوان « الياقوتة فى العلم والأدب » وأما الثالث فديوان شعر قيل إنه كان يشغل نيفًا وعشرين مجلدًا لم يصلنا منه شىء ، وضاع فيما ضاع من تراث الأندلس النادر ، وإنْ أورد هو فى عقده بعضًا من شعره ، وروى له الثعالبى فى « يتيمة الدهر » جزءًا كبيرًا منه ، يصلحان لدراسته والحكم عليه شاعرًا .

بقى لنا من كتب الأديب الأندلسى كتاب « العقد » وحده ، وليس ذلك بالقليل فهو يمثل الآن فى حياتنا الثقافية والأدبية المرتبة التى تلى كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى وقد درج الناس على تسميته بالعقد الفريد دون شك يراودهم فى أنّ زيادة لحقت اسمه ، أو تحويرًا أصابه ، إلى أن كتب المستشرق الألمانى **بروكلمان** مادة « ابن عبد ربه » فى دائرة المعارف الإسلامية فأوضح أن كلمة « الفريد » أضافها المتأخرون ، دون أن يستطرد إلى ذكر ما يساند رأيه ، وإنْ يكن من الواضح الآن أن العالِم الألمانى قرر ذلك اعتمادًا على أنّ جميع المصادر الأولية ، لا يُرَى فيها العقد منعوتًا بالفريد ، فلا الفتح بن خاقان فى « مطمح الأنفس » ولا ياقوت فى « معجم الأدباء » ، ولا صاعد الأندلسى فى « طبقات الأمم » ، ولا ابن خلكان فى « وفيات الأعيان » ولا المقّرى فى « نفح الطيب » ، ولا ابن أبى أصيبعة فى « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » ، ولا ابن خلدون فى « تاريخه » ولا حاجى خليفة فى « كشف الظنون » ، أشار إلى نعت الفريد ، وكان الوحيد الذى أشار إليها هو الأبشيهى فى كتابه « المستطرف من كل فن مستظرف » ، ومع ذلك فإن من الصعب الجزم بأن هذه الكلمة أضيفت فيما بعد ، وأصعب منه تحديد الزمن الذى أضيفت فيه ، وتعدّد من أهملها ، وتفرّد من أوردها ، لا يقوم وحده دليلاً على نفى أو إثبات ، وبخاصة أن كلمة ، « الفريد » توجد فى كل المخطوطات التى بين أيدينا الآن .

قسّم صاحب العقد مؤلفه إلى خمسة وعشرين كتابًا ، فى خمسة وعشرين فنًّا ، ثم تصوّره عقدًا مؤلفًا من خمس وعشرين جوهرة كريمة ، اثنتا عشرة فى جانب ، واثنتا عشرة أخرى فى جانب ، وجعل للعقد واسطة ، لكنه لم يسم إلاّ الاثنتى عشرة الأولى ، فلؤلؤة ، وفريدة ، وزبرجدة ، وجمانة ، ومرجانة ، وياقوتة ،

وجوهرة ، وزمردة ، ودرة ، ويتيمة ، وعسجدة ، ومجنبة ، أمّا الاثنتا عشرة التى فى الجانب الآخر فهى هذه الأسماء مكررة ، فاللؤلؤة الثانية ، والفريدة الثانية ... إلخ وهذه الكتب وموضوعاتها هى :

١ – اللؤلؤة فى السلطان .

٢ – الفريدة فى الحروب ومدار أمرها .

٣ – الزبرجدة فى الأجواد والأصفاد .

٤ – الجمانة فى الوفود .

٥ – المرجانة فى مخاطبة الملوك .

٦ – الياقوتة فى العلم والأدب .

٧ – الجوهرة فى الأمثال .

٨ – الزمردة فى المواعظ والزهد .

٩ – الدرة فى التعازى والمراثى .

١٠– اليتيمة فى النسب وفضائل العرب .

١١– العسجدة فى كلام الأعراب .

٢٥– اللؤلؤة الثانية فى النتف والهدايا والفكاهات والملح .

٢٤– الفريدة الثانية فى الطعام والشراب .

٢٣– الزبرجدة الثانية فى بيان طبائع الإنسان وسائر الحيوان وتفاضل البلدان .

٢٢– الجمانة الثانية فى المتنبئين والممرودين والبخلاء والطفيليين .

٢١– المرجانة الثانية فى النساء وصفاتهن .

٢٠– الياقوتة الثانية فى علم الألحان واختلاف الناس فيه .

١٩– الجوهرة الثانية فى أعاريض الشعر وعلل القوافى .

١٨– الزمردة الثانية فى فضائل الشعر ومقاطعه ومخارجه .

١٧– الدرة الثانية فى أيام العرب ووقائعهم .

١٦– اليتيمة الثانية فى أخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة .

١٥– العسجدة الثانية فى الخلفاء وتواريخهم وأيامهم .

١٢- المجنبة فى الأجوبة .

١٣- الواسطة فى الخطب

١٤- المجنبة الثانية فى التوقيعات والفصول وأخبار الكتبة .

من استيعاب مادة العقد يبدو أن مؤلفه كان يهدف إلى وضع دائرة معارف صغيرة ، تفىٰ بمطالب الأديب ، على النحو الذى كان يطلب منه فى ذلك العصر ، من الإلمام بطرف من كل علم ، فهو يعرض لكل ضروب المعرفة فى عصره ، على النحو الذى ازدهرت عليه فى المشرق ، على يد الجاحظ والمبرد وابن قتيبة ، وآخرين ، وكان مؤلف ابن قتيبة « عيون الأخبار » من أوضح المصادر الشرقية أثرًا فى العقد الفريد ، وكان رائجًا فى الغرب الإسلامى ، يقبل الناس هناك على دراسته واستيعابه ، وتميز مؤلفه من بين معاصريه ، ومن سبقهم ، بحسن تبويب كتبه ، وقد قسم « عيون الأخبار » إلى عشرة كتب : السلطان ، والحرب ، والسؤدد، والطبائع والأخلاق، والعلم، والزهد، والإخوان والحوائج، والطعام ، والنساء. وكان يسوق الباب ثم يتبعه بما هو قريب إليه أو مناسب له، وهو نفس المنهج الذى سلكه ابن عبد ربه فى العقد، بل أخذ ابن عبد ربه أكثر مادة «عيون الأخبار» ونقلها إلى كتابه، وهو يعترف أحيانًا بأخذه منه، ويسكت أحيانًا أخرى. كما أفاد مما حكاه أبو عبيدة فى «النقائض» و«أيام العرب»، ومن الجاحظ فى «البيان والتبيين»، فنقل عنه فصولا فى العتاب واستنجاز الوعد، والاعتذار وكتابة الرسائل، ومن المبرد فى «الكامل» فأخذ عنه الكثير من أخبار الخوارج، وتعرض له وللجاحظ ، فذم المبرد ودافع عن الأخير، ومن ابن المقفع فى أدبيه الصغير والكبير وكليلة ودمنة، ومن الطبرى فى «تاريخ الأمم والملوك» ومن ابن سلام الجمحى فى «طبقات فحول الشعراء» وآخرين كثير.

وأورد كثيرًا من الآيات القرآنية والأحاديث، وأخذ عن التوراة والإنجيل، وتمثل بكثير من الحكم الفارسية والهندية، واقتبس من أرسطو، وهى معارف توجد متناثرة بكثرة فى المصادر المشرقية التى نقل عنها

لكن ابن عبد ربه لم يقف عند المصادر المشرقية وحدها ، ولم يقف بكتابه عند المأثور المشرقى ، وإنَّما عرض لتاريخ أمراء الأندلس حتى زمنه ، وخص عبد الرحمن الناصر بأرجوزة أورد فيها مآثره وانتصاراته حتى زمنه ، وإنْ يكن حظ الأندلس، إذا قيس بما خصّ الشرق الإسلامى، متواضعا قليلا، وهى ملاحظة أبداها علماء المشرق أنفسهم ، رووا أنَّ الصاحب بن عباد حين قرأ « العقد » قال : « هذه بضاعتنا ردت إلينا ، ظننت أنّ هذا الكتاب يشتمل على شيء من أخبار بلادهم ، وإنما هو مشتمل على أخبار بلادنا ، لا حاجة لنا فيه » . وهى قولة لا تعيب صاحب العقد ، ولا تقلل من قيمة الكتاب ، فقد عرف الأندلس مذهبين فى التأليف ، أحدهما يعنى بالأندلس ورجاله فحسب . يدرسهم ويسجل أخبارهم ، وآثارهم ، كما فعل الفتح بن خاقان فى « مطمح الأنفس » ، وابن بسام فى « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » ، وأخرى عنيت بأدب المشرق ، فى المكان الأول ، تدرسه وترحل إلى مصادره وتعود فتدرّسه وتذيعه بين مواطنيها ، وأحيانًا كان الأمراء ، منافسة لبغداد ، وزهوًا بما وصلوا إليه ، أو حبّا للثقافة نفسها ، يفسحون من بلاطهم وأموالهم مكانًا لعلماء المشرق الوافدين ، فينهضون فى العاصمة ، أو غيرها ، بالتدوين والتدريس ، كما فعل أبو على القالى ، ففى الأندلس ألف « الأمالى » كتابه الشهير ، وهما طريقتان تكمل إحداهما الأخرى ، فالسبيل لأية نهضة ثقافية ، فى أية أمة ، أنْ تفتح عقلها وقلبها أمام الثقافة الوافدة ، تفيد منها وتتمثلها ، دون أن تفقد معها شخصيتها ، وأن تبدع لنفسها ، فلا تعيش عالة على غيرها .

أورد لنا ابن عبد ربه منهجه فى تأليف كتابه واضحاً فى مقدمته فقال :

إنه يختار ، ويحسن الاختيار ، وينتقى جواهره من خير مافى الأدب ، ومن جوامع الكلم ، وإن له : « تأليف الأخبار ، وفضل الاختيار ، وحسن الاختصار ، فرش فى صدر كل كتاب ، وماسواه فمأخوذ من أفواه العلماء ، ومأثور عن الحكماء الأدباء ، واختيار الكلام أصعب من تأليفه . وقد قالوا : اختيار الرجل وافد عقله » .

وإنه نخل نظائر الكلام ، وأشكال المعانى وجواهر الحكم ، وضروب الأدب ، نوادر الأمثال ، ثم قرن كل جنس منها إلى جنسه ، فجعله باباً على حدته ،

ليستدل الطالب للخبر على موضعه من الكتاب ، ونظيره فى كل باب .

وإنه تخير من جملة الأخبار ، وفنون الآثار ، أشرفها جوهراً ، وأظهرها رونقاً ، وألطفها معنى ، وأجزلها لفظاً ، وأحسنها ديباجة ، وأكثرها طلاوة وحلاوة .

وإنه حذف الأسانيد من أكثر الأخبار ، طلباً للاستخفاف والإيجاز ، وهرباً من التثقيل والتطويل ، لأنها أخبار ممتعة وحكم ونوادر ، لا ينفعها الإسناد باتصاله ، ولايضرها ماحذف منها .

وإنه نظر فى بعض الكتب الموضوعة فوجدها غير متصرفة فى فنون الأخبار ، ولا جامعة لجمل الآثار ، فجعل العقد كافياً شافياً جامعاً لأكثر المعانى التى تجرى على أفواه العامة والخاصة ، وتدور على ألسنة الملوك والسوقة ، وحلى كل كتاب منها بشواهد من الشعر ، تجانس الأخبار فى معانيها ، وتوافقها فى مذاهبها ، وقرن بها غرائب من شعره ، ليعلم الناظر فى كتابه أنّ للمغرب على قاصيته ، ولبلده على انقطاعه ، حظاً من المنظوم والمنثور .

يعد العقد واحداً من المصادر الهامة لتأريخ الحياة العربية بجوانبها المختلفة ، سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية . فهو يضم بين صفحاته مادة وافرة من الأخبار والقصص والوثائق ، التى تعين على تصور حركة تطور المجتمع العربى . فكتاب السلطان – مثلاً – يعطى صورة واضحة عن سياسة عمر ، رقابته لعماله ، والرسائل المتبادلة بينه وبينهم فيما يتصل بالثراء الفاحش الذى أصابوه فجأة ، بعد أن تولوّا له العمالة ، فى هذا القطر أو ذاك ، من الإمبراطورية الإسلامية الشاسعة . وفى كتاب الحرب حديث طويل عن فرسان العرب فى جاهليتها وإسلامها ، وعن حروب الأزارقة وتاريخهم وأبطالهم وآرائهم ، وتفوقهم ، وأقوال كل فرقة ، وانفرد بذكر أخبار لم تحفظها لنا بقية المصادر الأخرى ، كمشاورة المهدى لأهل بيته ووزرائه فيما يتصل بحرب خراسان ، وأخبار زياد والحجاج والطالبيين تحتوى حقائق يعز العثور عليها فى مكان آخر .

إلى جانب ذلك ، **سَلِمَتْ أخبار العقد ، نسبيًّا ، من التشويه والتحريف والبتر** ، ومن هنا يمكن الاعتماد عليه فى المقابلة بين النصوص المختلفة عند تحقيق ونشر المصادر التى أخذ منها ، أو التى نقلت عن رواة استند إليهم ، وهو مافعلته دار الكتب المصرية ، عند تحقيقها كتاب « عيون الأخبار » لابن قتيبة ونشره ،

فقد ألحقت بمتنه زيادات نقلتها عن العقد ، وصححت كثيرًا من الأخطاء التى وجدتها فى مخطوطات « عيون الأخبار » عند مقابلة نصوصها بما أورده العقد عنها .

ويتميز العقد عن الكتب القديمة بأنه مقسم موضوعياً ، فكل مايتصل بالسلطان - مثلاً من حقوق وجلساء ، ووزراء وأعوان ، وولاة وقضاة ، وحجاب واستبداد ، تجده فى مكان واحد . ومايتصل بالوفود العربية فى الجاهلية والإسلام ، التى قدمت على كسرى فى فارس ، أو على ملوك العرب فى الحيرة واليمن ، أو على النبى ﷺ، وصفات الوافدين وأعدادهم، وما قالوا، وما قيل لهم، كل ذلك فى كتاب آخر، مما يسهل عملية الإفادة منه على نحو كبير، ويعتبر بحثه فى العروض من أكمل البحوث التى وصلت إلينا ، فقد ضمنه كل الشواهد التى وضعها الخليل ابن أحمد لبحور الشعر ، ثم أضاف إليها مقطعات غزلية من نظمه ليسهل حفظها .

وعلى الرغم من ذلك كله ، فإن العقد كغيره ، وربما على نحو أقل ، **خضع لألوان من الزيادة والتحريف** ، من قبل الرواة أو النسّاخ ، ربما كان أصحابها يرون الزيادة فى العلم خيراً ، أو صنعوا ذلك مدفوعين بأغراض أخرى ، ومن الموضوعات التى وردت فيه ، وتثير الشك على نحو قوى ، الوصف الدقيق الذى أورده للحرمين ، والذى لا يتأتى إلا لمن رآهما رأى العين ، وابن عبد ربه لم يبرح الأندلس ، على أرجح الآراء ، وكذلك حديثه فى تراجم الخلفاء العباسيين عن أربعة منهم توفوا بعده .

وهو **لا يمحص الأخبار** ، ولا يقف منها موقف الفاحص المدقق ، وإنما يعرضها كيفما تأتّتْ له ، فيذكر فى مكان من العقد أنّ معاوية توفى وولده يزيد عنده ، ثم يشير فى مكان آخر إلى أنّ يزيد كان بعيداً عن دمشق حين وافت المنية معاوية ، ثم يعرض لأشياء هى إلى الخرافات والأساطير أقرب ، دون أن يعلق عليها ، أو « يثيره شذوذها ، كحديثه عن رجل عاش مائة وتسعين عاماً ثم اسود شعره ، ونبتت أضراسه . وعاد شابًا » .

نقل عن « العقد » كثير ممن جاءوا بعده، وأفادوا من مادته الوفيرة، مثل : الأبشيهى فى كتابه « المستطرف من كل فن مستظرف » واعترف بذلك فى مقدمة كتابه ، وابن خلدون فى تاريخه ، والقلقشندى فى كتابه « صبح الأعشى » ، والبغدادى فى خزانة الأدب وغيرهم .

وعلى الرغم من المكانة التى يحتلها « العقد » فى حياتنا الثقافية المعاصرة ، كان حظه من الترجمة إلى اللغات الأخرى قليلاً . فلا نعرف له ترجمة إلى أية لغة أجنبية ، شرقية أو غربية ، وإن كان من المعروف أنّ مستشرقاً فرنسياً نقل منه إلى الفرنسية كثيرًا من النصوص التى تتصل بعرب الجاهلية ، ونشرها فى باريس أعوام ١٨٣٦ - ١٨٣٨م.

كذلك اعتمد على الكتاب الأول منه ، والخاص بالسلطان ، المستشرق الإسبانى خوليان ريبيرا فى بحثه عن « أصول القضاء فى أرغون » والذى استهدف فيه بيان تأثير النظم السياسية والقضائية والإدارية لمسلمى الأندلس ، فى مثيلاتها بممالك الشمال الإسبانية المسيحية .

* * *

اختصر العقد ، قديماً ، اثنان :

الأول : أبو إسحق إبراهيم بن عبد الرحمن **الوادى آشى القيسى** ، المتوفى عام ٥٧٠ هـ = ١١٧٤ م ، وهو أندلسى من وادى آش ، تبع مقاطعة غرناطة .

والثانى : جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الأنصارى الخزرجى الشهير **بابن منظور** ، صاحب معجم لسان العرب ، والمتوفى عام ٧١١ هـ ، ومن قبله اختصر الأغانى أيضاً . واختصر حديثاً مرتين :

الأولى عندما عمدت لجنة من أساتذة دار العلوم إلى اختصاره ، استجابة لرغبة وزارة المعارف إذ ذاك ، فاختارت بعض كتبه ، وانتقت من هذه بعض أخبارها ، وأسمته « مختار العقد » ونشر عام ١٩١٣م، والثانية تمّتْ من أعوام أربعة(*)، عندما نشرت بعض مختاراته فى سلسلة كانت تشرف على إصدارها وزارة الثقافة والإرشاد .

وقد ذكر **بروكلمان** فى كتابه تاريخ الأدب العربى عدداً من المخطوطات لكتاب العقد الفريد توجد فى أنحاء متفرقة من العالم : فى برلين وفيينا والإسكوريال بإسبانيا ، والمتحف البريطانى ، وباريس ، وبطر سبرج ، وميلانو ، وفى تركيا فى مكتبات : أيا صوفيا ، ونورى عثمانية ، وراغب باشا ، وكوبريلى ، وبعض هذه الأمكنة يوجد فيها أكثر من مخطوطة ، كذلك توجد له مخطوطة فى دار الكتب المصرية ، وفى الرباط مما لم يشر إليه المستشرق الألمانى .

(*) سنة ١٩٦٤م.

وقد طبع العقد الفريد عدة مرات فى مصر : طبع فى بولاق لأول مرة عام ١٢٦٣ هـ ، وفى المطبعة العثمانية عام ١٣٠٢ هـ ، وفى المطبعة الشرقية عام ١٣٠٥ هـ ، وطبع مرة ثانية فى نفس المطبعة عام ١٣١٦ هـ ، وفى المطبعة الأزهرية عام ١٣٢١ هـ ، وفى المطبعة الجمالية عام ١٣٣١ هـ ، وفى مطبعة مصطفى محمد عام ١٣٥٣ هـ .

ثم طبعته المكتبة التجارية لمصطفى محمد طبعة أخرى بتحقيق محمد سعيد العريان عام ١٩٤٣م، فى أجزاء متعددة ، ولكن أجود الطبعات وأدقها ، وأحسنها تنظيماً تلك التى أصدرتها لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٤٠ م ، بتحقيق الأساتذة : أحمد أمين ، وأحمد الزين ، وإبراهيم الأبيارى ، وإنْ كان اكتشاف عدد من مخطوطات العقد فى مكتبات المغرب . لم تكن معروفة من قبل ، يجعل من الخير ، إعادة طبع العقد ، مع الإفادة مما قد تضمه هذه المخطوطات من جديد .

هذا وقد قام الأستاذ **محمد شفيع** ، أستاذ اللغة العربية فى جامعة بنجاب بالهند بإصدار كتاب فى جزأين عن العقد الفريد ، أحدهما فهرس تحليلى للنسخ المطبوعة فى مصر ، والثانى تصحيحات وتعليقات ومقارنات بينها ، ولا يقل فهرسه دقة وتنظيماً عما وضعه المستشرق **جويدى** لكتاب الأغانى من قبل ، وقد نشرهما فى كلكتا عام ١٩٣٥ - ١٩٣٧م .

* * *

○ منتخبات من كتاب « العقد الفريد » :

بين عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص

كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى عمرو بن العاص ، وكان عامله على مصر :

من عبد الله عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص ، سلام عليك ، أما بعد : فإنه بلغنى أنك فشت لك فاشية من خيل وإبل وغنم وبقر وعبيد ، وعهدى بك قبل ذلك أن لا مال لك ، فاكتب إلى من أين أصل هذا المال ولا تكتمه .

فكتب إليه :

من عمرو بن العاص إلى عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين . سلام عليك ، فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد : فإنه أتانى كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه مافشا لى ، وأنه يعرفنى قبل ذلك ولامال لى ، وإنى أعلم أمير المؤمنين أنى ببلد السعر به رخيص ، وإنى أعالج من الحرفة والزراعة ما يعالجه أهله ، وليس فى رزق أمير المؤمنين سعة . وبالله لو رأيت خيانتك حلالا ماخنتك ، فأقصر أيها الرجل ، فإن لنا أحساباً هى خير من العمل لك ، إن رجعنا إليها عشنا بها ، ولعمرى إن عندك من لا يذم معيشته ولا تذم له ، وذكرت أن عندك من المهاجرين الأولين من هو خير منى ، فإن كان ذلك لم نفتح قفلك ، ولم نشركك فى عملك .

فكتب إليه عمر :

أما بعد ، فإنى والله ماأنا من أساطيرك التى تسطر ، ونسقك الكلام فى غير مرجع ، ومايغنى عنك أن تزكى نفسك ، وقد بعثت إليك محمد بن مسلمة فشاطره مالك ، فإنكم أيها الرهط الأمراء جلستم على عيون المال ثم لم يعوزكم عذر ، تجمعون لأبنائكم ، وتمهدون لأنفسكم ، أما إنكم تجمعون العار ، وتورثون النار والسلام .

بين جهم بن صفوان ويونانى

قال : لقى جهم رجلاً من اليونانيين فقال له : هل لك أن تكلمنى وأكلمك عن معبودك هذا . أرأيته قط ؟ قال : لا ، قال : فلمسته ؟ قال : لا ، قال : فذقته ؟ قال : لا ، قال : فمن أين عرفته وأنت لم تدركه بحس من حواسك الخمس . وإنما عقلك معبر عنها ، فلا يدرك إلا ما أوصلت إليه من جميع المعلومات . قال : فتلجلج جهم ساعة ثم استدرك فعكس المسألة عليه فقال له : ماتقر أن لك روحاً ؟ قال ؛ نعم ، فهل رأيته أو ذقته أو سمعته أو شممته أو لمسته ؟ قال : لا ، قال : فكيف علمت أن لك روحاً ؟ فأقر له اليونانى .

من أخبار الخوارج

لما خرجت الخوارج على على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكانوا من أصحابه ، وكان من أمر الحكمين ما كان ، واختداع عمرو لأبى موسى الأشعرى ، قالوا : لاحكم إلا الله ، فلما سمع على رضى الله عنه نداءهم ، قال : كلمة حق يراد بها باطل ، وإنما مذهبهم أن لا يكون أمير ، ولابد من أمير برًّا كان أوفاجراً . وقالوا لعلى : شككت فى أمرك ، وحكمت عدوك فى نفسك ، وخرجوا إلى حروراء ، وخرج إليهم على رضى الله عنه ، وخطبهم متوكئاً على قوسه ، وقال : هذا مقام من أفلح فيه أفلح يوم القيامة ، أنشدكم الله ، هل علمتم أن أحداً كان أكره للحكومة منى ؟ قالوا : اللهم لا ، قال : أفعلمتم أنكم أكرهتمونى عليها حتى قبلتها ، قالوا : اللهم نعم ، قال : فعلام خالفتمونى ونابذتمونى ؟ قالوا : إنا أتينا ذنباً عظيماً فتبنا إلى الله منه ، فتب إلى الله منه ، واستغفره نعد إليك ، فقال على : إنى أستغفر الله من كل ذنب ، فرجعوا معه وهم فى ستة آلاف ، فلما استقروا بالكوفة أشاعوا أن علياً رجع عن التحكيم ، وتاب منه ، ورآه ضلالا ، فأتى الأشعث بن قيس عليا رضى الله عنه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الناس قد تحدثوا أنك رأيت الحكومة ضلالا والإقامة عليها كفراً وتبت ، فخطب على الناس فقال : من زعم أنى رجعت عن الحكومة فقد كذب ، ومن رآها ضلالا فهو أضل منها . فخرجت الخوارج من المسجد فحكمت ، فقيل لعلى إنهم خارجون عليك ، فقال : لا أقاتلهم حتى يقاتلونى ، وسيفعلون .

من عمر بن الخطاب
إلى أبي موسى الأشعرى
[عامله على اليمن]

كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبي موسى الأشعرى :

أما بعد ،

فإنّ للناس نَفْرة عن سلطانهم ، فاحذر أنْ تدركنى وإياك عمياء مجهولة ، وضغائن محمولة ، وأهواء مُتّبعة ، ودنيا مؤثرة . أقم الحدود ، واجلس للمظالم ، ولو ساعة من النهار ، وأخف الفسّاق واجعلهم يدًا يدًا ، ورجلاً رجلاً .

وإذا كانت بين القبائل نائرة فنادوا : يا لفلان ، فإنما تلك نجوى من الشيطان ، فاضربهم بالسيف حتى يفيئوا إلى أمر الله عز وجل ، وتكون دعواتهم إلى الله والإسلام ، واستدم النعمة بالشكر ، والطاعة بالتألّف ، والمقدرة بالعفو ، والنّصرة بالتواضع ، والمحبة للناس .

وبلغنى أن ضبّة تنادي : يا لضبَّة . وإنّى والله ما أعلم أن ضبّة ساق الله بها خيرا قط ، ولا صرف بها شرًّا ، فإذا جاءك كتابى هذا ، فانْهكهم عقوبةً حتى يَفْرقوا إن لم يفقهوا ، وألصق بغيلان ابن خرشة من بينهم .

وعُدْ مرضى المسلمين ، واشهد جنائزهم ، وباشر أمورهم بنفسك ، وافتح لهم بابك ، فإنما أنت رجل منهم ، غير أن الله قد جعلك أثقلهم حِملاً .

وقد بلغ أمير المؤمنين أنه فشت لك ، ولأهل بيتك ، هيئة فى لباسك ، ومطعمك ، ومركبك ، ليس للمسلمين مثلها ، فإيّاك يا عبد الله أن تكون كالبهيمة همها فى السِّمن والسِّمن حتفها . واعلم أن العامل إذا زاغ زاغت رعيته ، وأشقى الناس مَن يشقى به الناس ، والسلام .

الفهرســت
لمحمد بن إسحاق النديم

واكب حركة التدوين التى بلغت أشدّها فى القرن الرابع الهجرى ، وشملت شتى جوانب الحضارة العربية ، من أدب ولغة ، وتاريخ وتشريع ، اهتمام بحيوات الرجال المشتغلين بها ، يجمعون مادتها ، ويدوّنون آثارها ، ويؤلفون فيها . وظهر ذلك بدءاً ، وضرورة ، بين المجتهدين من الورّاقين المثقفين ، وهواة جمع الكتب ، وكانوا إلى جانب جمع الكتب وبيعها ونسخها يقومون بالتعليق عليها ، والتعريف بمؤلفيها ، أو بمادتها ، وتجمعت عندهم مادة وفيرة ، تعنى أحياناً بحياة العلماء ، وتأخذ أحياناً أخرى شكل قوائم بمالهم من مؤلفات . ومالبث هذا الاتجاه أن تطوّر وأخذ أشكالاً متعددة على نحو ما سنشير إليه ، وأول كتاب نعرفه ، ووصلنا فعلاً ، واهتم بالتأريخ للكتب نفسها أساسا ، هو كتاب الفهرست لمحمد بن إسحاق النديم .

نكاد لانعرف شيئاً عن حياة محمد بن إسحاق ، ولا عن مولده ، ولم يجد ياقوت الحموى قبلنا ، وهو من علماء القرن السادس الهجرى ، كتاباً يتعرف منه على النديم غير كتاب الفهرست نفسه ، فى نسخة حديثة ، تضم زيادات وإضافات ، وكان يملكها الوزير المغربى ، أبو القاسم الحسين بن على ، المتوفى ٤١٨ هـ = ١٠٢٧ م . والحق أننا نستطيع اعتماداً على الإشارات الواردة فى الكتاب أن نحدد خط سير حياة النديم أجمالاً .

يقول ابن اسحاق عند حديثه عن حياة أبى بكر محمد بن عبد الله البَرْدعى : « رأيته فى سنة أربعين وثلاثمائة ، وكان بى آنسا ، ويظُهر مذهب الاعتزال ، وكان خارجيًا ، وأحد فقهائهم » . ويتحدث عن بعض شيوخه ، فيقول : « حدثنى أبو الفرج الأصفهانى قال : أخبرنى .. » ، ويورد لنا فى مكان آخر شيئاً عن حياة أبى الفرج ، وأنه توفى عام ٣٦٠ هـ ، ونحن نعرف أن أبا الفرج ولد عام ٢٨٤ هـ ، ولابد من فارق فى السن بين الأستاذ والتلميذ ، لايقل عن أعوام عشرة

فى أدنى الفروض ، على هدى مانعرف من تقاليد التلقى والإجازة ، وأعراف الدرس والتدريس .

ويذكر الدكتور **طيب زاده** الإيرانى أنه عثر على تاريخ مولد ابن اسحاق ، فى كتاب هدية الأحباب ، وأنه « ولد فى جمادى الأولى سنة ٢٩٧ هـ » وهو نص تؤيده كل الدلائل ، ووجه الغرابة فقط أن يستقل به هذا الكتاب من دون المؤلفين أجمعين .

ونعرف أكيداً أنه عاش على الأقل إلى مابعد عام ٣٧٧ هـ ، فهو يحدثنا فى كتابه عن محمد بن عمران المرزبانى ، وأن « أصله من خراسان ، وآخر من رأينا من الإخباريين والمصنفين ... ويحيا إلى وقتنا هذا ، وهو سنة سبع وسبعين وثلاثمائة » . ويقول فى مكان آخر : « هذا آخر ماصنفناه من المقالة الأولى من كتاب الفهرست ، إلى يوم السبت مستهل شعبان سنة سبع وسبعين وثلاثمائة » . ويتحدث عن إبراهيم الصابى فيقول : « مترسل بليغ شاعر ، عالم بالهندسة ، ومولده سنة نيّف وعشرين وثلاثمائة ، وتوفى قبل الثمانين والثلاثمائة » .

واختلف المؤرخون أيضاً فى تاريخ وفاته ، فينقل **ابن حجر** ، فى كتابه لسان الميزان ، عن أبى طاهر الكرخى ، أن وفاة محمد بن إسحاق كانت فى شعبان ٣٨٠ هـ . ويذكر **الصفدى** فى كتابه الوافى بالوفيات ، و**ابن النجار** فى ذيل تاريخ بغداد ، أنه توفى يوم الأربعاء لعشرة أيام خلت من شعبان ٣٨٥ هـ ، ومن المحتمل أن ابن النجار، وهو أسبق من الصفدى كتب الوفاة ٣٨٠هـ، ولكن المؤرخين الذين أتوا بعده أخطأوا فى الصفر ، إذ كان يكتب قديماً على نحو يشتبه مع الرقم ٥ ، ونقل الذين جاءوا بعده التاريخ خطأ ونسبوه إليه .

ولم يحدد **الذهبى** فى كتابه تاريخ الإسلام تاريخاً محدداً للوفاة ، وجعلها فى أوائل القرن الخامس الهجرى ، وارتأى آخرون رأيه ، فقالوا إنه توفى بعد عام ٤٠٠ هـ ، اعتمادا على أنه ذكر فى كتابه بعض المؤلفين الذين توفوا فى هذا التاريخ ، أو قريباً منه . ومثل هذا الاستنتاج ليس من الضرورى أن يكون حاسماً ، لأن مثل هذه الأخبار قد تكون من إضافات النساخ أو القراء بعد وفاة النديم ، وكان نفسه قد سمح بهذا ، فهو يذكر فى كتابه أثناء ترجمته لحياة الداعى إلى الله الحسن بن على بن الحسن بن زيد : « وزعم بعض الزيدية أن له نحواً من

مائة كتاب ، ولم نرها ، فإن رأى ناظر فى كتابنا شيئاً منها ألحقها بموضعها إن شاء الله تعالى » .

أقدم كتاب ورد فيه اسم المؤلف هو كتاب الفهرست نفسه ، إذ ورد فيه فى أماكن مختلفة منه قوله : محمد بن إسحاق النديم المعروف بأبى إسحاق الوراق ، على اختلاف فى أسماء جدوده ، وذكر الكنية أو عدم ذكرها ، وكنيته أبو الفرج ، وكنية أبيه أبو يعقوب . ثم ورد اسمه ونسبه مختصراً أو كاملاً فى معجم الأدباء لياقوت ، وفى الوافى بالوفيات للصفدى ، وفى لسان الميزان لابن حجر العسقلانى ، وفى كشف الظنون لحاجى خليفة ، وفى عيون الأنباء لابن أبى أصيبعة ، وآخرون ، وكان الذهبى وحده هو الذى نعته فى كتابه تاريخ الإسلام بأنه : محمد بن اسحاق بن النديم ، ومن عجب أن هذه التسمية الخاطئة شاعت ، وكتب لها الرواج ، وأصبح كتاب الفهرست يعرف بأنه لابن النديم بدل محمد بن اسحاق النديم .

وكفانا النديم نفسه مئونة الحديث عن شيوخه ، فقد عرض لهم فى أمكنة متفرقة من كتابه ، ويذكر من بينهم : الحسن بن سوار الخمار ، وأبا الفرج الأصفهانى ، وأبا سعيد السيرافى ، وأبا عبد الله المرزبانى ، وإسماعيل الصفار ، ويونس القس ، ومحمد بن يوسف الناقط وآخرين ، وأما تلاميذه ، فيقول ابن النجار عن ذلك ، فى كتابه ذيل تاريخ بغداد « لا أعلم لأحدٍ عنه رواية » .

كان النديم ورَّاقاً ، واقترنت هذه الصفة به فى كتابه مراراً ، وكذلك فى المصادر التاريخية التى عرضت له ، وكلمة وراق تعنى يومها بائع الورق وصانعه ، وناسخ الكتاب ومجلده ، وبائعه ، ويقوم بها المرء كلها ، أو يقف نفسه على جانب منها ، ويمارسها عادةً الأدباء والعلماء والشعراء واللغويون والنحاة، وليس بذى فائدة أو أهمية أن نحاول معرفة أى لون منها كان يمارس النديم ، وأقرب الظن أنه أخذ من كل فن منها بطرف .

وقد امتلأت بغداد على أيام ابن إسحاق بحوانيت الوراقين ، وبلغت جملتها أكثر من مئة حانوت ، فى جانب من المدينة حمل اسم « سوق الوراقين » ، ولم تكن هذه مجرد دور لنسخ الكتب أو بيعها فحسب،وإنما كانت منتديات أدبية وعلمية ، يرتادها العلماء والشعراء والأدباء ، وتلتقى فيها الطبقات المثقفة ، ونعرف

من أخبار الجاحظ أنه كان يستأجر هذه الدكاكين ويبيت فيها قارئاً ، وله رسالة فى مدحهم ، وأخرى فى ذمهم ، على طريقته فى وصف الأضداد ، والمراوحة بين الذم والإطراء ، تفنّنا فى الكلام ، أو تماجنا أو تطربا . وهى مهنة لم يلتفت لها المؤرخون على أهميتها وجلال خطرها ، ولست أعرف من عرض لها مؤرخاً إلا **عبد الرحمن السخاوى** ، المتوفى ١٠٢٥ هـ = ١٦١٦ م ، فقد ألف عنها كتاباً بعنوان : « تنويق النطاقة فى علم الوراقة ، لم يصلنا ، ولانعرف منه غير العنوان .

لم يتحدث النديم عن نسبه البعيد وقومه ، ولم يعرض لذلك فى كتابه ، غير أننا نستنتج من طريقة تناوله للأخبار ، وتعاطفه مع بعض القضايا ، وحديثه عن بعض الرجال ، وتعمقه فى جوانب من التاريخ القديم ، أنه فارسى ومتشيع ، فقد أورد كثيراً من الأخبار عن إيران ورجالاتها قبل الإسلام ، وأسبغ عليهم فيضاً من صفات التكريم ، وعرض للغات الإيرانية القديمة وأنواع كتابتها ، وحتى العنوان الذى أعطاه لكتابه وهو « الفهرست » مأخوذ من اللغة الفارسية . وهو استنتاج يدعمه أن جل الوراقين فى العصر العباسى الأول بخاصة كانوا من الفرس .

قدم **إسحاق النديم** ، والد صاحبنا ، من فارس إلى بغداد فى تاريخ نجهله ، ومن مكان لانعرفه ، واحترف الوراقة ، وأورثها ابنه من بعده ، وأقام **محمد الابن** فيها ، يمارس مهنة أبيه ، ولانعرف له رحلة خارجها ، إلّا ماكان من ذهابه إلى الموصل ، كما نفهم من أماكن عديدة فى كتابه ، وقد أخطأ المستشرق **فلوجل** ، والذى قام بتحقيق الكتاب ونشره للمرة الأولى ، على نحو ماسنشير إليه فيما بعد ، خطأً فاحشاً ، فى فهم الخبر التالى ، وورد فى الفهرست تحت عنوان : « مذهب أهل الصين وشىء من أخبارهم » ، وهو : « ... ماحكاه لى الراهب النجرانى الوارد من بلاد الصين فى سنة سبع وسبعين وثلثمائة ، هذا الرجل من أهل نجران أنفذه الجاثليق منذ سبع سنين إلى بلاد الصين وأنفذ معه خمسة أناس من النصارى ممن يقوم بأمر الدين ، فعاد من الجماعة هذا الراهب ، وأخر بعد ست سنين ، فلقيه بدار الروم وراء البيعة .. » ، فظن فلوجل أن دار الروم هى مدينة القسطنطينية ، وذهب إلى أن محمد بن إسحاق هو الذى التقى فيها بهذا الراهب النجرانى ، خلف الكنيسة التى تحولت فيما بعد إلى مسجد أيا صوفيا » . وهو استنتاج خاطئ تماماً ، لأن دار الروم التى يعنيها ابن إسحاق فى بغداد ، كان مجمع

أسرى الروم فى عهد الخليفة المهدى ، وسمح لهم ببناء كنيسة هناك ، أطلق عليها اسم دار الروم أيضاً واللقاء الذى تم بين محمد بن إسحاق والراهب النجرانى كان فى حى الروم من بغداد .

لانعرف من تراث **محمد بن إسحاق** غير كتابين ، ذكرهما ياقوت الحموى فى كتابه « إرشاد الأريب » ، أولها اسمه « كتاب التشبيهات » ولم يصلنا هذا الكتاب ، ولا نعرف عنه غير عنوانه ، ولم يذكره أحد من المؤرخين غير ياقوت ، وثانيها كتاب الفهرست ، وهو موضع درسنا .

* * *

كان **كتاب الفهرست** وحيداً فى بابه على أيامه ، ولو أننا نعرف مما أورده ابن اسحاق نفسه أن ثمة محاولات أخرى سبقته ، وإن لم تأخذ الطابع الذى ألف عليه كتابه تماماً ، فبواكير التأليف فى الأغانى تعود إلى العصر الأموى ، وأرخ اليعقوبى فى تاريخه لحركة الترجمة من اليونانية إلى العربية قبل أن يؤلف النديم كتابه بقرن كامل من الزمان .

وقد عُرِفَ الكتاب وشاع وملأ الأسماع باسم الفهرست ، وبهذا الاسم أشار إليه مؤلفه ، وبه عرفه القدماء ، وكان **حاجى خليفة** المؤرخ الوحيد من بينهم الذى أسماه « **فوز العلوم** » ، وهو اسم نلتقى به فى مخطوطة وحيدة ناقصة ، سنعرض لها فيما بعد وأسماه **ابن حجر** فى كتابه « لسان الميزان : **فهرست العلماء** ، والكلمة كما أشرنا من قبل ليست عربية ، وإنما هى منقولة عن الفارسية ، وجمعها الفهرسة ، أو الفهارس ، وهو الكتاب الذى تجمع فيه أسماء الكتب بنظام معين .

ولانعرف متى بدأ النديم يحرر كتابه ، وإخاله أخذ يجمع مادته على مهل منذ حياته الباكرة ، وظل يفعل ذلك إلى قريب من آخرها ، ثم بدأ يضعه فى شكله النهائى ، ولدينا عن ذلك شواهد من الكتاب نفسه لا تخطئ ، فهو يذكر فى آخر المقالة العاشرة أنه انتهى منها عام ٣٧٧ هـ ، ونلتقى بالتاريخ نفسه فى الصفحة الأخيرة من المقالة الثانية ، وليس وارداً أنه ألف الكتاب كله فى عام واحد كما ارتأى بعضهم ، ولكن الأقرب أنه أعطى الكتاب لعدد من الأشخاص نساخين أو تلاميذ ، وأن الذين اضطلعوا بالقسمين الثانى والعاشر انتهيا منهما فى زمن واحد . ولايرد ذكر الانتهاء من الكتاب فى آخر أية مقالة أخرى ، ولو أنه فى

تضاعيف المقالة الثالثة وحدها أشار عند أخبار أبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني إلى أنها « آخر ماصنفناه من مقالة النحويين واللغويين إلى يوم السبت مستهل شعبان سنة سبع وسبعين وثلاثمائة ، والحمد لله ، وصلى الله على محمد وآله ، ونسأل الله البقاء لمن صنفّنا له .. » ، وجاء بعد هذه العبارة قوله : « وتوفى (أى أبي عبيد الله) رحمه الله فى سنة أربع وثمانين وثلاثمائة » ، وهى ليست بخط المصنف ، وقد أشرنا فيما سبق إلى أن مثل هذه الزيادة مما تعود النساخ أن يضيفوها إلى الكتاب بعد وفاة مؤلفه وبخاصة أنه أذن لهم فى هذا .

* * *

أوجز محمد بن إسحاق عمله وغايته ومنهجه فى مقدمة كتابه ، فهو « فهرست كتب جميع الأمم من العرب والعجم ، الموجود منها بلغة العرب وقلمها فى أصناف العلوم وأخبار مصنفيها ، وطبقات مؤلفيها ، وأنسابهم وتاريخ مواليدهم ، ومبلغ أعمارهم ، وأوقات وفاتهم ، وأماكن بلدانهم ، ومناقبهم ومثالبهم ، منذ ابتداء كل علم اخترع إلى عصرنا هذا ، وهو سنة سبع وسبعين وثلاثمائة للهجرة » .

وقد كسر محمد بن اسحاق كتابه على عشر مقالات ، جرياً على النهج المتبع فى التسمية يومها ، إذا كانوا يسمون « باب » الكتاب « مقالة » ، وكل « فصل » من الفصول فى داخل المقالة الكبيرة « فنًا » :

● المقالة الأولى وجاءت فى ثلاثة فنون .

الفن الأول فى وصف لغات الأمم من العرب والعجم ، ونعوت أقلامها ، وأنواع خطوطها ، وصور لنا بعضها كما شاهده فى خزائن بغداد العلمية ، وبخاصة خزانة المأمون ، وفيها رأى صورة القلم الحميرى ، يذكر ذلك صراحة ونصا ، يقول : « ورأيت أنا جزءاً من خزانة المأمون ترجمته : ما أقر بنسخه أمير المؤمنين عبد الله المأمون ، أكرمه الله ، من التراجم ، وكان فى جملته القلم الحميرى » ، ثم صوّر مثاله .

وبحكم مهنته كان عارفاً بأنواع الخطوط المختلفة والمتداولة على أيامه ، ومطنباً فى الحديث عنها ، وصوّر لنا مثال الخطين المكى والمدنى القديمين ، وميزّهما بأنهما فى « ألفاتها تعويج إلى يمنة اليد وأعلا الأصابع ، وفى شكلها انضجاع يسير » . كما قدم صوراً للخطوط القديمة ، كالصينى ، والسريانى ، والفارسى ، والعبرانى ،

والرومى (أى اليونانى) ، وقلم السند ، وقلم السودان .

وأبدى ملاحظة هامة عن الخطين الرومى والصينى ، إذ كان لهما خط خاص يشبه مانسميه اليوم بالاختزال ، يقول عن اليونان : « ولهم قلم يعرف بالساميا ، ولا نظير له عندنا ، فإن الحرف الواحد يحيط بالمعانى الكثيرة ، ويجمع عدة كلمات » و « جاءنا من بعلبك فى سنة ٤٨ (أى ٣٤٨ هـ) رجل زعم أنه يكتب بالساميا ، فجربنا عليه ما قال ، فأصبناه إذا تكلمنا بعشر كلمات أصغى إلينا ، ثم كتب كلمة ، فاستعدناها فأعادها بألفاظها » .

و « أن للصينيين قلماً تشبه مزيته مزية خط الساميا اليونانى ، ويسمى بكتابة المجموع » ، و « أن طالبا تعلم لدى **محمد بن زكريا الرازى** العربية ، كلاماً وخطا فى مدة خمسة أشهر حتى صار فصيحاً حاذقاً سريع اليد ، وقد استعمل قلم المجموع فى نقله لكتب جالينوس فى أقصر مدة عقب انتهائه من الدراسة العربية لدى الرازى » .

وفى حديثه عن الخطوط العربية يذكر « أنه يوجد فى خزانة المأمون كتاب بخط عبد المطلب بن هاشم جدّ النبى صلى الله عليه وسلم » وأورد نصه ، وذكر أنه يشبه خط النساء ، مما يوحى بأنه رآه رأى العين .

وأتى على تطور صناعة الورق فى القديم وحتى أيامه ، بكلام علمى صحيح ودقيق ، فقد كان الناس فى البدء يكتبون على الطين ، ومنه الخزف المحروق ، ثم النحاس والحجارة والخشب ، وورق الشجر ، والجلود ، والقرطاس المصرى من قصب البردى ، والحرير الأبيض ، والرق والطوب المصرى ، والفلجان وهو جلود الحمير الوحشية ، وجلود الجواميس والبقر والغنم ، وكَتَبَ العرب أيضاً على أكتاف الإبل ، واللخاف وهى الحجارة الرقاق البيض ، وعسب النخل ، والورق الصينى ويعمل من الحشيش ، والورق الخراسانى ويصنع من الكتان ، واختُرع فى أوائل الدولة العباسية .

وفى **الفن الثانى** أعطى تفصيلات وافية عن أسماء الشرائع المنزلة التى يعترف بها الإسلام ، وعددها ، وتحدث عن التوراة التى فى يد اليهود وأسماء كتبهم ، وأخبار علمائهم ومصنّفيهم ، وعن النصارى ومذاهبهم وعلمائهم وكتبهم ، ويعطى تصوراً واضحاً لرأى المسلمين فى ذلك الوقت فى هذه الكتب من حيث الصحة والتوثيق .

ويشير إلى أن صحف إبراهيم كانت لدى الصابئين ، وأن أحمد بن عبد الله ابن سلام مولى هارون الرشيد ترجمها إلى اللسان العربى ، وكان أحمد هذا عارفاً بالعبرانية واليونانية والصابئية علاوة على العربية .

وأوقف **الفن الثالث** كله على القرآن الكريم ، من حيث نزوله ، وخطه ، وترتيب آياته فى المصاحف المختلفة ، وجمعه على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وجُماعه وقرّائه وعلومه ، والقراءات المختلفة ، الشائع منها والشاذ ، وأخبار العلماء الذين اهتموا به ، قراءة أو تفسيراً ، والكتب المؤلفة فى هذا كله .

● **المقالة الثانية** ، وجاءت فى ثلاثة فنون أيضاً :

الفن الأول فى أخبار النحو والنحويين واللغويين من **البصريين** ، وفصحاء العرب وأسماء كتبهم ، والآراء المختلفة التى وردت فى شأن نشأة النحو ، وعلى يد من ، ويميل النديم إلى أنه **أبو الأسود الدؤلى** بإشارة من **الإمام على** رضى الله عنه ، وعن الذين أخذوا عنه وأخبارهم ، ورغم أهمية المعلومات التى يقدمها لنا ليس سهلاً أن نتصور أن الأمر تم بالبساطة التى ذكرها ، وأنْ يولد علم على هذا النحو الدقيق المنطقى الكامل ، دون سابق معرفة بالنحو وقواعده ومباحثه فى اللغات الأخرى .

الفن الثانى فى هذه المقالة فى أخبار العلماء من النحويين واللغويين من **الكوفيين** ، ويجعل القراء منهم ، على حين جاء **الفن الثالث** فى أخبار العلماء من النحويين وماصنفوه من الكتب ، ممن **خلط** بين المذهبين ، وضمّنه « أسماء قوم من جماعة لا تعرف أسماؤهم وأخبارهم على الاستقصاء » ، وألحق به قائمة بالكتب القديمة فى أخبار النحويين ، وفى غريب الحديث ، وفى النوادر ، وفى الأنواء .

● **المقالة الثالثة** ، وجاءت فى ثلاثة فنون أيضاً :

الفن الأول ، فى أخبار الإخباريين والنسابين وأصحاب السير والأحداث وأسماء كتبهم ، **والثانى** فى أخبار الكتاب المترسِّلين ، وصناع الخراج ، وأسماء كتبهم وأصحاب الرسائل ، وأسماء الخطباء والبلغاء ، والكتب المجمع على جودتها ، وألوان الكتابة ، **والثالث** فى أخبار الأدباء والندماء والمغنيين ، والصفادمة ، والصفاعنه ، والمضحكين ، والشطرنجيين ، وأسماء كتبهم ، وفيه قدّم مادة وفيرة عن كتب هشام الكلبى ، المتصلة بأخبار العرب فى الجاهلية ، والأحلاف ، والمآثر ،

والبيوتات ، والمنافرات ، والموؤدات ، وأخبار الأوائل ، ويعنى بهم أصحاب الكهف ، ورَفْع عيسى ، وحِمْيَر وبنى إسرائيل ، ومايتصل منها بأديان العرب فى الجاهلية ، وفيما قاربها ، وأخبار الإسلام ، والبلدان ، وأخبار الشعر وأيام العرب ، والأسمار والأخبار ونسب اليمن .

● **المقالة الرابعة** ، وهى فنان :

الفن الأول منهما تناول أسماء رواة القبائل ، وأشعار الشعراء الجاهليين والإسلاميين إلى أول دولة بنى العباس ، وامرأ القيس ، وزهيرا ، وأسماء الشعراء الذين عمل **أبو سعيد السكرى** أشعارهم ، وأسماء من ناقض جريرًا وناقضه جرير ، وأسماء أشعار القبائل التى عملها السكرى .

الفن الثانى فى أخبار العلماء وأسماء ماصنفوه من الكتب ، ويحتوى على أسماء الشعراء المحدثين وبعض الإسلاميين ، ومقادير ماخرج من أشعارهم إلى عصره . وتحدث عن النساء الحرائر والمماليك ، وأسماء الشعراء الكتاب ، والشعراء المحدثون ممن ليسوا بكتّاب بعد الثلاث مئة إلى عصر النديم . وأتى على ماصنف فى سجع الحمام وأنسابها ، وما وجده من الكتب المصنفة فى الآداب لقوم لم يعرف حالهم على الاستقصاء ، والرسائل التى لم يجر ذكرها بذكر أربابها .

● **المقالة الخامسة** ، وهى فى الكلام والمتكلمين ، وجاءت فى خمسة فنون :

الفن الأول ، فى ابتداء أمر الكلام والمتكلمين من المعتزلة والمرجئة وأسماء كتبهم . **والفن الثانى** فى أخبار العلماء وأسماء ماصنفوه من الكتب ، ويحتوى على أخبار متكلمى الشيعة الإمامية والزيدية . **والثالث** ويحتوى على أخبار متكلمى المجبرة ، وبابية الحشوية ، وأسماء كتبهم ، **والرابع** فى متكلمى الخوارج وأسماء كتبهم ، **والخامس** فى السيّاح والزهّاد والعبّاد والمتصوفة المتكلمين على الخطرات والوساوس . وفيه تحدث عن مذهب الإسماعيلية ، والكتب التى صُنعت فيه ، والحلاج ومذاهبه والحكايات عنه ، وأسماء كتبه والزيدية .

● **المقالة السادسة** ، فى أخبار العلماء وأسماء ماصنّفوه من الكتب فى أخبار الفقهاء ، وهى ثمانية فنون :

الفن الأول ، فى أخبار المالكية وكتبهم ، **والثانى** فى أخبار أبى حنيفة وأصحابه العراقيين أصحاب الرأى ، وأسماء ماصنفوه ، **والثالث** فى أخبار الشافعى

وأصحابه ، **والرابع** فى أخبار داود وأصحابه ، **والخامس** فى فقهاء الشيعة وأسماء ماصنفوّه من الكتب ، وحديث عن الكتب المصنفة فى الأصول والفقه وأسماء الذين صنفّوها . **والسادس** فى أخبار فقهاء أصحاب الحديث ، **والسابع** فى الطبرى وأصحابه ، **والثامن** فى فقهاء الشراة .

● **المقالة السابعة** ، وتحتوى على أخبار الفلاسفة والعلوم القديمة ، والكتب المصنفة فيها ، وهى ثلاثة فنون :

الفن الأول فى أخبار الفلاسفة الطبيعيين ، والمنطقيين ، وأسماء كتبهم ونقولها وشروحها والموجود منها ، وماذكر ولم يوجد ، وماوُجد ثم أُعدم ، وأسماء النقلة من اللغات الأخرى إلى اللسان العربى ، من الفارسى إلى العربى ، ومن الهندية والنبطية إلى العربى ، وأول من تكلم فى الفلسفة : أفلاطون ، وأخبار أرسطاليس وكتبه ، فى حديث مفصل ، وكتب المنطق والحسابيات ، والموسيقا ، والهندسة ، والفلك ، والطب ، والأحكام ، والجدل ، والنفس ، والسياسة ، والأحداث ، والرأى .

الفن الثانى ، ويحتوى على أخبار المهندسين والرياضيين والموسيقيين والمنجمين ، وصناع الآلات ، وأصحاب الحِيَل ، والحركات . **والثالث** ، فى أخبار الأطباء القدامى والمحدثين وأسماء ماصنّفوه من الكتب ، وعرض لابتداء الطب وأول من تكلم فيه من اليونانيين ، وأسماء أشهر الأطباء عندهم ، وحديثاً عند العرب و « ثبت الستة العشر الكتب التى يقرأها المتطببون على الولاء » والكتب الخارجة عنها ، ثم المحدثون منهم ومؤلفاتهم .

وإلى جانب الكتب والأخبار التى يقدمها لنا نقع على صفحة زاهية من تقدم الطب العربى ووسائله ، وطرائقه ، وبعضها يتفق مع القواعد العلمية الحديثة . ونعرف أن بغداد وحدها كان فيها على أيامه قرابة ثمان مئة طبيب ، وأن **الخليفة المقتدر** العباسى عيّن **سنان بن قرّة** الحرانى رئيساً لأطباء بغداد ، وأصدر قراراً بألاّ يمارس مهنة الطب إلاّ من يحمل شهادة وإذنا من كبير الأطباء سنان .

● **المقالة الثامنة** ، فى أخبار العلماء فى سائر العلوم القديمة والمحدثة ، وأسماء ما صنّفوه من الكتب ، وهى ثلاثة فنون :

الفن الأول ، فى أخبار المسامرين والمخرِّفين وأسماء الكتب المصنّفة فى الأسمار

والخرافات ، وما ترجم منها عن الفرس والهند والروم ، وأسماء كتب ملوك بابل وغيرهم من ملوك الطوائف وأحاديثهم ، وأسماء العشّاق الذين عشقوا فى الجاهلية والإسلام ، وماأُلّف فى أخبارهم ، وأسماء العشّاق من سائر الناس ، والحبائب المتطرفات ، وأسماء العشاق الذين تدخل أحاديثهم فى السمر ، وعشّاق الإنس للجن والعكس .

وتضمن حديثاً وافياً عن الكتب المؤلفة فى عجائب البحار حتى أيامه .

الفن الثانى فى أخبار العلماء ، وأسماء ما صنفّوه من الكتب ، ويحتوى أخبار المُعزِّمين والمشعبذين والسحرة ، وأصحاب النبربخيات والحيل والطلاسم .

الفن الثالث عن كتب مصنّفة فى معانٍ شتى لايُعرف مصنفوها ولا مؤلفوها ، كأحاديث البطّالين ، وأسماء خرافات تعرفُ باللقب ، وأسماء قوم من المغفلين ألفت الكتب فى نوادرهم ، ومن أشهرهم جحا . وتضمن هذا الفصل قائمة بأسماء الكتب المتصلة بالجنس ، أو على حد تعبير النديم نفسه ، « المؤلفة فى الباه الفارسى والهندى والرومى والعربى ، وفى الخيلان ، والاختلاج ، والشامات ، والأكتاف » والكتب المؤلفة فى الفأل والزجر والحزر ، وفى الفروسية وحمل السلاح وآلات الحروب والتدبير ، عند جميع الأمم ، وفى البيطرة وعلاج الدواب ، وصفات الخيل ، واختياراتها فى الجوارح واللعب بها ، وعلاجاتها ، عند الفرس والروم والترك والعرب .

وحديث عن المؤلفات فى المواعظ والآداب والحكم للفرس والروم والهند والعرب ، مما يُعرف مؤلفه أو لا يعرف ، وفى تعبير الرؤيا ، والعطر ، والطبيخ ، وفى السمومات والصيدلة ، وفى التعاويذ والرقى .

● **المقالة التاسعة** ، وجاءت فى فنين :

الفن الأول منها فى أخبار العلماء وأسماء ما صنعوه من الكتب ، ويحتوى على وصف مذاهب الحرنانية الكلدانيين المعروفين بالصابئة ، ومذهب الثنوية الكلدانيين وأعيادهم ، وطرائفهم ، وشىء من تاريخهم ، والمانوية ومذهبهم ، وأتى عليه تفصيلاً ، وذكر تنقلهم فى البلدان ، ورؤساؤهم قديماً وحتى أيامه ، ورؤساؤهم الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الزندقة ، وأسماء الفرق بين زمنى عيسى ومحمد ، من الحرميّة والمزدكية والبابكية والسمنية والمسلميّة .

الفن الثانى فى المذاهب والاعتقادات ، لأهل الهند والصين وماصاقبها .

● **المقالة العاشرة** ، فى أخبار العلماء فى سائر العلوم القديمة والحديثة ، وأسماء ماصنّفوه من الكتب ، وهى آخر الكتاب ، وتضم أخبار الكيمائيين والصنعويين من الفلاسفة القدماء والمحدثين .

وفى هذه المقالة قدم لنا بعض المعلومات عن الأهرام المصرية ، وأشياء وتماثيل بعضها مغطى من ذهب أتى عليها الزمان ، ويذكر « أنه لم يتمكن من صعوده سوى هندى واحد كان مثار العجب فى عصره » ، أما الآن ، فى زمننا هذا ، فقد أصبح الصعود إلى قمة الهرم أمراً عادياً ، يمارسه هواة أو محترفون مدربون عليه ، يرتقون إلى قمته فى دقائق ، وفى أقل منها يهبطون إلى الأرض ، ويثبون على صخوره المهندسة الضخمة الهائلة وثوب السعدان ، ويبلغون أعلاه فى خمس دقائق ، ويعودون فى دقيقة ، على حين يحتاج الرجل العادى إلى نصف ساعة تقريباً ، ولم تفته أن يلحظ أن الخطوط التى على آثار مصر مجهولة ، لا يستطيع أحد قراءتها ، رغم قرب العهد بزمانها ، وظلت كذلك إلى أن فكت طلاسم حجر رشيد فى القرن الماضى ، فكان طريقنا إلى قراءتها .

كان النديم فيما يبدو يدوّن مايتجمع لديه من معلومات أو تراجم أوّلا بأول ، فإذا لم تكتمل له الترجمة أو الخبر أبقى له بياضاً ، رجاء أن يأتى وقت يكمله فيه فينتظم شمل الكتاب كله ، وكأن المنية عاجلته قبل أن ينجز ماأحب .

وهو إذا لم يقتنع بأى أمر صرّح برأيه فيه ، كما فعل مع رواية من زعم أن للحسن بن على بن زيد نحوا من مئة كتاب ، وهو منصف فى رواياته ، يتحرى الحق والحقيقة على قدر اجتهاده وفهمه ، فإذا غمض لديه أمر ولم يقتنع به ذكر ذلك صراحة ، وإذا نقصت معلوماته فى شىء أوكل تمامها لمن يجيئون بعده ، وإذا التقى بمادة مكملة بعد فراغه من كتابة الفن أضافها فى آخره ، وأشار إلى المكان الذى تضاف إليه ، كقوله فى الفن الخامس من المقالة السادسة ، وهو يتحدث عن فقهاء الشيعة ، فقد ختمه بفقرة عن « آل يقطين » ثم أضاف تحت العنوان مباشرة : « يلحق بموضعه الأول » .

وتراجم العلماء فى الفهرست متفاوتة ، بعضها لا يتجاوز سطرًا واحداً تحت العنوان مثل : « معلم بن العميد ، واسمه محمد بن على بن سعيد وله من الكتب

كتاب أخبار العباسيين » ، وقد تقتصر على سطرين كترجمة حفصوية ، وكان من أوائل كُتّاب الخراج ، وقد تمتد إلى صفحتين ونصف من القطع الكبير الذى صدرت فيه طبعة فلوجل . وهو حين يعرض للتعريف بالعلماء يأتى على الكتب التى ألفوها ، ويأتى بهم ، تحت عنوان : « أخبار .. » .

اعتمد النديم فى جمع مادته على مصادر كثيرة ، سوف نقف عند الأهم منها ، ونشير إلى الباقى لماماً . يأتى فى مقدمة مصادره الأساسية :

● مؤلفات المدائنى ، أبو الحسن على بن محمد ، المتوفى عام ٢٣٥ هـ = ٨٥٠ م ، وكان مؤرخاً واسع المعرفة ، متعدد الجوانب ، وأورد له النديم نفس أسماء ٢٣٩ مصنفاً ، بين كتاب ورسالة ، فى سيرة النبى عليه الصلاة والسلام ، وفى تاريخ قريش وبعض القبائل ، وفى المغازى والفتوح ، وأرخ للخلفاء ، وترجم لبعض الأشخاص ، واعتمد عليه كثير من المؤرخين الذين جاءوا بعده ، مثل : البلاذرى والطبرى ، وياقوت ، وللأسف ضاعت مؤلفات المدائنى كلها ، ولم يصلنا منها سوى الجزأين الأول والثانى من كتابه المغازى ، ومانقل عنه الآخرون .

● مؤلفات ابن الكوفى ، أبو الحسن على بن محمد ، المتوفى عام ٣٤٨ هـ = ٩٦٠ م ، وكان من جمّاعى الكتب ، وأصحاب الهوى فيها ، وجمع مكتبة حافلة ، تفرقت بعض مجلداتها فى العالم ، وكانت موجودة فى عصر القفطى وياقوت ، لكن إسهاماته مؤلفاً كانت قليلة ، ولم يذكر له النديم غير كتابين لا نعرف عنهما شيئاً ، وهما : « معانى الشعر واختلاف العلماء » و « كتاب القلائد والفرائد فى اللغة والشعر » ، وأضاف إليهما ياقوت ثالثا عن « الهمز » ، ويقول إنه اطلع على نسخة منه بخط المؤلف .

أفاد النديم من مكتبة ابن الكوفى الكبيرة ، فى نقل أسماء الكتب التى أوردها ، ولعله أفاد أيضاً من الملاحظات المختلفة التى وجدها على هوامش صفحات هذه الكتب ، أو فى كراسات تتضمن تعليقات عليها ، ومن المؤكد أنه أفاد من فهارسها ، ويشير نفسه إلى أنه نقل مؤلفات المدائنى من كتاب بخط ابن الكوفى ، كما أخذ عنه تراجم مجموعة من العلماء ، أو على حد تعبيره « طائفة أصبنا ذكرهم بخط ابن الكوفى » ، ويذكر أيضاً أنه قرأ كراسا له به ملاحظات لغوية وأدبية وتاريخية .

● واعتمد على **مصادر أخرى** يشير إليها فى كتابه بين حين وآخر ، ولكن أغلبها لم يصلنا ، فقد اقتبس كثيراً من كتاب أخبار النحويين لأبى سعيد السيرافى ، واعتمد على أبى الفرج الأصفهانى ، وعلى كتاب لثعلب بخط ابن مقلة ، المتوفى ٣٢٨ هـ = ٩٤٠م، شيخ الخطاطين فى عصرهم وحتى أيامنا ، وعلى أبى الفتح النحوى ، وعلى كتاب أخبار علماء الكوفة لأبى الطيب أخى الإمام الشافعى ، وعلى قوائم الكتب المختلفة فى أيامه ، وكتب أخرى تاريخية ، وفى الفرق والأديان ، وفى الطبيعيات ، مترجمة أو لباحثين عرب ، وكما نعرف منه كانت مكتبة جعفر بن الخليفة المتوكل ، والمتوفى عام ٣٢٠ هـ = ٩٣٢ م ، تضم كتاباً بخط مصنفه ، يتناول المعارف الطبيعية عند العرب ، وربما عند اليونان أيضاً ، وأفاد من تاريخ الأطباء لإسحاق بن حنين ، وهو كتاب وصلنا ، ونشره وترجمه إلى اللغة الإنجليزية المستشرق الألمانى فرانز روزنتال .

ينقل النديم معلوماته عن كتب غالباً ، وهو يشير إلى ذلك صراحة فى عبارات مختلفة ، كأن يقول : « قرأت بخط ... » ، أو « من خط ... » ، ويدقق أحياناً ، ويؤكد على روايته ، فيذكر : « قرأت بخط أبى على بن مقلة ماهذا نسخته ، أوردته على ترتيبه ، وبلفظه اقتضاء هذا الكتاب » . وفى أحايين قليلة يقول : « قال ... » ، وتعنى سمعت ، فإذا تلقى الخبر عن طريق رواية خاصة ، ذكر : « حدثنى ... » .

* * *

لدينا من **مخطوطات الكتاب** عدد لابأس به ، وتوجد فى أمكنة مختلفة من العالم ، وسنأتى عليها فيما يلى :

١ - نسخة فى مكتبة كوبريلى الوطنية فى استنبول تحت رقم ١١٣٤ ، فى ١٧٩ ورقة ، ولا تحمل تاريخ نسخها ، ويرجح أنها ليست قديمة جداً .

٢ - نسخة أخرى فى المكتبة نفسها ، تحت رقم ١١٣٥ ، فى ١١٨ ورقة ، ونسخت عام ٦١٠ هـ (١٢١٣ م) .

٣ - مخطوطة فى المكتبة الوطنية فى باريس تحت رقم ٤٤٥٧ ، فى ٢٣٧ ورقة ، ونسخت عام ٦٢٧ هـ (= ١٢٣٠ م) .

٤ - نسخة أخرى فى المكتبة نفسها ، تحت رقم ٤٤٥٨ ، فى ٢٤٦ ورقة ، وهى

نسخة حديثة ، منقوله عن المخطوطة رقم ١ فى تصنيفنا هذا .

٥ - نسخة فى مكتبة ڤيينا ، تحت رقم ٣٣ ، فى ١١٦ ورقة ، منقولة عن المخطوطة رقم ٢ فى تصنيفنا هذا ، ونسخت عام ١٨٤٠ م .

٦ - نسخة أخرى ، فى المكتبة نفسها ، تحت رقم ٣٤ ، فى ١٦٧ ورقة ، منقولة عن المخطوطة رقم ٢ فى تصنيفنا هذا .

٧ - نسخة فى مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت بالمدينة المنورة ، تحت رقم ٤٨٨ .

٨ - مخطوطة فى مكتبة تطوان ، فى المغرب الأقصى .

٩ - نسخة فى المكتبة التيمورية فى دار الكتب المصرية ، تحت رقم ١١٠ .

١٠ - نسخة فى مكتبة وزارة الأوقاف العراقية فى بغداد ، تحت رقم ٧٨٤ .

١١ - أوراق فى مجموع ، فى مكتبة ليدن فى هولندا ، تحت رقم ٢ ، وتشغل الأوراق من ٢٤٧ إلى ٢٥٤ ، وتتضمن جزءا بسيطاً من كتاب الفهرست ، ابتداء من المقالة السابعة .

١٢ - نسخة فى المكتبة السعيدية ، فى تونك راجستان فى الهند ، وهى الوحيدة التى تحمل عنوان « فوز العلوم » ، وهى ناقصة ، فى ٤٤ ورقة ، وتعود إلى القرن الحادى عشر للهجرة ، وتبدأ بعد البسملة بشعر جحظة :

إذا ما ظمئت إلى ريقه　　جعلت المدامة منه بديلاً

وتليه ترجمة الكاتب اليونانى فلوطرخس Plutarchus (٥٠ - ١٢٥ م) ، وتنتهى بالعبارة التالية : « تم الجزء الثانى من كتاب الفهرست بعون الله ولطفه ، ويتلوه إن شاء الله تعالى فى الجزء الثالث أخبار يحيى النحوى ، وكتبه حسن ابن عبد الله سبط يحيى الجوهرى ، والحمد لله رب العالمين » .

١٣ - نسخة مكتبة تشستر بيتى فى دبلن عاصمة إيرلندا ، تحت رقم ٣٣١٥ ، فى ١١٩ ورقة ، من القرن الخامس الهجرى ، وهى منقولة عن نسخة للمؤلف ، ومسطرتها ٣٠ سطراً ، وتحتوى على المقالات الأربع الأولى ، ونبذة من أول المقالة الخامسة تنتهى بترجمة الناشىء الكبير ، وعبارة : « على ماحدثنى به ابن الجنيد » .

ويوجد فى المقالة الأولى من هذه النسخة خرم كبير ، حيث سقط منها مايقرب

من أربع عشرة صفحة ، تبتدئ بحديث المؤلف عن « القلم العبرانى » ، وتنتهى بأخبار « عبد الله بن عامر اليحصبى » ، وعبارة : « أحد السبعة ، ويكنى أبا عمران ، يقال إنه أخذ .. » .

ويوجد فى القسم الأعلى من الصفحة الأولى لهذه النسخة مستطيل كتب فيه بالخط النسخى الجميل : « كتاب الفهرست للنديم » ، وتحتها عبارة الواقف فى سبعة أسطر جللّ السواد بعض كلماتها ، ويتبيّن منها أن هذه النسخة كانت ملك **أحمد باشا الجزار** حاكم فلسطين خلال حملة نابليون بونابرت على مصر وفلسطين ، وأنه أوقفها على **جامع عكا** بفلسطين ، على ألاّ تخرج منه ، ونص الوقفية : « وقف لله تعالى . أو قف وحبس وتصدق بهذا الكتاب الحاج أحمد باشا الجزار ، فى جامعه المبارك بعكا ... نور الأحمدية على طالب العلم ... بخطه وقفا صحيحا ... » . وجاء فوق السطر الثالث ، أعلى اسم أحمد باشا الجزار ، العبارة التالية ، بخط آخر : « ابتعناه ... أحمد بن على المقريزى ، سنة ٨٢٤ هـ » ، وهذه العبارة كُتبتْ زمن المقريزى نفسه ، وهو المؤرخ المصرى الشهير ، وقد توفى عام ٨٥٤ هـ = ١٤٥٠ م .

وعلى هامش الصفحة نفسها من اليمين نجد العبارة التالية : « مؤلف هذا الكتاب أبو الفرج محمد بن أبى يعقوب الورّاق ، المعروف بالنديم . روى عن أبى سعيد السيرافى ، وأبى الفرج الأصفهانى ، وأبى عبد الله المرزبانى ، وآخرين ، ولم يرو عنه أحد . وتوفى يوم الأربعاء لعشر بقين من شعبان سنة ثمانين وثلثمائة ببغداد ، وقد اتهم بالتشيع ، عفا الله عنه .

وبعد الصفحة الأولى يبدأ متن الكتاب بقوله : « بسم الله الرحمن الرحيم .. استعنت بالله الواحد القهّار » ، وقد جلّل السواد التام القسم الأيمن وأكثر الكلمات فى هذه الصفحة .

وعلى الهامش ، وفى أسفل الصفحات ، توجد عبارات كثيرة ، مثل : « إلى هنا بخط المصنفّ » و « بغير خط المصنف » و « **عورض مع الأصل** » ، و « المصنف رحمه الله » و « المنقول من دستوره وبخطه وعورض » .

وقبل كل مقالة توجد صفحة منفصلة كُتب عليها الرقم الترتيبى وما يتعلق بها ، كالجزء ، ومحتويات المقالة ، ونموذج من خط المصنف .

والأخطاء فى هذه النسخة قليلة جداً ، وساعد العثور عليها على تصحيح الأخطاء الكثيرة التى وجدت فى النسخ التى اعتمد عليها **فلوجل** ، عند طبع الكتاب وسنشير إلى ذلك فيما بعد .

ظلت المخطوطة فى مسجد أحمد باشا الجزار فى عكا ، ثم تعرضت للسرقة بعد وفاته ، خلال الفتن العاتية التى اجتاحت المنطقة ، وانتقل نصفها من يد إلى يد ، حتى وقع بيد يهودى يدعى « يهودا » ، فباعه إلى جستر بيتى ، وهو الآن فى المكتبة التى تحمل اسمه فى مكتبة دبلن ، عاصمة إيرلندا .

١٤ – مخطوطة فى مكتبة شهيد على باشا فى استنبول ، تحت رقم ١٩٣٤ ، فى ١٨١ ورقة ، وتعود إلى القرن الخامس الهجرى ، ثم أضيف إليها ثلاثة أوراق فيما بعد .

فى صفحة المخطوطة الأولى ، من أعلى إلى اليمين ، توجد جملة « فى الأدبيات » ، وفوقها فى سطرين عبارة : « من ألطف نعم الله على عبده ولى الدين جار الله سنة ١٣١١ هـ ، وتحت هذه العبارة ختمان جلل السواد أحدهما ، وفى الثانى : « ولى الدين جار الله » .

وبعد هذه العبارة ، وفى الجهة نفسها ، كُتب فى شكل مخروطى : « ملكه العبد الفقير إلى عون الغفور الودود مسعود بن إبراهيم بن أمر الله بن عبدى ابن طورمش ، غفر الله له ولأسلافه ، ورضى عنهم ، بالشراء الشرعى بمدينة قسطنطينية المحروسة .

والصفحة الثانية بيضاء ، وفى الجهة اليمنى منها كتابة بالخط المكسر الفارسى الجيد : « كتاب فهرست أخبار العلماء والمحدثين لمحمد بن إسحق النديم » .

ثم يبدأ متن الكتاب فى الصفحة الثالثة ، وكتب فى أعلاها بخط نسخى جميل جداً كلمة « الواسطى » ، وفوقها بخط آخر ، وحبر مختلف : الفن الأول من المقالة الخامسة من الكتاب .

وفى إحدى الزوايا ختم مدور جاء فيه : « وقف هذا الكتاب أبو عبد الله ولى الدين جار الله ، بشرط ألّا يخرج من خزانة بناها بجامع سلطان محمد بقسطنطينية سنة .. » ، وجلل السواد تاريخ السنة ، ويبدو تحت الختم رقم ١٩٣٤ ، وهو رقم تسجيل مكتبة السليمانية فى استنبول .

وينقص هذه النسخة ترجمة الديصانية ، وسقط كبير من « مرقيونية » ، حيث يبدو مكانه صفحة بيضاء ، ولعل هذا هفوة من الناسخ ، كما جاء فى آخر حديثه عن المرقيونية .

وخط هذه النسخة يشبه خط نسخة جستر بيتى ، المذكورة فى رقم ١٣ ، إلّا أنه أكثر وضوحا ، وقد جاءت المواضيع فى بعض الصفحات بشكل عمودى .

ويرى **السيد تجدد الإيرانى** ، محقق الكتاب ومترجمه إلى اللغة الفارسية ، أن هذه النسخة متممة لنسخة جستر بيتى السابقة ، وإنهما كتبتا فى فترة واحدة ، للأسباب التالية :

● أن هذه النسخة تحتوى من المقالة السادسة وحتى العاشرة على صفحة مستقلة قبل كل مقالة ، يكتب فيها رقم الجزء ومحتويات المقالة ، كما فى نسخة جستر بيتى ، وأن الخطين متشابهين فى النسختين .

● وأنها تبتدئ المقالة الخامسة مباشرة ، دون أية مقدمات ، بترجمة الواسطى ، مما يرجح أن هذه بقية المقالة الخامسة التى ظلت ناقصة فى نسخة جستر بيتى ، ولاتسبقها كالعادة صفحة مستقلة ، لأنها موجودة فعلا فى أول المقالة الخامسة فى نسخة جستر بيتى .

● توجد كلمة « عورض » فى أسفل الصفحات فى النسختين .

ومن هنا يرى **السيد تجدّد** أن هاتين النسختين تتمم إحداهما الأخرى ، وأنهما يؤلفان نسخة واحدة .

وهو استنتاج جيد ، لايقلل من قيمته مايرد عليه من اختلاف حجم الورق فى كل واحدة منهما ، وتفاوت مسطرتيهما ، وتباين حجميهما ، فبينما يبلغ طول نسخة جستر بيتى ١٤ سم هو فى نسخة شهيد على ١١ ١/٢ سم فقط ، كما أن خط هذا أكثر إتقانا . وهو اعتراض وجيه ولكنه لايسقط رأى الباحث الإيرانى ، إذ يمكن القول إنهما مجلدان ، وأن نسخة جستر بيتى تمثل الجزء الأول ونسخة ، شهيد على تمثل الجزء الثانى . أو أن الناسخ غيّر الورق أثناء النسخ لسبب أو لآخر ، أو أن الناسخ نفسه تغير لأمر طارئ .

❊ ❊ ❊

كانت **الطبعة الأولى** لكتاب الفهرست من عمل المستشرق الألمانى **فلوجل** ،

وهو أول من اهتم به فى عصرنا الحديث ، بعد أن أمضى خمسة وعشرين عاما يبحث عن مخطوطاته وأخباره ، والحصول على متنه كاملا ، وتحقيقه وشرحه ، وقبل أن يحقق الغاية من الكتاب أسلم روحه فى ٥ يولية من عام ١٨٧٠ م ، ولما يطبع منه غير ست ورقات ، فرغب ابنه إلى عالمين « ألمانيين مستشرقين من أصدقاء أبيه ، هما : يوهانس روديجر وموللر أن يكملا المهمة ، فأشرف أولهما على طبع الكتاب وتصحيحه ، وأشرف الثانى على جمع الشروح والهوامش ، وصدر الكتاب فى ليبزج فى مجلدين ، عامى ١٨٧١و ١٨٧٢ م ، فى ٣٦٢ صفحة من القطع المتوسط تتضمن المتن ، إلى جانب ٣٤ صفحة فى اختلاف الكلمات والجمل . وصدر المجلد الثانى فى نفس القطع ، وجاء فى ٢٧٧ صفحة ، ويضم التعليقات ، وتراجم لبعض الشخصيات التى وردت فى الكتاب ، وبعض زيادات على المتن ذات فائدة كبيرة .

اعتمد فلوجل فى تحقيقه على المخطوطات أرقام : ٣ و ٥ و ٦ و ١١ من تصنيفنا ، وكانت مخطوطة شهيد على باشا ، وهى رقم ١٤ فى تصنيفنا ، أمام ناظريه ، ولكنه لم يعتمد عليها اعتمادا مباشرا ، أما بقية المخطوطات فلم يرها أو لم يفد منها على الإطلاق إنْ كان قد عرفها .

ولأن الكتاب طبع بعد وفاة محققه ، لم يقم المشرفان بعملهما كما يجب، ولم يؤديا المهمة بدقة ، أو لعل قدراتهما العلمية لم تساعدهما على أكثر مما فعلا ، فوقعت فى الكتاب أخطاء كثيرة فى المتن ، حتى أن بعض الصفحات فى مخطوطة شهيد على كُتبت بطريقة عمودية ، فقرآها خطأ بصورة أفقية ، وجاءت كلمات مرصوصة غير مفهومة .

ولم تكن الكتب العربية التى تنشر فى أوربا يومها تطبع بكميات كبيرة أو تجارية ، وإنما يقتصرون فيها على ماهو ضرورى لأبحاث المستشرقين أنفسهم ، فى البلاد الأوربية المختلفة ، ومن ثم نفدت هذه الطبعة الأوربية فى زمن وجيز ، **فطبع الكتاب ثانية فى القاهرة** ، فى المطبعة الرحمانية عام ١٣٤٨ هـ = ١٩٣٠ م ، وهى إعادة لطبعة فلوجل، بعد أن أضافوا إليها فى آخر الكتاب خمس ورقات تحتوى على التعريف الناقص ببعض رجال المعتزلة، تبدأ بحياة واصل بن عطاء وتنتهى بشيطان الطاق. وكان المستشرق الهولندى هوتسما Houtsma قد نشرها فى مجلة WZKM عام ١٨٨٩م، ووقع عليها **أحمد تيمور باشا** فأشار بإضافتها إلى الطبعة الأوربية.

وكانت **الطبعة الثالثة** فى طهران ، بتحقيق **رضا تجدد** ، وجاءت فى ٦١٧ صفحة من القطع الكبير ، واعتمد على المخطوطات رقم ١٢ و ١٣ و ١٤ من تصنيفنا ، ومستفيدا من طبعة فلوجل ، وأشار إلى الاختلافات الموجودة بينها وبين المخطوطات التى اعتمد عليها فى أسفل نسخته ، ورمز لها بحرف « ف » ، وأورد العبارات الزائدة فى النسخة الأم عن طبعة فلوجل بين قوسين ، والتى زادت فى طبعة فلوجل عن النسخة الأم بين قوسين أيضا ، ولكنه كتبها بحرف أسود مختلف عن الأصل، وزاد ما وقع فى أواخر المقالة الرابعة، وأوائل المقالة الخامسة، مما يتعلق بالمعتزلة من تكملة الفهرست التى أشار بها أحمد تيمور باشا ورمز لها بالحرفين « تك » ، ووضعها فى مكانها من حواشى ذلك الفصل .

* * *

حين ننظر إلى **قيمة كتاب الفهرست** نجده من أهم كتب التراث العربى ، وأكثرها شمولا ، ولما كان المؤلف ، وأبوه من قبل ، يمارسان مهنة الوراقة ، فقد سهل له هذا أن يغشى مكتبات الوزراء والأعيان الحافلة بالكتب القيمة ، وأتاح له أيضا أن ينقل خلاصة لها أثناء نسخها أو تجليدها ، وأن يحاول تحديد قيمتها المادية والعلمية، وأن يتحدث إلى من يجالس من العلماء بأخبارها، وأن يسمع رأيهم فيها.

وقد مكنته حرفته أيضا أن يستوعب مادته جيدا ، ويتجلى ذلك واضحًا فيما عرف من فنون العلم ، و « تحققه بجميع الكتب » على حد تعبير ياقوت ، وحفظ لنا أسماء مئات من الكتب المفقودة ، ذهبت بها النكبات المختلفة التى اجتاحت العالم الإسلامى ، ولاسيما غزو التتار لبغداد ، ولولا كتاب الفهرست ماوقفنا على أسمائها ، ولاصفاتها ، ولضاعت معالمها إلى الأبد ، ومؤلفات **هشام الكلبى** المتوفى عام ٢٠٤ هـ = ٨١٩ م فى تاريخ عرب الجاهلية خير شاهد على هذا ، فقد أورد له : طسم وجديس ، وأقيال حمير ، وكتاب عدى بن زيد العبادى ، وملوك كندة ، وملوك اليمن من التبابعة ، وكتاب افتراق ولد نزار ، وكتاب تفرق الأزد ، وكتاب عاد الأولى، وغيرها. وقد ضاعت كلها، ولم يصلنا شىء منها، ولكن الذين جاءوا بعد هشام الكلبى فى عصره أفادوا منها ، وبخاصة **الهمدانى** المتوفى عام ٣٣٤ هـ = ٩٥٥ م ، فى كتابيه : الإكليل ، وصفة جزيرة العرب .

يقول **جستر بيتى** : « ليس كتاب الفهرست كتابا تاريخيا أو أدبيا أو علميا

فحسب ، وإنما هو دائرة معارف زمنه ، وقام بما تقوم به الآن لجان من العلماء والفضلاء المبرزين ، وتحت إشراف الجامعات والحكومات غالبا ، كدائرة المعارف البريطانية ، أو لاروس الفرنسية ، أو لغت نامه (دهخدا) الإيرانية ، ويكفى أن تطالع كتابه لتعرف مدى مابذل من جهد ، ومايملك من عبقرية وعلم ، وإحاطة تامة بمعالم عصره » .

وفى كتاب الفهرست مادة علمية جيدة عن المكتبات فى العالم القديم ، وجاء حديث النديم عنها شيقا ودقيقا بحكم أنه ينتمى إلى المهنة نفسها ، ويعرف أسرارها ، وعرض لها فى أمكنة متفرقة من الكتاب ، وتقدم مادة طيبة لمن يريد أن يؤرخ لهذه المهنة ، فى هذه الفترة المبكرة من حياة الدولة الإسلامية .

فهو يذكر أن أول من أنشأ مكتبة علمية زاخرة هم الإيرانيون ، وكان مقرها مدينة أصفهان لجودة هوائها ، وكانوا يسمونها فى لغتهم « ساروية » ، وبقى بناء هذه المكتبة إلى زمن أبى معشر ، نجيح بن عبد الرحمن السندى المتوفى ١٧٠ هـ = ٧٨٦ م ، وحينما تهدّمت وُجدتْ بها أصنافٌ من علوم الأوائل بالخط الفارسى القديم . وشاهد النديم لدى أبى الفضل بن العميد سنة ٣٤٠ هـ كتبا مُقطَّعة منها فى صناديق باللغة اليونانية ، وفيها أسماء الجيش ومبلغ أرزاقهم ، وكانت نتنة ، فلما مكثت فى بغداد حَوْلًا جَفَّت وتغيَّرت ، وزالت الرائحة منها ، وذكر أن شيئا لايزال منها عند شيخه أبى سليمان .

ويحدثنا النديم أيضا عن رجل كان بمدينة الحديثة ، يُقال له محمد بن الحسين ، ويعرف بابن بعرة ، جمّاعة للكتب ، له خزانة لم ير لأحد مثلها كثرة ، تحتوى على قطعة من الكتب العربية فى النحو واللغة والأدب والكتب القديمة ، وأنه لقى هذا الرجل دفعات فأنس إليه ، وكان نفورا ضنينا بما عنده ، خائفا من بنى حمدان ، وأخرج له قمطرا كبيرا ، فيه نحو ثلثمائة رطل : جلود فلجان ، وصكاك ، وقرطاس مصرى ، وورق صينى ، وورق تهامى ، وجلود أدم ، وورق خراسانى ، فيها تعليقات عن العرب ، وقصائد مفردات من أشعارهم ، وشىء من النحو والحكايات والأخبار والأسماء والأنساب وغير ذلك من علوم العرب وغيرهم .

ويذكر أن رجلًا من أهل الكوفة - ذهب عنه اسمه - كان مشتهرا بجمع الخطوط القديمة ، وأنه لما حضرته الوفاة خصه بذلك لصداقة كانت بينهما ، وأفضال

من محمد بن الحسين عليه ، ومجانسة المذهب ، فإنه كان شيعيا ، فرآها وقلّبها فرأى عجبا ، إلّا أن الزمان قد أخلقها ، وعمل فيها عملاً أدرسها ، وأحرفها ، وكان على كل جزء ، أو ورقة ، أو مدرج ، توقيع بخطوط العلماء ، واحدا إثر واحد ، فذكر فيه خط من هو ، تحت كل توقيعٍ توقيع آخر ، خمسة أوستة من شهادات العلماء على خطوط بعض لبعض ، ورأى فى جملتها مصحفا بخط **خالد بن أبي الهياج** صاحب عليّ رضى الله عنه ، ثم وصل هذه المصحف إلى **أبي عبد الله ابن حامى** رحمه الله ، ورأى فيها بخط الإمامين الحسن والحسين ، ورأى عنده أمانات وعهودا بخط أمير المؤمنين على عليه السلام ، وبخط غيره من كتّاب النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن خطوط العلماء فى النحو واللغة مثل : أبى عمرو بن العلاء ، وأبى عمرو الشيبانى ، والأصمعى ، وابن الأعرابى ، وسيبويه والفرّاء والكسائى ، ومن خطوط أصحاب الحديث مثل سفيان بن عُيَيْنة ، وسفيان الثورى ، والأوزاعى وغيرهم .

كان النديم ورّاقا ممتازا ، جيد التفكير ، واسع الاطلاع ، عميق النظر ، ثقة فى روايته ودرايته ، حاول أن يتحرَّى الحق والحقيقة على قدر اجتهاده وفهمه ، فإذا غُمَّ عليه أمر ولم يقتنع به ذكر ذلك صراحة ، وإذا نقصت معلوماته فى شيء أَوْكل تمامها لمن يجيئون بعده .

ومع ذلك جاءت أخباره فى بعض المواضع متناقضة ، كأخباره عن حماد الراوية مثلا ، ربما لأنه كان يتلقاها من مصادر مختلفة متناقضة ، ولم تواته الفرصة ليمحصها ، ويصل إلى كلمة الحق فيها . أو اختلط أمرها عليه رغم التمحيص والمحاولة ، ومن هنا يجد الباحث نفسه مضطرا ، بين حين وآخر ، إلى أن يرفض له رأيا ، أو زعما ، أو مقولة ، دون تردد .

كذلك أهمل بعض الكتب فلم يذكرها ، رغم أهميتها البالغة ، وشهرة مؤلفيها ، ومعرفته بهم ، وإيراده لهم مؤلفات أخرى كثيرة ، والمثل الواضح لهذا « كتاب ذكر المسافات والأقاليم » لأبى زيد البلخى ، أحمد بن سهل ، المتوفى عام ٣٢٢ هـ = ٩٣٤ م ، فقد أهمله تماما رغم أنه أورد له أسماء ثلاثة وأربعين مصنّفا غيره ، لم يصلنا منها سوى « كتاب مصالح الأبدان والأنفس » ، ولمّا يزل مخطوطًا فى مكتبة أياصوفيا .

وهذا الكتاب الذى أهمله بالغ الأهمية ، وتختلف أسماؤه باختلاف المصادر التى تعرض له ، فهو مرة « صور الأقاليم » ، وأحيانا « أشكال البلاد » وأخرى « ذكر المسافات والأقاليم » ، وتارة « تقويم البلدان » ، وقد ألفه البلخى فى شيخوخته حوالى عام ٣٠٨ هـ = ٩٢٠ م ، وهو فى أساسه كتاب خرائط ، وربما أقيم على أساس أطلس إسلامى أقدم تأليفا ، وكان محفوظا فى مكتبة كليدار[1] الامام ، وهو الأساس الذى قامت عليه المدرسة الجغرافية العربية القديمة .

ويدل التباين فى عنوان الكتاب على أنه لم يكن معروفا فى صورته الأصلية على نحو واسع حتى فى عصر المؤلف ، وقد قدم لنا الجغرافى **المقدسى** ، الذى عاش بعد البلخى بنحو قرن ونصف من الزمان ، تعريفا جيدا وموجزا به ، وكان **ياقوت الحموى** يعرفه ولكنه اقتصر على الإشارة إلى مؤلفه وحده .

وقد كان الظن حتى عهد قريب جدا أن الكتاب مفقود ، ولكن مخطوطته عثر عليها أخيرا . وتوجد فى مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت فى المدينة المنورة ، وبها رسوم وخرائط ملوّنة ، وتعد ذخرا لايقدر بثمن ، ولعل أحد علمائنا فى الجغرافيا يقوم على تحقيقها ، فيلقى ضوءًا كاشفا على إنجازات العرب الأولى فى علم الجغرافيا .

لانعرف أحدا فى عصر النديم ، أو ماتلاه ، احتذى منواله ، واستخدم عنوان كتابه ، غير أبى جعفر محمد بن حسن **الطوسى** ، المتوفى عام ٤٦٠ هـ = ١٠٦٨ م ، فقد وصلنا كتابه « الفهرست » ، وطبع فى المطبعة الحيدرية فى النجف الأشرف عام ١٣٥٦ هـ = ١٩٣٧ م . ويذكر حاجى خليفة كتابا ثالثا يحمل عنوان « فهرست العلوم » ألفه حافظ الدين محمد العجمى ، المتوفى ١٠٥٥ هـ = ١٦٤٥ م ، ولا أعرف عنه شيئا غير هذه الإشارة .

وبعد ، وفى ضوء ماذكرت ، فإن كتاب الفهرست لابن النديم لايزال ينتظر المحقق العربى المتمكن ، الذى يقوم عليه ، يضبط نصه ، ويخرجه إلى القارئ العربى فى الصورة الجديرة به ، وبتقدمنا فى هذا المجال أيضا .

---

(١) كليدار تعنى حامل المفتاح .

الذخيرة

فى محاسن أهل الجزيرة

لابن بسّام

كان حظ ابن بسّام من الأيام عجيبًا !

اتخذ التاريخ هواية وحرفة ، فسد بكتابه القيم فراغًا ، وأذكر منسيًّا ، وسجل أحداثًا ، ثم ضن عليه التاريخ بسطور قليلة ، يلاحقه فيها طفلا يدرج ، أو صبيًّا يتعلم ، أو ناشئًا يختلف إلى حلق الدرس ، أو منشئًا يحمل قلمه ويتأبط ورقه ، ثم يمضى من مدينة إلى مدينة طلبًا للأمن ، وبحثًا عن ركن حصين يلوذ به . ويخلو فيه إلى نفسه ، فتلهمه شيئًا يقوله ، أو علمًا يذيعه بين الناس .

بلى ! .. إن ابن بسَّام مازال حتى اللحظة يحيا بيننا بلا تاريخ . ولقد عاش فى الأندلس أخصب أيامه ، وشهد أروع التحاماته ، وعبر مع ساكنيه الفترة الحرجة من تاريخه ، وسجل دقائق ما رأى وماسمع ، وجاء من بعده قوم نقلوا عنه ، وانتفعوا بعلمه ، ثم ضنوا عليه بكلمات نتبين من خلالها شخصية هذا العالم الجليل .

أكان تحاملا عليه من مواطنيه ؟ أكان غضًّا من شأنه وتهوينًا بكتابه ؟ أكان حسدًا يدفعهم إلى السكوت حيث يتطلب المقام أن يذكر ، والعبور به هرولة حيث يطيب التأنى والوقوف ؟ لا أظن شيئًا من ذلك قد حدث . فالرجل برى قلمه دفاعًا عن وطنه ، وسخر فكره للتمجيد بمفاخر قومه ، كتب « الذخيرة » والأحداث تأخذ بخناق المسلمين من كل فج ، ساعتها كان القوم فى حاجة إلى من يذكرهم بأمجادهم ، وإلى تمجيد من يصنع لهم تاريخا .

الأقرب إلى الظن إذن أن يكون له تاريخ مكتوب ، وتراجم وافرة ، وأنه حظى من أخلافه بما هو أهل له من ذكر وتقدير ، لكن الجوائح العصوف لم تذهب بالأندلس وحده ، وإنما ذهبت بالجزء الأكبر من تراثه ، استوى رمادًا بين لهب

الدخان المتصاعد بأمر المطران الأعظم ، فى « باب الرملة » أكبر ميادين غرناطة ، أو أكلته الرطوبة مطمورًا فى بطن الأرض . وقد عز عليه الأمن على ظهرها ، أو ذهب بددًا تحت الجدر وراءها ، فلم يبق بعد ذلك كله إلا عناوين مؤلفات وأسماء كتاب ، تجرى بين أيدينا وتحت أعيننا فى مظان التاريخ المختلفة ، نأمل أن نلقاها يومًا ، وهو أمل لم يكن دوما مجرد أحلام تذروها الرياح ، وفى يقظة المغرب الفكرية ، وذخائره المكنوزة ، وقد أحسن الحفاظ عليها عبر الأيام الكالحة ، واجتاز بها مهامه الخطر العاتية ، مايجعل فى نشرها تبديلا لمسلمات كثيرة ، وتغييرًا لأفكار ثابتة ، وغدًا مشرقًا للغرب الإسلامى كله .

لم يكن حظ ابن بسَّام فى المؤلفات الحديثة بأحسن حالا منه فى القديم ، فكتابه الرائع « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » والذى سنعرض له فيما بعد ، لما يطبع كاملا إلّا أخيرًا ، بل غُمَّ أمره على الناس فخلطوا بينه وبين البسَّامى ، أبى الحسن على بن محمد ، الشاعر البغدادى المتوفى سنة ثلاث وثلثمائة ، ونقلوا ترجمة هذا الشاعر من ابن خلكان وألصقوها كما هى بصاحب الذخيرة ، وحتى نشر المجلد الأول من كتاب « الذخيرة » عام ١٩٣٩م، جاز الخطأ على واضعى فهارس دار الكتب المصرية فلم يفطنوا لهذا الخطأ الفاحش. فقالوا: إن الذخيرة هى لابن بسَّام المعروف بالبسامى الشاعر! وأسوأ منه ما أباحه النساخ لأنفسهم حين قيدوا علمه . فجاءت مخطوطاته الموجودة بدار الكتب المصرية مشوّهة محرفة ، ماكان منها مكتوبًا بخط مغربى أو مانقل عنها برسم مصرى .

للقاء ابن بسّام والتعرف إليه لم يبق أمامنا غير طريق وحيد ، صعب المرتقى كثير المزالق والمتاهات ، ظنىّ النتائج والدلالة ، وما إلى غيره سبيل : أن نتخذ من عصر الرجل مادة لتصوره ، ومن بيئته مجهرًا لتبينه ، ومن فكره شاهدًا على خطاه ، وبشىء من التأمل والاستبطان والمقارنة ، وفطنة المؤمن وحذره ، نبنى للرجل حياة وتاريخًا وسيرة ، إن لم تكن كل مايرجى ، فهى شمعة مضيئة ، على درب حياته الطويل والضبيب ، وإضاءة شمعة أكثر إسهامًا فى توضيح جوانب حياته من لعن الظلام والاستسلام لواقع الحال .

أى عصور الأندلس عاش ابن بسَّام ؟

على نحو قريب من اليقين فارق أديبنا دنيا الناس إلى رحاب الله فى نهاية عام

١١٤٧ م أو مع بداية لاحقه ١١٤٨ م ، وأبعد تاريخ فى حياته نعرفه قبل ذلك التاريخ هو عام ١٠٨٤ عندما غادر شنترين إلى إشبونه . أو لشبونه . عاصمه البرتغال فى عالمنا الحديث ، ولابد أنه قام برحلته فتى السن فوى الساعد ، قارب العشرين أو جاوزها بقليل ، ومع هذه اللمحة نستطيع أن نتصور مجيئه إلى الحياة ، فى مطلع النصف الثانى من القرن الحادى عشر ، على نحو تخمينى لايضارّ معه شيء أن يتأخر عامًا أو يسبق الموعد المحدد بأعوام ، ولقد عُمِّر طويلا ، وامتدت حياته حتى مست آخر النصف الأول من القرن الثانى عشر ، أعوام قاربت التسعين ، ولكنها فى ميزان أحداث الأندلس تفوق فى مضمونها النفسى والشعورى وعمقها التاريخى ، امتدادها المادى زمنا وعددًا .

فى ذلك العصر أو على مشارفه انتثر عقد الأندلس ، وتفرق شمله ، وتوزعته دويلات أشتات ، فضعف أمره سياسيًّا ، وسار القهقرى أمام تقدم النصارى ، وضاع فى نهاية الأمر ، وكان الاستثناء الوحيد الواضح من القاعدة التى تقرر : « حيثما غرست الحضارة الإسلامية تأصلت جذورها إلى الأبد » .

كان الفقهاء فى الأندلس أضيق الناس بما يجرى فى جنبات شبه الجزيرة ، رأوا فى الترف الغالى انحلالا يميت روح المقاومة فى بلد يتخطفه العدو من كل جانب ، وفى الفُرقة والخلاف والتخاذل تبديدًا لقواه وتضييعًا لأمره ، وكان مايجرى داخل بيوت الأمراء والكبار مما لايرضى عنه الدين ، وتأباه قواعد الشريعة . وكانت الحضارة قد أناخت على البلد لابخيرها وحده وإنما بكل آثامها أيضًا ، من حب للمال وحرص عليه ، وإغراق فى الإثم ومجاهرة به ، وتحلّل من التقاليد ، وتخفّف من الوقار . فاستعان الأمراء على بعضهم البعض بخصوم لهم فى الدين والوطن ، وتآمر الأبناء على آبائهم ، وذبح الخلفاء فلذات أكبادهم ، ودفع الأمراء الجزية لخصومهم من النصارى . وبعض هذا الخلاف كان طابع العصر . لكنه يعكس ملامح مجتمع ضائع . يسرف فى تبديد قواه ، ويبعثر ثرواته نشوان لا يحس بما يجرى حوله ، فلا عجب أن يعبر المضيق وفد من خيرة فقهاء الأندلس . يمثله قضاة بطليوس وغرناطة وقرطبة وإشبيلية ، ومعهم الورير أبو بكر محمد بن ابى الوليد بن زيدون نائبين عن أمراء بلادهم ، وهى كبريات المدن التى بقيت فى حوزة المسلمين ، وأن يتوجه إلى يوسف بن تاشفين يستحثه إنقاذ الأندلس مما

أصابها ومما يوشك أن يطبق عليها [١] .

بل كان عجيبًا . ومريبًا أيضًا . ألا يحدث هذا . وأن يقف أناس رسالتهم الحفاظ على دولة الإسلام وتقويم ماعوج من سلوك الحكام . موقف المستهين يتابع الأحداث متواكلا لايسهم فى دفعها أو تبديلها . أو يجارى من بيدهم السلطة . يبارك خطاهم حقًا كانت أو انحرفت عن جادة الصواب . لو سكتوا لكان موقف التاريخ منهم صارمًا وقاصيا !

لم يخيّب ابن تاشفين لمستنجديه أملا ، فعبر المضيق إلى الأندلس ، وأنقذ الإسلام على بطحاء شبه الجزيرة من هزيمة محققة ، وحولها إلى انتصار ساحق فى وقعة الزلاقة ، فى ٢٣ من أكتوبر من عام ١٠٨٦م، هناك محا جيش ألفونسو السادس محوا ، وجرح ألفونسو نفسه ، وكان يمكن ليوسف أن يمضى بالنصر إلى غايته فيلاحق عدوه . ويهاجمه فى عقر داره . لكن أخبارًا من سبتة حملها إليه البريد بموت ابنه فعاد من فوره . مما مكّن لألفونسو السادس أن يسترد أنفاسه اللاهثة ويستجمع بقايا قواه المبعثرة .

لكن إمبراطورية المرابطين الفتية الشابة ، لم تلبث أن تعرضت لأمراض الجماعات . وداء الدول ، فأصابها ما أصاب دويلات ملوك الطوائف قبلها ، ووقعوا فيما عابوه على أسلافهم ، مما أوجزه المؤرخ العظيم عبد الواحد المراكشى : « واختلت حال أمير المسلمين رحمه الله بعد الخمسمائة اختلالا شديدًا . فظهرت فى بلاده مناكر كثيرة ، وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد . ودعواهم الاستبداد ، وانتهوا فى ذلك إلى التصريح ، فصار كل منهم يصرح بأنه خير من علىّ أمير المسلمين ، وأحق بالأمر منه ، واستولى النساء على الأحوال ، وأسندت إليهن الأمور ، وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة

---

(١) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، جـ ٢ ص ٩٨ – ٩٩ ، القاهرة ١٩٦٤ – مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بنى زيرى بغرناطة ، ص ١٤٥ ، نشر وتحقيق أ . ليفى بروفنسال ، القاهرة ١٩٥٥ – وقارنه بما ورد فى : عبد الواحد المراكشى ، المعجب فى أخبار المغرب ، ص ١٣٠ ، الطبعة الأولى ، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ١٣٦٨ هـ = ١٩٤٩ م ، حيث يرى أن الذى جاز البحر قاصداً مدينة مراكش لمقابلة ابن تاشفين كان المعتمد بن عباد نفسه ، ويرى دوزى أن المؤلفين الذين يرون أن المعتمد نفسه هو الذى ذهب إلى مراكش يخلطون بين حملة ابن تاشفين الأولى وحملته الثانية . انظر :
Dozy Reinhart,: Histoire des Musulmans d'Espagne, trad. espsgnol, vol. II. p. 127, bueno Aires, 1946.

مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور . وأمير المسلمين فى ذلك كله يتزّيد تغافله ، ويقوى ضعفه وقنع باسم إمرة المسلمين ، وبما يرفع إليه من الخراج ، وعكف على العبادة والتبتل ، فكان يقوم الليل ويصوم النهار ، مشتهرًا عنه ذلك ، وأهمل أمور الرعية غاية الإهمال ، فاختل لذلك عليه كثير من بلاد الأندلس ، وكادت تعود إلى حالها الأولى ، لاسيما منذ قامت دعوة ابن تومرت بالسوس[1] » .

قُدِّرَ لابن بسَام أن يشهد ، شيخًا معمرًا ، سقوط إمبراطورية المرابطين وقيام دولة الموحدين ، وأن يراهم وهو يدلف إلى العالم الثانى يستولون على مراكش فى المغرب ، وإشبيلية فى الأندلس ، وأن يشهد مع هذا التحوّل القلّب سقوط شنترين وطنه فى يد ألفونسو السادس من جديد ، واستقلال ابن مردنيش ببلنسية ، واحتلال النصارى للمرية[2] !

* * *

كان أدب العصر الذى عاشه ابن بسّام انعكاسًا صادقًا لحياة أهله بكل مافيها من تناقضات ، الأبيقوريون يعبّون مما تتيحه لهم الفرص ، ثراء عاجلا ، وحياة صاخبة ، يشربون ويسمرون ويطربون ، وعلى الدنيا العفاء ، ويعبرون عن أحاسيسهم فى شعر فاجر ، وأدب داعر ، غزلا بالمذكر ، أو تجاهرًا بالمعاصى ، أو دعوة إلى التحلل . والجادون فى دروب الحياة يضيقون بما حولهم ، عُمِّيَتْ عليهم المسالك ، وضاقت بهم الحيلة ، يرون على المدى البعيد مجتمعًا ينحدر نحو الهاوية ، لايكاد يتبين النهاية ، أغشته الحياة فهو لايبصر ماحوله ، ويعبرون عن ذلك فى أدب ممرور تارة وثائر تارة أخرى ، وأحيانًا تنفجر على شباة أقلامهم فلسفة تحاول أن تزن الحياة ، تستخرج منها مكامن العظة ، وتقنن لتطورها ، علّ فى علمهم مايوقظ غافلا ، ويهدى ضالا .

---

(١) على غير إجماع المؤرخين يجعل عبد الواحد المراكشى فى المعجب (ص ١٧٠ و ١٧٧) وفاة يوسف بن تاشفين ، وتولى ابنه أبى الحسن على بن يوسف ، عام ٤٩٣ هـ = ١٠٩٩ م بينما تجعلها البقية فى عام ٥٠٠ هـ = ١١٠٦ م ، ومن هنا فإن إشارته فى النص إلى عام الخمسمائة تحتاج إلى تحرير انظر : ابن أبى زرع ، نخب تاريخية جامعة لأخبار المغرب الأقصى ، ص ٣٢ ، ٣٣ نشرًا ليفى بروفنسال . باريس ١٩٤٨ . وابن خلدون كتاب العبر ديوان المبتدأ و الخبر جـ ٦ ص ١٨٨ . بيروت ١٨٧٩ م

(٢) الأحداث الأخيرة وقعت فى نفس العام الذى توفى فيه ابن بسام راجع المعجب ص ٢٠٢ و ٢٥٧ . دوزى تاريخ مسلمى الأندلس . جـ ٢ ص ٤٧٥ وما بعدها

كان الأدباء ينعمون بالرعاية والحظوة ، تسرف لهم الدولة فى الجزاء ، وتسخو عليهم فى العطاء ، وبيت من الشعر يدر من الخير مالا تدره تجارة نافقة ، أو صناعة محكمة ، إلا أن حرية الأديب فى الجانب السياسى منها ، كان يحدُّها رضا الحاكم وعواطف العامة ، وشهد عصرنا أول خطى الانحدار الغريب الذى سوف يبلغ غايته فى ٢ يناير ١٤٩٢م ، أعنى بداية إحراق الكتب ، جلبًا لرضا العامة ، أو نكاية فى الأديب ، فأحرق ابن عباد كتب ابن حزم العظيم ، فلم يأبه هذا لفعله وإنما أنشده :

فإن تحرقوا القرطاسَ لاتحرقوا الذى ... تضمَّنه القرطاسُ بل هو فى صدرى
يسير معى حيث استقلَّتْ ركائبى ... وينزل إنْ أنزلْ ويدفنُ فى قبرى
دعونى من إحراق رقٍّ وكاغدٍ ... وقولوا بعلمٍ كى يرى الناس مَن يدرى
وإلَّا فعودوا فى المكاتب بدأة ... فكم دون ماتبغون لله من ستر[1]

وأحرق المنصور بن أبى عامر كتب الفلسفة والفلك ، برغم أنه مال اليها صدر حياته ، وكان لأهلها موقرًا ، لكن مطالب السياسة قبل رغائب العقل ، وأحرق المرابطون كتب الغزالى . جاء فى الرسالة التى وجهها تاشفين بن على بن تاشفين إلى أهل بلنسية بعد استعادة المرابطين لها فى شعبان من عام ٤٩٥ هـ = مايو ١١٠٢ م : « واعلموا رحمكم الله أن مدار الفتيا ومجرى الأحكام والشورى فى الحضر والبدو ، على ما اتفق السلف الصالح ، رحمهم الله ، من الاقتصار على مذهب إمام دار الهجرة أبى عبد الله مالك بن أنس ، رضى الله عنه ، فلا عدول لقاض ولامفت عن مذهبه ، ولا يأخذ فى تحليل ولا تحريم إلا به ، ومن حاد على رأيه بفتواه ، ومال من الأئمة إلى سواه ، فقد ركب رأسه واتبع هواه ، ومتى عثرتم على كتاب بدعة ، وخاصة - وفقكم الله - كتب أبى حامد الغزالى فليتتبع أثرها ، وليقطع بالحرق المتتابع خبرها ، ويبحث عليها ، وتغلظ الأيمان على من يتهم بكتمانها[2] » .

كان عصر ابن بسام عصر الثقافة الأندلسية المزدهرة ، فى كل أبعادها ، وشتى

---

(١) انظر : د . الطاهر أحمد مكى ، دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، الفصل : شاهد العصر ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٢ .

(٢) مخطوط رقم ٥٣٨ ، بمكتبة الأسكوريال ، ورقة ١٢ ب .

فروعها ، ويكفى أن نعرف أن من الأدباء الذين ناكبوه رحلة الحياة فى تلك الفترة من الزمن ، الفتح بن خاقان (اغتيل فى مراكش ٥٢٩ هـ = ١١٣٤ م) ، ومن الشعراء ابن قزمان (ولد ٤٨٨ هـ = ١٠٩٥م) وابن اللبانة (ت ٥٠٧ هـ = ١١١٣ م) وابن عبدون (ت ٥٢٩ هـ = ١١٣٤ م) والأعمى التطيلى (ت ٥٢٠ هـ = ١١٢٦ م) ، وابن خفاجة (ت ٥٣٣ هـ = ١١٣٨م) وولادة بنت المستكفى (ت ٤٨٤ هـ = ١٠٩١ م) ، وابن عمار (ت ٤٧٧ هـ = ١٠٨٤ م) وغيرهم .

ومن اللغويين ابن سيده (ت ٤٥٨ هـ = ١٠٦٦ م) ، والأعلم الشنتمرى (ت ٤٧٦ هـ = ١٠٨٣ م) .

ومن الفقهاء أبو الوليد الباجى (ت ٤٧٣ هـ = ١٠٨١ م) ، وابن الطلاع (ت ٤٩٧ هـ = ١١٠٣ م) .

ومن الجغرافيين أبو عبيد البكرى (ت ٤٨٧ هـ = ١٠٩٤ م) .

ومن المؤرخين صاعد الطليطلى (ت ٤٦٢ أو ٤٦٣ هـ = ١٠٧٠ م) ، وابن حيان (ت ٤٦٩ هـ = ١٠٧٦ م) ، والطرطوشى (ت ٥٢٠ هـ = ١١٢٦ م) .

ومن الفلاسفة ابن رشد (ولد ٥٢٦ هـ = ١١٣٢ م) ، وابن باجة (توفى ٥٣٣ هـ = ١١٣٨ م) .

تلك كانت بيئة ابن بسام الوسيعة وعالمه العريض ، تغذّى أحداثها أثرا أو عاشها واقعًا ، وتأثر بها صدى أو سمعها حكايات ، هدهدة من أمه ، أو قصصا من لداته ، أو علمًا من أستاذه ، أو اكتشفها بنفسه وهو يصارع موج الأحداث العالى يكاد يطويه ، ويوشك معه أن يضيع .

* * *

ولد ابن بسام فى شنترين وإليها يُنسب ، ولايعرف للبلدة تاريخ قبل أن يصلها الإسلام ، ربما كانت واحدة من آلاف القرى المتناثرة على امتداد الأندلس كله ، عرضه وطوله ، ترقد فى زوايا الإهمال والنسيان حتى يلمع بها عظيم ، أو تجرى فى عرصاتها وقعة ، فيفسح لها التاريخ من صفحاته مكانًا .

كذلك تنقصنا التفاصيل لحملة قام بها عبد العزيز بن موسى بن نصير نفسه ،

بعـد زمن قليل من تـوليـه إمارة إسبـانيـا (٩٥هـ = ٧١٦م)، استـولى فيـهـا على المدينة ، إلى جانب يابرة Evora وقلمرية Coimbra ولو أنه فيما يبدو كان ينفذ أوامر أسرّ بها إليه أبوه قبل رحلته إلى المشرق .

تقع مدينة شنترين ، وهى الآن فى البرتغال ويطلق عليها Santarem على الشاطئ الأيمن من نهر تاجه (أوتاجو) Tajo وهى مفتاح واديه ، وموقعها إلى الشمال الشرقى من إشبونة Lisboa وبينهما ثمانون ميلا ، ، وظلت فى يد العرب إلى أن تنازل عنها المتوكل ملك بطليوس عام ٤٨٦ هـ = ١٠٩٣ م ، مع إشبونة وشنترة ، إلى ألفونسو السادس ملك ليون فاستولى عليها ، بلا حرب ، وخسرها المسلمون بلا هزيمة ، وقدمها الملك النصرانى هدية إلى صهره ريموندو د بورجونيا كنت جليقية ، وبقيت فى أيديهم حتى استردها المرابطون عام ٥٠٤ هـ = ١١١١ م ، بقيادة الأمير سير بن أبى بكر بن تاشفين ، الذى أرسل من داخل المدينة بخبر فتحها إلى أمير المسلمين أبى الحسن على بن يوسف بن تاشفين ، فى رسالة ضافية دبجها يراع الوزير الشاعر أبى محمد عبد المجيد بن عبدون ، وأورد عبد الواحد المراكشى نصها كاملا . وبقيت فى أيديهم حتى انتزعها منهم ثانية إنريكيث ملك البرتغال عام ٥٤٣ هـ = ١١٤٨ م ، وقد حاول الموحدون بقيادة أميرهم أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن استـرجاع المـدينة عـام ٥٧٩ هـ = ١١٨٣ م ، لكنهم فشلوا نتيجة خدعة وقعوا فيها ، على الرغم من قوتهم وضعف عدوهم ، وقد أعطى المراكشى تفصيلات وافية عن حصارهم للمدينة وعجزهم عن استردادها[1] .

كانت شنترين - كما وصفها ابن عبدون - أحصن المعاقل للمشركين وأثبت المعاقل على المسلمين ، أرحب المدن أمدًا للعيون ، وأخصبها بلدًا فى السنين ، لايرميها الخصب ولايتخطاها ، ولايرومها الجدب ولايتعاطاها ، فروعها شامخة ، وعروقها راسخة ، زاهرة ترف أنداؤها ، ناضرة تشف أضواؤها ، اتخذها ملوك

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، جـ ٥ ص ٣٠٠ ، القاهرة ١٩٠٦ . وانظر : المعجب ، ص ١٦٥ وما بعدها ، وفى ص ٢٥٧ ، هامش رقم ١ ، ذكر الأستاذ محمد سعيد العريان محقق الكتاب أن الذى ملكها « ألفونسو السادس ملك قشتالة » ، والحق أنه ألفونسو إنريكيث ملك البرتغال ، أما ألفونسو السادس فقد توفى عام ٥٠٣ هـ - ١١٠٩ م ، أى قبل استرداد المدينة بأربعين عامًا كاملة .

النصارى بعد الاستيلاء عليها مركزًا للهجوم عل المدن الإسلامية فى غربى البرتغال ، فمنها احتلوا باجة ، ومنها كانت تخرج الطلائع لقطع خطوط تموين حملات الموحدين .

وكانت تكوّن مع يابرة وأشبونة وحدة قضائية ، يُرسل لها القاضى من قرطبة على أيام الإمارة أو الخلافة ، أو يعينه الأمير فى بطليوس ، على أيام بنى الأفطس ، وكان عامل أشبونة يتردد على شنترين أو يعين لها عاملا من قبله . والمدن الثلاث كانت تتبع كورة باجة فى التقسيم الإدارى للأندلس ، ويخطئ بعض المؤرخين المحدثين فيخلطون بين شنترين وشنتمرية Santa Maria وينسبون ابن بسام إلى الأخيرة فيقولون الشنتمرى[1] وهى ، تطلق على أكثر من موضع فى الأندلس ، واحدة تقع فى الغرب Algarbe جنوب غربى الأندلس ، وتسمى أحيانا شنتمرية الغرب تمييزًا لها عن غيرها ، وبها ساد بنو هارون زمنًا ، من ١٠٢٦ م إلى ١٠٤١ م ، ثم انضموا إلى إشبيلية عام ١٠٥٢م ، ويطلق عليها اسم فارو Faro وهى عاصمة اكشونبة Ocsonaba فى البرتغال ، وثانية تقع قريبا من قرطبة ، وما تزال قائمة حتى الآن ، وتبعد عنها بستة عشر كيلو مترًا ، وثالثة تقع قريبا من بلنسية ، ويميزونها أحيانًا باسم شنتمرية الشرق .

والمعلومات التى بين أيدينا عن الحياة العلمية فى هذا الجانب من الأندلس قليلة ، ويبدو أن الحركة الأدبية فيها بدأت متأخرة ، وحتى مجىء عبد الرحمن الداخل ١٣٨ هـ = ٧٥٥ م لم تكن الثقافة الإسلامية قد تأصلت فى هذه المنطقة ، وكان مستعربوها أبطأ فى اعتناق الإسلام ، واتخاذ العربية لغة ، والانصهار فى المجتمع الجديد ، فلما استتب الأمر ، وتكونت الدولة ، وآتى الهدوء ثماره ، كانت أبعد من غيرها عن قرطبة مركز الثقل الثقافى ، وكان سكانها أقل الأندلسيين رحلة إلى المشرق ، وأضواء التاريخ عليهم أخفت ، ومن هنا كان حظهم من المدونات متواضعا للغاية ، فلم يجد ابن الفرضى فى كتابه تاريخ علماء الأندلس ، أو الحميدى فى كتابه « جذوة المقتبس » من يستحق ترجمة ، أو لعلها لم يعرفا ، من شنترين أو

---

(١) من هؤلاء بطرس البستانى فى كتابه « أدباء العرب فى الأندلس وعصر الانبعاث . حياتهم - آثارهم . نقد آثارهم » ص ١٠٦ . الطبعة الثالثة ، مكتبة صادر . بيروت . بلا تاريخ

أشبونة ، وعندما عرض الأخير للمدينة الثانية عرفها بأنها من قرى الأندلس[١] ، فإذا كانت الإشبونة كذلك ، وكانت مقر العامل منها يتردد على شنترين أو يعين لها من يقوم بأمرها ، كان لنا أن نتصورٍ ما كانت عليه شنترين نفسها .

فلما انقسم الأندلس إلى إمارات ، لكلٍّ عاصمة وفى كلٍّ أمير ، وبدأ جاه قرطبة السياسى والثقافى يتوزّع على مدن كثيرة ، أصاب الغرب الأندلسى نصيب ، وذهب الجنوب منه بأغلب هذا النصيب وأيسره ، فإذا كان الرواة يذكرون عن شلب أن أى فلاح بها يستطيع وراء محراثه أن يقرض الشعر ، وإذا كانت يابرة أهدت عالم الشعر ابن عبدون ، وباجة عالم التشريع أبا الوليد الباجى ، وبطليوس ابن السيد اللغوى النحوى ، فلا يكاد يذكر من شعراء شنترين غير أبى القاسم خلف بن يوسف بن فرتون الأبرشى وكان على حد تعبير صاحب البغية وحيد عصره فى علم اللسان ، لكننا نلحظ أن إقامته لم تكن فى شنترين نفسها ، فقد توفى فى قرطبة (ذى القعدة ٥٣٢ هـ = ١١٣٧ م) وما روى لنا من شعره قليل ، وإن كان يكفى للحكم على مكانته بأنه متوسط الشعر ، مجرد نظام ، ولعل هذا ماجعل ابن بسام نفسه ، وكان بمواطنيه حفيًّا ، يعرض عن ذكره برغم أنه من معاصريه ، فمن شعره :

رأيت ثــلاثــةً تحكــى ثــلاثًــا إذا ما كنت فى التشبيه تنصفُ
فتــايــو[٢] النيــلُ منفعــة وحسنًــا ومصرُ شنترين ، وأنت يوسف[٣]

ولم يترجم ابن بسام فى موسوعته لغير اثنين من مواطنيه : الأديب أبى عمر بن كوثر ، والأديب أبى محمد بن سارة ، والأول اختص ابن بسام بالترجمة له فيها أعلم ، فلا نجد له فى غير الذخيرة ذكرًا ، وكان الثانى أسْيَرَ ذكرًا ، وأعلى شعرًا ، سكن إشبيلية وتعيش فيها من الوراقة ، وجاب الأندلس شرقا وغربًا . وجمع بين

(١) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٢٥٧ ، ترجمة رقم ٦٠٧ ، القاهرة ١٩٥٣ ، الضبى : بغية الملتمس ، ت ١٠٢٧ ، مدريد ١٨٨٥ م .

(٢) تايو إشارة إلى نهر Tajo وينطق فى العربية تاجه وتاجو وتايو ، فالجيم المعطشة تتحول أحيانا إلى ياء فى العربية ، لأنها حتى الآن تنطق وسطًا بين الجيم العربية والياء ، وقد بقى النطق « تاجو » كما هو فى البرتغالية . أما فى الإسبانية فأصبحت الجيم تنطق خاء فيقال « تاخو » .

(٣) ابن الأبار : المقتضب من كتاب تحفة القادم ، تحقيق ابراهيم الإبيارى ، ص ١٣ ، القاهرة ١٩٥٧ . وانظر ترجمته فى : الصلة لابن بشكوال ، الترجمة رقم ٣٩٩ - نفح الطيب جـ ٥ ص ٢٤٩ طبعة محيى الدين - بغية الملتمس الترجمة رقم ٧٢٢ .

الشعر والأدب ، وتوفى عام ٥١٧ هـ = ١١٢٣ م[١] وأغلب الشنترينيين ، ممن بين أيدينا تراجمهم ، عاشوا حياتهم أو جلها بعيدا عن شنترين ، فى إشبيلية أو قرطبة أو طليطلة أو غيرها ، سعيًا وراء الرزق ، أو تجافيًا عن الخطر .

ولو مدّ الله فى أجل الأندلس ، وبقى غربيه فى قبضة المسلمين ، ولم يذهب الترف بملوك الطوائف ، ثم بالأندلس كله فيما بعد ، لربما ازدهرت الحياة الثقافية فيه ، على نحو أوسع وأكمل مما نعرف ، فقد كان غربى الأندلس من نصيب بنى الأفطس ، واتخذ هؤلاء بطليوس عاصمة لهم ، وكان المظفَّر أميرهم (ت ٤٦٠ هـ = ١٠٦٧ م) أحرص الناس على جمع علوم الأدب من النحو والشعر ونوادر الأخبار وعيون التاريخ ، وانتخب مما اجتمع له من ذلك كتابًا كبيرا ، يحتوى على فنون وعلوم ومغاز وسير ومثل وخبر ، وجميع مايختص به علم الأدب ، فى خمسين مجلدًا ، طبقًا لرواية المقرىّ فى نفح الطيب ، أو فى عشرة أجزاء طبقًا لرواية عبد الواحد المراكشى ، نحا فيه منحى ابن قتيبة فى كتابه « عيون الأخبار » وأسماه « المظفرى » نسبة إليه ، وقرأ عبد الواحد المراكشى أغلب أجزائه وأفاد منه . وضم بلاطه ابن عبد البر أعلم أهل غرب الأندلس فى زمانه بالحديث (ت ٤٦٣ هـ = ١٠٧٠ م) ، وإليه أهدى مجموع مختاراته الفريد المسمى « زينة المجالس » فى ثلاثة مجلدات ، وله تولى قضاء الإشبونة وشنترين .

ولم يكن المتوكل أقل احتفاء بالأدب من أبيه ، ذو قدم راسخة فى صناعة النظم والنثر ، وأورد له ابن الأبار طائفة حسنة من أشعاره[٢] ، وكان ابنه الأصغر مقيم الدولة عاملا على شنترين عند قدوم المرابطين إلى الأندلس وزوال دولتهم ، وكان فى بطليوس كابن عباد فى إشبيلية ، يتنافسان فى الاحتفاء بالأدب ، والإغداق على الأدباء ، وإذا عرف بلاط العبابدة من الشعراء المعتمد وابن عمار وابن حمديس الصقلى ، فقد شُهر بلاط بطليوس بالوزير الكاتب الشاعر أبى محمد عبد المجيد بن عبدون ، من يابرة ، وكان شاعرًا قادرًا ، يحتذى نهج القدماء ، ورائيته فى رثاء بنى الأفطس لما أصابهم على أيدى المرابطين ، زاخرة بالمعارف ،

---

(١) انظر ترجمته فى القسم الثانى الذخيرة الورقة ١٦٢ - ابن سعيد المغربى : المغرب فى حلى المغرب . جـ ١ ص ٤١٩ - رايات المبرزين وغايات المميزين . ص ٣٥ تحقيق غرسية غومث . مدريد ١٩٤٢م.

(٢) الحلة السيراء . جـ ٢ ص ٩٦ وما بعدها

رصينة الصياغة ، وإن كانت فاترة الروح[١] .

تلك هى البيئة الثقافية اللصيقة بابن بسام ، فى مدينته وما جاورها ، فى دولته قبل أن تتفتح عيناه على الحياة ، وفيها وهو مقبل عليها . يعب من روافدها ماواتته الفرصة ، يقرأ ويدرس ويجادل العلماء !

* * *

لم يحدثنا المؤرخون عن مولد ابن بسام ونشأته ، ولا عن شيوخه وكيف تعلم ، لكننا نعرف يقينا برواية المقرى أنه توفى عام ٥٤٢ هـ = ١١٤٨ م[٢] ، وأنه نشأ فى بيت محتد وحسب ، صده نسبه عن الكسب المتدنى ، وأغناه ماورث عن التقلب فى مناكب الأرض ، سعيا وراء الرزق[٣] ، وكان فى الذؤابة من قومه ، فإذا ذهب الوزير أبو محمد عبد المجيد بن عبدون فى جملة من أصحاب المتوكل عند زيارته لشنترين ، لقى ابن بسام وتحدث إليه وسامره ومازحه على نحو لايكون إلا بين المتساويَيْن من الرفقاء . فى « أول مجلس اجتمعت معه فيه ، وسمع بعض الإخوان يدعوننى باسمى ، فقال لى : أنت على ابن بسام حقا ؟ قلت : نعم ، قال : أو تهجو حتى الآن أباك وأخاك جعفرًا قلت له : وأنت أيضًا عبد المجيد ؟ قال : أجل ، قلت : وحتى الآن فيك ابن مناذر يتغزل ؟ فضحك مَنْ حضر لهذا الجواب الحاضر »[٤] .

---

(١) أورد عبد الواحد المراكشى نص القصيدة كاملا فى كتابه المعجب ، ص ٧٦ وما بعدها - وأورد . المغرب بعضًا منها ، جـ ١ ص ٣٧٦ - وأورد ابن الأبار فى الحلة السيراء مطلع القصيدة وآخر بيتين منها جـ ٢ ص ١٠٣ ، وقد قام أبو القاسم عبد الملك بن عبد الله المعروف بابن بدرون الحضرمى ، من مدينة شلب ، فى البرتغال المعاصر , Silves والمتوفى قريبًا من عام ٦٠٨ هـ = ١٢١١ م بشرح القصيدة شرحًا تاريخيًا وافيًا فى كتاب أسماه : « كمامة الزهر وصدفة الدر » وقد طبع دوزى القصيدة مع شرحها ونشرها عام ١٨٤٦م، وطبعت مع شرحها فى مصر بمطبعة السعادة عام ١٣٤٠ هـ ، وأقوم الآن بتحقيقها على ما ظهر لها من مخطوطات جديدة .

(٢) المقرى ، نفح الطيب جـ ٢ ص ٣٠٩ طبع أوربا .

(٣) الذخيرة ، ١ مجلد ١ ، ص ٨ ، طبع القاهرة ، ١٣٥٨ هـ = ١٩٣٩ م .

(٤) المرجع السابق ص ١٢٠ - ابن الأبار ، الحلة السيراء ، جـ ٢ ص ١٠٦ . وتشير المماحة هنا إلى ما بين ابن بسام الأندلسى وابن بسام البغدادى من توافق فى الأسماء يؤدى إلى اللبس أحيانًا ، واسم الشاعر البغدادى كاملا : على بن محمد بن نصر بن منصور بن بسام ، شاعر هجاء لم يسلم من لسانه أحد ، حتى أبوه وأخوه وأصحابه ، وله من المؤلفات : « أخبار عمر بن أبى ربيعة » و« المعاقرون » و« مناقضات الشعراء » و « أخبار الأحوص » انظر ترجمته فى : ابن شاكر الكتبى ، فوات الوفيات ، جـ ٢ ص ١٦٧ ت ٣١٤ ، القاهرة ١٩٥١ .

وكانت زيارة ابن عبدون للمدينة بعد أن تولى الكتابه للمتوكل صاحب بطليوس عام ٤٧٣ هـ = ١٠٨٠ م ، وقبل رحيل ابن بسام عن شنترين إلى الاشبونة فى عام ٤٧٧ هـ = ١٠٨٤ م ، أى أنها كانت بين أعوام ١٠٨١ و ١٠٨٣م، ولنا أن نزعم أن ابن بسام يومها كان قد حصلّ قدرًا من العلم ، وبلغ مرحلة من العمر ، تتيح له أن يغشى هذه المجالس ، وأن يسامر هؤلاء الأدباء .

كذلك يغلب على الظن أنه رحل إلى أشبونة طلبا للعلم ، وبحثا عن مجال أوسع للثقافة ، ويبعد أن نتصَوّر غير هذا القصد هدفًا ، فقد كان على شىء من يسر يستطيع معه أن يعيش فى بلده دون حاجة إلى هجرة ، ولانعرف كم من الوقت بقى فيها ، ولعله كان يتردد بينها وبين شنترين مسقط رأسه . لكنه فارق المنطقة كلها أكيدًا قبل عام ١٠٩٣ م ، ففى هذا العام سقطت الإشبونة ، ومعها شنترين ، لأول مرة فى يد ألفونسو السادس ملك ليون ، فغادر وطنه فى ظروف قاهرة ، وحال من الفوضى شاملة ، وحاول مع أسرته أن ينجوا بأنفسهم ، وظل يتنقل فى البلاد التى بقيت فى قبضة المسلمين بغربى الأندلس طوال أعوام ثمانية ، حتى استقر به المقام فى قرطبة لأول مرة عام ٤٩٤ هـ = ١١٠٠ م ، هاربًا بنفسه ، تاركًا كل ما يملك وراءه ، لكن قرطبة استسلمت للمرابطين قبل مجيئه إليها بعشر سنوات ، إذ سقطت فى ديسمبر ١٠٩٠ م ، وبقيام الحكم المرابطى أصبحت إشبيلية عاصمة الأندلس كله ، وإليها انتقل مركز الأحداث ، وأصبحت موطن الثقل السياسى والثقافى على السواء ، وتحولت قرطبة إلى مدينة تعسة الحظ ، أمسها ذكريات ، وحاضرها كسيف ، ومستقبلها مظلم ، فتحول عنها إلى إشبيلية ، ففى العاصمة سوف يتاح له من فرص الظهور والثراء والمجد مالايتاح له فى المدن المنزوية البعيدة عن الأضواء والأسماع .

وقد أوجز فى مقدمة « الذخيرة » حالته النفسية ، والظروف التى هاجر فى ظلها ، وكيف ترك شنترين قاصية الغرب ، « مفلول الغرب ، مروَّع السرب ، بعد أن استنفد الطريف والتلاد ، وأتى على الظاهر والباطن النفاد ، بتواتر طوائف الروم علينا فى عقر ذلك الإقليم ، وكنا قد غنينا هناك بكرم الانتساب ، عن سوء الاكتساب ، واجتزأنا بمذخور العتاد ، عن التقلب فى البلاد ، إلى أن نثر علينا الروم ذلك النظام ، وحين اشتد الهول هناك ، اقتحمت بمن معى المسالك ، على

مهامه تكذب فيها العين الأذن ، وتستشعر فيها المحن ، حتى خلصت فوصلت حمص (= إشبيلية) بنفس قد تقطعت شعاعًا ، وذهب أكثرها التياعًا ، وليتنى عشت منها بالذى فضلا . فتغربت بها سنوات ولا أنس إلا الانفراد . ولا تبلغ إلا بفضلة الزاد ، والأدب بها أقل من الوقاء ، حامله أضيع من قمر الشتاء ، وقيمة كل أحد ماله ، وأسوة كل بلد جهّاله »[١] .

ولانعرف تاريخ رحلته إلى إشبيلية أكيدًا ، لكننا نعرف أنه فى عام ٥٠٢ هـ = ١١٠٩ م كان قد استقر بها يتعيّش من قلمه ، يدبج التراجم ، ويكيل المديح لمن يجزيه عنه بالمال ، ويصنّف كتابه الذى حاز به الشهرة ، والوحيد الذى بين أيدينا من مؤلفاته : « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » ، ويرى دوزى أنّ ما كان ابن بسام يصيبه من المال ، من الأغنياء وعلية القوم ، إنما يشبه الأتعاب التى يتقاضاها المؤلفون اليوم من الناشرين[٢] .

وفى إشبيلية سكن روعه ، وتحسنت مع الزمن حاله ، واحتل من مجتمعها مقامًا عاليًا ، وهبط من مجالسها مكانًا رفيعًا ، وأصبح له من الوزراء أصدقاء يتحدثون إليه ، ويقصّونه أخبارهم وما يتصل بهم .

كذلك أغفل التاريخ الحديث عن الشيوخ الذين درس عليهم إغفالا تامًّا ، ومن ثمّ يصح لنا أن نزعم أنه كان طالبًا ولنفسه معلمًا ، وأن ماتلقاه من علم لايتجاوز فى البدء ما أجمل ابن خلدون وصفه فى دقة حين تحدث عن التربية عند الأندلسيين واختلافها عن مثيلتها فى المشرق ، وبقية الغرب الإسلامى : حفظ القرآن صبيًّا ، ثم درس إلى جانبه شيئًا من الحساب والتاريخ ، وحفظ قدرًا من الشعر والنثر ، ومضى وحده بإمكانياته المادية يلتهم كل ماتقع عليه يده من مخطوطات ، فمادة الرجل الثقافية - كما سنرى فيما بعد - عريضة وافرة .

ومن البين أن أحدًا من الذين درس عليهم وأخذ عنهم لم يكن بذى شأن يذكر ، فلا المعاجم الأندلسية ، ولا كتب الطبقات والتراجم ، تسجل فى هذه الفترة ترجمة لعالم يشار إليه فى هذا الركن القصىّ من الأندلس ، ولاهو فيما كتب وجد من يزهو

---

(١) الذخيرة، القسم الأول، المجلد الأول، ص١٩، ٢٠ بيروت، ١٩٧٩م.

(٢) Gonzales Palencia, Angel : Historia de la Literatura Arabig, 200,2 sedicion. colccion Labor. barcelooa, 1945.

بأستاذيته ، لكن فيما تناثر من إشارات فى كتابه ، نعرف أنه كان قارئًا لأبى العلاء المعرى ، حافظًا لشعره ، يستشهد به كثيرًا فى مقام المقارنة والتعليق ، ثم يأتى بعده المتنبى ، وبقية كبار الشعراء العباسيين كابن الرومى وأبى نواس وأبى تمام والبحترى وديك الجن والعباس بن الأحنف وأبى دهبل الجمحى ، فضلا عن الشعراء الأندلسيين من معاصريه كابن زيدون وابن عبدون وابن شُهَيد . وفى مقام النثر يكثر استشهاده بالجاحظ ، ويحتذى أسلوبه أحيانًا .

كان الأندلس حين بدأ يؤلف فى إشبيلية كتابه يجمع بين الشعراء الذين أغرموا بالطبيعة أزهارًا وأنهارًا ، كابن خفاجة وابن الزقاق[1] أو انحدروا إلى شعر لااحتشام فيه ولاعفة ، كنزهون بنت القلاعى ، والكتندى . بيدأنَّ الاهتمام الأكبر اتجه فى هذا العصر إلى التأليف فى طبقات الشعراء .

* * *

مر التأليف فى طبقات الشعراء والعناية بأخبارهم والترجمة لهم بمراحل تطورية قبل أن يصل إلى أوجه فى المشرق والمغرب على السواء .

وواضح أننا لانعنى هنا بالكتب التى كانت تهدف إلى جمع مختارات من الشعر الخاص دون أن تعنى بالتعريف بأصحابها . كالمفضليات والأصمعيات والمعلقات وغيرها ، أو تلك التى كانت تعنى أصلا بالنقد والتقويم والمقارنة ، وإنما هدفنا المؤلفات ذات الطابع التاريخى « وأقدم مالدينا منها وأصل نُسجَ على منواله ، كتاب « البارع » فى أخبار الشعراء المولَّدين ، لأبى عبد الله هارون بن على بن يحيى بن أبى منصور المنجم البغدادى (ت ٢٨٨هـ = ٩٠٠ م) جمع فيه ١٦١ شاعرًا ، وافتتحه بذكر بشار بن برد ، وختمه بمحمد بن عبد الملك بن صالح ، واختار فيه من شعر كل واحد عيونه . ثم جاء بعده أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبى (ت ٤٢٩ هـ = ١٠٣٨ م) فألف « يتيمة الدهر فى شعراء أهل العصر » ، وهو أفضل كتبه وأحسنها وأجمعها وهو ذيل لكتاب « البارع » المتقدم ذكره . ثم جاء أبو الحسن على بن الباخرزى

(١) انظر الفصل الخاص بابن الزقاق فى كتاب : مع شعراء الأندلس والمتنبى ، تأليف المستشرق الإسبانى إميليو غرسيه غومث . وقد قمنا بترجمته من الإسبانية ونشرته دار المعارف ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ١٩٨٥ م

(ت ٤٦٧ هـ = ١٠٧٤ م) الشاعر المشهور ، وصنف كتابه : « دمية القصر وعصرة أهل العصر » وجعله ذيلا ليتيمة الدهر ، وجمع فيه خلقًا كثيرًا . وذيلا لكتابه هذا ألّف أبو المعالى سعد بن على الوراق الحظيرى (ت ٥٦٨ هـ = ١١٧٢ م) كتابا أسماه « زينة الدهر وعصرة أهل العصر » ترجم فيه لجماعة كثيرة من أهل عصره ، وأورد لكل واحد طرفًا من أحواله وشيئا من شعره ، وحمل الراية بعده العماد الأصفهانى ، أبو عبد الله محمد بن صفى الدين (ت ٥٩٧ هـ = ١٢٠٠ م) وصنف كتابه « خريدة القصر وجريدة أهل العصر » وجعله ذيلا على زينة الدهر ، وهؤلاء هم الذين سبقوا ابن بسام أو عاصروه فى التأليف فى هذا اللون بالمشرق .

أما أقدم من طرق هذا الجانب من التأليف فى الأندلس فهو عثمان بن ربيعة الأندلسى ، ولانعرف عنه أكثر من أنه إشبيلى ، وصنف كتابًا فى « **طبقات الشعراء بالأندلس** » ، لايزال مخطوطًا بعد فى فاس ، وأنه توفى قريبا من عام ٣١٠ هـ - ٩٢٢ م(١) ولمّا كان معاصرا لأبى عبد الله هارون بن على بن يحيى صاحب كتاب « البارع » ، وكان هذا أسن منه ، وكان الأندلس فى هذه الفترة من عمره يرنو بعينيه إلى المشرق فى كل مايصنع ، صح لنا أن نظن أنه صنف كتابه هنا اقتداء بصاحبنا هناك . وفى نفس الفترة ألّف ابن أبى الفتح (قاسم بن نصير بن رقاص بن عيشون) من شذونة (ت ٣٣٨ هـ = ٩٤٩م) كتابا عن « **الشعراء من الفقهاء بالأندلس**(٢) » ، وألّف محمد بن هشام بن سعيد الخير بن الأمير الحكم (ت ٣٤٠ هـ = ٩٥١ م) وكان أديبا يقول الشعر « **كتابًا فى أخبار الشعراء بالأندلس** »(٣) . أما عبد الله بن محمد بن مغيث (ت ٣٥٢ هـ = ٩٦٣ م) فقد ألف كتابا عن « **شعر الخلفاء من بنى أمية** »، حذا فيه حذو الصولى فى كتابه « الأوراق » فى شعر بنى العباس ، وقد قام بالعمل تلبية لرغبة الحكم الثانى حين رغب إليه أن يصحبه فى غزاة له ، فاعتذر بضعف جسمه ، فأعفاه من الغزاة على

---

(١) البغية ، ص ٣٩٩ ترجمة رقم ١١٨٤ - ابن الأبار ، جزء من تكملة الصلة ، ص ١٨٧ ترجمة ٢٢٥٤ ، نشره Gonzalez Palencia, Angely M.Alarcon, in Miscelanea de Estudios Textos Arab es, Madrid, 1915 .

(٢) ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، ت رقم ١٠٦٧ .

(٣) البغية ص ١٢٩ ترجمة ٢٩٨ .

شريطة أن يؤلف الكتاب الذى أشرنا إليه آنفًا ، فصنع ذلك فى نفس العام الذى توفى فيه[١] .

بلغ هذا النوع من التأليف ذروته فى كتاب « **الحدائق** » **لابن فرج الجيانى** (ت ٣٥٩ هـ = ٩٧٠ م) وكان وافر الأدب كثير الشعر ، ألف كتابه للحكم الثانى ، وعارض فيه كتاب الزهرة لأبى بكر محمد بن داود بن على الأصبهانى ، إلا أن أبا بكر ذكر مائة باب فى كل باب مائة بيت، وابن فرج أورد مائتى باب فى كل باب مائتى بيت من الشعر، ليس منها باب تكرر اسمه لأبى بكر بن داود، ولم يورد فيه لغير أندلسى شيئا، وكان يضم تراجم لمعاصريه من الشعراء حتى منتصف القرن الرابع الهجرى، منتصف القرن العاشر الميلادى، ولقد مات هذا الأديب رهين سجن الحكم الثانى لأمر نقمه عليه، كما أن كتاب الحدائق ضاع ولم يصلنا منه شيء[٢] .

وألف أبو بكر **عبادة بن ماء السماء** (ت ٤١٩ هـ = ١٠٣١ م) كتابًا فى « **أخبار شعراء الأندلس** » وكان شاعرًا إلى جانب أنه أرسى قواعد صنع الموشحات ، وأورد له ابن بسام طائفة من أشعاره ، وأضرب صفحًا عن موشحاته ، ولكن العجيب أنه لم يشر إلى كتابه هذا ، لا فى مقام التعريف بصاحبه ، ولا نقل عنه فى ثنايا الذخيرة شيئا[٣] .

ويذكر ابن بسام أن أبا الوليد إسماعيل بن محمد بن عامر الملقب بحبيب ، أحد وزراء المعتمد وصاحب كتاب « البديع فى فصل الربيع »[٤] وقد قتله المعتضد بن عباد قريبًا من عام ٤٤٠هـ = ١٠٤٨م، وله من العمر تسع وعشرون سنة ، ألف كتابًا جمع فيه أشعار الأندلس خاصة[٥] ، وكذلك أسهم فى هذا الباب الفتح بن خاقان ، معاصر ابن بسام ، وتوفى عام ٥٢٩ هـ = ١١٣٤ ، بكتابيه « قلائد العقيان ومحاسن الأعيان » و « مطمح الأنفس ومسرح التأنس » ، وسنعود له فى حديث طويل .

(١) المرجع السابق ترجمة ٨٨٣ .

(٢) البغية ، ترجمة رقم ٢٣١ - رايات المبرزين ص ٧٢ - المغرب فى حلى المغرب ، جـ ٢ ص ٥٦ .

(٣) الذخيرة ، ق ١ م ٢ ص ١ - ١٢ - رايات المبرزين ص ٤٨ - الصلة ص ٤٤٣ .

(٤) نشره المستشرق الفرنسى هنرى بيريس Henri peres تحت عنوان « البديع فى وصف الربيع » فى باريس عام ١٩٤٠ .

(٥) المغرب فى حلى المغرب جـ ١ ص ٢٥٠ رايات المبرزين ص ١١ - البغية ترجمة رقم ٥٣٤ .

ذلك موجز لتطور التأريخ الأدبى فى الأندلس حتى عصر ابن بسام ، ومما يسترعى الاهتمام أن أغلب الأعلام الذين ألفوا فى هذا الباب من المشارقة والأندلسيين ، كالحظيرى البغدادى ، والعماد الأصفهانى ، والفتح بن خاقان ، وابن بسام ، ينتمون إلى القرن السادس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى ، مما يصور لنا القدر الذى كانت عليه النهضة الثقافية فى هاتيك الأيام .

لكن ثمة فارقًا فى النهج بين كتب المشارقة والمغاربة فى هذا الميدان ، فقد كان الأولون أقرب إلى الإحاطة والاستيعاب فى مناهجهم ، فكتبوا عن شعراء عصورهم من شتى الأصقاع ، ولم يقصروا مؤلفاتهم على إقليم بعينه ، فأفرد الثعالبى فى كتابه بابًا ذكر فيه جمهرة من مشاهير شعراء المغرب والأندلس وكتابها ، وحذا العماد الأصفهانى حذو الثعالبى أو زاد عليه ، فأفرد قسمًا ضخمًا لشعراء الأندلس وصقلية والقيروان والمغرب بأقسامه الثلاثة[1] ، أما المغاربة وبخاصة الأندلسيين ،فقد قصروا مؤلفاتهم على الأندلس فى الشعر والأدب ، لأسباب سنعرض لها فى حينها .

* * *

على الرغم من تقدير ابن بسام للثعالبى ، وإعجابه بمنهجه فى يتيمة الدهر واحتذائه به ، وقوله عنه فى الذخيرة : إنه « كان رأس المؤلفين فى زمانه ، وإمام المصنفين بحكم أقرانه » ، لم يكن دافعه إلى تأليف الذخيرة متابعة الثعالبى ، أو مزاحمة معاصره الفتح بن خاقان ، إنما كانت حوافزه تكمن وراء أسباب تتصل بوطنه والدفاع عنه ، وتقرير أمجاده وإشاعتها ، وهى حوافز تستبد بالنفس ساعة العثرة ، وتلحّ عليها إذا ما أحاطت بأمة الأديب العوادى وأناخت عليها المحن ، وأوشك الفناء أن يبتلعها ، ساعتها يتحول قلم الكاتب إلى سلاح يدافع ويهاجم ويقاتل ، وكان ابن بسام كذلك ..

إنه ينعى على مواطنيه « متابعة أهل المشرق ، يرجعون إلى أخبارهم

---

(١) كتاب العماد الأصفهانى « خريدة القصر وجريدة أهل العصر » يقع فى عدة أقسام : قسم شعراء العراق صدر منه فى بغداد أجزاء ، والباقى قيد النشر ، وقسم شعراء الشام . ونشر بدمشق فى ثلاثة أجزاء وملحق ، بتحقيق الدكتور شكرى فيصل ، والقسم الثالث يحتوى على شعراء مصر وصقلية والقيروان والمغرب والأندلس . نشر منه منذ سنوات ما يخص مصر فقط فى جزأين ، ونشر أخيرًا الجزء الخاص بالمغرب فى القاهرة . والجزء الخاص بالمغرب كاملا فى تونس .

المعتادة ، رجوع الحديث إلى قتادة ، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب ،أو طنّ بأقصى الشام والعراق ذباب ، لجثوا على هذا صنما ، وتلوا ذلك كتابًا محكمًا ، وأشعارهم السائرة ، مرمى القصيّة ، ومناخ الرزيّة ، لا يعمر بها جنان ولا خلد ، ولا يصرف فيها لسان ولا يد ، فغاظنى منهم ذلك ، وأنفت مما هنالك ، وأخذت نفسى بجمع ما وجدت من حسنات دهرى ، وتتبع محاسن أهل بلدى وعصرى ، غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهِلّة ، وتصبح بحاره ثمارًا مضمحلة ، مع كثرة أدبائه ، ووفور علمائه ، وليت شعرى من قصر العلم على بعض الزمان ، وخص أهل المشرق بالإحسان ؟! .

ويشيد بابن فرج الجيانى لأنه رأى رأيه فى النصفة ، وذهب مذهبه من الأنفة ، فأملى فى محاسن أهل زمانه كتاب الحدائق ، ويلوم أهل الأندلس قعودهم عن البحث عن مناقب عظمائهم ، وزهدهم فى الإشادة بمراتب زعمائهم . ثم يقرر فى زهو مبالغ « إن أهل هذه الجزيرة – مذ كانوا – رؤساء خطابة ، ورءوس شعر وكتابة ، تدفقوا فأنْسوا البحور ، وأشرقوا فباروا الشمس والبدور ، وذهب كلامهم بين رقة الهواء ، وجزالة الصخرة الصماء ، على كونهم بهذا الإقليم ، ومصاقبتهم لطوائف الروم ، وعلى أن بلادهم آخر الفتوح الإسلامية ، وأقصى خطى المآثر العربية ، ليس وراءهم وأمامهم إلا البحر المحيط ، والروم والقوط ، فحصاة من هذا حاله ثبير ، وثمده بحر مسجور » . ويستشهد على ما يقول بزواية لأبى على القالى ، وقد وفد على الأندلس عام ٣٣٠ هـ = ٩٤١ م فى زمان عبد الرحمن الناصر ، وحكى : « لما وصلت القيروان وأنا أعتبر من أمرّ به من أهل الأمصار ، فأجدهم درجات فى الغباوة وقلة الفهم ، بحسب تفاوتهم فى مواضعهم منها بالقرب والبعد ، حتى كأن منازلهم من الطريق هى منازلهم من العلم محاصة ومقايسة . فقلت : إن نقص أهل الأندلس عن مقادير من رأيت فى أفهامهم ، بقدر نقصان هؤلاء عمن قبلهم ، فسأحتاج إلى ترجمان بهذا الأوطان » ! ويعقب ابن بسام على ما أورد : « بلغنى أنه كان يصل كلامه هذا بالتعجب من أهل هذا الأفق فى ذكائهم ، ويتغطى عنهم عند المباحثة والمفاتشة ، ويقول لهم : إن علمى علم رواية ، وليس بعلم دراية ، فخذوا عنى ما نقلت لكم ، فلم آل لكم أنْ صحّحت » .

وقد اهتم بتأريخ المشارقة لأهل وطنه ، لا يكاد يقع على خبر من ذلك حتى

يمسك به ، ويشير إليه ، ويراه مهما من الأمر ، ففى ترجمته لابن دراج القسطلى : « وقد أَجرى الثعالبى طرفًا من أمره ، وأغرب بُلمع من شعره ، ففى كتابه المترجم باليتيمة : بلغنى أن أبا عمر القسطلى كان عندهم بصقع الأندلس ، كالمتنبى بصقع الشام ، وهو أحد شعرائهم الفحول هنالك ، وكان يجيد ما ينظم » لكن شهادة المشارقة لا تبل له صدى ولا ترضى طموحًا ، فما تسنح له بارحة بالزهو عليهم إلا اهتبلها ، فرفع من شأن مواطنيه ، وغض من أقدار غيرهم ، فإذا أورد قصيدة ابن دراج فى مدح علِى بن حمود[1] .

لعلّك يا شمسُ عند الأصيلِ   شَجيت لشجو الغريبِ الذليلِ
فكونى شفيعى إلى ابن الشفيع   وكونى رسولى إلى ابن الرسول
فإمَّا شهدت فأزكى شهيدٍ   وإمَّا دللتِ فأهدى دليل
على سابقٍ فى قيودِ الخطوبِ   ونَجْمٍ سنًا فى غُثَاء السيول

عقبّ عليها ، « وهذه القصيدة له طويلة ، وهى من الهاشميات الغر ، بناها من المسك والدر ، لا من الجص والآجر ، لا بل خلّدها حديثًا على الدهر ، وسرّ بها مطالع النجوم الزهر ، لو قرعت سمع دعبل الخزاعى ، والكميت الأسدى ، لأمسكا عن القول ، وبرئا إليها من القوة والحول ، بل لو رآها السيد الحميرى ، وكثير الخزاعى ، لأقاماها بينة على الدعوى ، ولتلقياها بشارة على زعمهما بخروج الخيل من رضوى ، وقد أثبت أكثرها إعلانًا بجلالة قدرها ، واستحسانًا لعجزها وصدرها » .

وأظن ابن بسام يقف وحيدًا فى رأيه هذا ، فالقصيدة ككثير من قصائد ابن دراج ، متينة النظم ، قوية البناء ، جزلة العبارة ، لكنها خامدة الروح ، تبدو كأن صاحبها مجهد متعب ، يقولها أداء لرسالة ، أو قيامًا بواجب ، لا تعبيرًا عن مشاعر تلح عليه ، وتأخذ بخناقه كى يحملها ما يقول من أبيات !

كان ذلك طابعه ، لا يترك فرصة تمضى دون أن يسجل فيها تفوق الأندلسيين

(١) على بن حمود ، وينتهى نسبه – فيما يزعم – إلى الحسن بن على بن أبى طالب كان جنديًا فى جيش سليمان بن الحكم بن سليمان ، الملقب المستعين بالله ، جعله هذا وأخاه القاسم قائدين على المغاربة ، وولى عليا سبتة وطنجة ، وولى القاسم الجزيرة الخضراء . ثم طمع على فى الإمارة ، فاستولى على قرطبة ومالقة وتسمى بالخلافة . وتلقب بالناصر ثم قتل غيلة عام ٤٠٨ هـ = ١٠١٨ م ، انظر : المعجب ص ٤٣ و ٤٩ وما بعدها

على المشرقيين ، ولا يتهيب القول بأن إشبيلية تفوق العراق عظمة ، وأنها تزرى بالبلغاء من كتاب الديلميين(١) .

***

قسم ابن بسّام ذخيرته ، محتذيا أثر الثعالبى في يتيمته ، إلى أقسام أربعة :

● **القسم الأول** واختص به « أهل حضرة قرطبة وما يصاقبها من بلاد موسطة الأندلس » ، وترجم فيه لأربعة وثلاثين شاعرًا وأديبًا وسياسيًّا ومؤرخًا ، أظهرهم ابن دراج القسطلى ، وابن حزم ، وابن شهيد ، وابن زيدون ، وولادة بنت المستكفى ، وعبادة بن ماء السماء ، وابن حيان وابن الفرضى ، وأبو طالب عبد الجبار المعروف بالمتنبى عند مواطنيه من أهل جزيرة شقر ، وتوجد مخطوطات هذا القسم فى الرباط ، ودار الكتب المصرية ، والمكتبة التيمورية الملحقة بدار الكتب المصرية ، ويوجد النصف الأول لهذا القسم مخطوطًا فى المكتبة الأهلية بباريس ، وكان المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال يملك نسخة أخرى مخطوطة لهذا القسم ، وقد نشر هذا القسم كاملا فى مجلدين فى القاهرة ، وصدر المجلد الأول منه عام ١٩٣٩م، والمجلد الثانى عام ١٩٤٢م .

● **القسم الثانى** وجعله لأهل الجانب الغربى من الأندلس « وذكر أهل حضرة أشبيلية وما اتصل بها من بلاد ساحل البحر المحيط الرومى » ، وعرّفتُ فيه بستة وأربعين من الرؤساء وأعيان الكتاب ، أوضحهم : القاضى أبو القاسم بن عبّاد وابنه المعتضد ، والمعتمد وكيفية خلعه ، والقاضى أبو الوليد الباجى ، وابن القصيرة ، وابن عمّار ومقتله ، وابن وهبون ، وابن عبدون ، والأعمى التطيلى ،وابن القبطورنة ، وابن قزمان وغيرهم ، وتوجد مخطوطات هذا القسم فى دار الكتب المصرية ، وفى مكتبة بغداد ، وفى مكتبة أكسفورد ، ومكتبة المجمع التاريخى فى مدريد ، وخزانة القصر الملكى فى الرباط .

● **القسم الثالث** ، وذكر فيه أهل الجانب الشرقى من الأندلس ، ومن نجم من كواكب العصر فى أفق ذلك الثغر الأعلى ، إلى منتهى كلمة الإسلام هناك ، وعرّف بعدد من الرؤساء وأعيان الكتاب وطوائف الشعراء ، بينهم ، ابن حسداى ، وابن خفاجة ، وابن اللبّانة ، وابن أبى الخصال ، وغيرهم ، وتوجد

(١) Pęręs Henri La Poęsie Andaleuse en Arabe Classibue au XIe sięcle. b. Paris 1953.

مخطوطات هذا القسم فى مكتبة بغداد ، وفى مكتبة جوتا Gotha بألمانيا ، والمجمع التاريخى فى مدريد ، وخزانة القصر الملكى فى الرباط ولم ينشر من هذا القسم شىء فى القاهرة .

● القسم الرابع ، وأفرده لمن طرأ على هذه الجزيرة من أديب شاعر ، وأوى إلى ظلها من كاتب ماهر ، واتسع فيها مجاله ، وحفظت فى ملوكها أقواله ، وألحق بهم طائفة « من مشهورى أهل تلك الآفاق ، ممن نجم فى عصره بأفريقية والشام والعراق » وقد أثبت فى آخر هذا القسم طرفًا من كلام أهل المشرق ، وإن كانوا لم يطرأوا على هذا الأفق ، حذْو أبى منصور الثعالبى ، فإنه ذكر فى يتيمته نفرًا من أهل الأندلس ، فعارضه أو ناقضه . وتضم تراجم هذا القسم اثنين وثلاثين شخصًا ، أولهم أبو العلاء صاعد البغدادى وابن حمديس الصقلى ، وابن القابل البستى ، ومن المشارقة : الشريف الرضى ، ومهيار الديلمى ، والثعالبى ، وأبو إسحاق الحصرى ، وابن رشيق القيروانى ، وغيرهم ، وتوجد مخطوطات هذا القسم فى الرباط ، وأخرى كان يمتلكها ليفى بروفنسال ، ونُشِرَ المجلد الأول منه فى القاهرة عام ١٩٤٥م.

وتوجد فى خزانة القصر الملكى فى الرباط نسخة فريدة كاملة من الكتاب بأقسامه الأربعة ، حسنة الخط ، جيدة التجليد ، كاملة ، عُثِرَ عليها أخيرا ، ولم تكن معروفة حتى خمسة عشر عامًا خلت .

إذا تتبعنا النهج الذى التزمه ابن بسام فى كتابه ، وجدناه **يعتذر فى مطلعه عما عسى أن يكون قد أغفله أو سها عن ذكره** بالظروف الخاصة التى ألف فيها كتابه ، وبأن الأوراق التى اعتمد عليها كانت حافلة بالأخطاء . « لعل بعض مَنْ يتصفحه سيقول : إنى أغفلت كثيرًا ، وذكرت خاملا ، وتركت مشهورًا ، وعلى رسله ، فإنما جمعته بين صعب قد ذل ، وغرب قد فل ، ونشاط قد قل ، وشباب ودع فاستقل ، من تفاريق كالقرون الخالية ، وتعاليق كالأطلال البالية ، بخط جهال كخطوط الراح ، أو مدارج النمل بين مهاب الرياح ، ضبطهم تصحيف ، ووضعهم تبديل وتحريف ، أيأسُ الناس منها طالبها ، وأشدهم استرابة بها كاتبها . ففتحت أنا أقفالها ، وفضضت قيودها وأغلالها ، فأضحت غايات تبيان وبيان ، ووضحت آيات حسن وإحسان » .

ولم تكن بين يديه أخبار موضوعة ، ولا أشعار مجموعة لكل من ترجم لهم ، تفسح له فى طريق الاختيار ، فانتقد ما وجد ، وبحث طويلا ، وضمن كتابه من أخبار مواطنيه ما أملّ أن يربى به على أهل المشرق .

ولم يرتب تراجمه على حسب السنين إلا فى الجزء الخاص ببطليوس وما يصاقبها ، وإنما رتبها على حسب مكانة المترجم له كما رآها ، وهو يبدأ عادة بترجمة العلم المراد ، شاعرًا أو كاتبًا أو سياسيًّا ، مرسلة فى نثر بديع مسجوع ، ثم يذكر مؤلفاته ، ويطرى مواهبه الأدبية ، ويورد مقتطفات من شعره ونثره ، وفى الترتيب بين أصحاب الفنون يبدأ بذكر الكتاب « لأنهم صدور فى الآداب إلا أن يكون له حظ من الرياسة ، أو يدعو إلى تقديمه بعض السياسة » ، وأول من ذكر من أهل قرطبة أمراؤها فى الفترة التى أرّخ لها ، وتلاهم بالكتاب ، فالوزراء ، فأعيان الشعر ، ثم بطوائف من المقلين منهم ، « وقد يذكر الشاعر الخامل ، وينشد الشعر النازل ، لأرب يتعلق به ، أو الخبر يذكر بسببه ، وقد يذكر الرجل لنباهة ذكره لا لجودة شعره ، ويقدم الآخر لاشتهار إحسانه ، مع تأخر زمانه » .

وأورد فهرسًا مفصلا فى أول الكتاب عن أقسامه الأربعة ، ومحتوى كل قسم منها ، وما درس فيه من أمراء أو كتاب أو شعراء ، وإخاله وحيد عصره فى هذا المجال .

وقصر مؤلفه على أهل زمانه ، من منتصف القرن الحادى عشر الميلادى إلى منتصف القرن الثانى عشر ، فلم يعرض لشىء من أشعار الدولة الأموية إمارة كانت أم خلافة ، ولا لعصر الحجابة على أيام المنصور العظيم وابنيه ، لأن أولئكم فيما يرى ترجم لهم ابن فرج الجيانى فى كتابه « الحدائق » ، فلم يعرض لأحد ممن ذكره ، ولم يتعد أهل عصره ممن شاهده بنفسه ، أو لحقه بعض أهل دهره ، لأن كل مردّد ثقيل ، وكل متكرر مملول .

وهو يخرج على قاعدة الفضل للمتقدم ، وكانت سائدة فى عصره وما قبل عصره ، فيرى « أن الإحسان غير محصور ، وليس الفضل على زمن بمقصور ، ويكره للفضل أن يُنكر تقدم به الزمن أو تأخر ، ولو اقتصر المتأخرون على كتب المتقدمين لضاع علم كثير وذهب أدب غزير » ، وهى قاعدة فى النقد الأدبى ليست له ، وإخاله نقلها عن القاضى علىّ بن عبد العزيز الجرجانى

(ت ٣٦٦ هـ = ٩٧٦ م) صاحب كتاب « الوساطة بين المتنبى وخصومه » ، فقد كان ابن بسام معجبًا بالمتنبى ، حفيًّا بشعره ، يكثر الاستشهاد به ، وكان الجرجانى أول من أنصف المحدثين دون أن يتحيف الأقدمين حقهم ، عالمًا بصيرًا فى دراسته للموضوع وتحليل أسبابه ، فهو يرد الإعجاب بالقدامى إلى « الكلف بنصرة ما سبق إليه الاعتقاد ، وألفته النفس »[1] على حين قنع ابن بسام من القضية بإنكارها فى جمل إنشائية بلاغية .

وبين مذهبه فى **طريقة إيراد النصوص وعرضها** ، وأنه أراد بديوانه « أن يكون بستان منظوم ومنثور ، لا ميدان بيان وتفسير ، يورد الأخبار والأشعار لا يفك معمّاها فى شىء من لفظها أو معناها » . ولكنه إذا ظفر بمعنى حسن ، أو وقف على لفظ مستحسن ، ذكر من سبق إليه ، وأشار إلى من نقص عنه أو زاد عليه . فإذا أورد الأبيات الآتية لابن زيدون فى نزهة كانت له بمدينة الزهراء :

إنّى ذكرتُك بالزهراء مشتاقًا ... والأفق طَلْقٌ ومرأى الأرض قد راقَا
وللنسيم اعتلالٌ فى أصائله ... كأنَّه رقّ لى فاعتلَّ إشفاقًا
والروضُ من مائه الفضى مبتسمٌ ... كما حَلَلْت عن اللبّات أطواقا
لاسكَّن اللهُ قلبًا عقَّ ذكركُم ... فلم يَطِرْ بجناح الشوْق خفَّاقَا
لو شاء حملى نسيم الريح حين سرى ... وافاكم بفتى أضناهُ ما لاقى

قوله : « وللنسيم اعتلال فى أصائله » ، البيت ، أراه ألمّ فيه بقول ابن المعتز :

والريحُ تجذبُ أطراف الثياب كما ... أفضى الشفيقُ إلى تنبيه وسنان

وقلبَهُ الرضىّ فقال :

وأمست الريحُ كالغيرىَ تجاذِبُنا ... على الكثيب فضولَ الرَيطِ واللمم

وأحسب الفرزدق أبا عذرته ، وواسم غرته بقوله :

وركْبٍ كأنَّ الريح تطلبُ عندهم ... لها تِرةً من جذبها بالعصائب

ومدّ أطناب المعنى بالبيت حيث يقول :

---

(١) على بن عبد العزيز الجرجانى : الوساطة بين المتنبى وخصومه ، ص ٩ ، الطبعة الأولى ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرين ، القاهرة ١٣٦٤ هـ = ١٩٤٥ م وانظر مناقشة القضية علميا للدكتور ابراهيم سلامة فى كتابه . بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ، ص ٢١٢ و ٢١٣ ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٦٩ هـ = ١٩٥٠ م

سروا يخبطون الريح وهى تلفهم   إلى شعب الأكوار ذات الحقائب

وقوله : « لو شاء حملى نسيم الريح » ، كقول المجنون وهو أحسن ما قيل فى النحافة ، على زعم المبرد :

ألا إنما غادرت يا أمّ مالك   صدى أينما تذهب به الريح يذهب

وقال المتنبى :

كفى بجسمى نحولا أننى رجل   لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

وقال الخبز أرزى :

أنحلنى الحب فلو زج بى   فى مقلة النائم لم ينتبه

وإذا مرّ معنى غريب ، وتعلق به خبر مشهور ، وأمكنه فيه شعر كثير ، مد أطنابه ووصل أسبابه .

وهو يمهد لما ذكر من شعر ورسائل بما تعلق بها من أنباء الفتن ، ونُبَذ من مشور الوقائع، «ليجمع بين الشعر والخبر جمع الروضة بين الماء والزهر»، لأنه راى « اكثر ما ذكر الثعالبى من ذلك فى يتيمته محذوفًا من أخبار قائليه ، موتورًا من الأسباب التى وُصِلتْ به وقيلت فيه ، فأملّ قارئ كتابه منحاه ، وأحوجه إلى طلب ما أغفل فى سواه » . وهو بذلك يحقق أدق قواعد النقد الأدبى الحديث التى تقرر : إن تفسير الأدب وتقويمه يكون أكثر وضوحًا ودقة ، إذا عرفت الظروف التى قيل فيها ، والحوافز التى دفعت إليه ، والملابسات التى صحبته ، وفى نفس الوقت تسهم هذه المقدمات فى توضيح الإشارات التى تحتويها القصائد وتحديد مدلولها .

فإذا توسّم أن فى القصيدة بيتًا غامضًا فسره ، أو تركيبًا معقدًا فصّله ، وذلّل صعابه ، ففى قصيدة لابن دراج فى مدح المنصور بن أبى عامر :

وما رأى قَبْلَها قِرْنًا أعانِقُهُ   إلا وودَّع نفسًا لا تراجِعُهُ

حتى بدا الصبحُ مُشمطًّا ذوائبهُ   يطارِدُ الليلَ مَوْشِيًّا أكارِعُهُ

كأنّ جَمْعَ ضلالٍ حانَ مصرعُه   وأنتَ بالسيف يامنصورَ صَارِعُهُ

علّق عليه بقوله : قال أبو الحسن : قوله « موشيًا أكارعه » جعل ذوائب الصبح مشمطة من ممازجة الليل له ، وجعل أكارع الليل موشية من ممازجة الصبح لها ، وجعل آخر الليل من مواخره وهى المتصلة بأول الصبح ، وآخر الصبح من

مقادمه وهى المتصلة بآخر الليل ، وأصاب فى الإشارة إلى التشبيه لأنه أومأ إلى أن الصبح كالثور الوحشى وهو أبيض ، والثيران الوحشية كلها بيض ، وأكارعها موشية خاصة ، وإنما ألم القسطلى فى هذا بقول أعرابى يصف ليلة : « خرجنا فى ليلة حندس قد ألقت على الأرض أكارعها فمحت صور الأبدان ، فما كدنا نتعارف إلا بالآذان » .

وهو يورد من النصوص ما يرتضيه ،أو يخدم فكرة معينة يهدف لها ، أو تصوّر شخصية من يترجم له ، دون أن يجرى فى إيرادها على خطة ثابتة ، تارة يقنع من النص ببعضه ويشير إلى ذلك : « امتد بأبى عامر الكلام فى هذا الباب ، ومد فيه أطناب الإطناب والإسهاب ، فلذلك وقفت دون الغاية ، وقطعت قبل النهاية » . وأحيانًا ، جريًا على نفس المبدأ ، يكمل ما اختصر غيره وينبئ به ، ولا تسير تراجمه على نمط واحد ، أحيانًا تطول فتمتد إلى قريب من خمس وعشرين ومائة صفحة ، كما فى ترجمة ابن شهيد ، وقد تتوسط كما فى ترجمة ابن دراج القسطلى ، وقد يكتفى بثلاث صفحات كما أخبر عن ولادة بنت المستكفى.

* * *

كان حيّان بن خلف بن حيّان (ت ٤٦٩٠ هـ = ١٠٧٦ م) المصدر الأول الذى عوَّل عليه ابن بسام فنقل منه كثيرًا ، وأشار إليه صراحة فى أكثر ما نقل ، وأغفل ذكره أحيانًا ، وإن لم يشر إلى المؤلف الذى أخذ عنه ، مكتفيًا بقوله : قال أبو مروان ، أو قال ابن حيان ، أو حكى أو نقلت من خطه ، ولو أنه ذكر فى مطلع الكتاب أنه عوَّل على تاريخه الكبير .

لقد ودع ابن حيان الحياة وابن بسام على ظهرها وليدًا ، ومن المؤكد أنهما تعاصرا ، شيخ فان فى قرطبة ملء السمع والبصر ، ووليد قادم فى شنترين لا يعرف لنفسه ، ولا يعرف له أهله ، ما سيكون عليه فى الغد البعيد ، ووفد ابن بسام على قرطبة ولم يمض على وفاة شيخ مؤرخيها غير ثلاثين عامًا ، فوجد كتبه ذائعة ، وعلمه مذكورًا ، وشهرته تسد الأفق ، فنهل من فيضه ، واعترف له بالفضل والسبق ، « إذا وجدت من كلامه فصلا قد أحكمه ، أو خبرًا قد سرده ونظمه ، عوّلت على ما وصف ، ووليته خطة ما سطر وصنف ، إقرارًا بالفرق ،

وإعفاء لنفسي من معارضة من أحرز بأفقنا فى وقته قصبات السبق ، وبرز فى زمانه على جميع الخلق » .

أى « تاريخ كبير » هذا الذى عوّل عليه ابن بسام ؟

نحن نعرف لابن حيان كتبًا كثيرة ، منها : « أخبار الدولة العامرية » ، أو المآثر العامرية فى رواية أخرى ، ويعرض فيه لتاريخ الأندلس خلال حجابة المنصور بن أبى عامر ، وابنيه من بعده ، المظفر عبد الملك وعبد الرحمن شنجول ، أى الفترة الواقعة بين عامى ٣٦٦ هـ = ٩١٦ م و ٣٩٩ هـ = ١٠٠٨ م . وكتاب « البطشة الكبرى » ، ويعرض فيه لاستيلاء المعتمد بن عباد على مدينة قرطبة ، وخلع بنى جهور عن رياستها ، ونفى من بقى منهم إلى شلطيش ، لتسع بقين من شعبان سنة ٤٦٢ هـ، أول يونية ١٠٧٠ م . « وتاريخ فقهاء قرطبة » ، وقد ضاعت كلها .

وألّف كتابه « المتين » فى ستين مجلدة ، وضاع هذا الكتاب كله أيضًا ، إلا بقايا متناثرة فى كتب مَن جاءوا بعده ونقلوا عنه ، أشاروا إليه أو لم يشيروا ، كابن بسام فى « الذخيرة » ، وابن عذارى فى « البيان المغرب » ، وابن الأبار فى « الحلة السيراء » ، وابن سعيد فى « المغرب فى حلى المغرب » ، والقاضى عياض فى « ترتيب المدارك » ، وتبدأ وقائعه فيما يرجح بأحداث الفتنة البربرية ، فى عام ٣٩٩ هـ = ١٠٠٨ م ، وتنتهى قبل وفاة مؤلفه بسنوات عام ٤٦٩ هـ = ١٠٧١ م .

ثم « المقتبس » ، وكان يتألف من عشرة أسفار ، ووصلتنا منه عدة مخطوطات ، لأقسام مختلفة منه .

القطعة الأولى حصل عليها المستشرق الفرنسى ليڤى بروفنسال ، من خزانة جامع القرويين فى فاس ، وتضم إمارة الحكم الأول ، والشطر الأكبر من إمارة ابنه عبد الرحمن الأوسط ، وتقع فى ١٨٨ ورقة ، وقد حاول أن ينشرها فى مصر عام ١٩٣٨م، ثم قامت الحرب ، وصمت عنها ، واختفت دون أن يعرف لها أحد مقرًا .

وقطعة ثانية ، وكانت تؤلف مع الأولى ، فيما يبدو مخطوطًا واحدًا ، لأنها تبدأ من حيث تنتهى تلك ، وترقيم الأوراق يتصل بترقيم السابقة ، وجاءت فى ٩٥ ورقة ،

وعثر عليها فى حافظة أوراق متناثرة فى خزانة جامعة القرويين فى فاس ، ونشرها الدكتور محمود على .

والقطعة الثالثة ، وتوجد فى المكتبة البودلية فى أكسفورد تحت رقم ٥٠٩ ، وتتناول عصر الأمير عبد الله بن محمد ، وتضم ١٠٧ ورقات ، وكان الأب ملتشور أنطونيا يعدها للنشر ، ولكنه قُتِلَ فى الحرب الأهلية الإسبانية عام ١٩٣٦م، فنشرت فى باريس بعد وفاته ، عام ١٩٣٧م، ومن ثمّ لم تكن جيدة الضبط ، اضطرب النص أحيانًا وغمض أحيانًا أخرى .

القطعة الرابعة ، وتوجد فى خزانة القصر الملكى فى الرباط ، وهى مما آل إليها من خزانة آل زيدان فى مكناس ، كان ملتشور أنطونيا أول من عرف بها وأشار إليها ، فقد اطلع على قائمة هذه الكتب ، وفيها مخطوط يحمل رقم ١٢٨٣ ، ذُكِرَ أمامه أنه القسم الخامس من كتاب المقتبس ، وأنه متعلق بسنوات خلافة عبد الرحمن الناصر ، وقد اطلعت على المخطوطة بنفسى ، ورجعت إليها أكثر من مرة ، أثناء ترددى على خزانة القصر الملكى ، وهى مجلدة وسليمة ، لولا أن الأرضة قد عبثت شيئًا بالورقات الأولى منها ، وأكثر ما لفت نظرى من أحداثها أنها تلقى ضوءًا كاشفًا على حركة ابن مسرة الفلسفية ، وفيما أعلم فإن الأستاذ محمد الفاسى يقوم على تحقيقها وضبط نصها لنشره[1] .

والقطعة الخامسة مخطوطة مجمع التاريخ الملكى فى مدريد ، وهى حديثة الكتابة ، استنسخها المستشرق الإسبانى فرانسيسكو قديرة ، عن أصل قديم كان يوجد فى مكتبة سيدى حمود فى قسنطينة بالجزائر ، وقد ضاع أصل المخطوطة ، ومن ثم أصبحت النسخة الحديثة هى الأصل ، وهى تعالج أحداث خمس سنوات غير كاملة من خلافة الحكم المستنصر ، وكان المستشرق الإسبانى غرسية غومث قد توفّر على دراستها سنوات فيما يقال ، ثم دفع الدكتور حسين مؤنس ، وكان مديرًا للمعهد المصرى فى مدريد ، لحاجة فى نفسه من غرسية غومث ، بالطالب العراقى (الدكتور فيما بعد) عبد الرحمن حجى ، فنسخ المخطوطة خفية ، ونشرها بغير إذن ، فى بيروت عام ١٩٦٥م، مما جعل مجمع التاريخ يتخذ قرارًا بحجب كل

---

(١) هكذا قيل لى يومها ، لصرفى عن تصويره وتحقيقه وفيما بعد حصل عليه المستشرق الأسبانى بدرو شالميتا ونشره فى مدريد مع فيدريكو كورينتى دى قرطبة ، وصدر عن المعهد الأسبانى العربى ١٩٧٩م.

مخطوطاته عن الدارسين العرب ، قرار مجحف لا يزال قائمًا حتى الآن ! .

أى الكتابين ، المقتبس أو المتين ، يعنى ابن بسام ، حين يشير إلى أنه ينقل عن التاريخ الكبير لابن حيان دون تحديد ؟ .

الواقع أن كلا الكتابين كان كبيرًا ، غير أن مادة كل منهما . وإشارات المؤرخين يمكن أن تعيننا فيما نهدف إليه من تحديد . لقد ألف ابن حيان كتاب « المقتبس » أولا ، ووقفه على تاريخ الأندلس منذ الفتح حتى قريب من عصره ، وهى فترة لا يعرض لها ابن بسام ، على حين أن المتين يتناول الحياة المعاصرة لابن حيان ، وهى تعنى صاحب كتاب الذخيرة ، وتتفق مع منهجه فى كتابه ، وينص ابن سعيد على ذلك صراحة فيقول : « والمتين يذكر فيه أخبار عصره ، ويمعن فيها مما شاهده ، ومنه ينقل صاحب الذخيرة » . وإذن يمكن أن نرجح مطمئنين أن ابن بسام كان يستقى مادته التاريخية حين يشير إلى ابن حيان ، وحين لا يشير ، من كتابه المتين ، وهُو بهذا يمكن أن يقدم لنا بعض العون فى تصور المنهج الذى سار عليه مؤرخ الأندلس العظيم فى كتابه « المتين » .

لم يلتزم ابن بسام نص ابن حيان فيما روى ، فكان يقتضب حيث تبدو له الرواية طويلة ، ويتخفف حين يبدو له الخبر ثقيلا ، ويجمل ما فصّل ويوجز ما شرح ، ويكمل ما يروى عن ابن حيان إذا رأى فى الخبر نقصًا ، أو أدرك أن له بقية ، تتميمًا للفائدة ، وقد ينقل له ويخالفه فيما ارتأى فيحتاط لنفسه ، ويورد قوله فى جو من الشك بأن يزيد : « زعم » أو « زعموا » يبرأ بها من مسـ ولية ما أورد ، كأنما يقول أنا راو ، والمسئولية على من قال .

وينقل قليلا من كتاب « نقط العروس » لابن حزم ، والسبب واضح ، فالكتاب يضم معلومات مقتضبة عن خلفاء المشرق والأندلس وحكامهما ، مما يوحى بأنها مجرد نقاط جمعها ابن حزم لينشئ حولها كتابًا مطولا ، وما نقله ابن بسام منه كان خاصًّا بخبر ولّادة ، وهى أقصر ترجمة أوردها ، ثم ترجمة لوالدها[1] .

وينقل عن ابن قتيبة على قِلّة ، دون أن يشير إلى أى من كتبه ، وكلها كان

---

(١) كتاب نقط العروس لابن حزم نشره زابيولد فى غـرناطة عام ١٩١١م، وأعاد نشره سيكودى لوثينا، أستاذ اللغة العربية فى جامعة غرناطة مرة أخرى عـام ١٩٤٦م، وأخيرا نشره الدكتور شوقى ضيف فى القاهرة عام ١٩٥١م.

معروفًا ومقروءًا فى الأندلس ، وعن الصولى فى أخباره ، وأخبار بغداد لابن طاهر . فإذا كان الخبر من روايته أورده بصيغ مختلفة تبعًا لتمكنه منه ، فمرة « حدثنى غير واحد من وزراء إشبيلية » أو « أخبرنى من لا أدَفع خبره من وزراء إشبيلية » أو « أخبرنى الفقيه أبو بكر ابن العربى » .

نقل ابن بسام كثيرًا عن ابن حيان ، ودان فى معظم ما أورده من أحداث تاريخية لمعلومات هذا الشيخ الباقعة ، وأورد له ترجمة ضافية ضمنها فصولا وافية عن أدبه ، وكان له فى الرجل رأى أورده واضحًا .

فهو يصفه بأنه « كان سهمًا لا ينمى رميه ، وبحرًا لا يتكش آذيه ، لو ثلب الماء ما نفع ، أو تعرض لابن ذكاء ما سطع ، يتناول الأحساب قد رسخت فى التخوم ، وأنافت على النجوم ، فيضع منارها ، ويطمس أنوارها ، بلفظ أحسن من لقاء الحبيب غب الموعد ، وأمكن من غدر الطبيب عند العُوَّد ، فرُبَّ شامخ بأنفه ، ثان من عطفه ، قد مرَّ فى كتابه بفضل جرده لوضع حسبه ، وخلَّد أحدوثة باقية فى عقبه ، فيرده ورود الظمآن الرنق ، ويلبسه لبس العريان الخلق » .

لكنه يرى أن التوفيق أخطأه فيما تحدث به فى تاريخه عن ملوك الطوائف فجاء كلامه كما قال ابن الرومى :

مهما تقلْ فسهام منك مرسلةٌ   وفوكَ قوسُكَ والأغراضُ أعراضُ

وما تكلّمت إلا قلتَ فاحشةً   كأنَّ فكّيكَ للأعراضِ مِقْراض

« وكان عندهم بقرطبة خاتمة المتكلمين ، على ما تراه ركب من إثم ، واحتقب من ظلم ، وتناول من عرض ، وأطبق من سماء على أرض ، وأكثر ما وجدت من كلامه ففى الذم ، أحفى شباة قلمه ، وخلد أوابد كلمه ، ولو وجدت له فى سواه شيئًا أستشهد به على فضله ، وأجعله ذريعة إلى الثناء بنبله ، لكنت له أجمع وإليه أسرع » .

فإذا اقتضب من كلامه فصولاً كَنَّى عن أكثر مَا به صرّح ، وأعجم باسم من به أعرب وأفصح ، رغبة - كما يقول - بكتابه عن الشَّيْن ، وبنفسه أن يكون أحد الهاجِيَيْن ، إلاّ فى بعض أخبار ملوك الطوائف ، لما تعلق بذكرهم من فنون المعارف .

والحق أن ابن حيّان لم يكن هجّاء مفحشًا كما أراد أن يصوره ابن بسام ، نعم

كان صريحًا موغلا فى الصراحة ، تنكبّ طريقه كثير من المؤرخين المسلمين حين يتحرجون من ذكر المعايب جريًا وراء المثل القائل : « اذكروا محاسن موتاكم » فكان يذكر المحاسن لكنه لا يحجم عن ذكر المساوئ ، لا يوردها ملتوية تومئ وتشير ، وإنما يذكرها صراحة دون مواربة ، فى جرأة دون تردد ، وساعده على ذلك فى أيامه الأولى ، حماسة متقدة ، وشباب دافق ، ودويلات نافقة بالنقائص ، وفتن عامرة بالظلم ، فنظم أخبارها إلى وقته ، وجاء بها على وجوهها ، وأوردها على سوغها ، ناشرا مطاويها ، معلنا خوافيها ، غير محاب ولا خائف فى الصدق . فلما أوغل به العمر ، وتقدمت به السن ، وغمرته عطايا بنى جهور ، وألحقه أبو الوليد محمد بن جهور بديوانه براتب واسع ، وهن منه العزم ، ولدن القلم ، فلم ير فى بنى جهور إلا الخير ، والحق أن دولتهم برئت من أوزار كثيرة شانت حكومات ذلك العصر فى دولة الأندلس .

جعل ابن بسام تحامله على ابن حيان مدخلا يعتذر به لنفسه عن أخبار كثيرة ومثيرة نقلها عنه وحذف أسماء من تتصل بهم ، حذف فيما يبدو كان دافعه الخوف وليس التعفّف ، فقد كان الرجل فى إشبيلية وافدًا غريبًا مهيض الجناح ، دون عصبة تحميه وتدفع عنه ، فكان عليه أن يعالج الأمور فى حذر ورويّة ، وإلا ساءت عاقبته ، وانتهى به المطاف كما انتهى برفيق له من قبل ، الفتح بن خاقان ، حين وجد مخنوقًا فى فندق لا يعرف له قاتل ،وقد تخلَّل فصول الذم التى أوردها بعد أن كنى عن أصحابها « بفلان » فقرات صريحة الأسماء لأنها جاءت فى مقام المدح لها والتبجيل . كذلك ضمَّن ما نقل عن ابن حيان أسماء ملوك الطوائف ، برغم رميه له بأن الصواب جانبه فيها ، لأنه خط مؤلفه فى ظلال دولة المرابطين ، فكان ما يكتب من هذا القبيل تبريرًا لما صنع هؤلاء معهم ، ودفاعًا عما قوضوا من بنيانهم .

ولكن حذف الأسماء أضاع القيمة التاريخية والتوثيقة للنصوص التى أوردها ابن بسام ، وهى - كما يستنتج منها - تمس أشخاصًا لعبوا دورًا هامًا فى حياة العصر ، سياسية أو أدبية أو اجتماعية ، وتحولت إلى بهرج لفظى لا طائل وراءه ولا معنى تحته ، فماذا نفهم نحن من قوله : « ومات فلان الغنى العبام ، حجة الله فى الرزق وغيظ الأنام . فنهض بريئًا من كل خلة جميلة إلى غنى غالب عليه ،

وكان أخوه مثله فى الأفن والجهل ، وكلاهما ممن استهينت به خطة الوزارة بحملها اسمها الخطير ، من غير تعلق بفضيلة فى حديث ولا قديم ، ولا معرفة بشىء من التعاليم » ؟ .

ويبدو أن ابن بسام لم يكن وحيدًا فى تردده إزاء كتب ابن حيان وإيراد فصولها على ما هى عليه ، وأن هناك آخرين كانوا يشاركونه هذا الاتجاه فيمسكون عن ترديد كتبه وإذاعتها ، ومن ثم بدأت تتوارى عن حلق الدرس ، وتختفى من حوانيت الوارقين فى وقت مبكر جدًّا ، لأن ابن بسام نفسه ، وكان فى إشبيلية بعد ستين عامًا من وفاة ابن حيان ، يذكر أن من بين مؤلفاته جزءًا كبيرًا فى مجلد ضخم ، أسماه « البطشة الكبرى » وصف فيه خلع ابن جهور عن قرطبة ، لكنه لم يقع عليه حتى لحظة تحريره كتاب الذخيرة ، وهو ظن يؤيده أن ابن حيان نفسه حاول أن يستأثر بما كتب لنفسه ، وأن يخبئه لولده ، وأن يضن به على الناس الذين أساءوا تفسيره ، لولا رغبة جاءته من المأمون يحيى بن ذى النون .

* * *

يمكن أن نتبين من الذخيرة مذهب ابن بسام النقدى مصرحًا به ، أو مستنتجًا من سكوته ، ويتبين الأول من نقده الإيجابى لما يورد من أبيات ، وهو عادة نقد عام ، دون ذكر تفاصيل أو توشيح بأسباب ، كقوله معقبًا على نثر ابن دراج القسطلى وإكثاره من شعره : « ونثر أبى عمر رحمه الله دون نظمه الرائق بكثير ، لذلك ما ألمعت منه بالشىء اليسير وعوّلت على عارض شعره المتين الغزير » .

وإذا أورد بيتًا من الشعر فأعجبه معناه ، أو استحسن لغته ، وقف عنده أحيانًا ، وذكر من سبق به ، وأشار إلى من زاد عليه أو نقص منه ، لكنه يلتزم فى توارد الشعراء على المعنى الواحد موقفًا متساهلًا ، جاريًا على قاعدة « أن ما يشترك فيه الناس ، وتجرى عليه طباع الشعراء ، لا يسمى مسروقًا ، لأن المعرفة به واحدة ، والإحساس به مشترك ، فقد تتوارد الخواطر ، ويقع الحافر حيث الحافر ، إذ الشعر ميدان ، والشعراء فرسان » .

ويقف من الشعر كفن موقفًا عنيفًا ، لم « يرضه مركبًا ، ولا اتخذه مكسبًا ، ولا ألفه مثوى ومنقلبًا » وحين يصدر حكمه يقدم له بأسباب تمس شكل الشعر ومضمونه، ورسالة الشاعر ومكانته، ودور الشعر وهدفه، فيرى أن «أكثر خدعة

محتال ، وخلعة مختال ، جده تمويه وتخييل ، وهزله تدليه وتضليل ، وحقائق العلوم أولى من أباطيل المنثور والمنظوم » . وهو حكم ممرور كما ترى ، يحمل الكثير من الأسى ، ولعل دوافعه تكمن فى طبيعة العصر الذى تفتحت عليه عينا ابن بسام ، حين كانت الغاسلة تنتقل من ضفة النهر إلى العرش ، وينزع الملك من العرش إلى القبر ، أو يلقى به فى ظلمات المنفى ، عصر طابعه التناقض والتردّى والانهيار ، ونجد تفسيره واضحًا فى ألوان الشعر ونماذجه ، فلم يبرع الأندلسيون فى الشعر السياسى والحماسى وطبيعة الصراع تقتضيه ، ولم يوفقوا فى شعر الحكمة والرجل المستقيم يهواه ، وكان شعرهم الدينى نظمًا لا حرارة فيه ، وهو مطرب الصالحين وزاد التقاة ، ثم أسرفوا فى المدح ، وغالوا فى التعظيم ، حتى قال فيهم ابن رشيق القيروانى :

مما يزهدنى فى أرضِ أندلسٍ   أسماءُ معتصمٍ فيها ومعتضدِ
ألقاب مملكةٍ فى غيرِ موضعها   كالهرّ يحكى انتفاخا سورة الأسدِ

من أجل ذلك زهد ابن بسام فى الشعر ، ثم تذكر أنه قاله ، وأخذ بحظ منه ، فاعتذر لنفسه عن نفسه : « بأنه إذا شعشعت راحه لم أذقه إلا شميًا ، ولا كنت على الحديث إلا نديمًا » .

وكان له من الهجاء موقف وسط ، فجعله قسمين الأول : هجو الأشراف ، « وهو ما لم يبلغ أن يكون سبابًا مقذعًا ولا هجوًا مستبشعًا ، وهو طأطأ قديمًا من الأوائل ، وثل عرش القبائل ، وإنما هو توبيخ وتعيير ، وتقديم وتأخير ، كقول النجاشى فى بنى العجلان ، وشهرة شعره تغنى عن ذكره ، واستعدوا عليه عمر بن الخطاب وأنشدوه قول النجاشى فيهم ، فدرأ الحد بالشبهات[1] » .

---

(١) يشير إلى قصة بنى العجلان ، وكيف كانوا يفخرون بهذا الاسم لقصة كانت لصاحبه فى تعجيل قرى الأضياف إلى أن هجاهم النجاشى فضجروا منه ، وسبوا به ، واستعدوا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقالوا يا أمير المؤمنين هجانا ، فقال : وما قال ؟ فأنشدوه :

إذا الله عادى أهل لؤم ورقة   فعادى بنى عجلان رهط ابن مقبل

فقال عمرو : إنما دعا عليكم ، ولعله لا يجاب ، فقالوا إنه قال :

قبيلة لا يغدرون بذمة   ولا يظلمون الناس حبة خردل

فقال عمر : ليتنى من هؤلاء ، أو قال : ليت آل الخطاب كذلك ، أو كلامًا يشبه هذا ، قالوا فإنه قال :

ولا يردون الماء إلا عشية   إذا صدر الورّاد عن كل منهل

فقال عمر : أقل للسكاك ، يعنى الزحام ، قالوا فإنه قال : =

ويمضى يعدّد قصصًا أخرى يستشهد بها على وجهة نظره . كقصة الزبرقان حين شكا الحطيئة بسبب بيته :

دع المكارمَ لا ترحل لبغيتها   واقعدْ فإنك أنتَ الطاعمُ الكاسى

ووصية عبد الملك بن مروان لأسرته : احفظوا أحسابكم يا بنى أمية ، فما أود أن يكون لى ما طلعت عليه الشمس ، وأن الأعشى قال فىّ :

تبيتون فى المشتى ملاء بطونكم   وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

وكيف أن علقمة بن علاثة ، وهو من القبيلة التى هُجيَتْ بالبيت ، بكى عندما سمعه وقال : أنحن نفعل هذا بجاراتنا ؟ ودعا على الشاعر .

أما القسم الثانى « فهو السباب » الذى أحدثه جرير وطبقته ، وكان يقول إذا هجوتم فاضحكوا . وهذا النوع منه لم يهدم قط بيتاً ، ولاعُيِّرت به قبيلة ، وهو الذى صنّا هذا المجموع عنه ، وأعفيناه أن يكون فيه شيء منه ، فإن أبا منصور الثعالبى كتب منه فى يتيمته ما شانه وسمه ، وبقى عليه إثمه » .

وهو فى ذلك يسير على نهج المدرسة العربية الجادة فى النقد ، كان أبو عمرو بن العلاء يقول : خير الهجاء ما تنشده العذراء فى خدرها فلا يقبح بمثلها . ويتفق معه فى الرأى القاضى الجرجانى صاحب كتاب « الوساطة بين المتنبى وخصومه » فيرى أن الهجو « أبلغه ما خرج مخرج التهزل والتهافت ، وما اعترض بين التصريح والتعريض ، وما قربت معانيه وسهل حفظه ، وأسرع علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس ، فأما القذف والإفحاش فسباب محض ، وليس للشاعر فيه إلا إقامة الوزن » . وكان لابن بسام نفسه مجموع من شعر الهجاء لم يصلنا لنعرف هل التزم فيه المنهج الذى طبقه فى كتابه « الذخيرة » أم أنه شاعر غيره ناقد ، وربما لم يهتم

= تعاف الكلاب الضاريات لحومهم   وتأكل من كعب بن عوف ونهشل

فقال عمر : كفى ضياعا من تأكل الكلاب لحمه . قالوا فإنه قال :

وما سمى العجلان إلا لقولهم   خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

فقال عمر : كلنا عبد وخير القوم خادمهم . فقالوا : يا أمير المؤمنين هجانا . فقال : ما أسمع ذلك . فقالوا : فاسأل حسان بن ثابت . فقال : ما هجاهم ، ولكن سلح عليهم ، وكان عمر رضى الله عنه أبصر الناس بما قال النجاشى ، ولكن أراد أن يدرأ الحد بالشبهات . فلما قال حسان ما قال سجن النجاشى وقيل حده

انظر ابن رشيق القيروانى ، العمدة فى صناعة الشعر ونقده . جـ ١ ص ٢٧ ، ٢٨ . ط أولى . طبعة أمين هنديه القاهرة ١٣٤٤هـ = ١٩٢٥م.

بالحفاظ على الكتاب لأنه غير راض عن اتجاهه فيه .

لا نوافق ابن بسام فيما ذهب إليه ، لأنّ التقعيد لشيء والتأريخ لما كان شيئان جد مختلفان ، إنهما يمثلان ما يطمح إليه الإنسان من سيرة رضية ومثل أعلى ، وما يعيشه على الأرض واقعًا ، من حياة مستقيمة طورًا ، ومعوجة أطوارًا أخرى ، وليس ثمة شك فى أن تسجيل الأمرين معًا يعيننا على تصور أوضح للعصر ومن عاشوا فيه ، وأنّ تعفف ابن بسام عن إيراد شعر الهجاء حرمنا من لون أدبى ربما كان الصدق فيه أكثر من غيره ، ولو نهج مؤرخو الأدب نهجه ، لكان أبسط نتائج هذا الاتجاه فقدان نقائض الفرزدق وجرير وهى مفتاح لفهم كثير من صراع عصرهما السياسى والقبلى .

* * *

وعرض ابن بسام لنشأة **الموشحات** وأثنى عليها ، ترجم لمن ارتقت على أيديهم ، وزها بأن الأندلس موطنها ، فهم الذين نهجوا طريقها ، ووضعوا حقيقتها ، وهى أوزان كثر استعمالهم لها فى الغزل والنسيب ، تشق على سماعها مصونات الجيوب بل القلوب .

لكنه أعرض عن ذكرها ، فلم يضمِّن كتابه على سعته وشموله بيتًا واحدًا منها ، وأوضح رأيه فى فقرة موجزة ، فقرر أن « أوزان هذه الموشحات خارجة عن غرض هذا الديوان ، إذ أن أكثرها على غير أعاريض العرب » .

هل كان الوزن وحده السبب ؟ .. لا أظن ذلك . لأن ابن بسام نفسه يقرر فى مكان آخر أن « الموشحات كانت تضم ألفاظًا عجمية وعامية » . وبدهى أن الوزن إلى جانب اللفظ ، وما يمثله الاتجاه نفسه ، لم يرضه وهو الأديب المتفنن ، والمسلم المحافظ ، إذ كانت الموشحات حتى أيامه تمثل – فيما يبدو – اتجاهًا شعبيًّا تقدميًّا ، مضادًا للاتجاه العربى المحافظ ، ومن هنا لم يفسح لها من كتابه مكانًا .

وأكاد أجزم أن الدوافع التى كانت وراء الموشحات هى التى أملت على ابن بسام تجاوزها ، وهى دوافع تتصل بالصراع الخفى بين القوى المتنافسة على أرض الأندلس ، أما الموشحات نفسها ، فقد كانت – باعتراف ابن بسام – مطربة أخاذة ، ووجود كلمات عامية أو لاتينية بها ، يمكن تجاوزه بحذفها مما يُورد فى مؤلفه ، أو بإيراد موشحات خالية منها أصلا ، وسنرى أن بعضها كذلك ، لكنه لم

يفعل ، ولم يكن الوحيد فى اتجاهه هذا ، فمعاصره ابن خاقان على الرغم من حياته غير التقية ، وعبه من مباهج عصره الحسية حتى الثمالة ، تجاهل حتى وجود الموشحات فلم يشر إليها ، مع أنه ترجم لبعض أعلامها فى كتابيه : « قلائد العقيان » ، و « مطمح الأنفس » . ومما يعزز رأيى فى أن إهمال الموشحات من مؤرخى الأدب فى القرن السادس الميلادى ، كان مقاومة نفسية لحركة سياسية أكثر منه تعصبًا عقليًّا ضد اتجاه أدبى ، أنّ عبد الواحد المراكشى ، وكان معتدلا فى آرائه ، يقول ، وكان بصدد الحديث عن عبد الملك بن زهر : « وأما الموشحات خاصة فهو الإمام المقدم فيها ، وطريقته القصوى التى يجرى كل من بعده إليها ، هو آخر المجيدين فى صناعتها ، ولولا أن العادة لم تجر بإيراد الموشحات فى الكتب المجلَّدة المخلَّدة ، لأوردت له بعض ما بقى على خاطرى من ذلك[1] » .

وموشحات ابن زهر التى ترفّع عبد الواحد عن تضمينها كتابه ، أورد لنا « المغرب فى حلى المغرب » من مؤلفات القرن السابع الهجرى ، الثالث عشر الميلادى ، جانبًا كبيرًا منها لحسن الحظ ، وهو شعر رائق جميل لا تتضمن أبياته أية كلمات عامية أو أعجمية ، وإليك واحدة منها على سبيل المثال :

أيُّها الساقى إليك المُشْتكى كم دعْوناكَ وإنْ لم تسمعِ

ونديمٍ همتُ فى غرّتِهِ
وسقانى الراحَ من راحتِهِ
كلما استيقظ من سَكْرَتِهِ

جذب الزقَّ إليه واتّكى وسقانى أربعًا فى أربعِ

غصنُ بانٍ مالَ مِن حيث استوَى
باتَ مَن يهواه مِن خوفِ النوَى
خافقَ الأحشاءِ مضعوفَ القُوَى

كلما فكَّرَ فى البيْن بكَى يالَه يبكِى لِما لَمْ يَقَعِ

أيُّها المعرِضُ عما أصفُ
تعرفُ الذنبَ ولا تعترفُ
كبدٌ حرَّى ودمعٌ يكفُ

---

(١) عبد الواحد المراكشى : المعجب ، ص ٩١ ، ٩٢ .

مِثْلُ حالى حقُّه أنْ يشتكِى كمد اليأسِ وذلَّ الطمعِ
مـا لعَيْـنِى شَقِـيَتْ بـالـنـظرِ
أنكـرتْ بعدكْ ضـوءَ القمـر
فإذا ما شئتَ فـاسمعْ خبـرى
عَشِيَتْ عيناي من طول البُكا وبكى بَعْضى على بَعْضى مَعى
قـد بـرانى فى هــواكَ الكَمَـدُ
يـا لقـومى عــذلـوا واجتهــدُوا
أنكــروا شكــوايَ ممَّــا أجــدُ
قـد نما حبُـكَ عندى وزكـا لا يـظنُ الحبُ أنِّى مُـدَّعِى[1]

وبقية موشحات ابن زهر تجرى على نهج هذه ، صادقة العاطفة ، هادئة الموسيقى ، متكاملة المعنى ، والقول بأنها جاءت على غير أعاريض العرب لا يفسر وحده الإضراب عن ذكرها ومثيلاتها .

وأخال ابن بسام فى ثنائه على الموشحات أولا ، ثم إعراضه عنها فيما بعد ، كان واقعًا تحت تأثير عاملين متناقضين يتجاذبانه ، عامل الزهو على المشرقيين فى دنيا الأدب ، بحدث أبدعه وطنه ، وعامل الخوف من تقوية اتجاه يضعف الروح العربى المتماسك ، تجاه عواصف الانقسام والفرقة والتفتت ، وكانت على أيامه تلف الأندلس من كل جانب ، فالتزم طريقاً وسطًا ، أثنى عليها وز ها بها ، وأمسك عن إيراد شىء منها !

* * *

كان ابن بسام معاصرًا للفتح بن خاقان ، صاحب « مطمح الأنفس » ، و« قلائد العقيان » وكانا يتشابهان فى وجوه كثيرة ، أبسطها أن كليهما أنفق جهداً طيباً فى التأريخ لأدباء عصره ، على خلاف بينهما فى المنهج والطريقة .

كان ابن بسام يفوق الفتح بمراحل من ناحية تحريه للتاريخ الصحيح ، منحياً جانباً علاقته الشخصية بمن يترجم له ، لا يضفى عليه ثناء لا يستحقه ، ولا يجرده من تكريم هو به خليق ، أما ابن خاقان فأقحم فى كتابه ذاتيته ، إذا رضى عن

(١) المعجب فى حلى المغرب ، جـ ١ ص ٢٧٠ وما بعدها . وانظر المراجع التى أشار إليها المحقق هناك

إنسان رفعه إلى عنان السماء مادحاً ، وإذا غضب عليه هوى به إلى الحضيض ذامًّا ، كما حدث له مع ابن باجة (الوزير أبو بكر بن الصائغ) ، صلحت بينهما العلاقة فأغرقه مدحاً ، وساءت بينهما أخيراً فجرده من كل ما كساه أولا[1] .

وسجع الذخيرة وسط مقبول ، وراءه معنى ، ويمكن أن تخرج منه بشىء ، أما أسلوب الفتح فموغل فيها ، أجوف رنان ، يلعب بالألفاظ والاستعارات لعب البهلوان ، لا تعوزه الأخيلة البعيدة المطارح ، والصياغة الفنية ، والعبارات الجزلة الرنانة ، ذات الإيقاع الجميل .

وقد عقد المستشرق الهولندى رينهارت دوزى مقارنة بين الرجلين وانتهى إلى أنه لا مجال للمقارنة بين الكتابين ، فالذخيرة يتحدث عن نفسه ، بما تضمه مادته من فائدة حقيقية ، فهو يحوى - إلى جانب الفقرات القيمة التى نقلها من كتابات ابن حيان - قدراً عظيماً من المعلومات الجديدة الهامة عن حضارة الأندلس وتاريخ أدبه ، فى حين أن كتاب ابن خاقان أقل نفعاً فى هذا الباب ، وإن كان يحوى فوائد كثيرة على عكس ما يذهب إليه بعض الباحثين .

ومن حيث الأسلوب يستخدم كلا الكتابين السجع ، وإذا حكمنا عليهما فى ضوء قواعد البلاغة ، والذوق الأدبى للعرب ، ولهم كُتِبَا ، فإن السبق - فى رأى دوزى - يكون لابن خاقان .

ذلك أن ابن خاقان لا تعوزه الأخيلة البعيدة المطارح ، أو الصياغة اللفظية الفنية ، أو العبارة الجزلة الرنانة ذات الإيقاع الجميل . أما ابن بسام فنلحظ أنه يعانى بعض العسر والفقر فى هذا الجانب ، وابن خاقان أقرب منه إلى صفاء وأناقة الجملة العربية ، ولهذا كان كلامه أقرب من كلام صاحبه إلى نفوس معاصريهما . بيد أن هناك ناحية على أعظم جانب من الأهمية سبق فيها ابنُ بسام على نحو لا يمارى ، هى تفوقه فى سعة الاطلاع والثقافة الأدبية . وفى الواقع كان ابن بسام على حظ من علم لم يبلغ مداه غير القلائل . تمثل تاريخ العرب القديم وحفظ أشعارهم وأمثالهم السائرة ، على حين لم يتعمق ابن خاقان فى هذه الناحية

---

(١) يوجد مدح ابن خاقان لابن باجة فى نفح الطيب للمقرى ، جـ ٩ ص ٢٣٦ - ٢٣٧ ، طبعة محيى الدين القاهرة ١٩٤٩ م ، ويوجد الذم فى كتابه « قلائد العقيان » ص ٣١٣ ، طبعة التقدم ، القاهرة ١٣٢٠ هـ .

إلا قليلا ، ومن ثم فإن القوة وجمال التعبير يعوزانه كلما وصل بالكلام إلى موقف عسير ، فيتخبط فى مهاوى الجهل أحياناً . وثقافة ابن بسام الغزيرة تجعله يقارن بكثرة بين شعر معاصريه وشعر القدامى ، ويشير إلى المواضع التى قلد فيها المتأخرون السابقين ، ويروى للقارئ طرفاً من التاريخ الذاهب إذا دعت المناسبة ، مما يجعل كتابه أعظم فائدة ، وقراءته أكثر إمتاعاً[1] . وقد أوجز أبو محمد الحجارى ، من علماء الأندلس فى القرن السادس الهجرى ، الثانى عشر الميلادى ، هذا الرأى فى كتابه « المسهب فى غرائب المغرب » فعقد مقارنة بين الرجلين وانتهى إلى أن « ابن بسام أكثر تقييدًا ، وعلمًا مفيدًا ، والفتح أقدر على البلاغة ، وكلامه أكثر تعلقًا بالأنفس »[2] .

وكان معاصرًا لابن بسام ، وحذا حذوه ، أديب مشرقى ، نشأ فى أصفهان ، ودرس فى بغداد ، وعمل فى واسط ، وعاش فى دمشق ، هو **العماد الأصفهانى** ، (أبو عبد الله محمد بن صفى الدين ت ٥٩٧ هـ = ١٢٠٠ م) ، كان على ديوان الإنشاء للسلطان نور الدين ، وتعرف بصلاح الدين وتقرب إليه وأحبه ، واشتهر بالكتابة المسجعة البليغة ، وألف « خريدة القصر وجريدة أهل العصر » ، وجعلها أقسامًا على نحو ما صنع الثعالبى فى « يتيمتِه » ، وابن بسام فى « ذخيرته » ، وإن كان الأخير قد وقفها ، فى مجملها ، على كور الأندلس وحدها ، وقد جعل العماد القسم الأول منها لشعراء العراق، والثانى لشعراء الشام ، والثالث لشعراء مصر وصقلية والقيروان والمغرب والأندلس .

كان العماد مؤتسيا بمواطنه الثعالبى ، وأقرب الظن أنه لم يقرأ الذخيرة ، فهو لا يعرض لها بين المصادر التى أخذ منها ، على الرغم من أن وفاته جاءت بعد وفاة ابن بسَّام بنحو من نصف قرن ، وأن الذخيرة وصلت المشرق فقام باختصارها مواطنٌ معاصر له على نحو ما سنعرض له فيما بعد ، ولو أنه تحدث عن شعراء أندلسيين ومغاربة تحدث عنهم ابن بسام ، وإن كان الأخير فى تراجمه لهم أطول نفسًا من العماد ، ولمَّا كان العماد الأصفهانى مؤتسيًا فى عمله بالثعالبى ، فقد وقع فى نفس التقصير الذى وقع فيه ، حين قصر كتابه على مختارات شعرية ، وأهمل

Conzalez Palencia, Angel : Historia de la Literatura Arabigo- Espanola, p. 204 (١)

(٢) عن « المغرب فى حلى المغرب » جـ ١ ص ٢٦٠ ، ط ثانية

ذكر الأحداث والوقائع التاريخية التى تمس مَنْ ترجم لهم من الأدباء ، وتوضّح حياتهم على نحو أفضل ، وهو خطأ استفاد منه ابن بسام وتجنبه ، ومن ثم كانت الخريدة كاليتيمة ، فائدتها أدبية أكثر منها تاريخية ، ولو أن الرواية عند العماد أوسع منها عند ابن بسام ، فكان وهو بالعراق يتسقط ما جريات مصر وأخبار الحركة الأدبية فيها استنادًا إلى رواية علماء أو أدباء عراقيين من بغداد أو غيرها من الحواضر العراقية ، لقيهم فى الدرس أو العمل ، فأفرد فى كتابه فصلا عن « جماعة كتبت ما نقل إلىَّ من شعرهم بالعراق » وأحيانًا يستخدم نفس الطريقة فى رواية شعر الأندلسيين ، وكان لمنصبه دخل فى ذلك ، بل كان يرتاد الأسواق والمجالس والطرق بحثًا عن طلبته .

ويلتزم العماد تكلف السجع ، كما أنه عنى بترجمة أهل جيله أو جيل أبيه وعمه ، ويخالف ابن بسام بذكر مآخذه ومصادره من مصنفات الأدباء الذين عاصرهم ، أو من شيوخه ، مصريين وعراقيين وشاميين ومغاربة وأندلسيين ، ويتحدث عن شيوخه ،ويبدو لك وأنت تقرأ كتابه أن جهده لا يعدو الجمع والنقل والتبويب ، أما ابن بسام فيفضل ترك المصادر والمآخذ ، ولا يعنى بهذه الناحية ، ويبدو لمن يتصفح كتابه أنه كثير الاعتداد بنفسه ، مبسوط الحديث عنها .

* * *

لم تكن الذخيرة كل ما ألف ابن بسام ، وإنما أفضلها بلا شك ، لأنها عرضت للأندلس كله على حين أن بقية مؤلفاته الأخرى كانت وقفًا على أشخاص معينين ، وقد حفظ لنا التاريخ أسماء بعضها ، وذهب بالمؤلفات نفسها ، وربما بأسماء لكتب أخرى لا نعرف عنها شيئًا فمن مؤلفاته :

(ا) الاعتماد على ما صح من أشعار المعتمد بن عباد[1] .

---

(١) المعتمد بن عباد أشهر من أن يعرف ، وقد أورد عنه ابن بسام معلومات ضافية فى القسم الخاص فى الذخيرة ، بالجانب الغربى من الأندلس ، وتحدث عنه الفتح بن خاقان حديثًا طويلا فى قلائد العقيان ، كذلك أورد عنه المقرى معلومات متناثرة فى كتابه « نفح الطيب » ، وعبد الواحد المراكشى فى المعجب ص ١٠١ وما بعدها وقد جمع شعره وحققه الدكتور أحمد أحمد بدوى ، والدكتور حامد عبد المجيد ، ونشر فى القاهرة ، وتناول الأدباء المحدثون حياته بالدراسة على نحو شامل ، قصة ورواية وشعرًا وبحثًا ، فكتب على أدهم « المعتمد بن عباد » ، وعنه كتب على الجارم قصته الرائعة « شاعر ملك » .

٢ - كتاب الأكليل المشتمل على ذكر عبد الجليل (ابن وهبون)[١] .

٣ - سلك الجواهر فى ترسيل ابن طاهر (محمد بن أحمد بن إسحاق بن زيد أبو عبد الرحمن)[٢] .

٤ - تحية الاختيار من أشعار ذى الوزارتين أبى بكر بن عمار[٣] .

٥ - مجموع من شعر الهجاء قاله ابن بسام نفسه ، مما لم يذعه بين الناس .

تبقى مشكلة تتصل بكتاب الذخيرة ، هل ألف ابن بسام الكتاب بنفسه أم كان إملاء منه لتلاميذه ؟ هل أكمله فى حياته وأعطاه الطابع الذى وصلنا به أم تركه فِصلا تولى من بعده إعدادها وترتيبها .

يبدو لى أن الكتاب فى صورته الأخيرة ليس من صنع الرجل ، وإن أطلق عليه فى تضاعيف كلامه اسم مؤلف ومجموع وكتاب ، فهو يبدأ فقراته بقوله : قال أبو الحسن ، أو قال ابن بسام يشير إلى نفسه ، وهى طريقة لم تكن معروفة فى عصره ، فلا نجدها مثلا عند معاصره الفتح بن خاقان ، ولا فى الكثرة الغالبة من كتب التراث التى وصلت إلينا ، والكتاب الذى يسير على هذا النهج هو « تاريخ افتتاح الأندلس » لابن القوطية ، وقد انتهى الرأى فيه إلى أنه محاضرات أملاها المؤلف على طلابه ، وقاموا هم بجمعها من بعده وصنعوا منها كتابًا . فلم لا يكون الأمر كذلك فى كتاب ابن بسام ؟ صحيح أن الكتاب غزير المادة ، وافر المعلومات ، ولم يعرف عن مؤلفه أنه احترف التدريس أو جلس إلى طلاب ، كما أن الصناعة فى أسلوبه ، والتزام السجع فى كتابته ، يومئ بأنه وليد تفكير طويل ، وتحبير مستأن ، فلم يبق غير الظن بأن الرجل ترك الكتاب فصولا معدة ، وأن غيره قام بإعدادها وأضاف إليها ما أراد .

ومن غير هذا الظن ، وأكاد أقول اليقين ، لا نستطيع فهم الفقرة التالية بصدد الحديث عن ابن زيدون : « وله - أى ابن زيدون - من رسالة حذف أبو الحسن رحمه الله هنا أكثرها ، ولم يذكر منها إلا قطرة من وابل ، أو نفثة من سحر بابل ،

(١) ترجم له عبد الواحد المراكشى فى المعجب ص ١٠٢ . والفتح فى القلائد ص ٢٥٣ ، والمقرى فى نفح الطيب ، جـ ٢ ص ١٧٩ ، طبعة محيى الدين ، وابن شاكر الكتبى فى فوات الوفيات جـ ١ ص ١٥٣ ترجمة رقم ٢٠٢ ، القاهرة ١٩٥١

(٢) انظر ترجمته فى : ابن الأبار ، الحلة السيراء ، جـ ٢ ، ص ١١٨

(٣) ترجم له عبد الواحد المراكشى فى المعجب ص ١١١ وما بعدها

وها أنا مثبتها على تواليها ، إشادة بحسن معانيها ، واستفادة من سنىّ آدابه فيها »[١] .

من المحال أن يكون ابن بسام هو الذى كتب هذا الكلام ، وإن جرت فى السجع على مذهبه ، وحاكت فى القول أسلوبه وطرائقه ، ويزيد من أهميتها أنها واردة فى كل ما لدينا من مخطوطات الكتاب . إلا أن يكون « أبو الحسن » هذا شخصاً آخر غير ابن بسام نفسه ، ويتفق معه فى الكنية ، وأحد مصادره التى ينقل عنها ، وهو احتمال لم يقم عليه دليل .

وشبيه بها فقرة أخرى جاءت أيضًا فى تضاعيف الحديث عن ابن زيدون ، ونصها : « ومما أغفل ابن بسام من نسب أبى الوليد الصحيح الأقسام ، النازح عن الأطماع والأوهام ، المصدق قول الجعفرية فيما ينص من الإلهام ، قوله .. إلخ »[٢] وهو نص واضح الدلالة فى أن كاتبه شخص آخر غير ابن بسام ، زل به قلمه فهدى إليه ، واحتمال أن يكون غير أبى الحسن هو الذى أعطى الكتاب طابعه الأخير ، أقرب إلى المعقول من القول بأن متطفلا أضاف هذه الفقرات على الكتاب ، فهذه كسابقتها واردة فى كل ما لدينا من مخطوطات ، والمخطوطة الوحيدة الخالية منها ، بها خرم فى نفس المكان ، يبدأ بهذه الفقرة ويمتد بعدها إلى صفحات .

هذان مثلان استخرجتهما من مجلد واحد ، فى قسم واحد ، مما نشر من الكتاب . ولو درسنا بقية أقسامه فى مخطوطاتها – أمر ليس فى مكنتى لعدم توافرها لدى – على نحو مستأن لوجدنا ما يعزز هذا الرأى وينتهى بنا فى الأمر إلى يقين .

نشر من الكتاب القسم الأول فى مجلدين ، والمجلد الأول من القسم الرابع ، قامت على نشره لجنة من جامعة القاهرة ، وطبعت لجنة التأليف والترجمة والنشر أول مجلداته عام ١٩٣٩م، وقد بذلت اللجنة جهداً طيبا مشكوراً فى ضبط كلماته ، وإقامة نصه ، فجاء مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا اضطراب ، لكنها أغفلت شرح ما عسرمن كلماته ، والتعريف بما غمض من أعلامه ، وتحديد ما نجهل من أمكنته ،

---

(١) الذخيرة . ق ١ م . ص ٣٤٤ .

(٢) الذخيرة . ق ١ م ١ ص ٣٧١ .

وخلا من الفهارس التفصيلية خلوًّا تامًّا ، وربما كان لها فى هذا النقص الأخير مندوحة ، لأنها بدأت العمل فى الكتاب وفى عزمها أن تنشره كله ، فآثرت ترك الفهارس إلى آخره ، ولكن مضىَ الزمن ، ولمَّا تزل أغلب أقسام الكتاب مخطوطات فى أضابير المكتبات !

وأخيرا نشر الدكتور إحسان عباس الكتاب كله فى طبعة تجارية ، وهو جهد طيب يحمد عليه ، ولكن الكتاب لما يزل فى حاجة إلى طبعة علمية محققة ، تجعل الفائدة منه ميسورة للباحثين .

* * *

نالت الذخيرة شهرة واسعة فى زمن مبكر ، فبعد كتابتها بنحو من خمسين عاماً ؛ بدأ ابن مماتى (أسعد بن مهذب) ، وقد ولد فى نفس العام الذى توفى فيه ابن بسام (٥٤٢ هـ = ١١٤٧ م) يختصرها بأمر من الوزير نور الدين ، وجعل لها عنواناً « لطائف الذخيرة وطرائف الجزيرة » .

وكان شيخ العروبة أحمد زكى باشا يملك مجلداً يضم تصويراً لمخطوطتين ، إحداهما « رايات المبرزين وغايات المميزين » لابن سعيد المغربى (أبو الحسن على بن موسى بن عبد الملك) ، والثانى مختصر الذخيرة لابن مماتى ، وفى رأى شيخ العروبة أن النسخة المصورة نقلت من أصل كان يوجد بأحد مساجد القسطنطينية داخل صندوق ، إلى جانب كتب أخرى ، بدون أن يمسها أحد ، وقد نقلت من القاهرة عندمافتح سليم الأول المدينة عام ١٥١٧م، أما المستشرق الإسبانى إميليو غرسية غومث ، وكان قد اطلع على تصوير المخطوطتين ودرسهما ، فيرى أن أصل المخطوطة لابد أن يكون موجوداً بإحدى مكتبات القسطنطينية فعلا ، لكنه يرى أن الأصل كتب فى تاريخ متأخر على فتح السلطان سليم لمصر ، وقد قام المستشرق الإسبانى بنشر الكتاب الأول مع مقدمة له وترجمة إلى الإسبانية ونشر فى مدريد عام ١٩٤٢م، أما مختصر الذخيرة فلم ير النور بعد .

كذلك توجد مخطوطة أخرى لنفس الكتاب فى مكتبة لييننجراد ، آلت إليها من مجموعة الشيخ الطنطاوى ، وهى أحدث نسخاً من مخطوطة القسطنطينية إذ يرجع

(*) قامت بتحقيقه الطالبه ... تحت إشراف د/ محمد كرم عناني رسالة ماجستير بآداب الإسكندريه ١٩٩٢م

تاريخها إلى عام (١٢٥٥ هـ - ١٨٣٩ م)[١] .

هذا وقد عُنِيَ الرُّعيني الإشبيلى ، المتوفى ٦٦٦ هـ = ١٢٦٧ م ، بوصل ما انتهت إليه الذخيرة ، فألّف كتابا كبيرا أسماه « جنى الأزاهر النضيرة ، وسنى الزواهر المنيرة ، فى صلة المطمح والذخيرة ، مما ولّدته الخواطر من المحاسن فى هذه المدة الأخيرة » وهو كتاب لمّا نعثر عليه .

ويذكر الرعينى فى برنامجه أن معاصره الخَذُوج ، يحيى بن إبراهيم ، كان يحترف النسخ ، ويعنى بالأدب ، وأنه لخّص الذخيرة فى كتاب أسماه « الخِيرة من الذخيرة » ، ولست أعرف أنه وصلنا .

---

(١) لمزيد من المعلومات عن مختصر الذخيرة انظر Carcia Comez فى :

● مقدمة كتاب « رايات المبرزين وغايات المميزين » ، ص ١ إلى ٢٧ ، طبع مدريد ١٩٤٢م

● ابن مماتى مختصر الذخيرة ، مجلة الأندلس ، المجلد الثانى ، ص ٣٢٩ - ٣٣٦ ، مدريد ١٩٣٤م

وانظر Kratchkovsky فى

● مخطوطة من « لطائف الذخيرة » لابن مماتى فى ليننجراد ، مجلة الأندلس ، المجلد الثالث ، ص ٨٩ ٩٦ مدريد ١٩١٥م

● Avec les Manuscirts Arabes. irad francaise. par M. Canard. p 160 161 Alger 1954

○ مختارات من كتاب « الذخيرة » :

إيجاز الخبر عن إمارة عليّ بن حمّود

قال أبو مروان : هو عليّ بن حمّود بن ميمون بن حمّود بن على بن عُبيد الله بن عمر بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن عليّ بن أبى طالب رضى الله عنهم .

وذكر ابن قتيبة أنّ نفراً من ولد إدريس بن عبد الله بن حسن أيام طلبه الرشيدُ فحبسه عند جعفر بن يحيى فرّوا إلى المغرب فوقعوا ببلاد أفريقية ، ثم رفضتهم آفاقها إلى طرف بلاد البربر فنكحوا إليهم وتبربروا معهم .

قال أبو الحسن : وقد بلغنى أن عقبهم إلى اليوم هنالك وقد قدّمت فيما نقلته من كتاب ابن حيّان فى أخبار الخليفة سليمان السبب الذى أوطأ لعليّ بن حمّود نَبجَها ، وأوضح له منهجها ، حتى خرج من عمائها ، وعرج إلى سمائها . ونكتب ها هنا ما نصَّه أيضاً أبو مروان من كيفية مقتله وخبره ، بقرطبة أوله وآخره ، بعد أن نبرأ من التطويل ، ونحذف إن احتجنا إلى ذلك بعض الفصول .

قال ابن حيان : بويع عليّ بن حمودّ فى باب السدَّة من قصر قرطبة يوم الاثنين لسبع بقين لمحرم سنة سبع وأربعمائة ، ثانىَ اليوم الذى أدرك فيه بثأر هشام المؤيَّد ، ولم يتخلف أحد عن بيعته ، ووصلوا إليه على طبقاتهم ، فكرم منازلهم ، وأجمل خطابهم ، وتسمَّى ليومه من الألقاب السلطانية بالناصر لدين الله : لقبٌ قد سبقه إليه بالمشرق أبو أحمد بن المتوكل العباسى ، وتبعه فيه عبد الرحمن بن محمد بهذا الأفق[1] .

---

(١) القسم الأول . المجلد الأول . ص ٧٨ و ٨٨

فصل فى ذكر الفقيه القاضى أَبى الوليد المعروف بابن الفرضى

شاعر مقلّ ، هو فى العلماء أدخل منه فى الشعراء ، ولكنه حسن النظام ، مقترن الكلام ، رحل ورُحِل إليه ، وأخذ وأُخِذَ عنه .

أخبرنى الفقيه أبو بكر ابن الفقيه الوزير أبى محمد بن العربى عن الفقيه أبى عبد الله الحميدى قال : حدثنى الفقيه أبو محمد على بن أحمد بن حزم قال : أخبرنى القاضى أبو الوليد بن الفرضى قال : تعلّقت بأستار الكعبة وسألت الله الشهادة ، ثم انحرفت وفكرت فى هذا القيل فندمت ، وهممت أن أرجع فأستقيل الله ذلك فاستحييت . فمات مقتولا رحمه الله فى الفتنة أيام دخول البرابرة قرطبة سنة أربعمائة . قال أبو محمد بن حزم : أخبرنى من رآه بين القتلى يومئذ وهو فى آخر رمق يقول : « لا يُكْلَم أحد فى سبيل الله – والله أعلم بمن يكلم فى سبيله – إلا جاء يوم القيامة وجرحه يَثْعَبُ دماً ، اللون لون الدم والريح ريح المسك » . كأنه يعيد على نفسه الحديث الوارد فى ذلك ، ثم قضى نحبه هنالك . وهذا الحديث فى الصحيح أخرجه مسلم بن الحجاج مسنداً عن النبى صلى الله عليه وسلم .

وأخبرنى الفقيه المذكور عن الحميدى قال: أنشدنى الفقيه أبو عمر بن عبد البر ، قال : أنشدنى أبو الوليد بن الفرضى شعره فى طريقه إلى المشرق فى طلب العلم ، وكان كتب بها إلى أهله ، حيث يقول :

مضتْ لى شهورٌ منذ غبتمْ ثلاثةٌ ... وما خلتنى أبقى إذا غبتمُ شهرَا
ومالى حياةٌ بعدكم أستلذُّها ... ولو كان هذا لم أكن بعده حُرَّا
سأستعتبُ الدهَر المفرّقَ بيننا وهل ... نافعى أن صرتُ أستعتبُ الدَّهرا ؟

....

والبيت الأول من هذا ينظر إلى قول أبى عبد الله بن شرف القَرَوِى :

فارقتهمْ لا لملالٍ ولا ... قِلى ولكن للخطوبِ الكبارْ
ستة أعوامٍ وما كان لى ... فى فرقة الأيام عنهم قرارْ

وقال أبو مروان ابن شماخ :

صبرتُ والبعْد أحوالٌ وذا عجبٌ   ولم أكن صابراً والبعد آميال[١]

فصل فى ذكر الأديب أبى القاسم خلف ابن فرج الإلبيرى المعروف بالسميسر

وكان باقعة عصره ، وأعجوبة دهره ، وهو صاحب مزدوجٍ كأنه حذا فيه حذوَ منصورٍ الفقيه ، وله طبع حسن ، وتصرف مستحسن فى مقطوعات الأبيات ، وخاصةً إذا هجا وقدح ، وأما إذا طوّل ومدح ، فقلّما رأيته أفلح ولا أنجح ، وقد أثبتُّ من ذلك بعض ما تخيرته له هنالك . وله مذهب استفرغ فيه مجهود شعره ، من القدح فى أهل عصره ، صنت الكتاب عن ذكره ، ألا تسمع إلى قوله :

ألا قلْ لأهلِ القيروانِ لِحاكُمْ   وأستاهُكُمْ هانت عليكم فهنْتُم
فأستاهكمْ تعطونها ولِحاكُمُ   تعَفُّونها بالحَلْق طُراً لُعِنْتُمُ

والسميسر فى هذا كما قال القائل :

عابنى من معايبٍ هى فيه   خالِدٌ فاشتفى بها من هجائى

أو كما قال الآخر :

ويأخذ عيب الناس من عيب نفسه   مُرادٌ لعمرى ما أرادَ قريبُ

لكنه ليست ضعة المرء فى نفسه بمذهبة جوهرية الأدب فى الإنسان ، وقد أومأ إلى ما كانت عليه حاله بقوله :

حسّى صحيحٌ ولكنْ   هواىَ يُوهن حسىّ
فصحّ رأى لغيرى   ولم يصح لنفسى[٢]

---

(١) القسم الأول . المجلد الثانى . ص ١٣٠ - ١٣١

(٢) المرجع السابق ص ٣٧٢ - ٣٧٣

نفح الطيّب
للمقَّرى التلمسانى

شهرته المقَّرى ، أو المقْرى . على ما سنعرف فيما بعْد ، ولقبه شهاب الدين ، وكنيته أبو العباس ، واسمه كاملا : أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبى العيّن بن محمد .

وقبل أن أعرض لحياته وعلمه ، أود أن أسترجع شيئاً من وقائع العصر الذى سبقه ومن الأحداث التى رافقته ، فالمرء ابن بيئته مهما تفرد ، ونتاج عصره سلباً وإيجاباً ، مهما سبقه مفكّراً ، أو قوم من اعوجاجه مصلحاً .

جاء المقرى مع نهاية القرن السادس عشر الميلادى ، وهى فترة تمثل مرحلة الاحتضار فى الحضارة العربية والإسلامية ، ولقد جاء فى قمتها ، إذا كان ممكنا أن تكون للاحتضار قمة ، أما بدايتها فقد سبقته بسنين عديدة ، يمكن أن نقدرها بثلاثة قرون من الزمان ، وهى مرحلة تميزت بنضوب الإبداع العربى فى مجال الفكر والأدب بمفهومه التقليدى ، لكن الإبداع الشعبى لم يتوقف أبداً . كان كأى عمل شعبى يخلط بين الدر والصدف ، ويجمع الغث إلى السمين ، ولكنه أصيل دائماً ، ومتوهج أبداً ، وصادق فى كل الحالات . بلى ، فى هذه الفترة أعطت القاهرة آخر صورة لكتاب « ألف ليلة وليلة » أحد روائع الأدب العالمى دون جدال ، ووضع المصرى ابن دنيال ، المتوفى عام ١٣١٠ م ، أسس المسرح العربى الحديث ، حين جعل خيال الظل ، وهو فن ذو أصل صينى ، يدخل القصور ، ويرتفع إلى مستوى اللهو الجليل ، ويصبح قالباً يصب فيه الأدباء أفكارهم . وبدأ أدب الملاحم والسير والحكايات الشعبية يأخذ طريقه إلى التدوين ، فى أحجام تتجاوز آلاف الصفحات فدُوّنت « ألف ليلة وليلة » و « سيرة عنترة » وقصة الظاهر بيبرس ، وسيرة الهلالية ، وحكايات أخرى كثيرة .

فى الجانب السياسى سبق مجئ المقَّرِى إلى الحياة بقرن سقوط غرناطة فى يدى الملك فرناندو والملكة إيزابيل ، ومعها سقطت دولة الإسلام فى الأندلس ، ورأى

المقّرى وهو فى العشرين من عمره ، أو قريباً منها ، جموع الأندلسيين المسلمين تتدفق نحو المغرب العربى على امتداده ، بعد أن أصدر فيليب الثالث ملك إسبانيا القرار النهائى عام ١٦١٣م بطرد المسلمين جميعاً من الأندلس ، حتى لو كانوا قد استجابوا لأوامر محاكم التفتيش واعتنقوا الكاثوليكية هرباً من التعذيب الشديد . وفى القرن نفسه حصل تطور سياسى هام ، فقد انتقل مركز الخلافة من القاهرة إلى الآستانة ، وتحول ميزان الثقل السياسى من مصر إلى تركيا ، واكتسحت دولة العثمانيين الفتية العالم الإسلامى فى سرعة خاطفة ، وأصبحت إمبراطوريتها تمتد من تلمسان حتى فارس ، ودفعت بحدودها شمالا حتى أواسط أوربا ، وامتدت جنوباً حتى قلب إفريقية ، وملكت من جزر البحر الأبيض رودس وقبرص . وكانت تقوم داخل هذه الإمبراطورية الواسعة وخارجها وحدات إدارية متعددة ، ذات استقلال ذاتى يتسع أو يضيق ، لكن الثقافة العربية ظلت ، برغم تعدد الوحدات السياسية والإدارية ، متوحدة لم تتوزع ، متماسكة لم تتفتت ، فكان العلماء والطلاب يستطيعون أن ينتقلوا من بلد إلى بلد ، وأن يلتحقوا بجامعة أو بأخرى ، دون أية عوائق مادية أو أدبية . وكان الكتاب العربى يملك من حرية الحركة حدًّا لا قيود عليه ، ولم يكن العالم أو الطالب أو الكتاب حين ينتقل من وحدة إلى أخرى يُطالب بجواز سفر ، أو بعقد عمل ، أو بتصريح دخول . ومن ثَمَّ ظلت الروافد الثقافية التى يستقى منها الناس واحدة ، أيان عاشوا من الوطن العربى ، فجاء إبداعهم متقارباً ، وتولد بينهم إحساس بالإخاء عميقاً ، وإيمان عفوى بوحدة المصير .

على امتداد هذا العالم الإسلامى الواسع ، وفى أشد لحظات العالم العربى تخلفاً قُدِّر للقاهرة أن تكون واسطة العقد ، وأن تصبح حلقة الوصل بين شرق العالم العربى وغربه ، فمنذ أشرقت شمس الإسلام على هذا الجانب من الأرض ، وبد المسلمون فى المغرب يتجهون شرقاً لأداء فريضة الحج ، أو التماساً للثقافة فى مصادرها الأصلية ، خلال القرون الأولى لدولة الإسلام ، أو إرضاء لفضول علمى لا يقنع أصحابه بما يعرفون ، بعد أن ازدهرت المراكز الثقافية فى فاس وتلمسا وبجاية وقسنطينة والقيروان ، أو تجارة ، أو رغبة فى إذاعة علمهم هناك بي الناس ، أو طلباً لذلك كله . وهكذا أصبحت القاهرة محطًّا للذاهبين إلى مكة

قدموا برًّا أوعن طريق البحر ، يتوقف بعضهم بها أياماً تقصر أو تطول ثم يرحل حاجاً ليعود إليها من جديد عابراً أو مقيماً ، وكان لازدهار المذهب المالكى فى مصر ، ووجود خيرة تلاميذ الإمام مالك فيها ، وعالمية الأزهر فيما بعد ، وخزائن الفاطميين من الكتب ، أثر كبير فى جذب الناس إليها ، وعامل إغراء لا يقاوم . وكان هناك الأزهر بما يملك من بيوت للطلاب قائمة حتى يومنا هذا ، وتعرف بالأروقة ، وتؤدى إلى صحنه مباشرة ، وفيه تعقد حلقات الدرس طوال النهار ، وطرفاً من الليل ، وإلى جانب ذلك يهيئ السكن المجانى للأستاذ والتلميذ ، ويفتح أبوابه لطالب الدرس وللقادر على التدريس ، دون أى قيد من سن أو جنسية ، ويسخو فى العطاء فيجرى عليهم من الرزق رواتب متصلة ، وفى كل رواق مكتبة عامرة . كانت هناك أروقة السودان والمغاربة والشام والأتراك واليمن وجيبوتى وماليزيا والمدينة المنورة ، ورواق الصعايدة ، أى القادمون من جنوب مصر ، ورواق آخر خاص بالمكفوفين إلى أى بلد انتموا ، وأروقة أخرى كثيرة . وشهر رواق المغاربة بأن مكتبته تضم قدراً لا بأس به من المخطوطات النادرة ، ولعلماء من المغرب والأندلس بخاصة ، أقاموا هناك أساتذة فى أواخر حياتهم ، أو طلاباً فى سنى شبابهم ، وما تزال هذه الأروقة قائمة فى معظمها حتى يومنا هذا ، ولو أن العصر تخطاها ، فأنشئت المدن الجامعية لتحل مكانها ، وقامت مدينة البعوث الإسلامية لتتسع لعشرات الآلاف من الطلاب الوافدين .

جاء إلى القاهرة من المغرب العلامة **ابن خلدون** ، فشغل كرسى التاريخ فى الجامع الأزهر ، وأصبح قاضى المالكية ، وسفير السلطان برقوق إلى تيمورلنك ، ليفاوضه فى فك الحصار الذى ضربته جحافل جيش المغول على مدينة دمشق ، وبقى فى مصر عالماً جليل القدر إلى أن توفاه الله إلى جواره .

وجاءها أبو الفضل **محمد المشدالى** ، المتوفى عام ٦٨٤ هـ = ١٤٦٠ م ، من نوابغ علماء بجاية فى القرن الخامس عشر ، فشغل كرسى الفقه المالكى فى الجامع الأزهر ، وعرض عليه أن يصبح قاضى القضاة فأبى ، وملأ الدنيا علماً ، وأثار من الإعجاب والتقدير بقدر ما أثار من النقاش والحسد .

وجاءها آخرون كثيرون ، قبلها ومن بعد ، جاءها الرحالة الشهير ابن جبير ، وآثر الإسكندرية مقرًّا ، ودفن فيها جثماناً ، واختارها مثله المؤرخ العظيم أبو بكر

الطرطوشي ، صاحب كتاب « سراج الملوك » ، **وأبو العباس المرسى** ، الصوفى الشهير ، والإمام الشاطبى ، وترك هؤلاء فى المدينة آثاراً لا تمحى ، فأضرحتهم معروفة وتزار ، وتحمل معالم المدينة وأحياؤها أسماءهم ، وليس من قبيل الصدفة أن أهل الإسكندرية ينطقون لفظ سيِّدى الذى يسبق هؤلاء الأعلام إجلالا على الطريقة المغربية فيقولون : « سِيدى » ، وأن شوارعها تحمل اسم « زنقة » على طريقة المغرب أيضاً ، وهو أمر تميزت به من بين سائر المدن المصرية .

وجاءها أيضاً **ابن سعيد المغربى** ، الشاعر والمؤرخ ، وأحد مؤلفى كتاب « المُغْرِب فى حلى المَغْرِب » ، وخص مصر بستة أجزاء من تاريخه الذى يضم خمسة عشر جزءاً . وبقى فيها الفليسوف الطبيب **أبو الصلت أمية** بن أبى الصلت عشرين عاماً ، محبوساً فى خزانة كتب ، وسمّى واحدا من مؤلفاته الرسالة المصرية ، وعاد إلى تونس بعلم وفير ، فبلغ حظًّا عالياً من الذيوع والشهرة والتقدير .

وكان المقرى موضع درسنا آخر الكبار الذين جاءوها عشية صحوة العالم العربى الحديث .

* * *

ينتسب المقّرى إلى مقرة ، وهى قرية من أعمال مقاطعة قسنطينة ، فى إقليم الزاب ، بالمغرب الأوسط ، قريباً من قلعة بنى حماد ، وقد ضبطت على وجهين ، أحدهما بفتح الميم وسكون القاف فتنطق « مَقْرَة » ، وهو اتجاه نجد له سنداً عند ابن مرزوق العالم التلمسانى ، فقد ألف كتاباً فى التعريف بجد مؤرخنا أسماه : « النوْر البدرى فى التعريف بالفقيه المقرى » والوجه الثانى بفتح الميم وتشديد القاف المفتوحة فتنطق « مَقَّرة » وهو اتجاه يدعمه صاحب اللقب نفسه ، فقد كان يردده فى أحاديثه ، ونقله عنه أصحابه ، وتلاميذه ، وهو إذا لم نعتبر هذا ضرورة شعرية ، جاء فى مقدمة كتاب « أزهار الرياض » ، فى أبيات شعرية مطلعها :

فيقول أحمد ذو القصو ... ر المقَّرِىُّ إذا انتسب

ولا يمكن أن تقرأ كلمة المقَّرى هنا إلا مشدّدة القاف ، وإلا اضطرب وزن البيت . ويبدو أن اسم المدينة كان ينطق على وجهين ، فلا ضرر ولا ضرار فى أن ينسب المرء إلى أيهما .

ينسب المقرى إلى مقرة ، ولكنه لم يرها ، ولم يعش فيها ، هاجرت أسرته إلى تلمسان من زمن بعيد ، منذ القرن السادس الهجرى ، فى ظروف لا نعرف عنها شيئاً ، وكان المقَّرى موضع حديثنا يقول عن تلمسان : « بها وُلدت أنا وأبى وجدّى وجد جدى » .

فى تلمسان غرباء مهاجرون أوقف بنو المقرى جهدهم على العلم ، وضربوا فيه بسهم وافر ، واحتلوا بين رجاله مكانا مرموقاً ، فالجد الأعلى أبو عبد الله محمد كان قاضى الجماعة فى مدينة فاس على أيام السلطان أبى عنان المرينى ، وفيها تتلمذ عليه لسان الدين بن الخطيب أديب غرناطة ومؤرخها الكبير ، وعبد الرحمن بن خلدون ، صاحب المقدمة والتاريخ ، وألف أبو عبد الله كتابى : « القواعد » و « إقامة المريدين » ، وتوفى فى منصبه هذا عام ٧٥٩ هـ = ١٣٥٩ م ، ونقل رفاته إلى تلمسان مسقط رأسه ، وظل أبو عثمان بن أحمد المقرى ، عم أبى العباس المقرى صاحب النفح ، مفتياً لتلمسان على امتداد ستين عاماً ، وخطيباً لمسجدها الأعظم مدة خمسة وأربعين عاماً ، وتوفى بعد عام ١٠١١ هـ = ١٦٠٣ م .

وقد اشتهرت أسرة المقرى بالجاه العريض ، لأنها عربية قرشية لها بين العامة مكان مرموق ، وبالثراء الواسع لأن أفرادها إلى جانب العلم كان يعملون بالتجارة بين تلمسان وسجلماسة وبلاد السودان . لكن اضطراب الأحوال السياسية ، وانعدام الأمن فى طرق المواصلات ، أصاب تجارتهم بالبوار الشديد ، وذهب بجل ثروتهم ، وحين جاء أبو العباس المقرى ، لم يكن بقى للأسرة مما كان لها غير ستر الله .

ولكننا لا نعرف شيئاً عن أبيه ، وقد أغفلت كتب التراجم الحديث عنه ، إلا إشارة عارضة وردت فى كتاب « البستان فى ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان » ، لابن مريم الشريف التلمسانى ، يفهم منها أنه كان فقيراً وصالحاً وتقيًّا ، ونعلم أيضاً أنه كان شاذلى الطريقة وقد ضن عليه التاريخ حتى بذكر وفاته ، ولم يعرض له الابن إلا نادراً ، مع أنه كان زهوًّا بذكر أقربائه ، مطنباً فى التعريف بمآثرهم ، ولا يشير إليه فى كتابه الشهير « نفح الطيب » غير مرة واحدة ، عندما تحدث عن نسبه ، ودون أن يزيد الأمر توضيحاً : أترى كان الأمر متعمداً ، لأشياء نقمها الابن من

أبيه ، أو لأنه كان عارياً من فضل يلتحف به ؟ أكاد أرجح الأولى ، لأن أبا العباس المقرى كان متواصل الثناء ، كثير الترحم على عمه سعيد .

ولُد المقرى فى تلمسان ، قريباً من نهاية القرن العاشر الهجرى تقريبا ، وقبل أعوام من نهاية القرن السادس عشر للميلاد ، وفيها تلقى تعليمه ، حفظ القرآن ، ودرس الفقه المالكى ، وتذاكر آداب العرب ، وقرأ على عمه المفتى صحيح البخارى ، وكتب الحديث الستة ، وما من شك فى أنه تردد على أساتذة كبار آخرين ، فقد كانت تلمسان حتى عصره من أهم المراكز الدينية بالمغرب ، لكن الفتى الطموح ما لبث أن استشرف آفاقاً جديدة ، فرنا ببصره إلى مدينة فاس ، أشهر المراكز العلمية قرباً من مسقط رأسه ، ولأسرته بها صلة ، فمن قبل كان جده فيها كبيراً للقضاة ، والمدينة عاصمة المغرب العلمية والدينية ، ففيها جامعة القرويين ، وبها لاذ جمع غفير من جلة علماء الأندلس المهاجرة ، منذ ثورة فقهاء الأندلس ضد الحكم الأول فى قرطبة ، فيما يعرف تاريخياً باسم « فتنة الربض » ، وبها مكتبات عامرة ، وتتمتع بشهرة عالمية مستفيضة ، ولابد أن ذلك كله شدّ إليها انتباه الفتى الذكى ، فرحل إليها للمرة الأولى فى عام ١٠٠٩ هـ = ١٦٠٠ م ، ولم يبق بها هذه المرة طويلا ، فلم تتجاوز إقامته عاماً وبعض العام ، وعاد إليها فى زيارة خاطفة بعد عامين ، ثم جاءها فى ١٠١٣ هـ ليبقى فيها أربعة عشر عاماً متوالية ، تدرج خلالها من طالب نابه إلى أستاذ متمكن ، يتولى فى سن فتية الإمامة والخطابة فى جامع القرويين الشهير ، مقر الجامعة ، وأكبر مسجد فى المدينة ، ويسكن فى دار ابن عباد الملاصقة للجامع ، وكانت مخصصة لإمامه ، ومازالت قائمة حتى يومنا ، وزرتها مراراً أثناء ترددى على مدينة فاس زائراً ، ثم تنتهى إليه الفتوى ، فيتولى منصب الإفتاء ويستمر فيه إلى أن يترك المدينة عام ١٠٢٧ هـ = ١٦١٧ م .

فى أواخر شهر رمضان من هذا العام اعتزم الرحلة إلى المشرق « تاركاً المنصب والأهل والوطن والإلف » فيما يقول ، ولم يفصح لنا عن الظروف التى دعته إلى هذه الرحلة ، واكتفى بأن يشير إليها فى إيماءات ملمحة ، نفهم منها أنه اضطر إليها كارهاً : « لما قضى الملك الذى ليس لعباده فى أحكامه تعقيب أو رد ، ولا محيد عما شاءه سواء كره ذلك المرء أو رد ، برحلتى من بلادى ، ونقلتى عن محل طارفى

وتلادى ، بقطر المغرب الأقصى الذى تمت محاسنه ، لولا أن سماسرة الفتن سامت بضائع أمنه نقصاً ، وطما به بحر الأهوال فاستعملت شعراء العبث فى كامل رونقه من الزحاف إضماراً وقطعاً ووقصاً » .

لقد تحاشى المقرى أن يتحدث عن الظروف التى أرغمته على الرحيل . وهى ظروف فيما يبدو لى كانت تتصل بالواقع السياسى لمملكة فاس يومئذ ، لقد تولى مولاى زيدان المُلْك دون أخويه المأمون وأبى فارس عام ١٠١٢ هـ، فنشبت بينهم حروب متصلة ، وتميز عهدهم بالاضطراب والفتن والدسائس ، وتعرضت فاس لهجوم البدو وعبثهم ، وكلها أحداث قاسية على العالِم ، وعلى الغريب من العلماء أشد قسوة .

سلك المقرى طريق البحر إلى مصر ، ولا يشير فيما هو منشور من آثاره إلى الثغر الذى أقلع منه ، وأكاد أتصور أنه ثغر طنجة ، إذ ليس فى إشارته ما يلمح إلى أنه عاد إلى تلمسان مرة أخرى ، وإنما يقول : « ثم جذبنا السير فى البر أياماً ، ونأينا عن الأوطان التى أطنبنا فى الحديث حبًّا لها وهياماً ، وكنا عن تفاعيل فضلها نياماً ، إلى أن ركبنا البحر » .

* * *

وصل المقرى إلى الإسكندرية فى أواخر عام ١٠٢٧ هـ ، أى بعد شهرين من بدء رحلته ، تزيد أو تنقص قليلا ، وقد عانى كثيراً من أهوال البحر ومزعجاته ، ولم تكن أمواجه الضارية وحدها مبعث الفزع ، وإنما الأخطار المحتملة من هجوم القراصنة ، فقد كان البحر الأبيض فى تلك المرحلة مسرحاً لصراع عنيف بين قرصانة ، مسلمين ومسيحيين ، وخلّف لنا وصفاً أدبيًّا شيقاً لما مر به ، يقول : « إلى أن ركبنا البحر ، وحللنا منه بين السحر والنحر ، وشاهدنا من أهواله ، وتنافى أحواله ، مالا يعبر عنه ، ولا يبلغ له كنه ، فكم استقبلنا أمواجه بوجوهٍ بواسر ، وطارت إلينا من شراعه عقبان كواسر » . ويصف الموج بأنه « يصفق لسماع أصوات الرياح فيطرب بل ويضطرب ، فكأنه من كأس الجنون يشرب أو قد شرب ، فيبتعد ويقترب ، وفرقه تلتطم وتصطفق وتختلف ولا تكاد تتفق » .

ويشير إلى الدور الذى كانت تلعبه جزيرة مالطة ، وقد اتخذها فرسان القديس يوحنا ، متحالفين مع الإسبان ، منطلقاً لمهاجمة السفن الإسلامية وتدميرها : « وقد

نبت بنا من القلق أمكنتنا ، وخرست من الفرق ألسنتنا ، وتوهمنا أنه ليس فى الوجود أغوار ولا نجود ، إلا السماء والماء ، وذلك السفين ، ومن فى قبر جوفه دفين ، مع ترقب هجوم العدو ، فى الرواح والغدو ، لاجتيازه على عدة من بلاد الحرب ، دمرّ الله سبحانه من فيها ، وأذهب بفتحها عن المسلمين الكرب ، لا سيما مالطة الملعونة ، التى يتحقق من خلص من معرتها أنه أمدّ بتأييد إلهى ومعونة ، فقد اعترضت فى لهوات البحر الشامى شجا ، وقلّ من ركبه فأفلت من كيدها ونجا » .

وبلغت الرحلة غايتها ، وأدع المقرى نفسه يصف لحظة الوصول آمناً مطمئنًّا ، بعد أن وصف لنا الرحلة خائفاً مضطرباً : « ثم وصلنا بعد خوض بحار ، يدهش فيها الفكر ويحار ، وجوْب فياف مجاهل ، يضل فيها القطا عن المناهل ، إلى مصر المحروسة ، فشُفينا برؤيتها من الأوجاع ، وشاهدنا كثيراً من محاسنها التى تعجز عن وصفها القوافى والأسجاع ، وتمثلنا فى بدائعها التى لا نستوفيها ، ما يقول ابن ناهض فيها :

شاطئُ مصر جنة … ما مثلها فى بلد
لا سيما مذ زخرفت … بنيلها المطرد
وللرياح فوقه … سوابغ من زرد
.... … إلى آخر القصيدة .

بقى المقرى فى القاهرة قريباً من عام ، وذُهل بما رأى ، برغم أنه جاءها وهي على حال من العفاء والتدهور بالغة ، فقبل ذلك بقرن ، غداة الفتح العثمانى ، نقل السلطان سليم الأول ، ودفعة واحدة ، كل الحرفيين والمهنيين والفنانين ، ورجال العلم والقانون ، ونفائس المخطوطات ، إلى الآستانة ، ليجعل عاصمة الخلافة الجديدة فى مستوى القاهرة أولا ، وليأمن المثقفين ثانياً ، فترك ذلك كله أثره فى حياة المدينة العريقة لأعوام طويلة ، ومع ذلك ، أُخذ المقرى بحركة المجتمع المصرى ، وبهرته محاسن المدينة ، وأعجب أيما إعجاب بما يمكن أن نسميه « استمرار الحياة » . رأى الناس ، برغم كل المصائب يقبلون على عملهم فى جد ، ويمارسونه فى حب ، ويكملونه فى إتقان ، تضطرب الحياة من حولهم فيخبون فيها ويضعون ، ويأخذون من صخبها بحظ وافر ، لكن طاقتهم قادرة دائماً على تمثّل الخير ، وعزل الشر ، وتجريده من قواه ، ثم يعاودون سيرتهم من جديد ، فى

هدوء منتظم ، وتدفق خلاق ، وكأن شيئاً لم يجر بالأمس .

بعدما يزيد على عام فى القاهرة تهيأ « للمهم الأعظم ، والمقصد الأكبر » ، وهو رؤية الحرمين الشريفين ، فسافر إلى الحجاز معتمراً ، وعن طريق البحر أيضاً ، وكان تأثره بالمشاهد الدينية التى زارها عميقاً بالغاً ، وبعد أن أكمل العمرة لبث هناك حتى يحل موسم الحج ، فأحرم به ، وحين أحل مما أحرم به انتوى الإقامة هناك ، فحال من دون ذلك حائل لم يفصح عنه ، ولا ألمح إليه ، ولعله أن يكون اقتصاديًّا بحتاً ، فعاد إلى مصر من جديد فى شهر محرم من عام ١٠٢٩ هـ .

* * *

ولم يكد يعود من حجه الأول حتى ارتحل لزيارة بيت المقدس ، ثالث الحرمين ، وأولى القبلتين ، وفى عودته هذه تزوج مصرية من الأسرة الوفائية ، وهى من أعرق أسر القاهرة محتداً ، بمقاييس ذلك العصر وكل عصر ، فقد تميز البيت الوفائى بالكرم والعلم والتصوف ، وكانت فيهم نقابة الأشراف ، ولهم طريقة صوفية تنسب إليهم ، ومازالت الطريقة قائمة وبيتهم ممتدًّا ، وإن أصاب كليهما ما أصاب الحياة فى مصر ، وذلك يعنى أن المقرى احتل من المجتمع القاهرى مكانة علمية رفيعة فى زمن يسير ، مكانة تتيح له أن يصهر فى بيت مجيد ، وهو رجل غريب لامال ولا جاه .

اتخذ المقرى من القاهرة منطلقاً لما حولها. فكرر الرحلة إلى الحجاز ، وحج واعتمر مرات تبلغ الخمس ، وجاور فى مكة ، ودرس فى الحرم المكى ، وتوقف فى المدينة المنورة وأملى فى الروضة النبوية بعض دروسه فى الحديث ، قريباً من مقام الرسول عليه الصلاة والسلام ، أو بمرأى منه ومسمع على حدّ تعبيره ، وفى القاهرة اتخذ مكانه فى الأزهر أستاذاً مرموقاً ، يقول : « ثم أبت إلى مصر مفوضاً لله جميع الأمور ، ملازماً خدمة العلم الشريف بالأزهر المعمور » :

كان طموح المقرى العالم كبيراً ، فعاد إلى بيت المقدس ثانية ، فى رجب من عام ١٠٣٧ هـ = ١٦٢٧ م ، وأقام فيه قريباً من خمسة وعشرين يوماً ، ألقى خلالها عدة دروس بالمسجد الأقصى ، وزار مقام الخليل ، ومهابط الأنبياء ، وفى بيت المقدس فكّر أن يزور دمشق ، « حيث المشاهد المكرمة ، والمعاهد المحترمة ، والغوطة الغناء والحديقة ، والمكارم التى يبارى فيها المرء شائنه وصديقه » .

دخل المقرى دمشق فى أوائل شعبان ، فأنزلته المغاربة فى مكان لا يليق به . على تعبير مؤلف كتاب « خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر » ، فأرسل إليه أحمد شاهين مفتاح المدرسة الجقمقية فاستقر بها ، واتصل بكثير من أدباء المدينة وأعيانها ، وربطته صلة ود بالشيخ عبد الرحمن عماد الدين مفتى المدينة ، وكان قد تعرف عليه بمكة أيام الحج ، ووثق صلته بأحمد شاهين من الأعيان الأدباء ، ووجد من الجميع احتراماً وإجلالا بالغين ، وأقام فى دمشق دون الأربعين يوماً ، تعرف خلالها على المدينة وما حولها ، واستهوته مناظرها الطبيعية ، فردته إلى ما فى وطنه ، وذكرته بما كان عليه الأندلس ، وأثارت فى نفسه ذكريات عزيزة ، وأشجاناً آسية ، فأطنب فى وصف ما رأى من حدائق ، وأشاد بما طوقه الناس من جمائل ، وكان امتنانه العلمى فوق ذلك وأبلغ منه .

كان حديثه مع الناس عن الأندلس ، تاريخه ورجاله ، مأساته وضياعه ، مطنباً مستفيضاً ، ومؤثراً مثيراً . وكان كلامه عن آخر شعلة توهجت فيه ، وزيره وشاعره ومؤرخه لسان الدين بن الخطيب ، متدفقاً لا ينقطع ، طليًّا لا يسئم ، يسرد من شعره ونثره ما توحى به المناسبة وتقتضيه ، وتميل إليه الطباع وترتضيه ، وأراد أن يكتب لهم ما قص عنه وتحدث به ، فاقترح عليه أحمد الشاهينى أن يتصدى للتعريف بلسان الدين فى مصنف يعرب عن بعض أحواله وأنبائه ، وبدائعه وصناعته ووقائعه ، مع ملوك عصره وعلمائه ، فأجاب تواضعاً منه بأن الغرض غير سهل من جهات عديدة ، أولها - وأترك الكلام له - « قصورى عن تحمل تلك الأعباء الشديدة ، إذ لا يوفى بهذا الغرض إلا الماهر بطرق المعارف السديدة ، وثانيها عدم تيسر الكتب المستعان بها على المرام لأنى خلفتها بالمغرب وأكثرها فى المشرق كعنقاء مغرب ، وثالثها شغل الخاطر بأشجان الغربة ، الجالبة للفكر غاية الكربة » وشدّد الناس عليه فى الطلب ، وألحوا فى التنفيذ ، فوعدهم بالشروع فى المطلب عند الوصول إلى القاهرة المصرية .

رحل المقرى عن دمشق فى الخامس من شوال ١٠٣٧ هـ ، وتوجه إلى مصر ، وفى القاهرة عكف على ترتيب مادته ، وجمع شوارد أفكاره ، ليفى بما وعد به أهل الشام من تأليف كتاب عن لسان الدين بن الخطيب . لكن أموره لم تجر على نحو ما أحب ، فوقف به مركب العزم عن إتمامه ، واختلفت عليه أحوال الدهر نفعاً

ودفعا ، ومنحاً ومنعاً ، فيما يقول عن نفسه ، وألمت بأفكاره ساهراً يكتب أموراً ما خطرت له على بال . ولم يتحدث عن معوقاته فى هذه الفترة ، كما أن معلوماتنا عن حياته اليومية فى القاهرة تكاد تكون معدومة ، ولكنى فيما درست من حال الرجل أردها إلى أمرين ، تحدث عن واحد منهما تلميحاً ، وتصريحاً ، وأطبق صامتاً على الآخر فلم يشر إليه من قريب أو بعيد .

أما أول السببين ، فإن التشابه بين طبيعة الشام وبلده حرّكت فى نفسه حنيناً جارفاً إلى وطنه ، فبدأ يستشعر الغربة بعنف ، ويراها ثقلا معوقاً ، يقول وسط صفحات طوال حبّرها عن جنان الشام واصفاً ، وعن أهله ممتنا : « وليت شعرى علام يحسد من أبدل الاغتراب شارته ، وأضعف الاضطراب إشارته ، وأنهل بالدموع أنواءه ، وقلّل أضواءه ، وكثّر علله وأدواءه ، وغير عند التأمل رواءه ، وثنى عن المأمول عنانه ، وأرهف بالخمول سنانه » :

وثانى الأمرين أن الرجل لم يكن موفقاً فى حياته الزوجية ، لكنه لم يرد وهو العالم الأديب ذو الخلق الأريب ، أن يجعل من حياته الخاصة مادة للقصص أو السمر ، فصانها عن المشاركة ، ونأى بها عن اللجج ، وطوى نفسه على صبر جميل ، أمسك زوجه بمعروف ، فلما استحالت معها الحياة سرّحها بإحسان ، ووضع الطلاق حداً لحياته المشتركة ، ومن كانت هذه حاله لا يهدأ له بال .

غير أن إلحاح صديقه أحمد شاهين لم يتوقف ، فكاتبه يستنجزه ما وعد ، فعاد المقرى يتم ما بدأ ، ولعل ذلك كان منه بعد انفصاله عن زوجه ، واستطاع أن يتم كتابه عن ابن الخطيب فى صورته الأولى خلال بضعة أشهر ، وسماه : « عرف الطيب ، فى التعريف بالوزير ابن الخطيب » : تناول فيه حياة ابن الخطيب وصفاته وثقافته ومآثره ، وجانباً من نظمه ونثره . ثم راجعه مرة أخرى بعد أن خلص لنفسه وعلمه ، فأراد أن يضع له ما يكون كالمقدمة ، يأتى فيها على ذكر الأندلس ، تاريخه وأحداثه ورجاله ، ومدنه والوافدين إليه ، والراحلين عنه ، وما تميّز به وأثر عنه ، واستغرقت كتابة المقدمة زمناً أطول مما استغرقته كتابه الأصل . فأتمها فى عام وبضعة أشهر ، واستطالت حتى ضارعت ما أريد لها أن تكون مقدمة له ، حينئذ فكر المقرى ، فى أن يختار عنواناً جديداً يكون مطابقاً لمحتوى الكتاب ، فكان هذا الذى انتهى إلينا : « نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر

وزيرها لسان الدين بن الخطيب » . وكان انتهاؤه منه ، كما تشير إليه خاتمة الكتاب ، فى آخر ذى الحجة عام ١٠٣٩ هـ = أغسطس ١٦٣٠ م ، وكان المقرى يزمع أن يحمل مؤلفه عائداً به إلى دمشق ، ليطلع أصدقاءه ومن رغبوه فى تأليفه عليه ، ولكن صحته اعتلت ، ومالبث أن وافاه الأجل المحتوم فى جمادى الآخرة عام ١٠٤١ هـ = ١٦٣٢ م ، ودفن فى قرافة المجاورين قريباً من الجامع الأزهر ، إلى جانب صفوة من علماء الأرض جاءوا القاهرة ، زائرين أو دارسين ، رحالة أو مدرسين ، آخى بينهم العلم ، ووحد بينهم الدين ، وجمعت بينهم القاهرة .

ألف المقرى كتباً كثيرة ، بعضها ذو أهمية كبرى ، مثل كتاب « أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض » ، وكتبه حين كان بفاس استجابة لطلب جماعة من تلمسان رغبوا إليه أن يؤلف لهم كتاباً فى حياة عياض بن موسى ، وهو عالم جليل ، ومحدِّث حافظ ، ولد فى سبتة ، وعاش فى غرناطة ، وتوفى فى مراكش (عام ٥٤٤ هـ = ١١٤٩ م) وجاء شاملا للحياة العلمية فى المغرب ، وترجم لكثير من علمائه ، وعرض لبعض أحداث الأندلس الأخيرة التى صاحبت أو تلت سقوط مملكة غرناطة ، وهو صنو كتاب « نفح الطيب » ، أهمية مادة ، وجلال قدر . وقد طبع الجزء الأول من « أزهار الرياض » ، فى المطبعة الرسمية العربية بتونس سنة ١٣٢٢ هـ = ١٩٠٤ م . وقامت بطبعه إذ ذاك الشركة التونسية لطبع الكتب العربية ، التى لم تعمر طويلا . « وهذه الطبعة محرفة تحريفاً مخجلا ، وخالية من التعاليق ، وليس فيها مقدمة تعطينا فكرة عن المخطوطات المعتمدة ، وعن كيفية التحقيق »[١] . ومن بعد قام على تحقيقه فى القاهرة الأستاذ إبراهيم الإبيارى وآخرون ، لحساب بيت المغرب العربى فى القاهرة ، وكان المركز الذى يوجه منه زعماء المغرب حركات التحرير فى بلادهم ، سياسية وثقافية ، وجاء تحقيقهم دقيقاً وافياً ، يمتاز بالتعاليق القيمة ، والفهارس المرشدة ، وصدرت منه ثلاثة أجزاء فى القاهرة أعوام ١٩٣٩ م ، و ١٩٤٠م، و ١٩٤٢ م . وظلت بقيته ، وعثر على مخطوطتها فى المغرب تنتظر من يقوم على تحقيقها ونشرها .

وكتاب « روضة الآس ، العاطر الأنفاس فى ذكر من لقيته من أعلام مراكش وفاس » ، وفيه ترجم لعدد من علماء المغرب لقيهم أو تلقى عنهم ، أو عاشوا على

(١) الحبيب الجنحانى : المقرى صاحب نفح الطيب ، ص ٨٣ . تونس ١٣٧٤ هـ = ١٩٥٥ م

أيامه ، وقد توقف الحبيب الجنحانى فيما يتصل بوجود مخطوطة الكتاب »[١] ، وأسف محمد عبد الغنى حسن[٢] لأنها فقدت ، والحق أن المخطوطة موجودة ، وعثر عليها ، وقام عبد الوهاب بن منصور مؤرخ المملكة المغربية بنشر الكتاب فى الرباط .

وله مؤلفات أخرى محدودة الأهمية ، أو قليلة النفع والفائدة فى التصوف ، أو التوحيد ، أو النحو ، وغيرها .

أما الكتاب الجليل الفائدة ، والذى دخل به ومعه التاريخ ، فهو كتاب « نفح الطيب » ، وهو موضع حديثنا على التفصيل .

***

كان كتاب « النفح » آخر ما ألف المقرى من الكتب فيما أرى ، وعلى نحو ما أشرنا من قبل ، فقد توفى بعد إتمامه بقليل . والكتاب ينقسم إلى قسمين كبيرين ، خص أولهما للتعريف بالأندلس ، تاريخاً وطبيعة وجغرافية ، بشراً وأرضاً ومدناً ، وكسره على ثمانية أبواب :

الباب الأول : فى وصف جزيرة الأندلس ، ومناخها ، وبلدانها .
والباب الثانى : فى فتح العرب جزيرة الأندلس .
والباب الثالث : فى عز الإسلام بالأندلس .
والباب الرابع : فى ذكر قرطبة ، وجامعها الأموى ، وصورها البديعة الصنعة ، وحدائقها وأرباضها .
والباب الخامس : فى التعريف ببعض من رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق .
والباب السادس : فى ذكر الوافدين على الأندلس من أهل المشرق .
والباب السابع : فى فضائل الأندلس .
والباب الثامن : عرض فيه لتعاون الأوربيين على اغتصاب الأندلس ، وتخاذل المسلمين عن معاونة أهليه .

---

(١) المصدر السابق ، صفحة ٩٦ .

(٢) محمد عبد اللغنى حسن : المقرى صاحب نفح الطيب ، ص ١٨١ ، القاهرة ١٩٦٦ .

وخص القسم الثانى للتعريف بابن الخطيب ، موطنه وأسرته ، صباه وشبابه ، شيوخه وأساتذته ، خطاه نحو المجد وتوهجه ، محنه وأحداثه حتى وفاته ، وأورد جانباً كبيراً من رسائله ونظمه وشعره ، وأحصى مؤلفاته وتتبع تلاميذه وأولاده ووصاياه . وكسر هذا القسم على ثمانية أبواب أيضاً .

الباب الأول : فى ذكر أولية لسان الدين بن الخطيب .
الباب الثانى : فى ذكر نشأته وترقيه ووزراته ، وسعادته وشقائه .
الباب الثالث : فى ذكر شيوخه .
الباب الرابع : فى مخاطبات الملوك والأكابر له .
الباب الخامس : فى إيراد جملة من نثره وأزجاله وموشحاته .
الباب السادس : فى مصنفاته .
الباب السابع : فى ذكر بعض تلاميذه .
الباب الثامن : فى ذكر أولاده .

* * *

شغل الكتاب بتقسيم المؤلف نفسه أربعة مجلدات ضخام ، يجرى فيها المقرى على قاعدة الاستطراد ، حسب ما تسوقه إليه شجون الكلام والرواية ، ينتقل من التاريخ إلى الشعر ، ومن الرسائل إلى الفقه ، ويترجم لطبيب بجوار محدث ، ولأمير بجانب آخر من غمار الناس ، يعلق أحياناً ، ويوازن أحياناً أخرى ، وينثر ذكرياته دائماً ، ولا يلتزم نهجاً معيناً فى النقل ، قد يأتى برسالة على كاملها مهما طالت ، كرسالة الشقندى فى مفاخرته بأهل الأندلس مثلا ، وقد يبترها حتى ولو كانت فى الأصل سطوراً مختصرة ، وقد يكرر القصة والرواية فى أكثر من موضع ، فيضطرب به النقل ، وتتدافع الأخبار فيما بينها ، ذلك أن الرجل لم يكن فى الكتاب مؤرخاً ولا ناقداً ولا محققاً ، ولا زعم لنفسه ذلك ، فكان يورد الأخبار كما سمعها أو قرأها فإذا كان بوسعه أن يضيف إليها شيئاً من ذاته أو علمه مقوماً أو مصححاً أو معلقاً فعل ، وإلا جاء بها على عهدة أصحابها دون تمحيص . وبرغم ذلك فإن شخصيته لم تختف من الكتاب ، وإنما نجدها وراء كل سطر فيه ، وتحس وأنت تقرأ ما كتب أو نقل بدفء الروح الذى يكتب به عن الأندلس ، معجباً بحضارته ، وآسيا لفقده ، ودامع القلب دائماً لما أصاب المسلمين فيه .

كان المقرى فى كتاب « نفح الطيب » **ناقلاً ومصنفاً** ، وندين له اليوم بنصوص بالغة الأهمية ضاعت أصولها وبقى لنا منها ما دوّن هو فحسب ، ويضم « النفح » إشارات إلى مئات من الكتب أفاد منها المؤلف ، ونقل عنها ، ولا نعرف لها اليوم وجوداً غير ما نقل ، ونستطيع أن نقدر أية كارثة أصابت الثقافة العربية بعامة ، والأندلسية بخاصة حين نعرف ضياع هذا القدر الهائل من المؤلفات فى فترة من الزمن لا تتجاوز الثلثمائة عام . وأن نتصور ماذا كان يمكن أن يصبح عليه حال الدراسات الأندلسية ، نقصاً وعقماً وتشويهاً ، لو لم يقدر لها أن يؤلف فيها المقرى هذا الكتاب .

* * *

كان العلماء والأدباء ، فى عصر المقرى وما سبقه ، يدورون حول أنفسهم اختاروا الدعة ، وقعدوا عن المخاطرة ، وآثروا السلامة ، فأعرضوا ، أو عجزوا ، عن الإبداع ، وأوقفوا همهم على كتاب يختصرونه ، أو مختصر يشرحونه ، أو شرح يعلقون عليه ، والشرح والتعليق مفيد ، أما الاختصار فجناية على العلم وعلى منهج المؤلف ، وعلى طابع العصر الذى ألف فيه الكتاب ، حتى حين يضيف إليه المختصر مُوضحاً ، أو مستطرداً ، أو مكمِّلا . وقد كانت شهرة نفح الطيب واسعة ، واهتمام الناس به كبيراً ، فشرق وغربٍ فى زمن يسير ، وبدأ العلماء يعكفون عليه مختصرين ومرتبين ، ونعرف عدداً من هذه المختصرات .

اختصره أبو الحجاج يوسف بكر محمد ، الشهير بابن الوكيل الميلوى ، وسمى مختصره : « تغريد العندليب على غصن الأندلس الرطيب » ، ورتبه على ثمانية أبواب وخاتمة . عرّف فيها بالمقرى ، وأضاف إلى الكتاب بعض الفوائد مما وقف عليه فى بعض الكتب ، وخصوصاً ماله تعلق بالمغرب الأقصى ، وألفه استجابة لرغبة حسين أفندى ابن إبراهيم ، من أشراف مصر ، وفرغ من تحريره يوم الأحد المبارك سادس شهر ذى القعدة الحرام سنة ١١١٤ هـ (١٧٠٢ م) ، ويقع فى مجلد ضخم ، ويملك الأستاذ محمد الهادى المنونى نسخة منه .

واختصره أبو الحسن على بن أحمد **الحريشى** الفاسى نزيل المدينة المنورة ، المتوفى سنة ١١٤٥ هـ = ١٧٣٢ م ، ويقع هذا المختصر فى مجلد ، ويوجد بالخزينة الزيدانية فى مكناس .

واختصره أبو العباس أحمد بن محمد **الرهونى التطوانى** ، وأسمى مختصره « اللؤلؤ المصيب من نفح الطيب » ، وطبع الجزء الأول منه فى تطوان عام ١٣٤٦ هـ = ١٩٢٧ م ، ولكن الطبع توقف عند هذا الجزء ، فلم تطبع بقيته .

واختصره الشيخ **أحمد دحلان** ، المتوفى سنة ١٣٠٤ هـ = ١٨٨٦ م ، ويقول العالم الجليل عبد السلام بن سودة ، صاحب كتاب « دليل مؤرخ المغرب الأقصى » ، « وقد بلغنى أنه طبع أخيراً . ولكن دون أن يشير إلى تاريخ الطبع أو مكانه »[1] .

واختصره الشيخ أحمد الجزائرى ، وتوجد نسخة من مخطوطته فى المتحف البريطانى أشار إليها جرجى زيدان ، فى الجزء الثالث من كتابه تاريخ آداب اللغة العربية .

* * *

اختار المقرى القاهرة مقاماً ، وفيها لقى ربه ، وبين ترابها ثوى جثمانه ، ما بقيت الأرض ومن عليها . وكانت القاهرة من جانبها حفية به ، فما إن بدأت نهضتها الحديثة ، ممثلة فى المطبعة والنشر ، حتى كان نفح الطيب من أوائل الكتب التى طبعت فى مطبعة بولاق الشهيرة ، فجاء فى أربعة أجزاء كبيرة ، وصدر عام ١٢٧٩ هـ = ١٨٦٢ م ، وقام على تصحيح هذه الطبعة الشيخ محمد بن عبد الرحمن ، المشهور بقطة العدوى ، وهى خالية من الأخطاء المطبعية ، ولكنها كثيرة التصحيف فيما يتصل بالأسماء الأندلسية والمغربية ، ولم تكن الحياة الثقافية فى تلك الأعوام المبكرة من فجر النهضة المصرية ، تعرف نشر الكتب محققة على

---

(١) المادة الخاصة بالمختصرات اعتمدت فيها على الكتاب القيم « دليل مؤرخ المغرب الأقصى » لمؤلفه : عبد السلام بن عبد القادر بن سودة المرىّ . أندلسى من أسرة عريقة ، تقطن مدينة فاس . والكتاب ، وهو فى جزئين ، مرجع لا يستغنى عنه دارس لتاريخ الأندلس والمغرب . وقد لقيت المؤلف فى داره ، رفقة صديقى الدكتور **عبد السلام الهراس** ، الأستاذ بكلية الآداب فى فاس ، خلال ترددى زائرا ، بحثاً عن المخطوطات ، استكمالا لدراسة بين يدى عن تراث ابن الخطيب ، فلقيت منه وداً وعونا ، وذكرنى شخصه وكتابه ، وما عنده من مخطوطات قيد النشر ، بعلماء الأندلس الأجلاء ، ابن الفرضى وابن بشكوال والضبى وغيرهم ، وقد تحدث عن مختصرات النفح فى كتابه « دليل مؤرخ المغرب » جـ ١ ص ٢٣١ - ٢٣٢ الطبعة الثانيه . الدار البيضاء . ١٩٦٠

الطريقة الحديثة ، ومن ثم جاءت هذه الطبعة خالية من التعاليق والهوامش والفهارس .

وطبع الكتاب فى القاهرة للمرة الثانية ، نشرته المطبعة الأزهرية عام ١٣٠٢ هـ = ١٨٨٤ م ، فى أربعة أجزاء أيضاً ، وبهامش الأجزاء الثلاثة الأولى كتاب : « مروج الذهب » للمسعودى . وبهامش الجزء الأخير كتاب : « تحفة الأحباب ، وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات ، والتراجم والبقاع المباركات » ، للإمام السخاوى .

وفى الثلاثينيات اعتزمت « دار المأمون » ، وكان يشرف عليها الدكتور أحمد رفاعى ، أن تعيد نشر الكتاب محققاً مضبوطاً ، وعهدت بضبطه والتعليق عليه إلى العالم الجليل الأستاذ أحمد يوسف نجاتى ، أستاذ الأدب العربى فى دار العلوم ، وكان مقدراً له أن يجىء فى اثنين وأربعين جزءاً ، غير أن الدار لم تستطع أن تصدر منه غير تسعة أجزاء ، صدر الجزء الأول منها عام ١٩٣٦م، فقد اختار الله لجواره صاحب الدار ، ومحقق الكتاب فتوقف العمل فيه . وتمتاز هذه الطبعة بالتصويبات والتعاليق القيمة التى كتبها الأستاذ أحمد يوسف نجاتى ، إلى جانب أنها مضبوطة بالشكل الكامل ، وبآخر كل مجلد فهارس مستوفاة ، فهى أدق ما نشر من كتاب « نفح الطيب » حتى الآن .

وفى عام ١٩٤٩ م ، قامت المكتبة التجارية بالقاهرة بإصدار طبعة جديدة وكاملة من كتاب « النفح » ، وجاءت فى عشرة أجزاء ، وعهدت بتصحيحها إلى الشيخ محمد محيى الدين ، شيخ كلية اللغة العربية إذ ذاك ، وبرغم أنها خير ما عرفت السوق الأدبية من الطبعات الكاملة ، إلا أن بينها وبين أن يقال إنها محققة علميًّا خطوات واسعة ، فهى لا تضم أية تعاليق أو هوامش ، أو فهارس أو تصويبات ، وكل ما بها تفسيرات لغوية لبعض الكلمات ، وغير ذات قيمة ، لأنها تقف عند السهل ، وتتجاوز الصعب منها . ثم توالت طبعات الكتاب خارج مصر ، نقلا عن هذه الطبعة ، يصورونها أحياناً ، وينقلون عنها أحياناً أخرى ، أوفياء للجهد الذى بُذل فيها فيحتفظون باسم المصحح والناشر، أو تجاراً بلا ذمة فيحذفون اسميهما دون حياء .

وأخيراً قام الدكتور إحسان عباس بطبع الكتاب ، ودفع به تصويباً وإخراجاً

إلى الأمام خطوات ، فاستدرك على سابقيه بعض ما أخطأوا وألحق بالكتاب فهارس منوّعة ، وبذلك جعل الفائدة منه أكثر يسراً .

وطبع الكتاب للمرة الأولى فى أوربا عام ١٨٥٥ - ١٨٦١م، ونشر فى ليدن بهولندة ، واقتصرت الطبعة الأوربية على القسم الأول من الكتاب ، وهو الخاص بتاريخ الأندلس ، وقام على نشرها أربعة من كبار المستشرقين : دوزى dozy وديجاdugat ، ورايت Wright وكريلkregl وكتب ديجا تعريفاً بصاحب الكتاب باللغة الفرنسية وجاءت هذه الطبعة فى مجلدين ، وأعطى لها الناشرون العنوان التالى : « Analectes sur .l'hostroires des d'Espagne, par Al-Makkari » وشهرت بين الباحثين باللفظ الأول من عنوانها الفرنسى Analectes فظن بعض الباحثين العرب وهماً أن الكتاب قد ترجم إلى اللغة الفرنسية ، وليس بذاك .

وتتميز الطبعة الأوربية بكثرة التعليقات والتصويبات والهوامش المفيدة ، وبفهارس كاملة للأعلام ، و الأمكنة والقوافى ، والكتب ، وضبط الأعلام والكلمات غير العادية ، وما بها من هفوات مطبعية قليلة يمكن للقارئ العادى الاستدراك عليها .

وقام المستشرق الإسبانى بشكوال جيانجوس P.Gayangos (١٨٠٩ - ١٨٩٨ م) بترجمة القسم الذى طبع فى أوربا إلى اللغة الإنجليزية ، وجاء فى مجلدين ، ونشره فى لندن عام ١٨٤٠ - ١٨٤٣ م ، واختار له هذا العنوان : « The History of Mohammedan dyasties in Spain » وله تعليقات وهوامش مفيدة للغاية على النص ، وقد أعيد أخيراً طبع هذا الكتاب ثانية بطريقة التصوير ، فى الولايات المتحدة الأمريكية .

* * *

مخطوطات الكتاب كثيرة ، فى مكتبات المشرق والمغرب ، ونص الكتاب المطبوع ينقص قليلا عن بعضها ، ومن ثم فهو فى حاجة ماسة إلى تحقيق علمى ، يقوم عليه علماء متخصصون ، وتتولى نشره هيئة قادرة ، ضبطاً لنصه ، وتيسيراً للفائدة منه ، وإسهاماً فى التقدم الحضارى لبلادنا ، وللإنسانية جمعاء .

○ مختارات من كتاب « النفح » :

أقسام الأندلس[1]

واعلم أن جزيرة الأندلس – أعادها الله للإسلام ! – مشتملة على موسطة ، وشرق ، وغرب .

فالموسطة فيها من القواعد الممصرة التى كل مدينة منها مملكة مستقلة ، لها أعمال ضخام ، وأقطار متسعة : قرطبة ، وطليطلة ، وجيان ، وغرناطة ، والمريّة ، ومالقة . فمن أعمال قرطبة : إستجةُ وبلكونة وقبرة ورندة وغافق والمدور وأسطبة ، وبيَّانة والبسانة والقصير وغيرها . ومن أعمال طليطلة ، وادى الحجارة ، وقلعة رباح ، وطلمنكة وغيرها . ومن أعمال جيان : أبدّة وبياسة وقسطلة وغيرها ، ومن أعمال غرناطة : ودای آش ، والمنكب ولوشة وغيرها . ومن أعمال المرية : أندرش وغيرها . ومن أعمال مالقة : بلّش والحامة وغيرهما ، وببلّش من الفواكه ما بمالقة ؛ وبالحامة العين الحارة على ضفة واديها .

(النفح جـ ١ ص ٣٧١ – ٣٧٢)

الحكم المستنصر والثقافة

وقال بعض المؤرخين فى حق الحكم : إنه كان حسن السيرة ، مكرماً للقادمين عليه ، جمع من الكتب مالا يحدّ ولا يوصف كثرة ونفاسة ، حتى قيل : إنها كانت أربعمائة ألف مجلد ، وأنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر فى نقلها . وكان عالماً نبيهاً ، صافى السريرة ، وسمع من قاسم بن أصبغ ، وأحمد بن دُحيم ، ومحمد بن عبد السلام الخشنى ، وزكريا بن الخطاب وأكثر عنه ، وأجاز له ثابت بن قاسم ،

---

(١) العناوين كلها من وضعى أنا . ولا صلة للمقرى بها .

وكتب عن خلق كثير سوى هؤلاء ، وكان يستجلب المصنفات من الأقاليم والنواحي ، باذلا فيها ما أمكن من الأموال ، حتى ضاقت عنها خزائنه ، وكان ذا غرام بها ، قد آثر ذلك على لذات الملوك ، فاستوسع علمه ، ودق نظره ، وجَمّت استفادته ، وكان فى المعرفة بالرجال والأخبار والأنساب أحوذيًّا نسيج وحده ، وكان ثقة فيما ينقله ، وبهذا وصفه ابن الأبار وبأضعافه ، وقال : عجباً لابن الفرضي وابن بشكوال كيف لم يذكراه وقلما يوجد كتاب من خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر فى أى فن كان ، ويكتب فيه نسب المؤلف ، ومولده ووفاته ، ويأتى من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لعنايته بهذا الشأن .

(النفح جـ ١ ص ٣٧١ - ٣٧٢)

عرس أندلسى

ولما أعرس المستعين بالله ببنت الوزير الأجل أبي بكر بن عبد العزيز ، احتفل أبوه المؤتمن فى ذلك احتفالا شهره ، وأبدع فيه إبداعاً راق من حضره وبهره ، فإنه أحضر فيه من الآلات المبتدعة ، والأدوات المخترعة ، ما بهر الألباب ، وقطع بذكائه دون معرفتها الأسباب ، واستدعى إليه جميع أعيان الأندلس ، من دان وقاص ، ومطيع وعاص ، فأتوه مسرعين ، ولبوه متبرعين ، وكان مدير تلك الآراء ومدبرها ، ومنشئ مخاطباتها ومحبرها ، الوزير الكاتب أبو الفضل ، وصدرت عنه فى ذلك الوقت كتب ظهر إعجازها وبهر اقتضابها وإيجازها ، فمن ذلك ما خاطب به صاحب المظالم أبا عبد الرحمن بن طاهر :

محلك أعزك الله فى طىّ الجوانح ثابت وإن نزحت الدار ، وعيانك فى أنحاء الضلوع باد وإن شحط المزار ، فالنفس فائزة منك بتمثل الخاطر بأوفر الحظ ، والعين نازعة إلى أن تمتّع من لقائك اللحظ ، فلا عائدة أسبغُ برداً ، ولا موهبةٌ أسوغ وردا ، من تفضلك بالخفوف إلى مأنس يتم بمشاهدتك التئامه ، ويتصل بمحاضرتك انتظامه ، ولك فضل الإجمال ، بالإمتاع من ذلك بأعظم الآمال ، وأنا أعزك الله على شرف سؤددك حاكم ، وعلى شرح سنائك حائم ، وحسبى ما تتحققه من نزاعى وتشوقى ، وتتيقنه من تطلعى وتتوقى ، وقد تمكن الارتياح باستحكام الثقة ، واعترض الانشراح بارتقاب الصلة ، وأنت وصل الله سعدك

بسماحة شيمك . وبارع كرمك ، تنشئ للمؤانسة عهداً ، وتورى بالمكارم زنداً ، وتقتضى بالمشاركة شكرًا حافلا وحمداً ، لا زلت مهنئاً بالسعود المقتبلة ، مسوغاً اجتلاء غرر الأمانى المتهللة ، بمنّه ، انتهى .

(النفح جـ ٢ ص ١٦٥ - ١٦٦)

المعتمد وشاعر وجارية

ومن نوادر الاتفاق أن جارية مشت بين يدى المعتمد ، وعليها قميص لا تكاد تفرّق بينه وبين جسمها ، وذوائبها تخفى آثار مشيها ، فسكب عليها ماء ورد كان بين يديه ، وقال :

عُلِّقتُ جائلة الوشاح غريرة ... تختال بين أسنة وبواتر

وقال لبعض الخدم : سرْ إلى أبى الوليد البطليوسى المشهور بالنحلى ، وخذه بإجازة هذا البيت ، ولا تفارقه حتى يفرغ منه ، فأجاب النحلى لأول وقوع الرقعة بين يديه :

راقت محاسنها ورق أديمها ... فتكاد تبصر باطنا من ظاهر
وتمايلت كالغصن فى دعص النقا ... تلتف فى ورق الشباب الناضر
يندى بماء الورد مسبل شعرها ... كالطل يسقط من جناح الطائر
تُزهى برونقها وعز جمالها ... زهو المؤيد بالثناء العاطر
ملك تضاءلت الملوك لقدره ... وعَنَا له صرف الزمان الجائر
وإذا لمحت جبينه ويمينه ... أبصرت بدراً فوق بحر زاخر

(النفح جـ ٤ ص ٢١٨)

شيوخ لسان الدين بن الخطيب

ومنهم الفقيه المدرك ، الأستاذ فى فن العربية : أبو على عمر بن عثمان الوانشريشى . قال لسان الدين : حضرت مذاكراته فى مسألة أعوزت عليه ، وطال عنها سؤاله ، وهى قول الشاعر :

الناس أكيسُ من أن يمدحوا رجلا   مالم يروْا عنـده آثار إحسـان

وصورة السؤال : كيف وقوع أفعل بين شيئين لا اشتراك بينهما فى الوصف ، إذ أوقع الشاعر « أكيس » بين الناس وبين أن يمدحوا ، وهو مؤول بالمصدر وهو المدح ولا يوصف بذلك ، انتهى .

قلت : الإشكال مشهور ، والجواب عنه بضرب من المجاز ظاهر ، وقد أشار إليه أبو حيان فى « الارتشاف » وجماعة آخرون فى قول بعض المؤلفين لصاحب التلخيص : « أكثر من أن تحصى » . ولولا السآمة لذكرتُ ما قيل فى ذلك ، وخلاصة ما قالوه أن فى الكلام تقديراً ، والله أعلم .

(النفح ، جـ ٧ ص ٢٧٢)

الفهرست

صفحة

صفحة

كتب أخرى للمحقق

● **امرؤ القيس : حياته وشعره**
الطبعة السادسة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٣ .

● **طوق الحمامة : فى الإلْفة والأُلَّاف لابن حزم الأندلسى .**
الطبعة الخامسة ، دار المعارف القاهرة **١٩٩٣** .

● **ملحمة السِّيد** : دراسة مقارنة .
الطبعة الرابعة، دار المعارف، ١٩٨٣ .

● **مع شعراء الأندلس والمتنبى .**
للمستشرق الإسبانى غرسية غومث، الطبعة السادسة، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٦

● بابلو نيرودا : شاعر الحب والنضال .
(نفد وتعاد طباعته الآن)

● **دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة .**
الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٣ .

● **القصة القصيرة** : دراسة ومختارات .
الطبعة السابعة ، دارالمعارف، القاهرة ١٩٩٨ .

● **الشعر العربى المعاصر** : روائعه ومدخل لقراءته .
الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٠ .

● **دراسات أندلسية** : فى الأدب والتاريخ والفلسفة .
الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٨ .

● **الفن العربى فى إسبانيا وصقلية .**
للمستشرق الألمانى فون شال، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥ .

● **الحضارة العربية فى إسبانيا .**
للمستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال، الطبعة الثانية، دار المعارف، ١٩٨٥ .

● **التربية الإسلامية فى الأندلس .**
للمستشرق الإسبانى خوليان ريبيرا ، دار المعارف، القاهرة ١٩٨١ .

● **الأخلاق والسير لابن حزم .**
تحقيق وتقديم وتعليق، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٢ .

- **الأدب المقارن**: أصوله ومناهجه، دار المعارف القاهرة ١٩٨٩م
- **فى الأدب المقارن**: دراسات نظرية وتطبيقية، الطبعه الثالثة، دار المعارف، ١٩٩٧م
- الشعر الأندلسى فى عصر الطوائف

  ترجمة كتاب المستشرق الفرنسى هنرى بيريس، دار المعارف، القاهرة ١٩٩ م
- **الشعر العربى فى إسبانيا وصقلية**، جـ١ للمستشرق الألمانى فون شاك، دار المعارف، القاهرة ١٩٩١م.
- **الأدب الأندلسى من منظور إسبانى**، دراسات لكبار المستشرقين الإسبان، مكتبة الأداب، القاهرة ١٩٩٠م
- **مناهج النقد الأدبى** (ترجمة)، ط٢، دارالمعارف، القاهرة ١٩٩٢م.
- **الرمزية**، دراسة تقويمية، ترجمة، القاهرة ١٩٩٥م
- **مقدمة فى الأدب الإسلامى المقارن**. القاهرة ١٩٩٥م

كتب تحت الطبع:

- **الحب عند دانتى وابن حزم**، دراسة مقارنة، مع ترجمة كتاب الحياة الجديدة لدانتى
- **تحفة الأنفس وشعار سكان أهل الأندلس**، رسالة فى الجهاد وظم الحرب فى الإسلام. لابن هذيل (تحقيق)
- **فن الشعر**. أو الوافى فى علم القوافى لأبى البقاء الرندى (تحقيق)

رقم الإيداع	٩٨/١٤٠٦٨
I. S. B. N الترقيم الدولى	977 - 10 - 1186- 3